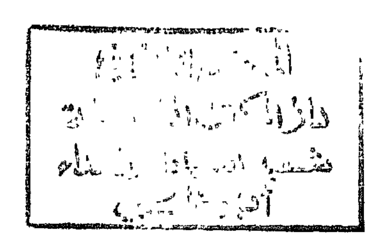


اصدارات
المجمع
الثقافي
أمجد ناصر
تحت أكثر من سماء
رحلات إلى
اليمن، لبنان، عمان، سوريا،
المغرب، وهولندا







أمجد ناصر



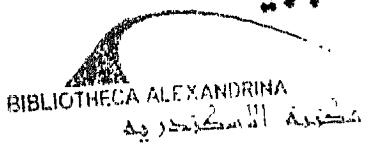
تحت أكثر من سماء

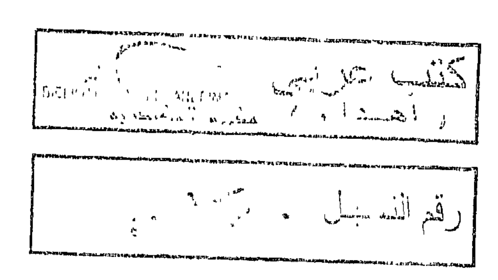
UNDER MORE THAN ONE SKY
AMJAD NASSER

TRAVEL STORIES

رحلات إلى

اليمن، لبنان، عُمان، سورية، المغرب وكندا





٨١٨,٠٣
أ م ت ح
أمجد ناصر، ١٩٥٥ –
تحت أكثر من سماء: رحلات إلى اليمن، لبنان، عمان، سورية، المغرب وكندا/أمجد ناصر .– ط ١، ٢٠٠٢.
٣٤٨ ص .
١– الرحلات (كشكل أدبي).
٢– العالم العربي – وصف ورحلات.
٣– كندا – وصف ورحلات.
أ– العنوان.



عتبة

I

تبدأ هذه الرحلات ـ الكتابات من حيث انتهى كتابي السابق « خبط الأجنحة » ولكنها تذهب، على ما أزعم، الى مدى أبعد سواء في الأمكنة أو في ما تطرحه هذه الأمكنة وشخوصها وسياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية من اسئلة، وذلك انطلاقاً من رؤية ذاتية تنحازُ وتتعاطفُ، بل وتتورطُ، في تبني السؤال وإعادة طرحه.

هاجس هذه الكتابات هو الإحتفاء بالمكان وشخوصه لا مجرد المرور بهما (حتى عندما يكون للرحلة غرض آخر) مرور الكرام.

إنها محاولة للتوقف في المكان وأمامه والإنصات الى أصواته الكبيرة والصغيرة على السواء، ويحلو لي أن أزعم أن نداءات أصواته الصغيرة، التي بالكاد تبلغ السجلات والقيود والمصنفات، هي التي تشدني اكثر من الأصوات التي يمكن سماعها من مبعدة والتي لا تسوغ، دائماً، عناء الرحلة.. ولا أقول « وعثاء السفر ».

II

أشرت في طيات هذا الكتاب إلى صعوبة عبور المكان العربي كما كان يفعل أسلافنا العابرون الكبار في جغرافيا واقعية مترامية الأطراف وأخرى متخيلة لا يحدّها حدٌّ، فنحن نعيش اليوم في عالم عربي استوت فيه الحدود على نحو قاطع وسيجت بالأختام والأعلام والأناشيد الوطنية، فالسفر في جواز عربي في المكان العربي هو كالسفر بين عوالم منفصلة ومتباعدة ترمق بعضها البعض شزراً، هذا إن لم يصل التنافر بينها إلى حدّ العداء السافر.

ولعل هذا يفسر (جزئياً على الأقل) ضآلة، إن لم أقل انعدام، كتابة الرحلة عن العالم العربي بأقلام ابنائه، قبل أن ننطلق، بأوجه محاطة بالريبة والشبهات، إلى العالم الأوسع.

ليس هذا تبريرا لكون هذه الرحلات تمت انطلاقاً من دعوات وجّهت إلى الكاتب، فمن دون هذه الدعوات ما كان ممكناً لي دخول بعض تلك البلدان، ولكنه محاولة للتساؤل، ايضاً، عن الضيق والانغلاق المتزايدين في الأمكنة العربية، وبين بعضها البعض مقابل الرحابة والإنفتاح المتزايدين بين عوالم وأمم مختلفة ومتباعدة في الجغرافيا والثقافة على السواء.

III

رغم ان هذه الرحلات الى أمكنة عربية، مشرقية ومغربية، تمت لأسباب مختلفة، فأنني أظن ان هناك ما يوحدّها ويجمع بينها. فأسئلة الأمكنة العربية اليوم السياسية والثقافية والاجتماعية متشابهة جداً تشابه خيبات أبناء هذه الأمكنة في تحقيق الحدود الدنيا من طموح في جعل أمكنتهم صالحة لحياة حرة كريمة.

ولكن هذا لا يعني ان للسياسة ثقلا كبيرا في هذه الرحلات. فالثقل الأكبر، كما سيلمس القارىء، هو للثقافي والاجتماعي والتاريخي باعتبار هذه الابعاد أكثر قدرة، من السياسة، على عكس ما هو استراتيجي.

فليست السياسة دليلاً صالحاً لمعرفة ما يعتمل في الحياة العربية من أحداث وتمخضات بينما الثقافة، بمختلف أوجهها، هي دليل أقل مراوغة.

IV

هناك إلى جانب الرحلات العربية، رحلة إلى كندا (أو الى جزء محدد من كندا) هي الأحدث زمناً لكن الحضور العربي والأسئلة العربية لم تكن بعيدة عنها.

فالعربي يحمل سؤاله (... وهو سؤال قلق ومحيّر) أنىَّ حلّ، لذلك لم أجد الرحلة الكندية عندما هممت بتنسيق هذا الكتاب غريبة عن سياقه العام، فجمعنها إليه.

وأخيراً ليست هذه المقدمة سوى انصياع لتقليد عام يتعامل مع المقدمة كعتبة للكتاب، فنحن نحار، على ما يبدو، في كيفية الدخول في كتاب لا مقدمة له.!

أمجد ناصر

لندن

خريف ٢٠٠٠



اليمن:
من ارثر رامبو الى عبد الفتاح اسماعيل..
الى الفتنة الصنعانية



ليلا كنت أصل الى اليمن في زياراتي السابقة وكانت عدن، دائما، وجهتي.

هذه المرة وصلت مع غمرات الصباح الاولى ولم تكن عدن هي التي تبزغ كوردة ترابية هائلة بعد سلسلة من الجبال ذات المدرجات، بل صنعاء.

هي صنعاء، اذن، اراها للمرة الاولى من شباك طائرة الخطوط اليمنية، التي عبرت بنا الليل بطوله من مطار غاتويك البريطاني الى مطار اورلي الفرنسي مرورا بمطار لارنكا القبرصي.

لكنني سأتوقف فقط في صنعاء لاستقل طائرة اخرى الى عدن في اطار القسم الاول من برنامج الرحلة.. ثم اعود اليها.

زرت في اطار عملي الصحافي واهتمامي الثقافي معظم العواصم العربية. مرة لتغطية حدث هنا ومرة لحضور ندوة هناك ولم تكن صنعاء بينها. لم يحدث هذا ولم اسع اليه. فما كان بي لهف خاص لرؤيتها. فقد عرفت شطرا من اليمن فظننت اني عرفته كله.

لكن هذه الرحلة التي تأتي لحضور ندوة في «بيت رامبو» العدني اشرف عليها الشاعر العراقي شوقي عبد الامير، وشاركت فيها نخبة من المثقفين الفرنسيين واليمنيين ستريني كم كنت مخطئا التقدير وكم كنت محتاجا لرؤية التبدلات التي طرأت على جنوب اليمن بعد خمسة عشر عاما من الغياب وكم اجهل يمنا اخر لا نظير له.

بين «سالمين» وعبد الفتاح

قبل نحو ثماني عشرة سنة زرت عدن للمرة الاولى، وقبل خمس عشرة سنة كانت الاخيرة.

وبين هذين الحدين اقمت شهورا عدة طالبا في «معهد الاشتراكية العلمية» الذي فررت منه قبل ان اكمل سنتي الدراسة الاولى.

في المرة الاولى جئت من بيروت في عداد وفد فلسطيني وعربي يساري لحضور الاعلان عن « حزب طليعي من طراز جديد » كانت عدن تعدنا به منذ وقت.

حدث ذلك في شهر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٧٨ وشمس عدن الدانية ترفع حرارة الاجساد والاشياء... وتُحوّلُ البحر المحيط الى حمام سباحة دافىء.. اتذكر آلان ضربة الشمس التي اصابتني.. او لعلها الحمى التي جعلتني اهذي ليومين في غرفتي بالفندق... لم يكن في عدن يومذاك على ما أظن، سوى فندق واحد هو « الهلال »... اما « الغولد مور » فلن يتم انجازه، بنوع من الزهو التنموي، الا في زيارتي الثانية.

فندق « الهلال » اكتظ بالوفود العربية والاجنبية التي جاءت لحضور ولادة « الحزب الطليعي » فيما نزل بعض رؤساء الوفود، الاعلى شأنا، في « قصر الضيافة ».

كانت اليافطات والشعارات تملأ شوارع وساحات المدينة. وحيثما وليت وجهك تجد الشعار الذي انعقد في ظله المؤتمر « لنناضل من احل الدفاع عن الثورة اليمنية وتنفيذ الخطة الخمسية وتحقيق الوحدة اليمنية ». وكانت صور عبد الفتاح اسماعيل نجم الماركسية الساطع تطالعك في كل مكان. ولكنها لم تكن صورا مؤذية للعين. ليست على غرار صور « القادة الخالدين » واهبي الحياة الشحيحة لعرب نهاية القرن العشرين. فثمة تواضع وخفر في الشخص نفسه. إلا انها، ايضا، (ولعل هذا هو المقصود منها) كانت تحل محل صورة اخرى. صورة سالم ربيع علي. فعدن كانت خارجة لتوها من خضة سياسية كبيرة (... ستظل تعرفها بمعدل كل خمس سنوات مرة) اطاحت الرئيس ذا « الجملة الثورية » و« النهج اليساري المغامر » وبعض اعوانه.

في « خورمسكر » وفي « التواهي » وفي « كريتر » و« المعلا » أبن طفت بصحبة الكاتب السوري حيدر حيدر الذي جاء معنا من بيروت رأيت مزقا من صور الرئيس السابق لا تزال متشبثة بالجدران. كان « سالمين » (وهو الاسم الدارج لسالم ربيع علي) يظهر بنصف وجه مرة وبعين واحدة مرة اخرى... او بابتسامته التي

تكشف عن اسنانه الامامية المتراكبة. كان من الصعب ازالته من الجدران تماما. ومن حديث الناس اليومي. كان ظله يحيم على البلاد. ثمة طعم مر لهذا العرس الماركسي الذي نحضره. فاعدام رئيس ليس امرا هينا. خصوصا اذا كان بشعبية «سالمين».

وفي الساحة الفلسطينية التي جئت منها احدث اعدام «سالمين» وتصفية توجهه السياسي انقساما بين التنظيمين اليساريين الكبيرين: «الجبهة الشعبية» و«الجبهة الديمقراطية». عبرت عن التضارب في الموقف تغطية مجلتي «الهدف» و«الحرية» للواقعة نفسها. فـ «الهدف» الناطقة بلسان «الجبهة الشعبية» كتبت بشيء من الاستياء والتساؤل عن جدوى تصفية الرفاق بعضهم بعضا. وهو موقف لا يعكس سوى سطح الغضب المسكوت عنه لجورج حبش ورفاقه حيال الفعلة بينما بررت «الحرية» الناطقة بلسان «الجبهة الديمقراطية» الاجراء بصفته ضربا «لـ «الخط المغامر والطفولي» الذي كان يقوده «سالمين» ويهدد مستقبل الثورة اليمنية وحركات التحرر في شبه الجزيرة العربية.

ولعل الفارق في موقف المجلتين الفلسطينيتين هو الفارق بين خطين سياسيين واتجاهين فكريين (على ارض الماركسية اللينينية نفسها) تداخلا، عميقا، في الحياة السياسية لليمن الجنوبي. فـ «الجبهة الديمقراطية» انشقت، اصلا، عن «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»)، التي انبثقت بدورها من «حركة القوميين العرب» وكذلك الامر بالنسبة للجسم الاساسي من «التنظيم السياسي الموحد للجبهة القومية» في اليمن الذي كان هو الاخر جزءا من «حركة القوميين العرب» ثم استقل عنها.

باختصار كانت «الجبهة الشعبية» اكثر ميلا الى خط «سالمين» فيما كانت «الجبهة الديمقراطية» بزعامة نايف حواتمة تدعم، دون تحفظ، خط عبد الفتاح اسماعيل.

في خلفية موقف الاولى كانت تلوح الصين وفي خلفية موقف الثانية كان

يتراءى الاتحاد السوفييتي . وكانت الغلبة في النزال السياسي والايديولوجي في نهاية المطاف، لموسكو. ومع انني كنت من اسرة تحرير «الهدف» غير ان ميلي، الوجداني كان في اتجاه عبد الفتاح اسماعيل. فهو مثّل لجيلي نموذجا للزعيم السياسي الذي له صلة عضوية بالثقافة. بالادب والادباء. فمن المآخذ التي سجلها عليه رفاقه انه كان يحتفي شخصيا بكاتب أو شاعر عربي كبير يزور عدن أكثر من احتفائه برئيس أو وزير.

فهو كان شاعرا ايضا نشر كتاباته باسم مستعار ذي دلالة يمنية خالصة: سيف ذي يزن.

وفي زيارتي الاولى، هذه، رأيته عن قرب.

لا اتذكر كثيرا مما قاله في ذلك اللقاء مع اعضاء وفدنا لانني، على ما يبدو، كنت اتمعن به شخصيا غير ملتفت الى شيء اخر.

كان يرتدي بنطالا بني اللون وقميصا سكريا (بيج) وينتعل حذاء جديدا عالي الكعب نسبيا. لا ادري لماذا تصورت انه جيء به اليه من بيروت بل وربما من محل «أولد شو» تحديدا. فقد كنت رأيت شبيها له في واجهة هذا المحل.

لعله كان، يومذاك، في مستهل اربعيناته. له وجه أليف تماما. شعره ناعم مرجّل الى الخلف اسود داكن السواد وشارباه اسودان. كان هادئا يحرك يديه ببطء. فيه شيء انثوي. آية ذلك ما كان يلوح عليه من خفر.

بعد نحو عامين من زعامته التي بدت، لوهلة، موضع اجماع، ستدور الدوائر عليه. وسيجد نفسه محاصرا من تكتل يقوده «الجناح اليميني» ممثلا بوزير دفاعه علي عنتر. وسيكون محظوظا اكثر من «سالمين» (مؤقتا، فقط) فيقدم استقالته ويغادر الى موسكو.

وسيكون على هؤلاء الذين اجبروه على الاستقالة، ان يسعوا اليه مجددا ليعيدوه من موسكو الى عدن بعد اربع سنوات من منفاه ليلاقي معهم مقتلة

عظيمة .

شريط دام هو تاريخ عدن منذ الاستقلال . مذبحة تجر مذبحة في اطار صراع بائس على السلطة في انأى بقعة عربية واضعفها اتصالا بالعصر . كان علي ان اتذكر هذا وانا اعود الى اليمن بعد خمسة عشر عاما من الغياب .

طارت رؤوس عدن الكبيرة . رجال الكفاح المسلح في « ردفان » و« الضالع » و« دثينة » و« بيحان » و« يافع » . وغيب الرفاق بعضهم بعضا . ومن ظل حيا منهم بعد دورات الدم المتعاقبة عصفت به مأساة الوحدة ومهزلة الانفصال .

***

في زيارتي الاولى الى عدن كان « الحزب الطليعي من طراز جديد » هو الهدف وليس « رامبو » . بل لعلني ما كنت اعرف شيئا عن اقامة رامبو في عدن . ولن يحدث هذا ، بمحض المصادفة ، الا عندما توجهت الى اليمن الجنوبي لانال « علومي » في « الاشتراكية العلمية » .

كنت ، ايضا ، قادما من بيروت التي تلتقط انفاسها بين حربين كاسحتين تحت مناخ سياسي وفكري يخلط بين القصيدة والبندقية . يومذاك كنت ماركسيا متحمسا يأتي الى قلعة الاشتراكية العربية كما كنت شاعرا ناشئا اصدر ديوانه الاول وترك الثاني في المطبعة .

الشاعرُ فيّ كان يمارس تمردا سريا تحت المسوح القاسي للأيديولوجيا . فالشعار المطروح ، انذاك ، كان يطلب تطابقا بين « البيان الشيوعي » والقصيدة . وكان الامر عسيرا علينا نحن الذين نرغب في تثوير الشعر مثلما نعمل على تثوير الحياة .

وفي عدن نعين علي ، لدى ملامستي كثافة الهواء ، ووقوفي تحت الحواف البركانية المطلة على المدينة ان افكر بماركس وعبد الفتاح اسماعيل وجورج حبش اكثر مما بنعين علي ان افكر برامبو .

بل ما كان رامبو سيخطر لي على بال لولا المصادفة التي ستجعلني على تماس مع حفيف وامكنة هذا « العابر الهائل بنعال من ريح ».

فمن بين ثلاثة او اربعة كتب حملتها معي من بيروت كتاب « رامبو: حياته وشعره » الذي ترجمه الشاعر السوري المقيم في العراق خليل الخوري، وصدر في بغداد عام ١٩٧٨ ووصلني بيد صديق.

كانت شظايا من السيرة الاسطورية لرامبو التي نشرت هنا وهناك في العالم العربي قد دفعت شعراء شبانا لهجر بيوتهم واجتياز الحدود الى « كومونة بيروت » اما شعره فلم يجد له متكأ مريحا في لغتنا.

البحث عن رامبو

فتنت بسيرة رامبو اكثر مما فتنت بشعره.

والامر يتعلق، دون شك، بسوء استضافته في اللغة العربية. فالكتاب الذي ترجمه خليل الخوري ضم رفات الشاعر اكثر مما ضم جسده الحي ذا الانفلاتات الصاخبة.

فقلما كان « الرائي » يطل علينا من بين دفتي هذا الكتاب ونادرا ما كان لـ « اشراقاته » الوهج المفترض لها.

ومع ذلك فالكتاب كان اول امارة على تماسي الشخصي بأمكنة رامبو في رحلة عكسية تبدأ من حيث انتهى.

فمن هذا الكتاب المزود لحسن الحظ بدراسة نقدية ضافية ومسرد نفصيلي لابرز محطات حياته عرفت انني وصلت الى عدن بعد مئة عام على وصوله اليها وكنت في الخامسة والعشرين، فيما كان هو في السادسة والعشرين. ولكن بينما كان رامبو قد هجر الشعر الى الابد بعد ان حرث ارضه بسكة من لهيب، كنت،

وسأبقى، اتلمس مواضع خطاي.

اما الامارة الثانية، فكانت لقائي، الخاطف بيوجين غيللفيك وشوقي عبد الامير على شاطىء « الغولدمور » في عدن شتاء ذلك العام.

اتذكر الشاعر الفرنسي الكبير (وكان اكثر شبابا مما هو عليه الان كما اخبرني ضاحكا في القيروان ربيع هذا العام) يجلس على حافة البحر مستغرقا في صفحة المياه عند الاصيل.

عرفت من شوقي عبد الامير الذي سرعان ما خرج من الفندق لينضم الى صديقه غيللفيك ان زيارتهما تتعلق بالبحث عن اثار رامبو في عدن. ولا اعرف ما الذي انجزاه في تلك الزيارة، غير ان الامر تكرر في العام التالي لينضم اليهما هذه المرة الشاعر سعدي يوسف الذي سمعت انه طلب من الرئيس اليمني علي ناصر محمد اطلاق اسم « رامبو » على احد شوارع عدن.

الكتاب الذي كان معي يخبرني عن اقامة طويلة لرامبو في عدن ورحلاته في القرن الافريقي. يؤكد انني مررت امام منزله في « كريتر » دون ان ادري. ما كان الامر يعنيني. كان ذلك هاجس شوقي عبد الامير يومذاك. وما كنا اصدقاء. بل لعلني اضمرت شيئا من النفور تجاه هذا الشاعر العراقي المشغول بالبحث عن آثار تاجر سلاح أو تاجر عبيد! غير ان مصادفة تماسي مع امكنة رامبو تتكرر. فبعد سنوات من اقامتي في عدن وجدت نفسي اقيم في قبرص واتحرك في الفضاء الضيق نفسه الذي تحرك فيه: جبل ترودس، لارنكا.

ولا يزال البيت الذي شارك رامبو في تشييده للحاكم العسكري البريطاني على قمة جبل ترودس قائما هناك بين احضان الغابة الصنوبرية. اما التماس الثالث، في هذه الرحلة المعكوسة مع اماكن رامبو فكان في الضواحي الغربية للندن حيث اقيم. فالقطار الذي كنت استقله للوصول الى البيت يحمل اسم محطة على الخط تدعى « ريدينغ ».

ومن خلال الكتاب الذي ظل يلازمني من بيروت فعدن فقبرص وصولا الى لندن عرفت ان رامبو اقام فترة من الوقت في ١٦٥ كنغز رود لدى السيد كاميل لي كلير، الذي كان يدير معهدا لتعليم اللغات في «ريدينغ». وهكذا صار اسم «ريدينغ» مرتبطا في ذهني برامبو. فلعله، وهذا هو الارجح، كان يستقل الخط نفسه من والى لندن.

***

في ربيع عام ١٩٨١ غادرت، على عاتقي، «المدرسة الحزبية» وعدن عائدا الى بيروت.. ولم اعد الى اليمن الا اليوم.. اي بعد نحو خمسة عشر عاما، وما اعتقدت انني سأعود اليها بسبب رامبو الذي لم يشغلني، الا بالقدر الذي شغل ابناء جيلي.

اما عدن التي تركتها في مستهل عهد علي ناصر محمد فلم ترخ من الصراعات الا هنيهة. فمجيء علي ناصر كان المخرج الوحيد لصراع الرؤوس الكبيرة في الحزب. ولكن ما ان استوى الرئيس الجديد على كرسيه حتى وجد نفسه يكرر شيئا من سيرة «سالمين» فانفرد بجميع السلطات واصبح هذا الذي اختير لانه «الاضعف» و«الاقل خطرا» بين الرؤوس الكبيرة اكبر رأس في عدن.. فكان لا بد ان تقع مذبحة «اللجنة المركزية». فسال الدم غزيرا هذه المرة وعلى نحو لم يشهده صراع الرفاق من قبل. فاختفى عبد الفتاح اسماعيل ولم يعثر له على اثر... وهرب علي ناصر محمد برجاله الى اليمن الشمالي وآل الامر الى علي سالم البيض احد اخر «القادة التاريخيين».

لكن العالم كان يتغير في صورة لم تتخيلها عدن ولم توطد النفس لمواجهتها يوما. فقد اخذ الاتحاد السوفييتي ينسحب من انتشاره الايديولوجي والسياسي حول العالم ولاح ان اعتماد عدن على هذا الحليف لم يعد ممكنا. كانت الازمة الداخلية قد اصبحت تستعصي على اي حل. وبدا ان الشمس الاشتراكية مالت

نحو الغروب. فكانت الوحدة بين شطري اليمن انقاذا لعدن نفسها من هلاكها البطيء.

لكن الوحدة التي سعى اليها البيض ورفاقه تحت تأثير التراكم التاريخي لدورات الدم والازمات الاقتصادية بصفتها الخلاص الاكيد حملت معها حربا دامية جديدة وانفصالا لم يكتب له الحياة.

وها هي عدن التي نهبط في مطارها الان قادمين من صنعاء تبدي لنا وجها مما حصل. فالقصف العنيف الذي تبادله الطرفان تلوح اثاره على المطار. الكآبة يستشعرها المرء في هواء المدينة والانكسار ملحوظ على وجوه بعض المثقفين الذين خفوا لرؤيتنا في «فندق عدن».. والاندفاعة المكتسحة للسلفية في صفوف الناس لا تحتاج الى برهان. لم تكن عدن، حتى في عز اشتراكيتها، متحررة اجتماعيا خصوصا على مستوى المرأة. كان تحرر المرأة ملحوظا في القانون وفي الخطاب اكثر مما هو ملحوظ في الشارع. ولكنك مع ذلك كنت ترى الطالبة بتنورة او بنطال والمرأة سافرة الوجه حتى وهي ترتدي الزي الشعبي. اما اليوم فان الحجاب او النقاب هما ما يطالعك في عدن. حيث يستر وجه المرأة وراء قماش اسود رهيف في الاول، او تظهر عيناها في الثاني. لا شيء يظهر من جسد المرأة حتى ما هو ابعد عن ان يكون عورة: اليد او الوجه. لا تعدم طبعا رؤية امرأة مكشوفة الوجه ولكن سافرة الرأس.. فلا.

وفي الندوة التي عقدت في «منزل رامبو» العدني بالتعاون ما بين السفارة الفرنسبة في اليمن ووزارة الثقافة اليمنية فأن المثقفات اللواتي حضرنها او ألقين كلمات فيها، كن يرتدين الجلباب الاسود ويسترن شعر رؤوسهن.. وبعضهن منقبات.

اسأل هدى العطاس وهي كاتبة شابة شاركت في الندوة حول «الغنائية في الشعر» التي اقيمت في «منزل رامبو» عن وضع المرأة «الآن».

فتقول: طبعا انه نحو الاسوأ. ولا بد انك لاحظت الفرق، فالموجة السلفية اكتسحت كل شيء. كأن عشرين سنة من الاشتراكية او ازيد لم تكن شيئا. فالمرأة انسحبت من حرية لفظية الى الهامش الذي كانت تحتله دائما. شأن المرأة اليوم شأن كل شيء اخر. اشياء كثيرة تبدلت في عدن. الم تلحظ ذلك؟

بلى، اقول لها. ولكن الاشتراكيين ضمنوا للمرأة حرية على مستوى القوانين. كان للمرأة وجود في الحزب والمؤسسة وبدا لنا نحن الذين كنا نأتي من مجتمعات «متطورة» ان عدن ستكون بؤرة إشعاع تحرري على مستوى الجزيرة العربية. الم يعد اثر من كل ذلك؟

تجيب هدى العطاس: للأسف قليل هو ما تبقى. قليل الى الحد الذي يصعب تلمسه. خطأ الاشتراكيين ان خطابهم ظل مجرد خطاب وان اجراءاتهم، على صعيد المجتمع، ظلت فوقية. اي ملحوظة في النصوص او مفروضة. ولم تكن تثويرا للاعماق. ان معظم قادة العمل النسوي الاشتراكي منضويات اليوم في الموجة السلفية!

لا اشك بكلام هدى العطاس. فما سمعته منها سمعته من غيرها وما رأيته يكفي دليلا. ولكن وجودها ككاتبة في ندوة مشتركة بين شعراء وكتاب يمنيين ومثقفين فرنسيين والقاءها كلمة حازت اعجاب المشاركين دليل على ان عدن ستظل، رغم كل شيء تحتفظ بطابعها المديني. صحيح ان هدى العطاس ترتدي الجلباب الاسود وتغطي رأسها بشال اسود لكنها تحضر بيننا كـ «كاتبة» وهو ما لن اراه في صنعاء بعد ثلاثة ايام.

ويكفي ان نقرأ مجموعتها القصصية الاولى الصادرة للتو عن فرع وزارة الثقافة في عدن لنعرف ان الامر ليس ميؤوسا منه. ان العنوان نفسه «هاجس الروح.. هاحس الجسد» يشتغل على اخطر «تابو» عربي: الجسد. لا نرى شيئا من هذا الحسد في ثنايا الكتابة ولا نقع على تسمية او تعيين لاعضائه، غير ان رغباته واشواقه تعمل تحت سطح الكلمات. المضمر والمسكوت عنه والمتواري والمغيّب

تحت القهر يحضر بالهالة والدلالة والاشعاع.

اما الشاعر اليمني شوقي شفيق الذي التقيته للمرة الاولى عام ١٩٨٠ في عدن فليس يائسا من الوضع. ويحلو لشوقي ان يصف نفسه بـ« العدني » يقول: انا ابن هذه المدينة. عدني لا اكثر ولا اقل. احب هذه المدينة ولا اغادرها ».

اسأل عن عدن بعد الوحدة فيقول: عدن هي عدن. مدينة قبل الاشتراكيين واثناء حكمهم وبعدهم. اي انه من الصعب تهشيم الطابع المديني التعددي لعدن. فهي كانت مدينة كوزموبوليتية: فيها العربي والاوروبي والهندي واليهودي والصومالي والحبشي. الناس فيها ينخرطون في العلاقات التي تميز المدن عن الريف. لا ينتسب مواطن عدن الى قبيلة بل الى الحي والى الحرفة والمصلحة.

ليس شوقي شفيق ضد الوحدة شرط ان تحفظ الطابع المديني لعدن. فهو كما قال لي لم يكن حزبيا وله على الاشتراكيين مآخذ كثيرة. منها انفصالهم الفكري عن مجتمعهم، صراعاتهم التي ادخلت البلاد في دوامات من الدم لم تنته.

ليس رأي معظم مثقفي عدن بالوحدة، على النحو الذي وقعت فيه، ايجابيا. ولكنهم لم يؤيدوا الحرب ولا الانفصال ايضا. انتقادهم لعلي سالم البيض ورفاقه مرير. ثمة شعور فاح بينهم بالخذلان.

منقف يمني (لن اسميه) قال لي: هذه ليست وحدة. انها الحاق وضم بقوة السلاح. صحيح اننا تاريخيا شعب واحد ولكننا تطورنا كل في اتجاه. لعدن، على الاقل، مميزات مدينية لا تعرفها صنعاء.

سألته: لو قيض لك ان تعمل ضد « هذه الوحدة » فهل تفعل؟

احاب: لا. اريد فقط ان اغادر هذا البلد. انني لم اعد استطيع التنفس!

وبين الذين التقيتهم على هامش ندوة « العنائية في الشعر » الدكتور علي مثنى السفير اليمني السابق في باريس. كنت قد سمعت عنه الكثبر من خلال اصدقاء مشتركين، فاهتمامه بالشأن الثقافي وعلاقاته بالمثقفين افرداه على حدة بين سائر

السفراء العرب الذين يهتمون بأي شيء وكل شيء الا الثقافة.

ويبدو ان معظم المشاريع الثقافية المشتركة مع الفرنسيين قد ارسيت قواعدها في عهده سواء عندما كان سفيرا لليمن الجنوبي قبل الوحدة ام سفير اليمن الموحدة لاحقا... ثم شملته حملة تطهير الجهاز الدبلوماسي بعد هزيمة علي سالم البيض.. ولم يلتحق الدكتور مثنى بالمعارضة اسوة بكثيرين ممن حسبوا على «مشروع الانفصال» بل عاد الى عدن.

وهو، على ما فهمت، الذي اعطى الضوء الاخضر لكثير من النشاطات الثقافية التي قام بها الشاعر شوقي عبد الامير في فرنسا لصالح اليمن عندما كان الاخير مديرا للمركز الثقافي اليمني في باريس.

علي مثنى رجل قليل الكلام، يتحلى بالدماثة التقليدية التي تميز اليمني دائما. لا يتحدث من موقع المرارة او الخذلان. وافقني الرأي عندما قلت له ان شعار الانفصال الذي طرحه البيض للعودة باليمن الجنوبي الى ما قبل الوحدة كان خطأ قاتلا.

قلت له ولكن لماذا لم تنصحوه بعدم اللجوء الى هذا الخيار؟

فأجاب: انا من جهتي تحدثت. كنت ارى الامر ضارا بنا كيمنيين فضلا عن ان كلمة «انفصال» لها وقع سيىء على الاذن اليمنية والعربية. لكن الامور تطورت، على الارض، في صورة لم نكن نتوقعها. حدث ما حدث. وعلينا الان ان نضمد الجراح وننهض ببلادنا من عثرتها. وهذا ممكن.

اسأله: وماذا أنت فاعل هنا؟

يجيب: لا شيء. جالس في البيت!

***

لم ينته «الحزب الاشتراكي» في اليمن. لكنه لم يعد ذلك «الحزب الطليعي من طراز جديد» الذي رأيناه يتلألأ كالثريا في سماء عدن قبل نحو ثماني عشرة سنة. كما انه لم يعد ذلك الحزب الذي يعد بالتحولات الكبرى. فهو اليوم بعد ما انزل بنفسه من طعنات وما تلقاه من ضربات ابان الحرب وبعدها بالكاد يلملم جسده المشظى ويبدأ من جديد. فالذين ارتضوا الوحدة مصيرا نهائيا لليمن والامر الواقع ارضا للعمل يقودون حزبا محاطا بالشكوك والريب ومحاصرا بتحريض السلفيين والمنتصرين سواء بسواء.

وما أصعب ان تكون عضوا في حزب مهزوم يتوالى خطباء المساجد على نعته بالكفر والالحاد وتخريب البلاد والعباد. فالموجة السلفية التي اكتسحت العالم العربي وصلت الى جنوب اليمن: وقودها فشل «الاشتراكية» والاحباط والفقر والتكوين المذهبي. وهي سلفية وهابية، اشد تطرفا واضيق رؤية وعبارة من نظيراتها في غير بلد عربي. سلفية مقاتلة تحمل السيف في يد وتنظيرات ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب في اليد الاخرى.

سلفية تعتدي على التقاليد والمعتقدات الدينية والثقافية الشعبية بصفتها بدعا وضلالا. فلا اضرحة ولا اولياء ولا صوفية ولا دراويش ولا وجه امرأة ولا احزاب ولا ديمقراطية ولا شعر حديث ولا سياحة... ولا قات. سلفية بدأت تضيق بها ارضها الاولى: السعودية، فطفقت تتخفف منها لمواجهة استحقاق التحديث ومجارات تطورات الشرق الاوسط.

سلفية قد تزرع بذور الطائفية في بلد لم يعرفها. فاليمن المكون من زيدية وسنة شافعية لم يعرف، من قبل، انقساما على هذا الاساس. ليس هذا من ديدن الناس ولا من طبع البلاد. لكن السلفية الوهابية التي هبت رياحها من السعودية بدأت تكون شوكتها. وهي تملك من العزم الكثير ومن المال ما هو اكثر.

غنائية في «كريتر»

لم تعد عدن على عهدي بها. فعندما غادرتها ربيع عام ١٩٨١ لم يكن «فندق عدن» موجودا. كان هناك «الغولد مور» الذي يطل على اجمل بقعة من الساحل بمضيفاته الاثيوبيات ذوات البشرة الكاكاوية الرشيقات. اللواتي كنا نأتي للتحدث معهن. فلم يكن مسموحا لليمنيات الاختلاط بـ«الاجانب» آنذاك، كذلك لم يكن ممكنا ان تشاهد وكالات لشركات غربية واسيوية واعلانات تحض على الاستهلاك. هذه المظاهر التي تنبيء عن التحولات من مفهوم للاقتصاد الى مفهوم اخر لم تعرفها المدينة في الحقبة الاشتراكية.

وباستثناء مطار عدن الذي لا تزال اثار القصف ماثلة فيه فلم المس اثرا للحرب. فهي دارت على الاطراف والضواحي ولم تصل الى الاحياء الداخلية. ومع ان عدن لم تعد العاصمة فان حركة البناء والعمران ملحوظة فيها. فهي تنتظر ان تصبح «منطقة حرة». البعض يريد لها ان تصبح «هونغ كونغ» الجزيرة العربية. لكن الامر مستبعد، لاسباب عديدة منها: ضعف البنية التحتية لمثل هكذا تحول وضعف الكادر الاقتصادي والمدني المؤهل وتصاعد المد الاصولي. كما ان هناك دبي التي شرعت تنافس، فعلا، «هونغ كونغ» وتبزها على اكثر من صعيد.. عدن اليوم، رسميا، هي العاصمة الاقتصادية لليمن الجديد. ثمة ما يشير الى ذلك: اندفاعة «رجال الاعمال» الشرهة وعودة بعض ما يسمى بالرأسمال الهارب والمشاريع الموقعة مع جهات خارجية.

على طول الطريق بين «خورمكسر» و«كريتر» اخذت المساحات الخالية المجاورة للبحر تؤهل بالبناء والمشاريع الجديدة. احد «رجال الاعمال» تبرع باقامة «طاحونة هواء» هولندية الطابع بجوار البحر تحت الحواف البركانية الهائلة فبدا المنظر فكاهيا. اللاانسجام في طراز البناء هو الطابع المميز لعدن. فهناك الطراز اليمني في البناء الذي لم يعد موجودا الا في «كريتر» (عدن القديمة) وهناك الطراز الانكليزي الذي عرفته المدينة في الحقبة الكولونيالية، وهناك الطراز السوفيتي

الاسمنتي البائس الذي شاع في العهد الاشتراكي.

وفي قلب «كريتر» الحي الذي لا يزال يسميه السكان «عدن» وهو المكان الاكثر تميزا بين احياء المدينة يقع منزل «رامبو». ولا شك انني مررت، كما مر كثيرون غيري، من امامه ولم يعرفوا ان شاعر «الاشراقات» قطنه سنوات اثناء اقامته العدنية. كان المنزل الضخم وكالة تجارية لالفريد باردي مرؤوس عدن ثم آل الى تجار يمنيين تعاقبوا على شرائه كان اخرهم واحد من مدينة تعز، لكن غرفة التجارة العدنية التابعة للدولة كانت تضع يدها عليه.

لم يكن اكتشاف هذا المنزل ممكنا لولا جهود ثلاثة اشخاص عملوا نحو خمسة عشر عاما على تحديده هم: الشاعر العراقي شوقي عبد الامير والكاتب الفرنسي الان بورير والمؤرخ اليمني الراحل عبد الله محيرز. فمن خلال رسائل رامبو ومذكرات باردي والسجلات العقارية القديمة امكن الوصول اليه.

حدث ذلك في ١٢ اذار (مارس) عام ١٩٩٠ اي قبل شهرين من قيام الوحدة اليمنية. كان الاكتشاف حدثا كبيرا للاوساط الثقافية الفرنسية المهجوسة بالشاعر الاكثر تمردا وغموضا في التاريخ الادبي الفرنسي. ثم سرعان ما تحركت الحكومة الفرنسية، عبر سفارتها، للاتفاق على تحويل البيت الى مركز ثقافي. ووصل الى هذا الغرض وزير الخارجية الفرنسية رولان دوما والتقى نظيره اليمني د. عبد الكريم الارياني. فوضعت الحكومة اليمنية المنزل تحت تصرف فرنسا لمدة عشرين عاما.

وفي شتاء العام الماضي عقدت اول ندوة في «منزل رامبو» وكانت حول الحداثة في الشعر انطلاقا من مقولة رامبو: على الشاعر ان يكون حدينا بشكل مطلق.

وها نحن نحضر اليوم ندوة جديدة تحت عنوان «الغنائية في الشعر» يأتي اليها نخبة من مثقفي فرنسا منهم: الان بورير المختص برامبو (وضع اكثر من كتاب عنه)، وجان بيير ريمي رئيس الاكاديمية الفرنسية في روما وعضو الاكاديمية الفرنسية وبرتراند فيزاج رئيس تحرير مجلة NRF الادبية التي تصدر عن «غاليمار» كبرى دور النشر الفرنسية وإيف بروسار رئيس تحرير مجلة SUD التي تعنى بالشؤون الثقافية

الجنوبية، (جنوب فرنسا وجنوب العالم) والشاعرة الفرنسية جاكلين رسيه (مترجمة دانتي للغة الفرنسية) والروائي والناقد الادبي أوليفيه رولان، والشاعر سيرج بيه الذي يدير في تولوز منتدى شعريا عالميا والشاعر اللبناني بالفرنسية صلاح ستيتية الفائز للتو بجائزة الفرانكوفونية للشعر.

ومن الجانب اليمني شارك في الندوة: الكاتب هشام بن علي وكيل وزارة الثقافة اليمنية والشاعر يحيى الارياني والكاتب كمال الدين محمد، والشاعر شوقي شفيق والكاتبة هدى العطاس والشاعر نجيب مقبل. وقد ادار الندوة وترجم المداخلات العربية الشاعر شوقي عبد الامير الذي اختير من قبل الحكومتين اليمنية والفرنسية منسقا اعلى لشؤون المركز.

وقد كان حضور السفير الفرنسي في صنعاء مرسيل لوجل كثيفا وذا نكهة خاصة. فهو مولود في الجزائر ومتزوج من لبنانية ويتحدث بعربية هي مزيج من اللهجة الجزائرية واليمنية. ويبدو ان هذا السفير، كما اسر لي احد المطلعين، قد لعب دورا اساسيا في التأييد الذي محضته فرنسا لصنعاء اثناء « حرب الوحدة ». ولكنه عندما سألته عن « حقيقة الامر » اكتفى بالابتسام. ثم قال: المركز لا يستطيع ان يقدر، دائما، طبائع الامور على الارض... هذا دور السفير.

اكثر من يمني مطلع في الشمال والجنوب تحدث عن دور مرسيل لوجل في بلورة موقف فرنسي مميز اثناء الحرب. احدهم قال لي انه رغم صداقته لعلي سالم البيض فقد نصحه اكثر من مرة بعدم اللجوء الى خيار الانفصال. ويبدو ان مرسيل لوجل قد غامر بمنصبه، وربما بمصالح فرنسا، عندما وضع ثقله وراء بقاء اليمن موحدا عندما لم يكن من السهل تبين اي كفة سترجح.

سألته على مائدة العشاء الذي اعده لنا: ماذا لو انتهت « حرب الوحدة » بانتصار الانفصال؟ فاجاب: لا. لم يكن ذلك ممكنا. تقديري للامور المبني على معطيات داخلية وخارجية كان يميل الى ان الانفصال سيفشل. فبعد كل شيء علينا ان نتذكر ان علي سالم البيض ورفاقه هم في نظر الجوار شيوعيون. وها هي فرنسا

تكسب من وراء موقف مرسيل لوجل. فالمشاريع الاكثر اهمية التي يشهدها اليمن اليوم هي فرنسية. رجال الاعمال والسياح الذين رأيناهم في عدن وصنعاء هم فرنسيون. النشاطات الثقافية الاكثر حضورا في البلد فرنسية ايضا.

مرسيل لوجل الذي يرغب بالعيش في لبنان بعد احالته على التقاعد ليس دبلوماسيا محترفا فقط بل له صلة بالادب ايضا، فهو كتب رواية عن الصحراء.

***

تحت عنوان «ان تكون غنائيا او لا تكون» انعقدت الندوة في «منزل رامبو». لم يتقدم المثقفون الفرنسيون بأوراق مكتوبة، على عكس اليمنيين، بل اكتفوا بالتدخلات المرتجلة. كان المقصود منها ان تكون «مائدة مستديرة» لنقاش بين الطرفين ولكن الندوة تحولت الى كلمات واوراق وجمهور واستمرت يومين. الفرنسيون جاءوا بانطباع ان الشعر العربي هو من اكثر الشعريات العالمية غنائية. استشهدوا بشظايا وكسر كتبت عن الشعر العربي هنا وهناك. وجاءت كلمات الشعراء والمثقفين اليمنيين لتؤكد ذلك.

استهل المداخلات جان بيير ريمي رئيس الاكاديمية الفرنسية في روما الذي تحدث عن نشوء الغنائية في الشعر الفرنسي وردها الى الثلث الاول من القرن التاسع عشر وانتهى بها الى ايف بونفوا الذي حولها الى «حجر مكتوب» بعد ان كانت «حجرا حساسا».

اما صلاح سنيتية الذي كان افضل من تحدث في هذا الموضوع فقال: ان العرب وليس هولدرين هم اول من قال ان الشعر سكن الشاعر. بيته. فالبيت في اللغة العربية هو وحدة الشعر. القصيدة مكونة من أبيات. والبيت هو السكن. ويضيف ستيتية: كان الشاعر الفرنسي (الرومانسي) يقول: انا هو الاخر حتى جاء رامبو وقلب المعادلة فقال: الاخر هو أنا. هذه النظرة غيرت الغنائية في الشعر الفرنسي.

اما في الشعر الفرنسي الحديث (غيللفيك، بونشوا) فالاخر هو الاخر.

ألن بورير المختص برامبو قال في احدى تدخلاته الكثيرة : ان اللغة الفرنسية لا تملك مفردة تجمع بين معنى « البيت » السكن و« البيت » الوحدة الشعرية . للبيت وللسطر الشعري كلمتان مختلفتان وليس كما هو الحال في اللغة العربية . وانتهى بورير الذي انجز كتابا عن رامبو اسماه « رامبو العربي » وسيصدر عن دار غاليمار الى القول : يجب علينا ان نجد لغتنا العربية بالفرنسية . اي ان نذهب الى الاعماق!

لكن « الغنائية » التي يمكن للمثقف الفرنسي (الغربي عموما) ان يتحدث عنها كقصيدة وكمصطلح لهما مدلولاهما المحددان وبراهينهما في الشعر عسيرة اليوم على المثقف العربي .

فقد نستفيض في الحديث عن « الغنائية » دون ان نتواضع على معنى محدد لهذه الكلمة . فهي مصطلح ادبي حديث في اللغة العربية . فلو عدنا الى القواميس العربية (لسان العرب مثلا) وهي كلها قديمة، لوجدنا ان جذر الكلمة يحيل الى الغناء لا الى ضرب معين من الشعر.

ولغير المختصين فان مصطلحا مثل « الشعر الغنائي » لن يعني سوى كلمات الاغاني . وكذا بالنسبة لـ « الشاعر الغنائي » الذي ليس سوى كاتب كلمات الاغاني .

لا يعرف الفرنسيون الحاضرون كثيرا عن الشعرية العربية القديمة ولا الحديثة ليسهموا في اضاءة هذا الجانب ولا تحدث المشاركون اليمنيون بشيء من التعبين عن هذا الامر. فالاوراق التي قدموها هي اشبه ما تكون بنصوص ادبية شاعرية الفضاء افتقرت الى محاولة مساءلة المصطلح وما يندرج في سياقه من شعر.

ما « الغنائية » بالنسبة الينا الان؟

هي كمصطلح امر جديد في الكتابة النقدية العربية لم نألفه من قبل . وقد حل في مجرى حديثنا وكتابتنا من سياق لغوي وثقافي احر . وككل جديد فقد حمل

معه التباساته (« قصيدة النثر » مثال اخر على الالتباس) .

وللان لا نكاد نعثر على تعريف قار لهذا المصطلح . اكثر من ذلك فنحن لا نملك ، حسب ظني ، قاموسا للمصطلحات الادبية يمكن الرجوع اليه . الامر الذي يجعل هذا المصطلح ، وغيره الكثير ، فضفاضا ، ليس له مدلول متعين ومستقر .

فـ « الغنائية » تعني مرة شعر الذات المستغرقة في شؤونها وبوحها وهي تعني مرة اخرى التدفق العاطفي والنزع الوجداني كما انها في محاولة ثالثة لتعريفها قد تعني مقاربة العالم (الموضوع) عبر انعكاسه وتأثيره على الوجدان الفردي . وهكذا لا نكاد نتفق على محددات تحظى بقبول الشعر او النقد .

لكن القاسم المشترك بين مختلف التعاريف هو الذات . وهنا نصل الى نقطة خلاف (او صراع) اخرى تخص حركتنا الشعرية دون غيرها ربما . فأحد الشعراء اليمنيين المتدخلين قطع على نفسه عهدا ان يكون غنائيا « حتى آخر قطرة دم » !

وهذا هو ، بالضبط ، الذي يجعل واحدا مثلي يتحفظ على « الغنائية » بل يجد فيها ، مع ابناء جيله ، داء يفتك بالقصيدة العربية .

فنحن وجدنا انفسنا امام « الغنائية » وقد وصلت الى درجة من « الميوعة العاطفية » لا تطاق والى تضخم « الذات » الى حد النبوة . وتحت غمر غنائية كهذه تضاءل العالم وامحت صور الاشياء واختفى وجود الاخر . فصارت « الذات » هي العالم والشيء والاخر معا .

هكذا اصبحت « الغنائية » طوطما ، او صنما مقدسا فكان علينا لكي نجد لذواتنا مكانا في العالم ومشتركا مع الاخر ان نوجه لهذا الصنم فؤوسنا . كان علينا ، هذا الجيل ، ان نهتك الحجاب القاسي الذي يفصلنا عما يحيط بنا . فكان ان تلقت هذه « الغنائية » الفادحة على ايدينا ضربات موجعة جعلتها تترنح وان لم تسقط تماما .

واذا كان « لا مفر » من الغنائية او من أن تكون عنائيا باعتبار ذلك تبعة مس

تبعات اللغة التي لا يمكن تفاديها فان الغنائية، التي نصبو اليها هي المنبثقة عن « لقاء الذات بالعالم ومن جدالهما اختلافا وائتلافا » كما يعبر ادونيس او هي غنائية « الحجر المكتوب » كما يدعو ايف بونفوا، او الغنائية التي لا تنفي الشيء تحت غمر الذات بل تتبينه وتوآخيه.

***

كان برنامج الرحلة يقضي أن نمكث ثلاثة ايام في عدن ومثلها ثلاثة اخرى في صنعاء. السفارة الفرنسية التي اعدت البرنامج احكمته وضغطته الى ابعد حد. فلم نتمكن من الخروج الى مواضع اخرى كنت ارغب في رؤيتها خصوصا حضرموت.

ففي هذه المحافظة الجنوبية كانت مرابع امرىء القيس شاعر العربية الاول. وقد زادني شوقي عبد الامير شغفا بتلك المواضع عندما اخبرني، ونحن قادمون، عن زيارة قام بها قبل سنوات الى قرية « عندل » التي ربما كانت بلدة الشاعر. فهو يذكرها عندما يقول:

كأنك لم تسمر بديمون ليلة

ولم تشهد الغارات يوما بعندل

و« عندل » حسب ما أخبرني شوقي، لا تزال قائمة الى يومنا هذا، وهي قريبة من « سيؤون » تقع في وادي « دوعن » الذي يشكل امتدادا لوادي حضرموت في اتجاه الربع الخالي. ولكنها قرية عادية مما تقع عليه العين في اليمن اليوم لا اثر فيها لأطلال أو رسوم. ولا ادري لماذا لا تفكر اليمن باقامة مهرجان للشعر العربي يعقد في « عندل » بدلا من مهرجان « الصهاريج » الذي انعقدت دورته الاولى قبل ايام في عدن. صحيح ان منطقة « الصهاريج » مذهلة التكوين وذات طابع اسطوري غير انها تظل، في حدود تعلق الامر بالشعر، ادنى من ارتباط مرابع امرىء القيس بشعرنا.

ومعروف ان امرىء القيس من امراء « كندة » المملكة التي وحدت جميع القبائل العربية لاول مرة تحت راية واحدة وصار بعدها امر توحيد اللغة العربية ممكنا بعد ان كانت منقسمة الى جنوبية (اليمن) وشمالية (الحجاز وما والاها وتلاها من مناطق وصولا الى الغساسنة) واهدتنا (اي كندة) اول شعرائنا واكبرهم.

وفي الجلسات التي ضمتنا في هذه الرحلة تحدثنا، شوقي وانا، عن امرىء القيس والشعر الجاهلي وتاريخ اليمن قبل الاسلام وبدا لي ملما بغير شأن من شؤون اليمن. فهو يستطيع ان يسرد على مسامعك فصولا من تاريخ البلاد كأنها محفوظات استقرت في الذاكرة مسندة بأبيات من الشعر مرة وبتواريخ وشخصيات معلومة مرة اخرى.

ووجدنا مواضع اعجاب وتعلق مشتركة بالشعر الجاهلي. وفاجأني شوقي بمعرفة متمكنة على هذا الصعيد. فقد ظهر، لوقت طال، ان من لزوم الشعراء العرب الجدد القطع مع القديم بوصفه رجعة وقهقرى لا يصلح زادا للطريق الى « الحداثة » فقصرنا علمنا على ما بين ايدينا وما تلقي به الينا المطابع من ترجمات فقيرة من الشعر العالمي الحديث. فانفضضنا عن القديم بقضه وقضيضه ولم نحسن، على الارجح، اقامة جدل وادماج بين ما بسمى بـ« التراث » وما يسمى بـ« المعاصرة ». فظلا متنابذين يتبادلان الخصومة.

هذا هو وجه الغرابة، ربما، في تسابق شاعرين « حديثين » يكتبان « قصيدة النثر »، على ترديد ابيات من امرىء القيس او طرفة من لبيد او الاعشى على مسامع فرنسيين يظنون، كل الظن، انها نوستالجيا اججتها جبال اليمن المعممة بالقرى والغيوم. ولشوقي رأي مفاجىء في صلة « المعلقات » بالوثنية العربية القديمة. فهذه القصائد الناجزة البناء والخيال الغامضة المنشأ قد لا تكون، برأيه، مجرد شعر كتبته العرب بماء الذهب وعلقته على استار الكعبة.

ارتباط العربية، والشعر تحديدا، بالمقدس، ايا كان شكله ليس برأيه وليد الاسلام. بل لعله يرقى الى ما يسميه الاسلام بالعصر الجاهلي.

وما لم تبعثه عدن من صور القديم، في ذهني اقله، تكفلت به صنعاء.

وها نحن نغادر عدن بعد ان انتهت الندوة والقراءات الشعرية في منزل رامبو ونتوجه بالحافلة، هذه المرة، بدلا من الطائرة لنرى، ما امكن، مما تزخر به هذه البلاد التي قامت فيها ممالك العرب الاولى وامتزج في ارضها الشعر والاسطورة والخصب حتى نالت، بحق، لقب «إريبيا فيلكس»: اي العربية السعيدة. ولعله من هنا سميت ايضا، بـ«اليمن السعيد» قبل انهيار سد مأرب... ومملكة سبأ كعاقبة. ففي حاشية وضعها الدكتور ابراهيم السامرائي عالم العربية المعروف (الذي يقيم في اليمن) على متن للمستشرق الايطالي اغناطيوس غويدي (محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الاسلام ـ دار الحداثة ـ ص ٦٥) جاء: لقد ذكر المؤرخ بلينوس الروماني في القرن الاول للميلاد وصفا لبلاد العرب يدل على حضارتهم وحديثا اخر يدل على كثرة صادراتهم الى الرومان، قال «كسبت بلاد العرب نعت «سعيدة» لانها فياضة بحاصلات يستعذبها اهل الترف ويباهون في اقتنائها جهازا لموتاهم. ويقصد بذلك «اللبان» الى ان يقول: هكذا انصرف المترفون الى احراق هذه الحاصلات امام اجساد اعزائهم الراحلين الى دار الفناء بعد ان كان استعمالها قبلا ينحصر في مراسم العبادة لآلهتهم. وتبتز الهند وقبائل سارا وعرب الجزيرة من اموال امبراطوريتنا مبلغ مليون «ستريسة»، وهي قطعة لعملة رومانية قديمة، وهذا على اقل حساب، وتلك ثروة نبذرها على اهواء مترفينا ونسائنا»!

بالقرب من قاعدة «العند»

كان يمكن ان نذهب الى صنعاء مرورا بمدينة «تعز» وهو الاقصر، كما قيل لنا، ولكنه لا يمر بالمعالم التي تعكس جانبا من تفرد اليمن معماريا وزراعيا. فاختار مرافقنا اليمني جمال طريق قعطبة الذي يمر بقاعدة «العند» ذائعة الصيت التي دارت عليها معارك طاحنة بين «القوات الشمالية» و«القوات الجنوبية» في «حرب الوحدة».. وبسيطرة «الشماليين» عليها فقد «المشروع الانفصالي» شوكته

العسكرية.

ليس حول «العند» التي صارت تدعى «قاعدة ٧ يوليو» ما يشير الى تلك الحرب الضروس التي اوقعت عددا كبيرا من القتلى والجرحى بين الطرفين. فالآليات وقطع الاسلحة المعطوبة التي كانت تشاهد على جانبي الطريق ازيلت. وعلى باب القاعدة ثمة عدد من العسكر في مقتبل العمر يمتشقون الاسلحة، نحاف العود، شأنهم في ذلك شأن سائر اليمنيين، يلوحون بالتحية لحافلتنا فيرد عليهم الفرنسيون والفرنسيات بابتسامات مبالغ بها.

لا بيت ولا عشبة ولا نقطة ماء في هذا المحيط البركاني. فقط بضع شجيرات ضامرات قد تكون من فصيلة «العرعر». فقط الجبال الحادة القمم كالسكاكين. فقط الحرارة التي تشع منها. حاولت ان اتخيل كيف يمكن للمرء ان يحارب، وعلى نحو ضار، بين هذه التكوينات البركانية في ذروة الصيف اليمني حيث تقف الشمس فوق الرؤوس، فلم افلح.

تبدو فكرة الاستيلاء على قاعدة لها مثل هذا الموقع الجحيمي مستحيلة. فما بالك لو عرفت ان تحصيناتها الداخلية تفوق، على عهدة الرواة، استحالة محيطها.

كانت بضع قرى وبيوت متناثرة ما تفتأ تظهر على جانبي الطريق.. وفي البعيد تلوح أطياف الجبال الكبيرة. لكن صيحاتنا لن تتعالى الا بعد ان نصل الى فوهة بركان عملاقة منفتحة على السماء كفم خرافي شره. انبهرت انفاسنا ونحن نصعد سفح الجبل ثم السلالم الحديدية المثبتة حديثا وصولا الى القمة. كنا كأننا نرتقي ادراجا الى السماء. المدخنون منا تلقوا برهانا قاسيا على عطب رئاتهم. عجبت لصلاح ستيتية وهو الذي قد يكون في السبعين من عمره، كيف ارتقى السلالم قبلي انا ابن الاربعين. كنا نخشى ان نقترب كثيرا من الحافة، فزلة قدم كفيلة ان تودي الى ذلك القاع العميق الذي لن يصله المرء الا ميتا من الرعب قبل ان تتغمده المياه التي تتراءى في الهوة. كان هناك فتية يمنيون بجلابيبهم البيض القصيرة وخناجرهم المعقوفة المنبتة بأحزمة مزركشة على بطونهم الضامرة يتقافزون قريبا من

الفوهة. كانوا يحاولون، على ما يبدو، الوصول الى رفيق لهم يتخذ من ثنية داخل الفوهة متكئا له. منظر يحبس النفس. لكن الشاب اليمني الذي اتخذ لنفسه ذلك الموقع الخطر لا يشعر بأنه اتى امرا عجبا. بل انه يمضغ القات الذي تجمع على شكل كرة في احد جانبي فمه، ويستمتع نشوانا الى اغنية لعبد الحليم حافظ تنطلق بأعلى صوت ممكن من المسجل الكبير الذي حمله معه الى ذلك المنتبذ الغريب.

ها هو عبد الحليم حافظ يواصل السحر نفسه الذي عرفناه في فتوتنا. النجوى نفسها واللوعات ذاتها والصوت الحزين الذي كان رسولنا الى فتاة الحي نفسه. لم يتغير ولم يتبدل تبديلا. ولا يبدو ان تلقيه قد تغير كثيرا... ايضا.

لم يكن دليلنا اليمني جمال يعرف الكثير عن هذا البركان. متى ثار اول مرة وهل يتوقع ان يثور مرة اخرى. ولكن ثورته حدثت، على الارجح، في زمن غابر. فليس من الممكن للقرية التي يحتضنها السفح ان تجاور بركانا ثائرا. لا بد انها قامت بعد ان همد.

تناولنا غداء خفيفا احضرناه معنا من عدن ثم انطلقنا. فنحن لم نقطع سوى نصف المسافة بين عدن وصنعاء وعلينا ان نبلغ العاصمة قبل حلول الليل. فالغرض من سلوكنا هذه الطريق هو رؤية القرى اليمنية فريدة المواضع والمعمار.

ويبدو ان الطريق، بدءا من هذا النقطة، سيكون صعدا. فالحافلة بالكاد كانت تسير. ورأينا قرى وجبالا لا مثيل لها، على الارجح، في اي بلد عربي اخر. الجبال في الغروب البطيء بدت وكأنها التكوين الاول للخليقة. لها مرة سمت البشر ومرة اخرى شكل التماثيل العملاقة. لا سهول تتراءى على مد النظر. الجبال فقط تتكيء على بعضها البعض في اخوّة الطبيعة الغامرة. وفي سفوح الجبال عملت ايدي اليمنيين، منذ فجر التاريخ، على انتزاع التربة من الصخر لزرعها. فبدت الحقول المزروعة بخضر وبقول الموسم على شكل احواض متدرجة تبدأ من النقطة التي يمكن استخلاص التراب منها وصولا الى القاع.

لكن البيوت لا تقوم في القاع او في السفح بل، دائما، على رابية او مرتفع لا يتصل مباشرة بالجبل. والواضح انهم يتفادون بذلك السيول التي تفيض في مواسم المطر او تلك التي تتدفق من الجبال فتجرف امامها كل شيء. ويظهر ان هذا هو دأب اليمنيين من قديم الزمن. فهذا امرؤ القيس يصف وابلا من المطر في معلقته على جبال « الستار » و« يذبل » و« قطنان » ثم يصل الى قرية « تيماء » فيقول:

وتيـــمـــاء لم يتـــركْ بهـــا جـــذع نخلة ٍ

ولا أطمــــاً إلا مـــــشـــــيـــــداً بـجندلِ.

فالمطر المدرار لم يترك في تيماء جذع نخلة ولا اطماً (اي قصرا او بناء) إلا ما كان منها مجصصا (الشيد هو الجص) او مرفوعا على صخرة (جندل). وحتى اليوم لا يزال اليمنيون يستخدمون الجص في البناء وخصوصا في عقود البيت.

وليس غريبا او نادرا ان ترى بيوتا على قمة جبل، او على رأس مرتفع تتكون من ثلاث او اربع طبقات ترابية اللون مزيحة بالجص الابيض. وكلما مررنا بقرية أو بدسكرة تعالت صيحات الفرنسيين الذين في الحافلة: أوه لالا!

كم مرة سمعت صيحات التعجب هذه؟ مئة مرة؟ الف مرة؟ ربما اكثر!

كنت اتجاذب اطراف الحديث مع شوقي مرة، ومع كلاوديا زوجة الآن بورير مرة اخرى. قالت كلاوديا التي زارت الشمال الافريقي العربي ان المعمار اليمني واسلوب التعامل مع الطبيعة لا مثيل لهما في اي مكان عربي اخر، بل ربما لا مثيل لهما في العالم. وليس هذا، بالطبع، محمولا على اي شيء من المبالغة. فالبيت اليمني التقليدي هو قطعة فنية مثل الحلى المشغولة باليد وليس مجرد بناء يكتفي بالوظائف الاولية المناطة بالبيت من ستر وايواء ومعيشة. انه شيء شبيه بالفرس المطهمة. دون مبالغة بالزركشة ولا ابهار في اللون.

ولا شك ان البيوت ذات الطبقات المتعددة هي للميسورين منهم ذوي العائلات الكبيرة. فأحد اليمنيين المرافقين لنا قال لي ان عدد الطبقات يعكس المنزلة الاجتماعية لصاحب البيت.

الفتنة الصنعانية

وصلنا الى صنعاء مع حلول الليل. كانت السفارة الفرنسية قد هيأت لنا سكنا في فندق «تاج سبأ»، وهو، بحسب شوقي عبد الامير، اهم واجمل فندق في العاصمة. هناك الشيرتون طبعا الذي يقع على الاطراف ولكن ميزة «تاج سبأ» عدا كونه خاصا في معماره وديكوراته الداخلية وجوده في قلب المدينة وقربه من صنعاء القديمة.

اتفقنا ان نودع حقائبنا الغرف، بعد اجراءات التسجيل، ونهبط الى «باب اليمن».

أول فارق يلمسه الزائر القادم الى صنعاء من عدن هو تغيير المناخ. فمن حرارة ورطوبة عدن الى برودة وجفاف صنعاء. وقد احتجت، لاول مرة، الى ارتداء سترة بعد ان كان القميص او «التي شيرت» كافيا لليل عدن. وحسنا انني اصطحبت معي سترة جلدية كنت خرجت بها من لندن وما كنت ظانا انني سأستخدمها قياسا على ما عهدت الطقس في عدن.

ولكن هذه الميزة مدركة منذ قديم الزمن. فكل الرحالة او الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن صنعاء اكدوا ذلك، في شيء من الفنتازية التي تطبع الكتابات الجعرافبة العربية القديمة.

فالجغرافي ابن رسته يصف مناخها في كتاب «الاعلاق النفيسة» قائلا: «صنعاء هي مدينة اليمن ليس بالبمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة اعظم منها ولا اكثر اهلا وخيرا ولا اشرف اصلا ولا اطيب طعاما. وهي مدينة جبلية معتدلة الهواء يعدل

طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعيا في السنة اذا اعتدلت وطابت، ويفرش الواحد في مكان فلا يحول من ذلك المكان لحر ولا برد سنين كثيرة».

ولعل منشأ صعاء الاسطوري المنسوب الى سام بن نوح تم لهذا الغرض. فالكتابات العربية التي تؤرخ لقيام المدينة تقول ان سام بن نوح طفق بعد الطوفان يبحث عن موضع يتعادل فيه الليل والنهار ولا يغلب البرد فيه الحرد ولا يفسد فيه الطعام فلم يجد افضل من هذا الموضع فأقام فيه صنعاء وهي بذلك تكون اقدم مدن الارض.

وكانت العرب تقول: لا بد من صنعاء ولو طال السفر.

وها نحن نخرج جماعة يقودنا شوقي عبد الامير الأدرى منا بالمدينة في ازقة ونقطع مجرى سيل جاف ونصل الى «باب اليمن» بعد ان مررنا بجانب من سورها الشهير.

كان الوقت في حدود التاسعة ليلا. السوق شبه مغلقة. بقايا حوانيت لا تزال مشرعة الابواب وبعض السابلة لا يزالون يروحون ويجيئون.

اخذنا بهاء المعمار من مجامع الابصار. كل بيت رأينا او مررنا به كان قطعة فنية تشبه الاخرى وتختلف عنها، في الوقت نفسه، بالتفاصيل. بيوت من طبقات مشيدة من الحجر تميزها العقود البيض، كأنها لوحات خرجت لتوها من معجم ياقوت الحموي او من الف ليلة وليلة يمانية. الامر الذي يجعل الرحالة والجغرافيين العرب على حق حين يجنحوا للغرائبي في وصف صنعاء ومعمارها.

ليست الطبقات الست او السبع او الثماني هي ما يميز بيوت صنعاء القديمة، بل ما تحفل به من شغل فني: الابواب الخشبية والنوافذ المقوسة والعقود البيض والقمريات التي تتكون من زجاج ملون بأشكال هندسية وزخرفية مختلفة والجدران المزخرفة.

كنا نقف قدام كل بيت ونتملاه. وامام كل واجهة ونمعن النظر. فأنت امام

تناغم بديع بين الكتلة والفراغ وبين الالوان المنبعثة من القمريات والعقود البيض، بين الاقواس والمنحنيات وبين السحبات الجدارية المكونة من الحجر البني او الرمادي. لهذا المعمار روح تلمس وحضور طاغ كأنه كائن حي. وليست هذه البيوت، على قدمها، اثارا جميلة كتلك التي تراها في غير مكان عربي، بل هي مأهولة باصحابها الذين يواصلون تقاليد حياة خاصة منذ عشرات السنين.

اسأل شوقي كم تقدر عمر هذه البيوت فيقول: بعضها يعود الى خمسمئة او ستمئة سنة خلت وربما اكثر. والغريب ان معظم هذه البيوت في حالة ممتازة افضل مما هي عليه احياء القاهرة التي تعود الى اواخر الحقبة المملوكية. لقد طفت القاهرة القديمة وراعني حجم الاهمال والتداعي البادين عليها. وليس في دمشق احياء مماثلة لصنعاء لنقارنها بها. فما تبقى من دمشق القديمة احياء صغيرة متناثرة محاصرة بالباطون المسلح. ربما ثمة وجه شبه من حيث الاستمرارية بين وصنعاء وفاس القديمة. لكن في طراز البناء فلا تشبه صنعاء مدينة اخرى.

لعل اكثر المتأثرين فينا بالفتنة المعمارية الصنعانية كانت الممثلة والمغنية جين بيركين زوجة المغني الفرنسي الشهير الراحل سيرج غنسبور التي حضرت الى اليمن بصحبة صديقها الروائي أوليفيه رولان. فما فتئت تند عنها صيحات الاعجاب. كانت تمشي كالمسرنمة. بالاحرى تطير. تاركة فمها اياه، لمن شاهد افلامها، يرتاح من مهمته الشبقية ليعبر عن الذهول. وبيدين، تقدران، على ما يبدو، تضاريس الجسد، كانت تجسّ الجدران. ويبدو ان لا احد في «باب اليمن» قد شاهد فيلما لهذه الممثلة ذات الاصل الانكليزي، فعندما عدنا في اليوم التالي، نهارا، الى السوق وقد غدت مثل يوم الحشر، لم يطلب اليها احد ان توقع اوتوغرافا او ان يلتقط معها صورة كما حصل اثناء العشاء الذي دعينا اليه على متن باخرة فرنسية كانت ترسو في ميناء عدن.

عدنا من جولتنا في «باب اليمن» وهو واحد من ابواب خمسة او ستة لصنعاء القديمة تتخلل سورها الذي لا يزال قائما، مفعمين بنشوة خاصة.

تنـاولنا عشاء متأخـرا وذهب كل منا الى غرفته. ويبدو اني نمت على الفور.

***

في صباح اليوم التالي، وهو اول صباح لي في صنعاء، وكنت اتناول القهوة في الكافتيريا جاءني من يقول ان الدكتور عبد العزيز المقالح ينتظرني في البهو. فخففت من فوري للقائه. وسيكون هذا اول لقاء شخصي بيننا بعد تراسل واتصالات هاتفية وتبادل تحايا عبر اصدقاء مشتركين. تعانقنا طويلا كصديقين قديمين فرقت بينهما الايام. كان الدكتور عبد العزيز اكبر مما يظهر في الصور التي تنشرها له الصحف بين حين واخر. اوجه الشبه بينه وبين والدي كبيرة: الجسم المربوع، شعر الرأس والشاربين الاشيبين، سمرة الوجه، الالفة التي تغمرك بها العينان. كان هذا هو انطباعي الاول الذي ستبرهن عليه الاشارات المرسلة، دون وسيط، الى القلب.

علم الدكتور المقالح بوجودي في اليمن من خبر نشرته احدى الصحف اليمنية. فنحن لم نتحدث قبلها. ولم اخبره بقدومي مؤجلا ذلك الى حين وصولي.

انطلقت مع الدكتور عبد العزيز في سيارته التي كانت تنتظر امام الفندق وفوجئت بالحرس الذي تأهب لدى وصولنا وكان ينبغي ان اتذكر الحملة التي شنها الاصوليون عليه ووصلت الى حد التهديد بالقتل جراء مواقفه الفكرية والثقافية. يقول الدكتور عبد العزيز، الشخصية الثقافية الابرز في اليمن اليوم، انه يضيق بهذا المظهر ولكن الامر مفروض عليه. فهو بعيدا عن كونه شاعرا واديبا، شخصية عامة يشغل موقعين مهمين في الحياة اليمنية: رئاسة جامعة صنعاء ورئاسة مركز البحوث اليمني. والى المركز الاخير توجهنا. كانت اوراق ومعاملات تنتظره للتوقيع. طلب لي قهوة وانشغل ببعض المتابعات الادارية. ثم قال لننطلق الى الجامعة. وهناك دهشت من عدد الطالبات اللواتي كن يتواحدن في الباحة. وعلى كثرة عددهن،

الامر الذي يعكس استجابة طيبة بين اليمنيين للتعليم العالي، لم أر سوى قلة، لا تتجاوز عدد اصابع اليدين، سافرات الوجه اقول: الوجه وليس كامل الرأس. اما المنقبات فكن الغالبية العظمى. ولعل الذين ارادوا ان يسجنوا «الفتنة» وراء الجلباب الاسود والنقاب لم يدروا اي فتنة تبثها العيون السود الواسعة المكحلة ذات الوميض الخطر.

فـ «الاغواء»، ان كان ثمة اغواء، فهو في العيون والرسائل، ان كانت ثمة رسائل، فهي في النظرات التي تقول كل شيء دونما حاجة الى الكلام.

ومع ان «النقاب» هو مظهر اقصاء وعزل فله في الشعر العربي القديم وكذا في الغناء اليمني مطرح الغواية.

وتحضرني، في هذا السياق، اغنية لاكبر المغنين اليمنيين محمد مرشد ناجي (مغني الاشتراكية في الجنوب) يتحدث فيها عن فتنة نقاب الحبيب يقول:

ومحياك بالنقاب وإلاّ نهبته العقول والابصار

قمر طوقه الهلال ومن شمس الدياجي في ساعديه سوار

ومن الغبن أن يماط لثام عن محياك أو يحل إزار .

ولكن ألم يحن الوقت للمرأة اليمنية ان تتخفف شيئا من حال الاقصاء وراء «النقاب» والحجاب والقفازات التي تستر اليدين ايضا ما دامت خطت خطوة كبيرة من المنزل الى الجامعة. ويبدو لي ان الوحدة بالندفق الاصولي الذي جاء في ركابها، ساوت بين المرأة في الشمال والمرأة في الجنوب.. فصار النقاب او الحجاب العلامة المميزة للمرأة ومقياس الأصول.

لم اخبر الدكتور عبد العزيز المقالح عما تداعى في ذهني وانا ارى طالبات الجامعة بهذا الزي. ولحسن الحظ فان الاستاذ لا يلقي محاضراته على تلميذاته من خلال دائرة تليفزيونية مغلقة كما يروى عن الجامعات السعودية!

بعد نحو ساعة من وجودي في الجامعة فرغ صديقي الناقد العراقي حاتم الصكر من حصته وجاء الى غرفة المدرسين ليفاجأ بي هناك. فقد مضى وقت لم نلتق. فهو لم يحضر الى مهرجان جرش هذا العام وانا لم ازر بغداد منذ عام ١٩٨٠ عندما انعقدت القمة العربية التي اعلنت مقاطعة مصر. وبدون المهرجان والمؤتمرات العربية صار لقاء المثقفين العرب عسيرا. لكن حاتم كان ارسل لي رسالة من بغداد قبل نحو شهرين يخبرني عن «أمر ما» سيعتزم عليه. وكان هذا الأمر تعاقده على التدريس في جامعة صنعاء بهمة الدكتور المقالح. وحاتم الصكر هو اخر الواصلين من العراقيين الى صنعاء. فقبله كان الدكتور علي جعفر العلاق والدكتور عبد الرضا علي وغيرهما كثير من الاكاديميين والمثقفين العراقيين الذين طوّح بهم الحصار بعيدا عن ارض الرافدين.

سيضمنا، كلنا، مع الدكتور المقالح وصحبه اكثر من «مقيل» للقات يقدم لنا المقالح بنفسه أكثر وريقات «القات» إيناعا، وساعرف جانبا من حياة الصنعانيين من خلال «المقيل» الذي يلتئم من الساعة الثالثة بعد الظهر الى السابعة مساءا. وسأطوف مع حاتم الصكر والدكتور عبد الرضا، الذي صدر له هذا العام كتابان في النقد الادبي، شوارع صنعاء في اخر ليلة لي في المدينة.

وسألتقي الشاعر السوري بيان الصفدي الذي «بستقر» في اليمن منذ سبع سنين كما سألتقي عرضا الشاعر اليمني احمد ضيف الله العواضي والكاتب الساخر عبد الكريم الرازحي.. والشاعر امين العباسي. اما المفاجأة فستكون في لقاء كاتب يمني شاب يدعى احمد زين، ابعد للتو، من السعودية التي ولد ودرس وعمل فيها طوال حياته. اعطاني مخطوطة قصصية له. سأقرأها عندما اعود الى لندن وافرح بها. فهي ترهص بكاتب قصصي مميز يكتب قصته على الايقاع العريض لقصيدة النثر.

لم يطل مقامي في صنعاء اكتر من يومين. لامست خلالهما سطوح الاشياء ومررت بالبهاء مرورا عابرا. التقيت اصدقاء لم ارهم من وقت طويل وتعرفت الى

اخرين سيكون صعبا نسيانهم.

حقا. لا بد من صنعاء ولو طال السفر.

كانون الاول (ديسمبر) ١٩٩٥

بيروت:
لست راعي الذكرى ولا مدّبر شؤون الحنين



ليست بيروت « مسقط رأسي » ولم تكن كذلك مجرد مدينة مررت بها بين مكانين. هناك اماكن اخرى اقمت فيها اطول مما فعلت في بيروت (قبرص مثلا) ولم تترك علي اثرا يذكر.

اكاد لا اتذكر، بيقين كاف، امر اقامتي في الجزيرة التي يحلو لها ان تنتسب الى افروديت. ويخيل الي انني يوم غادرتها كنت كأنني اغادر مكانا ميزته الوحيدة هي قربه من بيروت.

ففي قبرص كنت في عداد حشد من « الغرباء » الذين طردتهم دبابات « سلامة الجليل » صيف ١٩٨٢ الى شواطىء قريبة وبعيدة. اجسادنا فقط كانت في الجزيرة اما ارواحنا ففي بيروت. كأن شواطىء قبرص وجبالها لم تكن سوى مرصد نحاول ان نطل منه على حياتنا في البر الاخر. في الفردوس المفقود. بيروت، بهذا المعنى هي وشم حمله كثير من الذين تنفسوا هواءها وشربوا ماءها ورف لهم جناح في فضائها يوم كانت مدينة المدن العربية طرا. صار وشم بيروت دليل الكثيرين الى انفسهم ودليل الاخرين اليهم. كأنه وشم قبيلة خطرة ادرك الجميع ضرورة نبذها في الآفاق وفعلوا.

ولي شخصيا، صار هذا الوشم شارة تردني الى مكان ولدت فيه، بأرادة صنعتها قوة الاحلام، مرة ثانية.

جئت الى بيروت اول مرة بلا اسم تقريبا (مع انني كنت احمل اسم نبي خلعه اهلي علي كيما اهتدي بالكتاب، ولم افعل) وبلا قوام او هيئة فمنحتني اسمي وكتبت شهادة ميلاده في الصحيفة وعلى غلاف الكتاب الاول وشكلت بيدين لم تفرقا كثيرا بين عابر ومقيم هيئتي وقوامي.

بفضلها صار لي اسم بين المتخاطبين.

ولي وحدي يعود امر تربيته وتدبر شؤونه.

الى هذه البيروت اعود بعد اربعة عشر عاما من غياب مأهول بعيش متقطع هنا وهناك وبذاكرة متطلعة الى حبث واريت الثرى أسم النبي الذي أُعطي الكتاب

بقوة وحملت اسم الانسان الذي اخذه بتردد ووجل.

ومن غريب التدابير ان يبلغ غيابي عن بيروت الزمن نفسه الذي بلغه غيابي عن بلدي الاردن.

اربعة عشر عاما غبت فيها عن الاردن واربعة عشر عاما اخرى عن بيروت ادركت، في الاخيرة، مغرب الشمس وبحر الظلمات.

فأي قسمة عجيبة للزمن؟

واي عدالة لهذا الغياب الذي ساكنني حياتي؟

بل قل اية مواعيد مع الاقدار تنتظرني هناك؟

بخطى الأربعين

أستقل الطائرة التابعة لطيران الشرق الاوسط بنفس حفقات القلب والتوتر اللذين عرفتهما عندما دلفت الطائرة الاردنية عائدا الى الوطن.

فالعودة الى بيروت هي، ايضا، عودة الى وطن كان فيه للغرباء، امثالي، مطرح واخوة واحلام جسورة. كنت اخشى ان افوز بالخيبة نفسها التي فزت بها عندما عدت الى عمان. كنت اخشى ان لا تقع العين على ما ألفت وان لا يعثر متخطي الاربعين على صدى صيحة عشرينه. ولكن ما الذي يخشاه من كان فوزه الوحيد هو المنفى، من كانت الخيبات مكافأته على الاحلام متروكة الحبل على الغارب؟

الم اعلق منذ زمن بعيد قول قسطنطين كفافي تميمة في عنقي: من خرب حياته في هذا المكان فهي خراب أنّى حل؟

إذن لأذهب الى بيروت خفيفا، ما استطعت، من الذكرى، بأقل ما يمكن من لجاجة الاشواق.

علي أن أقرّ أن الزمن العربي سال بفداحة وان الحنين يطور امكنة لا وجود لها،

ربما، إلا في اعالي سكراته.

فلأعط الخيبة بعض ما تستحق من وجاهة

ولأوطد النفس على تقبل كفاح الايام ضد مطارح الالفة

وما انجزته ايدي اللاعبين بالمصائر ضد مواضع الحنين.

فلست وحدي من يحمل وشم بيروت. كثيرون غيري يحملون الوشم نفسه. ولست راعي الذكرى ولا مدبر شؤون الحنين.

فلأذهب الى بيروت سائحا مثل هؤلاء الانكليز الذين يستقلون الطائرة معي متخففين من المقاصد الباهظة فرحين، ربما لاول مرة، انهم لن يكونوا، كمواطنين سابقين لهم، هدفا للخطف على السحنة والهوية.

وليهدأ هذا القلب الطائش الذي لا تعوزه الأسباب ليخفق.

***

لاحت لي أكثر من فرصة لأذهب الى بيروت من قبل ولم أفعل. كنت أؤجل، تحت رجفة القلب، هذه الزيارة. فهي استحقاق لم استعد، على ما يبدو، لمواجهته. فالمكان العربي لا يصمد على حال. هو دائم التغير والانقلاب. تخرج من حيك وبلدتك وتعود بعد بضع سنين فلا تكاد تتبينهما. من منا يستطيع العودة الى البيت الذي ولد فيه؟ من منا لا يزال بمكنته الاهتداء الى تضاريس طفولته؟ قلة من العرب يمكنهم أن يزعموا، اليوم، أمرا كهذا.

بيوتنا الاولى، حتى تلك التي تعتصم بزمن الريف المتثائب، عرضة للبلدوزر وخلاطات الاسمنت التي زحفت على الأخضر واليابس والخلوي المتطرف من الأرباض والدساكر فمسحت «القديم» بأسنانها الفولاذ ورمت محله قضبان الحديد والحصى الاسمنت. ان عائلة مكونة من تسعة ابناء، متل عائلتي، انجبت كل واحد أو أثنين من ابنائها في منزل ومكان مختلفين. فليس لنا ذاكرة طفولية واحدة.

هناك تسع ذاكرات وتسع طفولات كل واحدة منها تشخص إلى بيتها الأول الذي ... لم يعد موجودا. وبيروت اكثر من غيرها تمتلك اسبابا كافية لمحو الخطى والاثر. فالحروب التي دارت عليها وفيها تكفي لان تقوض احياء برمتها وتنهض، بالأسمنت المرتجل، احياء جديدة منبّتة الذكرى والأثر.

والامكنة الى ذلك ايا كانت عبقريتها لا توجد من تلقائها ولا تكتفي بنفسها. ولا هي شيء خارج وشائج التاريخ وأنواله الكبيرة. تحتاج الى تاريخ تصنعه ويصنعها. وتحتاج الى نسغ وروح لتنبض. لتوجد. وانا اعرف كم جف نسغ بيروت بعد ان تغذت منه حروب الاهل والاقليم واعرف كم تراكم غبار تقوّض المصائر والعمران على روحها. تلك سيرة بيروت التي دمرها غزاة مرة وهدمتها زلزلة مرة اخرى وانهضتها من عثراتها همّة أهلها.

اعرف ان المدينة التي جئتها في مستهل العشرينات من عمري بـ « نعال من ريح » ليست هي نفسها التي أعود إليها بخطى الاربعين المتثاقلة. اعرف ما يعرفه عقلي وجسدي: ان دولة للحلم دالت فيها. واعرف، اهم من ذلك، ان احدا من اصدقائي « الغرباء » لم يعد موجودا في المدينة التي تحاول ان تكف عن كونها مسرحا للاحلام المكلفة. الاحلام التي استنقعت بالدم. فلن اجد هناك غسان زقطان ولا زكريا محمد ولا ميشيل النمري ولا عماد الرحايمة، ولا نوري الجراح ولا غالب هلسا ولا سعدي يوسف ولا رسمي ابو علي ولا علي فودة ولا شاكر لعيبي ولا سليمان صبح ولا الصافي سعيد ولا بشير البكر ولا هاشم شفيق ولا ربعي المدهون ولا محمود النوايسة ولا حيدر حيدر ولا سليم بركات ولا احمد داود ولا سيد خميس ولا علي حسين خلف ولا يحيى يخلف ولا جميل هلال ولا يوسف الناصر ولا عماد عبد الوهاب ولا ادم حاتم ولا فيصل حوراني ولا رشاد ابو شاور ولا محبي الاشيقر، ولا بسام ابو شريف ولا ليانة بدر ولا جليل حيدر ولا ناناشا المعاني ولا الطيف الشبحي لجميل حتمل متنقلا بين « بيتي » في « محلة ابو شاكر » ومقر مجلة « الموقف العربي » في « نزلة ابو طالب » و« دار ابن رشد » في « البربير ».

لا احد من هؤلاء الغرباء وغيرهم بقي هناك.

بل ان بعضهم لم يعد موجودا على قيد الحياة

اعرف كل هذا واضعه نصب عيني المتطلعتين الى الافق البعيد .

إمتحان الحنين

هناك نفر من الاصدقاء علم بأمر ذهابي الى بيروت، منهم الشاعر الاريتري زرسناي ابراها الذي سبق وتنبأ لي بامتحان مؤلم للحنين عندما عدت الى الاردن اول مرة. وكانت نبوءته قاسية. لم يقل ابراها شيئا هذه المرة، لانه سيدّخر ذلك الى حين عودتي. اما الشاعر اللبناني عيسى مخلوف الذي قدمني بكلمة ضافية الكرم في حفل توقيع كتابي «سُرَّ من رآكِ» في باريس قبل ثلاثة ايام من سفري الى لبنان فاتصل بي قائلا ان بيروت ستستقبلني ببضعة شوارع نظيفة وبأعلام لبنانية وفرنسية على طول طريق المطار!

كان عيسى مخلوف يشير، ساخرا، الى الترتيبات التي قامت بها الحكومة اللبنانية لاستقبال أول رئيس جمهورية فرنسي يزور لبنان منذ استقلاله.

ويبدو ان مفاوضات شاقة اجرتها حكومة رفيق الحريري مع «حزب الله» بغية رفع صور قادة الثورة الايرانية المعلقة على جانبي طريق المطار كي لا يلتبس الامر على جاك شيراك فيظن ان طائرته حطت في طهران بدلا من بيروت.

وقد اصاب عيسى مخلوف كما سيتضح لاحقا.

كان على متن طائرة «طيران الشرق الاوسط» التي اقلتنا الى بيروت، وهي من طراز جامبو، فوج سياحي انكليزي الى جانب اللبنانيين والعرب. وكان ذلك امارة تدعو الى التفاؤل. فبيروت التي قطعت عنها الحروب المتعاقبة كل ملامسة مدنية مع العالم الخارجي تتأهل، ثانية، لتكون مكانا صالحا للزيارة، خصوصا من قبل الاوروبيين الذين ارتسمت صورتها في اذهانهم كمسرح للتصفيات البدنية العنيفة والاختطاف.

فلمـا تزل صـور المختطفين الغـربيين بسـحناتـهم المعـذبة، التي دأبت على بثـهـا القنوات التلفـزيونية المختلفة ماثلة بقـوة في الذاكـرة. ولما تزل الكـتب التي اصـدرها بعضـهـم عن تجربتهم المريرة في ظلمة الاسـر موجـودة في الاسواق. فـبمجـرد ان يفكر هؤلاء السيـاح الانكليز بزيارة بـيروت فـذلك يعني ان مـحنة مـواطنيـهـم تيري ويت وجـون مكارثي وجاكي مـان وبرايان كـينان اصبحت في ذمة بيروت اخرى. بيروت كاتم الصوت والعصبة التي تغطي العينين والمصير المجهول والأقبية الرطبة.

وعلى متن الطائرة لفت نظري، ايضـا، وجـود عـدد من العرب الـذين يظهـرون في سمت رجـال الاعمال تدل عليـهم ازياؤهـم وحقائبـهـم وهواتفـهم النقـالة وامتعاضـهم الصامت من جيرانهـم الاسـيـويين الذاهـبين بلحى غيـر مـشـذبة و« دشـاديش » بيضـاء قصيرة الى الحج.

ها هي بيـروت، اذن، تجـتلب المواطن العـائد والسـائح الاجنبي ورجل الاعـمـال العربي والعابر الى وجهة اخرى والمقتفي خيط حنين مثلي.

لـم تكـن سـماء بيروت صافية تماما عندمـا اقتـربنا منهـا. كانت هناك غيـوم لكنهـا ليست رمادية داكنة ومتراصة كغيوم لندن بل سـمحة، متراخـية على خلفـية سـماء عـمـيقـة الزرقـة. بدت رنّة من الأسف في صـوت كـابـتن الطائرة الذي ابلغنـا بالطقس الغائم نسبيا لكنه استدرك قائلا انه بامكاننا، مع ذلك، ان نرى بيروت من الجو.

لاحت المدينة منضـغطة، بكثافة، بين الجبل والبحـر. ليس لبيروت عـمق منبسط فـالجبل من ورائهـا والبحـر من امامهـا وليس لهـا الا ان تنفلش على امـتـداد الرقـعة الضـيـقة التي يتـنازعـهـا هذان الحـدان. وهي تلوح هضـبـة مندفـعة على شكل لسان يمتد نحو عشرة كيلومترات داخل البحر. كأن ضغط الجبل هو الذي دفعها على هذا النحو اللافت في زرقة المتوسط.

لا اتذكر ان الادبيات التي كتبـهـا اللبنانيون حـول لبنان قد افردت مـساحة خـاصة لبـيروت، فـالتـغني اللبـناني المحـمـول عـلى شيء من الاسـتـثناء والخـصـوص بعـبـقـرية المكان، تركـز على « جـبيـل » و« صـيـدا » و« صـور » حـيث قـامت الممالك الفـينيـقـيـة

الاولى وازدهرت . لكن ثمة اشارات هنا وهناك تدل على مضاهاة بيروت لاخواتها الفينيقيات في القدم والمنزلة. منها ذكرها، ربما لأول مرة، في رسائل «تل العمارنة» التي يعود زمنها الى الفرعون امنحوتب الثالث وابنه اخناتون حيث كان الساحل السوري، كله، واقعا تحت السيطرة المصرية على عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وتتضح منزلة بيروت في سفرة الامير سنوحي المصري الى الساحل الكنعاني ومروره ببيروت، ومنها ايضا ذكرها في «نبوءة حزقيال» حيث «أمر السيد الرب» بتقسيم الارض بين اسباط بني اسرائيل الاثنى عشر بعد خروجهم من مصر فجاء في النبوءة (٤٧ : ١٤) «ترثون كل واحد مثل سهم اخيه في هذه الارض التي رفعت يدي على ان اعطيها لابائكم فتقع لكم ميراثا . وهذه تخم الارض من جهة الشمال . من البحر الكبير على طريق حتلون وانت آتٍ الى صدد . حماة وبيروتة وسبرائيم التي بين تخم دمشق وتخم حماة وحصريتكون التي على تخم حوران» .

وفي قصائد الاله ديونيسيوس ذكر لنشوء بيروت اذ يقول الشاعر نونس «ان بيروت اول مدينة بناها الاله ايل بنفسه وهي وحدها انشئت قبل سائر مدن المعمورة» .

لا بد اذن من شعراء ليغنوا المدن . وليس هناك، على ما اظن، شاعر عربي حديث جعل بيروت عنوانا ومادة لأكثر من عمل قام به مثل محمود درويش الذي كرس لها واحدة من قصائده الطويلة حملت اسم المدينة نفسه فضلا عن ورودها تصريحا وتضمينا في عدد اخر غير قليل من اعماله الشعرية والنثرية .

فهي عنده مرة المدينة المشتهاة التي يأتيها الاخرون لمجرد ان يأتوا اليها وهي مرة اخرى فسحة لحلم العربي وهي مرة ثالثة مربع للجنس والمباذل وهي مرة رابعة مجرد قناع .

في قصيدته «بيروت» تطالعنا لازمة تتكرر : بيروت نجمتنا الاخيرة، بيروت خيمتنا الاخيرة .

لم يكن درويش يضرب في الرمل او يقرأ في الكف عندما كتب ذلك. فبيروت (نا) كانت تميل الى الغروب. كان النجيع يخفق براياته في الافق. وكنا نعرف، بالحس الغريزي الذي يعرفه المهددون بالخطر، انهم قادمون. كان درويش يرثي هذه البيروت قبل ان تطل من الشمال جحافل «رب الجنود» بحديدها الجرار لتدك المدينة.

وبعد سنين سيتساءل درويش، في كتابه «ذاكرة للنسيان» كيف لم يخطر في بال الشعراء اللبنانيين ان يكتبوا عن بيروت. فيميل الى الاعتقاد ان سبب ذلك كونها «مدينة عربية» لا «مدينة لبنانية».

وبيروت، حقا، مدينة تواضع اللبنانيون، بميثاق غير مكتوب، على جعلها عربية. وكانت الحياة العربية، ايضا، تبحث عن مدينة تكون عاصمة للفكرة الحرة التي لا تحتملها العواصم الاخرى ووسيطا بين شرق وغرب ومختبرا للكتابة ومطبعة للكتاب ومصرفا لاهل المال ومقرا اقليميا لشركات الغرب الكبرى وقناعا للتجسس ومنفى آمنا للاجئ السياسي ومتنفسا للاحتقانات. فكانت بيروت.

البيروتيون انفسهم لم ينتجوا ثقافة. «الاطراف» هي التي فعلت ذلك. هذا ما سيقوله لي الشاعر اللبناني الشاب بلال خبيز. فبيروت، منذ زمن بعيد، لم تعد بيروت. صارت مزيجا من التنوع اللبناني والعربي. أيفسر هذا ان الاعمال الأدبية المكتوبة عنها قليلة؟ ثم أيفسر هذا، ايضا، ان الجميع أساء فهمها؟

تهبط الطائرة في مطار بيروت. استغرب ان يكون بمقدور الطائرات ان تحط على المدارج التي شهدت مواجهات عنيفة بين القوات الاسرائيلية والمقاتلين الفلسطينيين صيف ١٩٨٢. اتذكر يومها ان التقدم الاسرائيلي داخل المطار ومحيطه كان يقاس بالمتر الواحد.

لو كانت لهذا المطار ذاكرة لاحتفظ بصور ملحمية للجحيم.

لكن «الغرباء» اقتلعتهم العاصفة، بعنف، من اعالي احلامهم اما المطار فأعيد

اصلاحه اكثر من مرة وها هو يستقبل الطائرات من مختلف بقاع العالم. وكانت عودة الطائرات الاوروبية اليه دليلا اخر على ان صورة بيروت كمجال للعنف السادر اخذت تتغير.

كان في المطار مندوب من «المؤتمر القومي السادس» الذي دعيت لحضوره ينتظر القادمين. تعرفت اليه وعلى زميل قادم معي على الطائرة نفسها من لندن للمشاركة في المؤتمر. وكان علينا ان ننتظر الوفد المصري القادم على الطائرة المصرية التي حطت بعد طائرتنا بدقائق. كنت اشعر بانفصال تام عن الجمع. لم اكلم احدا. ولا حاجة بي لأحد. حواسي كلها في زمن اخر تستعد لاستقبال هبة خاصة. لي وحدي هذه الهبة التي يرسلها الغروب. الذاكرة تستدعي رائحة خاصة للقهوة الممزوجة بحب الهال. استعيد، كما لو كان الامر يحدث الان، رائحة القهوة التي عبقت في «بيتي» في «محلة ابو شاكر» لدن عودتي من سفرة الى عدن. كان ذلك في اواخر السبعينات وكنت اسافر لاول مرة من بيروت. واول مرة استقل طائرة. اشم رائحة القهوة التي حضرتها لي زوجتي على عجل. تَمْثُل بين عيني «الركوة» القيشانية غامقة الزرقة مغطاة بصحن فنجان لبحفظ عبقها وسخونتها. لبيت اهلي في الاردن رائحة مختلفة لا تزايلني. انها مزيج ساحر من رائحة الهال ورائحة القرفة. ولكثير من البيوت التي دخلتها روائح تميزها. غير ان الهبة التي يغمرني بها هذا المساء البيروتي بعد اربعة عشر عاما من الغياب لا تذكرني الا بأول بيت لي. البيت الذي ولدت فيه طفلتي الاولى وكتبت فيه مجموعتين شعريتين وكنت امضي على شرفته الصغيرة التي تطل على شريط ضيق من بحر بيروت ساعات طويلة مع حيدر حيدر وسعدي يوسف وغسان زقطان وزكريا محمد وميشيل النمري ومن تقوده قدماه الى زقاق «ام زكور». انه بيتي العائلي الاول والاخير في بيروت وهذه الرائحة التي تستخفني هي رائحته. تنبعث، كما لو كان الامر يحدث الان.

«أوه! عندي ما يدعوني لامتدح» أردد، صامتاً، قول سان جون ـ بيرس الذي قرأته بترجمة ادونيس، بالفتنة التي تليق بالشعر العظيم وحده، في ذلك البيت.

حقا « عندي ما يدعوني لامتدح ». فلأمتدح هذا المساء على اعطية لم يرسلها أحد. ولن تتكرر.

«لاكي سترايك» و «حزب الله»

نخرج من المطار بحافلة اكتراها منظمو المؤتمر واجلس في اخر كرسي. احاول ان التقط شبها بين الاماكن التي نمر بها وبين صورتها في الذاكرة. لم اتعرف الا على طريق المطار وتلة صغيرة في « الكوكودي » حتى طريق المطار كنت اظنها اكثر عرضا مما هي عليه ومحفوفة بالاشجار على الجانبين. لا اذكر ايضا، ان ساعة المطار كانت من طراز « رايموند ول ». كان البناء العشوائي الذي رفعت وتيرته موجات التهجير الداخلية، سمة من سمات محيط بيروت غير انه لم يكن بهذا الاتساع. متاهة من الاسمنت لا تعرف اين تبدأ واين تنتهي. وعلى طول الطريق كانت حياة مرتجلة تنبض في هذا الغروب: حوانيت بقالة صغيرة، حدادين، لحامين، باعة خضار على بسطات، مطاعم للفروج المشوي، كراجات لاصلاح سيارات غير قابلة للاصلاح، اطفال يلعبون في فسحات الغبار، نساء بازياء الجنوبيات، صور شهداء ملصقة على الجدران، اعلانات هائلة الحجم لشاب امريكي وسيم يدخن « لاكي سترايك » واخرى لامرأة بسروال ضيق من الجينز يبرز ردفيها على نحو لافت، اعلام فرنسية ولبنانية صغيرة، اعلانات لمكاتب تعليم الكومبيوتر الخ.. الخ.

حياة باكملها زحفت من « برج البراجنة » و« حارة حريك » و« حي السلم » من جهة و« الاوزاعي » من جهة ثانية واتصلت بالمطار. حياة مؤقتة قذف بها الجنوب والفقر تمد بدمها ونسغها اخر مواجهة ممكنة، بعد، مع اسرائيل.

فالضاحية الجنوبية، لبيروت التي وصلت الى مدارج المطار هي « سويتو » لبنان. المنطقة الاكثر فقرا في بيروت. حزام بؤس. متاهة من الاسمنت والصفيح تغلغل فيها « حزب الله » واصبحت كوكبا له مدار خاص.

وكما اقام الاصوليون المصريون مؤسسات للرعاية الصحية والاجتماعية موازية في المناطق الاكثر بؤسا في القاهرة كذلك يفعل «حزب الله» الذي ابتنى في هذا الكوكب المجهول هيكلا موازيا للدولة يبدأ من «الحسينية» والجامع وينتهي بالعيادة الصحية مرورا بالاسعاف المدني والتنظيم العسكري ذي النزعة الاستشهادية.

وسيكون عمل الدولة التي ترفع شعار «اعادة الاعمار» شاقا لجهة تفكيك هذه البنية. ستكون «الضاحية الجنوبية» هي اكبر قنبلة موقوتة تواجه لبنان الجديد.

اتذكر ان صحيفة (السفير) البيروتية بدأت سلسلة تحقيقات مثيرة عن هذه المنطقة في مطلع الثمانينات تحت عنوان «الضاحية الجنوبية: ربع الوطن». وكان تقدير عدد سكان الضاحية يناهز، انذاك، ٨٥٠ الفا. بعد نحو ست عشرة سنة وتواصل موجات التهجير من الجنوب والتناسل الذري لسكانها فان مضاعفة الرقم هو التقدير الاكثر تحفظا لما وصله عدد سكان الضاحية الجنوبية.

لن يكون مبالغا فيه ان تبدأ (السفير) او غيرها من الصحف اللبنانية تحقيقا، الان، تحت عنوان: الضاحية.. نصف الوطن!

***

كان منظمو المؤتمر قد حجزوا لنا سكناً في «فندق كارلتون» على «الروشة». وصلت حافلتنا الى الفندق مع بدء حفل الاستقبال الذي اعد للمشاركين. وكنا اخر الواصلين.

اعتدت، من قبل، ان اشارك في مؤتمرات ومهرجانات اعرف، على الاقل، نصف المشاركين فيها. لكنني اكتشفت انني لا اعرف احدا من المشاركين في «المؤتمر القومي السادس». فباستثناء الصديق الكاتب والناشر رياض نجيب الريس الذي وجدته مشتبكا في الحديث مع ثلاثة او اربعة من المشاركين فلم اقع على وجه اعرفه. حرفيا لا احد. فهم، جميعا، من سلك اخر لم احتك به من قبل: ساسة

متقاعدون، اكاديميون في حقل السياسة والاقتصاد، نشطاء في العمل السياسي القومي والاسلامي، محترفو مؤتمرات جمعهم الدكتور خير الدين حسيب رئيس «مركز دراسات الوحدة العربية» تحت سقف واحد. فوجئ رياض الريس بوجودي في بيروت واتفقنا، بعد دردشة قصيرة، ان نلتقي في اليوم التالي. لم اطل المقام بين هذا الجمع البابلي فانسحبت الى غرفتي. كنت متعبا بعد رحلة بدأت الاستعداد لها في الساعة السادسة صباحا في لندن. خمس ساعات طيران ومثلها واكثر بين تأهب وانتظار وتأخير.

ولكن ماذا افعل في الغرفة والساعة لم تبلغ التاسعة. كان رقم الهاتف الوحيد المدون على مفكرتي هو رقم عباس بيضون الذي التقيته، عرضا، في باريس قبل ايام من مجيئي الى لندن. توقعت ان يكون قد عاد الى بيروت بعد ان شارك في امسية شعرية اقامها «بيت ثقافات العالم» في باريس في اطار شهر ثقافي لبناني وكان من المفترض ان تضمه وانسي الحاج ويقدمهما ادونيس، لكن انسي لم يحضر واقتصرت الامسية على حضور عباس وقراءات بالعربية والفرنسية من قصائدهما.

لفرحتي وجدت عباس ولدهشتي اكتشفت انه عاد الى بيروت قبل ساعتين فقط. اي اننا وصلنا، تقريبا، معا. بعد نحو ساعة كان عباس بيضون في الفندق وكانت هذه هي المرة الاولى التي نلتقي فيها تحت سماء بيروت منذ الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. خرجنا من الفندق وعباس يرحب بي بدمدمة خاصة به. كانت سماء بيروت منقشعة ومشتولة بالنجوم. وكان بحر «الروشة» بظلمته الفيروزية العميقة ساكنا.

سألني عباس اين افضل ان نذهب. فقلت له «نتمشى» قليلا على «كورنيش الروشة» ثم نتناول قهوة في اي مقهى.

من مدخل الفندق الى الكورنيش مسافة قصيرة ولكن تعين علينا ان نمر من بين جرافات ضخمة مستكينة الى ثقل حديدها وحفر كبيرة كانت هذه الجرافات تنهشها بمخالبها الفولاذية نهارا ولا ريب. تذكرت ان شوارع بيروت، هي غالبا، بلا

ارصفة. لا حيز للقدم في بيروت فالاسمنت المسلح هو سيد المدينة. وله ان يملأ الفراغ كيفما يشاء. عندما تركت بيروت كان من الصعب ان « تتمشى » على كورنيش الروشة. كانت « البسطات » و« البراكيات » التي تعرض ثيابا وبلاستيكا وعطورا رخيصة ومشروبات روحية وساعات والعاب اطفال (معظم هذه السلع من بلاد النمور الاسيوية) تسد الطريق تماما. ولم يكن ممكنا ان ترى البحر الا من خلال تقطع نادر في هذه السلسلة المتماسكة من « البزنس الصغير ».

ويبدو ان اول خطوة للدولة العائدة بطموح « اعادة لبنان الى ما كان » كانت اجتثاث بعض مظاهر « الامر الواقع » الذي تكرس في غيابها، ولم يكن هناك مظهر تسلط على الصورة السياحية التي عرفناها للروشة كما ظهرت في الافلام المصرية واللبنانية مثل هذا البازار الشعبي المرتجل. فبدأت به الدولة. محته. والدولة العربية تتجلى قوتها في المحو والازالة. وهكذا ظهر البحر مرة ثانية بعد ان احتجب طويلا وراء سلع « هونغ كونغ » و« تايوان ».

«الروشة» في زمن جديد

هي ذي الروشة اذن، وقد عادت الى من كانت عليه. سوى ان الحركة فيها اقل مما يتوقع المرء في « زمن السلم » المرعي بمظاهر مختلفة من قوة الدولة العائدة والمؤيد بأربعين الف جندي سوري.

ولا بأس ان تكون الحركة قليلة، فلعل مرد ذلك برودة الطقس النسبية، فالمهم ان توقع الاشتباك المسلح او الانفجارات في اية لحظة لم يعد يحكم حياة البيروتيين. هذا واضح لي. واضح في الوجوه التي لم تعد تلتفت الى الوراء لسبب او دون سبب كي لا تفاجأ بمقتلة. واضح في هؤلاء الذين يرتدون بذلات رياضية ويمارسون هواية الركض على طول الكورنيش. وواضح في السيارات القليلة التي تتوقف ويترجل منها شاب وفتاة يستأنفان تقاليد غرام كادت ان تنقرض في زمن الكاكي.

اقول لعباس بيضون ان حالة السلم تبدو جدية. فيؤيد ذلك ويقول: بل لا تراجع عنها، داخليا، على الاقل. فالاطراف تساوت كلها في الضعف والانهاك. لم يعد هناك عصب يجيز ويحمي الاحتكام الى السلاح. لكن حالة السلم اسفرت، يضيف عباس، عن خلل في الميزان الداخلي. فالمسيحيون، الذين من الصعب تصور لبنان دونهم، يعيشون احباطا وانسحابا عامين. وهذا امر مقلق لبنانيا. فالشعور الذي ينتابهم هو ان «التسوية السياسية »التي كرسها «اتفاق الطائف» تمت على حسابهم. اضعفت وجودهم وتأثيرهم في الميزان السياسي الداخلي. هذا لا يعني بالضرورة، ان اطراف المعادلة اللبنانية الاخرى انتصرت. فالضعف هو الذي يطبع الجميع بطابعه. لا احد قوي ومؤثر من اللبنانيين في لبنان. لكن حالة السلم التي تراها مهمة فهي بداية احتكام ما الى السياسة، وان كانت هناك الكثير من الملفات الصعبة المؤجلة.

لا يخفى التشاؤم العميق الذي يظلل كلام عباس بيضون، خصوصا، عندما نتحدث عن «مستقبل لبنان». ولن ينفرد عباس بهذا التشاؤم لوحده بل سيشاركه فيه جميع الذين التقيتهم. صحيح ان الميليشيات والتنظيمات المسلحة «سلمت» اسلحتها الى الدولة وانسحبت من الشارع، وصحيح ان الامن استتب في العاصمة والقانون استعاد هيبته، لكن البلد كله يوضع على سكة سياسية واقتصادية لا يستطيع اللبنانيون، بمختلف طوائفهم، مجاراتها طويلا. هذا ما سيؤكده لي، لاحقا، كثير من المثقفين والمناضلين السابقين واناس عاديين تحدثت اليهم في المقهى او سيارة الاجرة.

كنت اتوقع ان اجلس وعباس في اي من مقاهي «الروشة» الكثيرة التي كنا نرتادها سابقا. ولكننا لم نجد مقهى واحدا. ف«الغلاييني» الذي كان من اوائل المقاهي التي ارتدتها في بيروت لم يعد موجودا، على الاقل بالاسم البيروتي العريق نفسه، فتحول الى مطعم يدعى «ميريلاند». اتوقف امامه مسترجعا ايام الامل الكبيرة. فمن شرفته الطويلة المظللة المفتوحة على البحر كنت اسافر في مجهول

القصيدة ومعلوم السياسة. كنت اسمح لنفسي بهذا الانفصام. القصيدة رحلة مخيلة مفتوحة على المجهول والسياسة يقين تام. ثقة مطلقة بان الزمن الذي نحلم به قادم لا ريب. لعلني لم افكر، انذاك، انني كنت أؤلف بين حدين: حد القلق وحد اليقين. والا كيف كنت ماركسيا متصلبا ولم يشجني التغني بالثورة والطبقات الكادحة؟

في مقهى «الغلاييني» ذي الطابع البيروتي البلدي السمح الذي أمرُّ أمامه الان مع عباس بيضون الغافل عن تداعياتي قرأت اكثر من كتاب شعري وتناقشت بحمية العشرين مع عماد الرحايمة وجواد البشيتي وغيرهما على انفاس «الشيشة» و«ناره يا ابو الشباب» - في ميل «اليمين الوطني الفلسطيني» المتزايد الى «الحلول السلمية التصفوية» و«معضلات» حركة التحرر الوطني العربية، نمط الانتاج الاسيوي وتنظيرات المصري ابراهيم فتحي من جهة والسوري ياسين الحافظ من جهة اخرى في سبيل حركة شيوعية عربية جديدة.

وفي هذا المقهى، بالذات، قرأت لاول مرة «اغاني مهيار الدمشقي» بطبعة مجلة «شعر» ذات الورق الضارب في الصفرة. لم اكن قرأت، قبلها، كثيرا لادونيس. كان كأنه يأتي من عالم مجهول من لدني. شعر ذو جنوح ميتافيزيقي لم اعهده في الشعر الغنائي ذي النزعة التفصيلية الذي كنت مولعا به تلك الايام. اتذكر انني وقعت في كلمة الناشر على كلام عن الصوفية وعلاقتها بالشعر عند ادونيس. كان ذلك شيئا محيرا بالنسبة لي. فكيف تستقيم الحداثة والجدة مع «الكتب الصفراء» و«هلوسات» الصوفيين. لا. لا تبدأ «الحداثة» من الماضي. لا بد ان تبدأ، ان هي بدأت من الماضي، من جانبه المادي، من جانبه الاكثر «تقدمية». وما لم اره ذخيرة لحداثة القصيدة العربية صار، بعد وقت، كذلك. ستمضي سنوات قبل ان يمتص الفضاء الشعري العربي انفاس الصوفية التي تحدث عنها ناشر ادونيس في مطلع الستينات. فبعد ان تنطوي الحقبة الايديولوجية التي وجهت شطرا كبيرا من الحركة الشعرية العربية الى بغيتها سيطلع شعراء من المشرق والمغرب العربيين

يستثمرون الصوفية الى حد يغلب فيه المرجع الصوفي الخارجي على الشعر.

لحظتي ومزاجي يستعيدان من « مهيار » :

« مسافر دونما حراك :

ياشمس من اين لي خطاك » .

وفي هذا المقهى ايضا قرأت « ماذا صنعت بالذهب ماذا فعلت بالوردة » بطبعة دار « النهار » . لم اكن اجهل اسم انسي الحاج . فهو عرفناه واركان مجلة « شعر » من اخبار متواترة ينقلها مثقفون عن مثقفين فتكون مادة لحديث المقهى .

عند صديق لي في مدينة « الزرقاء » الاردنية، يدعى ابراهيم المومني وقعت على عددين او ثلاثة من مجلة « شعر » . كان اسم انسي الحاج بين اسماء هيئة التحرير، وكانت له مساهمة في احد هذه الاعداد . لكن ابراهيم المومني الذي يكبرني بنحو عشر سنوات ويكتب شعرا عموديا، قال لي ان هذه المجلة تنشر نثرا تسميه شعرا . لا اتذكر اني سمعت منه مصطلح « قصيدة نثر » . فهو ما كان ليقر انها قصيدة اصلا . كنت آنذاك في التاسعة عشرة من عمري . ولما جئت الى بيروت كنت اكتب شعرا موزونا . فالشعر، بالنسبة لي، هو ما يتحقق داخل الوزن . لا شعر، بل لا قصيدة خارج الوزن!

لكن « ماذا فعلت بالذهب ماذا صنعت بالوردة » ساهمت، مع غيرها من عوامل، في خلخلة مفهومي للشعر .

وذهبت الى ابعد من ذلك عندما صدّرت مجموعتي الشعرية الثانية مقطعا طويلا من انسي الحاج :

« عندما حصلت على الأكثر من احلامي

حصلت على الأكثر من الصحراء

وبعدها صعدت العرش والشجر الخالية منه الدنيا

حواني شجر البرد

ولم اتحطم ولكنني تعبت

ولن يبكيني احد
حقا
ولن يرتعشوا لغيابي
حقا كما كنت حاضرا
ولن يستوحشوا مثل برج
ولن يموتوا موتا يضاهي حياتي».

***

معالم كثيرة على «الروشة» تغيرت. ليس «الغلاييني» وحده هو الذي غير حلته القديمة بل ثمة علامات كانت «الروشة» تعرف بها لم تعد موجودة مثل مطعم «يلدزلار» العريق الذي اختفى هو والبناية التي يقع فيها من على وجه الارض. كذلك اختفى «الدولشي فيتا» الذي كان المقهى المفضل لعبد الوهاب البياتي وعدد من المثقفين العرب في الستينات.

فاذا لم يعد «الدولشي فيتا» موجودا فإن الارمني «مسْيس» بائع سندويشات «السجق» و«المقانق» لا يزال يحتل الزاوية الصغيرة المقابلة لمطعم «نصر». هذه علامة تدل على المكان لا تزال تحرس موقعه على خريطة الذاكرة.

قطعنا عباس بيضون وانا «الروشة» و«كراكاس» و«نزلة ابو طالب» ووصلنا الى «الحمرا» علنا نجد مقهى ولم نجد.

فمقهى «الويمبي» اغلق نهائيا كما اخبرني عباس منذ اشهر، وكان ندل «المودكا» يضعون الكراسي على الطاولات ويمسحون الارضية ايذانا بالاغلاق.

انظر الى «المودكا» بعين من يحاول ان يقف على ما انجزته ورشة الزمن من ازاحة وتغيير في المكان. اهذه هي حقا، المقهى التي دخلتها في ايامي الاولى ببيروت بشعر طويل وسحنة تفضح رهبة البدوي المقذوف، دفعة واحدة، الى مواضعات

المدينة وبروتوكولاتها المعقدة؟ اهذه هي، حقا، المقهى التي يوم دخلتها اول مرة نظر اليّ روادها، او هكذا خُيل لي، نظرة من يدخل مداره غريب؟ اكانت هذه الكراسي، هذه الطاولات، هؤلاء الندل بثيابهم الموحدة، هذا الاسم الافرنجي هو ما ارهبني ذات يوم وجعلني الوذ بـ « الفاكهاني » مستبدلاً ربعاً بربع؟

لا بد ان اعود وحيدا في غمرة الصباح، لاستعيد طعم اول قهوة تذوقتها هنا. هذا ما قلته لنفسي.

لاحظ عباس رغبتي في الطواف بشوارع ذلك الشطر من بيروت. فعبرنا « شارع بن عبد العزيز» من « الحمرا » ودلفنا الى « المكحول » لنصل منه الى « شارع بلس » (يحضرني الان تسكع الماغوط في الشارع الذي ترك لنا قصيدة جميلة باسمه)، ثم استلمنا « شارع السادات » من أوله (أم هو آخره؟).

كان « الأنكل سام » مغلقا، ولكنه على الاقل لا يزال موجودا باسمه وفي مكانه. علامة اخرى، رغم احالة الاسم الفادحة، لا تزال موجودة. كان عباس بيضون يحدثني، في الاثناء، عن رحلته الى باريس. وهي الاولى بعد ان ترك المدينة في اواخر السبعينات عائدا، مرة اخرى، الى لبنان الذي تنحى معظم مثقفيه عن مساندة المشروع السياسي المضطرب لـ « الحركة الوطنية ». شارك عباس اسوة بكثير من المثقفين اليساريين بالجهد السياسي والتنظيمي لـ « حرب السنتين » لكنه وصل، مبكرا، الى قناعة ظلت تتنامى، بعبثية الحرب. فالحرب، مهما كانت شعاراتها، تمزق وتشتت وتشظي ولا توحّد. قد توحد، بالقوة، مظاهر السطح لكن ليس الاعماق. لهذا، ربما، بدا لي عباس بيضون « قليل الوطنية » عندما التقينه اول مرة اواخر السبعينات في بيروت. كان نقده للحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، قد صنع له سمعة سياسية سيئة في وسط التحالف الوطني اللبناني - الفلسطيني. وعلى ما اظن فان احدا قبله لم يجرؤ، في غرب بيروت، على نقد « القصيدة الوطنية » بل وطردها، بلا رحمة، من فضاء الشعر. هذا النقد الذي كان يدأب على نشره في « السفير » وسع دائرة كارهيه واجهز على ما تبقى له من

« رصيد وطني » في الساحة السياسية. يحدثني عباس عن باريس، وسيفعل لاخرين امامي في اليومين المقبلين، حديث الذي صال وجال، بمفرده، في المدينة معتمدا على ذكرى اقامته السابقة فيها ناسيا، والنسيان احدى خصاله العظيمة، انه وصل، بشق الانفس، الى موعد ضربناه للقاء في اشهر معالم باريس: « كافيه دي لابييه » قبل ساعات من عودتي الى لندن. فلولا الحراسة الرقيقة لارواد إسبر ربما ما استطاع الاهتداء الى « بيت ثقافات العالم » الذي اقيمت له فيه امسية شعرية!

... واخيرا اقترح عباس، بعدما جاوزت الساعة الحادية عشرة، ان نذهب الى مقهى جديدة انشئت منذ فترة وجيزة في « شارع السادات » على مقربة من « كلية بيروت الجامعية » (U.B.C) الشهيرة. كان المقهى الذي يقع على ما اظن، بالقرب من بناية « بنك الرافدين » الحكومي العراقي (لم يعد له وجود ايضا) يعج بالرواد. اضطررنا الى الانتظار اكثر من عشر دقائق حتى خلت طاولة صغيرة انقضضنا عليها. فرواد المقهى كانوا لا يزالون يتوافدون حتى الساعة.

صارت هذه المقهى الجديدة التي تدعى City البؤرة الاكثر جذبا في بيروت الغربية. انها، بحق، مرآة للتحولات التي تشهدها المدينة. فلا يشبه روادها رواد اي مقهى بيروتي اخر. انهم ابناء وبنات الشريحة الاجتماعية الوحيدة في لبنان الضاربة صفحا عن غلاء المعيشة الخرافي. اللاهية عما اصاب البلد من افقار فعلي. سأجلس في هذه المقهى ثلاث مرات وستؤكد انطباعي بعمق الهوة بين الغنى والفقر في لبنان الجديد. ومع ذلك فلهذا المقهى حكاية بدأت مثيرة. فاصحابه هم اصحاب اشهر مقهى ثقافي عرفه لبنان في الستينات والسبعينات واعني « الهورس شو » وبعد ان صار هذا الاخير مطعما للهمبرغر والاكلات السريعة واغلق « الاكسبرس » وتراجعت ظاهرة المقهى في شارع « الحمرا » عمدوا الى اقامة هذا المقهى في مكان لا يبدو جذابا بالمرة. فتفاءل بقايا مثقفي الستينات والسبعينات والمثقفين الجدد الذين وقفوا على صيت « الهورس شو » من السابقين عليهم، بهذه البادرة، ظانين، ان المقهى سيصبح مقهاهم. عزز هذا الانطباع اللوحات التي قدمها

الفنانون وخوض الصحافة الثقافية في امره ناسبة الى اصحابه عزمهم على استعادة ماضي «الهورس شو» الذهبي. لكن الذي حدث ان المثقفين ضاعوا في زحام رواد من طراز اخر هجموا على المقهى بـ «الجيب شوروكي» (انزياح مدني لجيب الميليشيا والفصيل المسلح)، و«السلوليـر»، اي الهاتف النقال، (اللاسلكي العسكري وقد تحول بفضل التكنولوجيا الى شارة تدل على المنزلة الاجتماعية) والثياب الممهورة بتواقيع بيوتات ازياء اوروبية وامريكية عابرة للحدود والوطنيات.

ليس هناك ما يميز هذا المقهى سوى ايقاعه السريع ورنين الهواتف النقالة على الطاولات وفي حقائب السيدات. اية اعمال، اية صفقات تنجز عند منتصف الليل؟!

حاولت ان التقط في هذا الازدحام وجها اعرفه. لا احد. سألت عباس اين المثقفين اذن؟ فقال انهم لا يأتون الى هنا. بعضهم يأتي ويجلس في الداخل.

في اليوم التالي سألتقي الشاعر السوري الشاب حسين بن حمزة وسأسأله ان نذهب الى مقهى City وسيقول لي نحن لا نذهب اليها. فالمثقف لا يستطيع ان يمضي سحابة وقته على «طلب واحد». سيحملق به ندل المقهى الذين يمسحون المكان بأعين نهمة بحثا عن طاولة فارغة. ستنهره الاعين الى ان ينهض من تلقاء نفسه.

نحو الواحدة ليلا اودع عباس قرب بيته في «شارع اللبان» واستقل سيارة اجرة عائدا الى «الكارلتون».

السماء صاحية. السلام يخيم على المدينة التي لم تعد تحت رحمة كائنات الميليشيا والفصائل المسلحة.

ليل بيروت طويل لانه ليل نوم مسكون بوطأة العيش وليس ليل سهر.

احياء شبكة من الصور

أفقت في صباح اليوم الاول باكرا. ارتديت ثيابي ونزلت الى بهو الفندق. كان بعض «زملائي» في «المؤتمر القومي» يتوجهون الى قاعة الافطار. قررت ان اتناول قهوتي في مقهى خارج الفندق. فذهبت الى «كورنيش الروشة» فهو على بعد خطوات من «الكارلتون». كانت السماء غائمة بعض الشيء، وفي الجو لسعة من برد الصباح. لكن لا رياح. وبدلا من ان امضي في اتجاه سلسلة المطاعم شمالا مشيت جنوبا. كان اول ما طالعني هو فندق «الانتركونتننتال» ببنائه الازرق الكامد. ومن الخارج بدا لي كما كنت اراه في الزمن الماضي. فهو لم يزل مهجورا، غير انه لم يتداع. ظل كما كان عليه. علامة منخورة تدل على المكان وتذكر كل من يراه بما شهدته المدينة من مخاضات عسيرة.

لعل اخر ضربة وجهت الى هذا «الفندق الكولونيالي» جاءت من البحر اثناء حصار بيروت. يومذاك كان هذا الساحل مجال موت ممغط. فمن جهة البحر كانت تربض البوارج الحربية الاسرائيلية، وعلى البر كانت تنتشر كمائن ومجموعات فلسطينية ولبنانية مقاتلة تترصد، بيأس، خروج الجندي الاسرائيلي من قلعته البحرية. أذكر ايضا انه بالقرب من هذا الفندق نصب «مجهولون» كمينا لسيارة نقيب الصحافيين اللبنانيين رياض طه واردوه قتيلا. حدث ذلك، اغلب الظن، مطلع الثمانينات. اتذكر صورا للجريمة نشرتها الصحافة غداة اغتياله: رأسه المضرجة بالدم مائلة على مسند مقعده. السيارة التي من نوع مرسيدس مطرزة بالرصاص.

كان «الانتركونتيننال» بلونه الازرق الكابي الكئيب يذكرني دائما بمبنى «المخابرات العامة» في عمان. كنا ايضا نسميه، رمزيا، «الفندق الازرق»!

لاح لي، بعدما جزت «الانتركونتيننتال»، جانبا من شاطىء «الرملة البيضاء» وهذا يعود بي الى حيدر حيدر الذي كان يقطن في احدى بنايات «الشاطىء الذهبي» على مبعدة خطوات من البحر. كنا يومذاك متلازمين تماما. نادرا ما

نفترق. فقد كنت امحضه اعجابا كاتبا وشخصا.

ففي عمان قرأت روايته «الزمن الموحش» بحضٍ من محمد داودية وادهشتني خصوصا «لغتها الشعرية» التي صرفتني عن عالمها القاتم. ولما جئت الى بيروت كان حيدر حيدر من اوائل الكتاب العرب الذين سألت عنهم بشغف الناشيء الذي يرغب في رؤية أديب مشهور.

«الرملة البيضاء» هو الشاطيء الرملي الوحيد في هذه الوجهة من بيروت. فالروشة صخرية بالكامل وكذا شاطيء «المنارة» امام الحمام العسكري بالقرب من مقهى «الروضة» البلدي فكان حكرا على الجيش اللبناني.

أهم ما في «الرملة البيضاء» يومذاك، عدا كونه ساحلا رمليا، انه لم يكن مستثمرا من فندق او ناد، فأسميناه، هازلين، «السان بلاش»!

كانت معظم الشواطيء اللبنانية الجيدة مستثمرة. وظلت تعمل حتى في اسوأ الايام. وكان على الفقراء ان يخرجوا قليلا من بيروت، الى الاوزاعي مثلا، لينعموا بالسباحة في بحر يعج بألوان الطيف الاجتماعي العجيب.

الساحل اللبناني ضيق عموما وصخري في معظم جانبه البيروتي. فبيروت، كما اسلفنا، هي هضبة على شكل لسان يمتد في البحر، ليس لها انبساط ساحل الدامور او صيدا وصور. لا اعرف شيئا عن الشمال لأتحدث عنه.

***

ها انني لا افعل شيئا سوى محاولة احياء شبكة من الصور المندثرة. كأنني لم آت الى بيروت الا للتيقن، مرة والى الابد، انني عشت في هذه المدينة فعلا، ولم يكن الامر مجرد التباس من النوع الذي ينتاب المرء فتتشابه عليه الصور. الم نمر جميعا بمثل لحظة الالتباس هذه: نشم رائحة او نسمع اصواتا او نرى وجوها في مكان ما فتحيلنا الى لحظة غامضة يصعب تحديد زمانها ومكانها. بل يصعب الجزم بوجودها

اصلا. هذا ما ينتابني الآن وانا احتسي قهوتي في «المودكا». ليس وعيي بالمكان كافيا لأوجد، وليس وجودي كافيا لاكون. اين وقعه على حواسي اذن، اين فعاليته، اين ثقله، خفته، كثافته؟ كأنني مجرد طيف يجلس على طاولة في شمس الصباح يحاول ان يتلمس اطرافه الاثيرية.

لا طعم القهوة يردني الى ما «كنته» ولا ديكورات المقهى الرثة ولا وجوه رواده القلة ولا هؤلاء المارة ولا الشمس الطفيفة التي تسقط على يدي المبسوطتين في حياد على الطاولة.

انني ما أزال في «نص المكان» لا المكان نفسه. هل سبب ذلك ان عودتي الى بيروت هي عودة زائر فرد، بينما لم يكن وجودي فيها كذلك. كنت جزءا من حالة. كنت مواطن عالم انطوى تماما: بناسه واعلامه وشاراته واسلحته وكتبه وتجاوزاته ومعجمه واحلامه. عالم اندثر دون ان يترك اطلالا. فنحن اطلاله. وشمه الحائل.

اغادر «المودكا» خالي الوفاض من تلك اللحظة الاستثنائية التي اسعى الى اصطيادها: لحظة تطابق الصورة مع الملموس. اللحظة التي تبعثها الرائحة أو التذوق أو الرؤية حية .امشي في «شارع الحمرا» بلا قصد تقريبا. صار المكان رثا على نحو لم اتخيله. لا. ليس هذا هو الشارع الذي كان ملء السمع ومسرحا للحداثة العربية وشخوصها. لا. ليس هذا هو «شانزليزيه» العرب. انه مسخ «شارع الحمرا» وليس «شارع الحمرا» ذاته.

اتطلع الى واجهات المحال التي كانت تبهرنا ذات يوم بسلعها وطريقة عرضها فتصدمني الارقام الفلكية التي وصلت اليها الليرة اللبنانية.

لا افهم شيئا في المارثون القاسي الذي خاضته هذه العملة مع الدولار. ورغم ان الحكومة اللبنانية اجبرت الباعة على تسعير السلع بالليرة، بموجب قرار رسمي، فالدولار، لا يزال، عملة الفياس.

اما الليرة فمرتبطة بنبض رئيس الوزراء رفيق الحريري. قوتها (اعني استقرارها) من قوته وضعفها (اعني انهيارها) من ضعفه.

ورفيق الحريري هو عنوان كل شيء في لبنان الجديد: من شركة «سوليدير» العملاقة الى تلفزيون «المستقبل» مرورا بالصحافة وكرة القدم والعقارات والمرافق الصحية الضخمة. يندر ان يكون هناك قطاع في لبنان ليس للحريري سهم فيه. فرجل الاعمال اللبناني هذا الذي جمع ثروة هائلة من اعماله في السعودية، و«تمتع» بجنسيتها، صار عنصرا تكوينيا اساسيا في بنية البلد. فاذا انسحب منها انهارت، او تخلخلت، هذه البنية.

لا يد تعلو فوق يد الحريري. لا رئيس الجمهورية الراهن بخفة موازينه الشخصية والتمثيلية غير المسبوقة ولا امراء الطوائف الذين جردهم «السلم الاهلي» من بعض شوكتهم.

لم يكن عباس بيضون يهزل، تماما، عندما قال لي ليلة الامس انه لم يبق شيء مهم في لبنان لم يشتره الحريري. كنا نتحدث عن الثقافة والمثقفين والصحافة فقلت له:

وأنت؟

فأجاب: يبدو انني لست مهما على الاطلاق!

هدير الطائرات

لم أنعم سوى بيومين من السلم في بيروت. في اليوم الثالث عادت الى المدينة اسوأ ذكرياتها: اجتياح عام ١٩٨٢. كأنني على موعد مع هدير الطائرات الحربية الاسرائيلية الذي لم تشهده سماء بيروت منذ الخروج الفلسطيني الى بحر مخفور بالمارينز. ومع ان الجنوب اللبناني لم يهدأ يوما فبيروت تُركت لترفع فيها الدولة اللبنانية العائدة من منفاها الداخلي الطويل قواعدها وتبسط قوتها.

بيـروت حـد الدولة الاكـثـر وضـوحـا فلم تمسـهـا الطائرات . كـفّت الطائرات الاسرائيلية هديرها عنها اربعة عشر عاما استهلك خلالها لبنان خمسة رؤساء : اثنان قتلا واثنان نفيا وواحد باق جددت ولايته خلافا لاحكام الدستور .

الجنوب عالم له بؤسه ومواضعاته الخاصين . فهو حقل رماية مسوّر بالنسيان . الموت فيه عادي لا يثير شغف كاميرا ولا يجتلب فضول صحافي . وفي زمن « سلام رب الجنود » صـار الجنوب اكـثـر من اي وقت مـضى منصـة لاطلاق « الرسـائل » الاقليمـيـة . فلما سـمـعنا بالقصف والقـصف المتبادل في الجنوب عـرضا في راديو سيارة اجرة او قرأناه خبرا جانبيا في الصحيفة اعتبرناه حدثا من « حواضر البيت » او في تقـديـر اخـر « رسـالة » في طريق البـريد السـوري ـ الاسـرائيلي الذي ليس من الضروري ان يمر، دائما، في دمشق أو تل ابيب . اشتد تبادل النار في الجنوب ولكن بيـروت ظلت تنام، مطمـئنة، الى فكرة انهـا لـم تعـد ممرا للطائرات الحـربيـة الاسرائيلية . هناك اتفاق اقليمي ودولي، غير مكتوب، لتحرير بيروت من صورتها القديمة . ومن مصلحة الاسرائيليين، قبل غيرهم، ان يعززوا هذا الميل المشحون، هذه المرة، برغبة اهلية خالصة . فاللبنانيون، عموما، لا يفهمون اليوم لماذا تبقى جراحهم مفتوحة دون سائر الجوار ولماذا لا يصيح الصائح العربي او الاقليمي صيحته ضد اسرائيل و« الاستكبار العالمي » الا في الفضاء اللبناني؟

مطمئنين الى ان مدينتهم لن تبلغها « الرسائل » المبتغاة من الاشتباك بين اسرائيل و« حزب الله » في الجنوب نام اهالي بيروت لثلاث ليال فقط . وستبرهن السماء التي ترعى فيها بضع غيوم بيضاء انها صالحة لـ« نزهة » مريحة للطائرات الأسرائيلية . اللامفكر به حصل .

***

بعـد جولة لا هـدف لها إلا « تفـقـد » الامكنة في محيط « الحمرا » ذهبت الى جريدة « السفير » التي تراجع شعارها القديم « صوت الذين لا صوت لهم » الى

الصفحة الاخيرة ليحل محله على الصفحة الاولى شعار جديد يقول: «جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان». لم يتغير مكان «السفير» في نزلة «البريستول» ولا تغير محيطها. الامر الوحيد الملحوظ هو وجود حراسة من قوى الامن العام اللبناني عند مدخلها. سابقا كان هناك مقاتلون من التحالف الوطني اللبناني ـ الفلسطيني الذي كانت الصحيفة تعبر عن خطه السياسي العريض. ولم يكن وجود مسلحين، يومذاك، مجرد شارة وجاهة لرئيس تحريرها بل ضرورة أمنية. فطلال سلمان الصحافي اللبناني ذو المنشأ القومي العربي خاض الحرب على رأس صحيفته قريبا من «التيار الوطني» وردائفه العربية. وقد تعرض للاغتيال اكثر من مرة كما تعرض مبنى الجريدة، هو الاخر، لاطلاق صواريخ. كانت بيروت الغربية، بحكم التعدد الفصائلي الذي وصل الى حد التشرذم، اكثر عرضة للاختراق من نظيرتها بيروت الشرقية التي احكم فيها القائد الكتائبي الراحل بشير الجميل قبضته وصهر تعددها الفصائلي بمرجل دموي، تحت رايته. فصارت هناك مرجعية أمنية واحدة بينما ظلت المرجعية الامنية في بيروت الغربية منعددة واحيانا كثيرة متنابذة.

لم يبق في صحيفة «السفير» سوى قلة ممن اعرف. فقد شهد الوسط الصحافي اللبناني هجرة وتبدلات جذرية. فهناك من استقطبتهم الصحافة العربية المهاجرة وهناك من امتصتهم الصحافة الخليجية ومن بقي منهم تداولتهم الصحافة المحلية التي تكاد تنعدم بينها الفوارق السياسية هذه الايام.

هكذا لم يبق احد في القسم الثقافي في «السفير» ممن عرفت سابقا. فالياس خوري الذي ادار هذا القسم نحو عشر سنوات انتقل الى صحيفة «النهار» ليصدر ملحقا ثقافيا اسبوعيا وهاجر محمد علي فرحات الى كندا اول الامر ثم استقر في صحيفة «الحياة» في لندن، اما عباس بيضون الذي كان كاتبا مشاركا فانتقل الى ملحق «النهار» الثقافي ولم يعد محمد العبد الله يظهر بجرمه الضخم في مبنى الصحيفة. بينما تسلم القسم الثقافي في «السفير» الشاعر بول شاؤل الذي كان

من كتاب « النهار » .

فعمن سأسأل في « السفير » ؟

سألت عن الشاعرة والصحافية عناية جابر التي التقيتها قبل نحو عامين في مهرجان « جرش » في الاردن وقرأت لها، لاحقا، مجموعة من القصائد الملفتة للنظر .

فوجئت عناية جابر بوجودي في بيروت وهي التي تعرف صلتي القديمة بالمدينة وكذلك فوجيء عبيدو باشا الكاتب والصحافي والمسرحي النشط . فمعرفتي به ترقى الى اواخر السبعينات عندما كان شابا صغيرا يتلمس مواقع خطاه في الساحة الفنية وليس في الوسط الصحافي .

اظن ان مكتب القسم الثقافي في « السفير » في الطبقة الرابعة لا يزال هو نفسه لكن احدا من « الحرس القديم » لم يعد هناك .

وجدت إلى جانب عناية وعبيدو اربعة من الشعراء الجدد : اسكندر حبش وبلال خبيز وعلي مطر وحسان الزين . كانوا يشربون الشاي او القهوة ودخان سجائرهم يضبب المكان . سررت لرؤية هذا التقليد القديم لا يزال ساريا . فدور الصحف العربية في المهجر لا تحض على الزيارة . بل انه لا يمكن دخول بعضها دون موعد مسبق و« كارت » الكتروني تفتح به الابواب، هذا ان لم يخضع الزائر الى التفتيش ايضا!

ليس هناك، لحسن الحظ، شيء من تكنولوجيا القهر هذه في بيروت . فلا يزال الشاعر الناشيء يمضي بقصيدته الى الصحيفة مباشرة والكاتب يحمل نسخة من كتابه الجديد ويقدمه الى المحرر التقافي . ولا يزال المثقفون يجدون متسعا من الوقت ورحابة في الصحيفة ليشربوا شايا في مكاتبها ويتجاذبوا اطراف الحديث . ليس الصحافي او الكاتب موظفا تمتص الجريدة روحه على مدار ساعات العمل الرسمي وتلفظه في اخر النهار خائر القوى لا يكاد يتبين موضع خطاه في قطار الانفاق او في الحافلات المكتظة بالخليقة البائسة مثله .

لا. ليس الصحافي في بيروت كذلك. مع ان المدينة وناسها يلهثون وراء عيش يزداد عسرا كل يوم. رغم كل شيء لمّا تزل هناك فسحة للزيارة وشرب الشاي والتدخين والحديث الذين يتناول اعمالا ادبية منشورة هنا وهناك.

فشكرا لعالمنا الثالث فلا تزال نعمة وقته سابغة.

غواية بيروت

في مكتب القسم الثقافي في «السفير» كنا نحو سبعة اشخاص، سمعت حسان الزين يتحدث بالهاتف مع شخص في قسم آخر في الصحيفة. وورد اسم حسين بن حمزة عرضا. فسألت حسان الزين عنه فقال انه يزور زميلا في مبنى الجريدة فطلبت منه ان يسأله الحضور. قال هل اخبره انك موجود هنا فقلت له لا. فقط دعه يأتي. وفعلا وصل بعد دقائق. كان وجهه يبدو انحف مما كان عليه في الصورة التي ارسلها الي من حلب قبل بضع سنين. هنيهة تطلع خلالها حسين بن حمزة الى الزائر الغريب الجالس بين مثقفين ينفثون دخان سجائرهم في الهواء. ثم اقبل عليّ يضحك. كانت له سن ذهبية تمنح ضحكته طابعا ريفيا.

لم التق بن حمزة من قبل. ولكنه ترك عندي احساسا بالصداقة التي تصنعها، لوحدها، الكلمات. لعله الشاعر الوحيد الذي اهدى اليّ واحدة من قصائده دون ان يكون بيننا اي تماس. كانت تلك لفتة جعلتني أتأمل في حياة الكلمات. ليس أمرا هينا ان تنقل كلماتك حياتها الى شخص اخر. ان تنبض فيه. ان تنسج الكلمة بينك وبين الاخرين خيوط حياة غير مفكر بها من قبل. بهذا الاحساس الذي لا يتكرر كثيرا التقيت الشاعر السوري حسين بن حمزة الذي جاء الى بيروت مهتديا، كما قال، بخربطة ذهابي اليها اول مرة. كان بن حمزة فد قرأ فصلا من سيرة شخصية لي عن بيروت نشرته في احد اعداد مجلة «نزوى» الثقافية.

ففال لي ضاحكا: كان معي من النقود اكثر بكثير مما كان معك عندما جئت

الى بيروت.

من « مطعم الأندلس » الى « نزلة ابو طالب » مشيت مهتديا بالخريطة التي رسمتها لبيروت يوم وصلتها أول مرة.

مثلك لم اكن اعرف احدا ولكنني جئت. وها أناذا في بيروت منذ سبعة اشهر.

أدهشني حسين بن حمزة. أدهشني اكثر ان تكون المجلة التي يصدرها سيف الرحبي في مسقط قد وصلت الى حلب وصار صدى خطوتي المتعثرة في بيروت حافزاً لشاعر اخر سيأتي من الأطراف بعد عشرين سنة.

إذن فصورة بيروت، رغم الرصاص الذي خردقها، لا تزال تهتف لشعراء بالغواية نفسها التي هتفت بها إلينا أول مرة.

الى بيروت يحمل شاعر الداخل العربي قلبه ومخطوطته ويمضي. تغويه صورة المدينة كما رسمها عشاقها وحاملو وشمها المتشظون في الافاق، فيأتي. يصنع أصدقاء في المقهى واسماً في الجريدة. لبيروت في الذاكرة العربية مجد أعلى من عرف نهار متغطرس.

هيا يا حسين بن حمزة. فمن قبلك جاء شعراء الى بيروت لمجرد رؤية سعيد عقل أو نزار قباني، يوسف الخال أو أدونيس، أنسي الحاج أو خليل حاوي، محمود درويش أو معين بسيسو.

من « السفير » الى « النهار » ذهبنا حسين بن حمزة، وأنا. كنت أرغب في رؤية إلياس خوري وبسام حجار. كان إلياس مسافرا الى امريكا لمناسبة ترجمة احدى رواياته الى الانكليزية. وجدنا في مكتب ملحق « النهار » الثقافي بسام حجار الصديق الذي لم أره منذ أربعة عشر عاما. لم يبق من سمته القديم ما يدل عليه: لا لحيته الجيفارية، ولا جسده النحيل. لكن عينيه الهادئتين اللتين تعكسان توتر اعماقه لا تزالان تملكان الايحاءات نفسها.

وها نحن نلتقي يا بسام بعد ان جزنا الاربعين. اقول له. انا دارت بي الدنيا دورة

كاملة وانت لا تزال تواظب على سفرك اليومي من صيدا الى بيروت ومن بيروت الى صيدا. الرحلة نفسها التي كنت ألقاك، احيانا، في منتصفها عند كافيتيريا «الجندول» في كورنيش المزرعة تحت ثقل الظهيرات، تتدلى من كتفك المائلة حقيبة جلدية ومن لحيتك الجيفارية الخفيفة تفوح رائحة السجائر الفرنسية. تكون قد غادرت صحيفة «النداء» واكون خارجا من مجلة «الهدف». نلتقي عند المفترق الذي يؤدي الى جسر «الكولا». انت تذهب الى «كراجات صيدا» وأنا الى «فوييه الدومنيكان» مشيا على الاقدام للقاء هند.

لا أتذكر بسام حجار إلا على هذه الهيئة. وفي هذا المكان بالذات. لا اذكر اننا التقينا في مقهى فهو لم يكن يطيق البقاء في بيروت. يأتي إليها لأداء عمله فقط. كنا في السن نفسها. كان هادئاً يحرك اعضاءه ببطء، وكنت متفجرا اخض الهواء بيدي، كان يكتب «قصيدة نثر» وكنت اكتب قصيدة موزونة، كان في صحيفة الحزب الشيوعي، وكنت في مجلة «الجبهة الشعبية». معا اصدرنا اولى اعمالنا الشعرية هو عن دار «الفارابي» وانا عن دار «ابن رشد» (تأملوا هذين الاسمين المستعادين لاستئناف جانب تقدمي من التراث لم يؤسس مشروعا).

يضحك بسام حجار بشيء من الصعوبة، مبعثها الألم على الاغلب، عندما أبسط له جانبا من صفحة الماضي.

كان هناك أمل، كانت لنا احلام. فماذا تبقى من كل ذلك؟ وقعنا من أعلى جيادنا فتلقفنا الوعر. مكتهلون ولما نبلغ الكهولة بعد. الضوء الذي لمحناه في صخب فتوتنا طلع خُلْباً. نمشي الى الامام مدفوعين بقوة العصف ورؤوسنا الى الوراء. اي صورة من صور بلادنا تمثلنا الآن. عن ماذا تعبر كتابتنا وأي قراء لها، كيف نفهم ما يكتبه اللاحقون علينا الذين لم بروا إلا حطام المدن والاحلام والافكار الكبيرة.

على هذا النحو الرثائي المختلط تداعى حديثي مع بسام تقطعه بين حين واخر نظرة خاطفة مني الى يديه اللتين كانتا ترتجفان. لفتت نظري هذه «الظاهرة» التي

رأيتها تغزو ابناء جيلي في المهجر والاوطان سواء بسواء.

انتقل بحديثي مع بسام حجار الى راهن بيروت فأجده متشائما. الوضع المعيشي يرخي سدولا ثقيلة على مشهد المدينة. يقول لي بسام ان اللبناني يحتاج الى ثلاثة اعمال كيما يتمكن من العيش يوما بيوم.

يلاحظ، ايضا، ان الطبقة الوسطى حاملة الوعي والافكار تنسحق تحت وطأة العيش. سيكون مآلها مآل نظيرتها في مصر.

أسأله: اهذا ما يراد للبنان؟

فيجيب: ربما يكون الامر مقصودا. فلا شيء يبرر هذا العيش المكلف والبائس في آن. سحق الطبقة الوسطى، كما تتبدى مقدماته الآن، سيسلم البلد، دون ضجة، الى أمراء المال اللبنانيين والخليجيين بعد ان قلبته ذات اليمين وذات الشمال أيدي امراء الحرب. فمن سيملك القدرة على الاعتراض، بل قل من سيجد وقتا ومنبرا ليعترض.

لا يحتاج المرء الى الحفر داخل البنية ليكتشف ذلك. فالأمثلة تطفو على السطح. فقد تصادف وجودي هناك مع زيارة قام بها الى بيروت رجل الاعمال الكويتي عبد العزيز البابطين الذي دعا الى حفل عشاء في مطعم «السمرلاند» لمناسبة صدور «معجمه الشعري» فتدافع اليه عدد كبير من المثقفين والاعلاميين اللبنانيين. اما مكاتب الصحافة الخليجية في بيروت فهي منتشرة بكثرة. وتحت ضغط الضائقة الاقتصادية فالكل يتعامل معها. هذا عدا عن النفوذ المباشر داخل المؤسسات الاعلامية والتشريعات الحكومية التي تضع خطوطا حمرا لحرية التعبير.

لقد ضيقت الرقابة المتزايدة على المصنفات الادبية والفنية هامش الحرية الذي ساهم، بين عناصر اخرى، في صنع سمعة بيروت كمنبر للاختلاف والتعدد في الرأي والفكرة. فصارت تُصادِرُ او تمنعُ من التوزيع كتبا او صحفا لتخطيها الحد الذي رسمته الدولة للاخلاق والعقيدة ولمصالح لبنان على المستوى الاقليمي.

واليوم تستعد الدولة الى طرح مشروع لتنظيم الاعلام مثير للجدل. فمن اصل اكثر من خمسين محطة تلفزيون خاصة سيرخص لنحو ست محطات وكذلك الامر في ما يتعلق بالاذاعات الخاصة التي تزيد عن المئة وخمسين! ومن الصعب التكهن، الان، بما ستسفر عنه معركة ارادة الدولة المتصادمة، لا محال، مع ارادات لاعبين ومتنفذين اقليميين في «الساحة اللبنانية».

الثابت، في معظم التقديرات، ان ارادتين ستكتب لهما الغلبة: ارادة البترودولار وارادة المجال الحيوي. التاريخ، ايضا، ارادة مغيبة لم يحسب لها المقتدرون حسابا.

«بيتي» في «الطريق الجديدة»

تهيبت الذهاب الى «بيتي» في «محلة ابو شاكر» بل والى منطقة «الطريق الجديدة» كلها. كنت كمن يقدم قدما ويؤخر اخرى في حملة فتح لقلاع غامضة. لن اجد شيئا من اطياف الذاكرة في الازقة التي تتألب عليها الرطوبة وخطى العابرين. الكائنات التي كانت تهب ذلك الكوكب الصغير الضوء والعتمة والصخب هجرته الى الابد. تفرغ المكان من اثقاله. من ساكني نهاراته ومطولي لياليه.

قد يكون موجودا بالهندسة المضنية التي كان عليها غير ان فحواه تغيرت. أقله، بالنسبة لي. ولكنني مع ذلك ينبغي ان اذهب. سأذهب ولكن ليس وحيدا. سيأتي معي حسين بن حمزة. هكذا اتفقنا على اللقاء في الحادية عشرة والنصف صباح اليوم التالي. قال نلتقي في «مطعم الاندلس» الذي كان اول اتصال قلق لي مع المدينة. هناك جلست مع محمد المجند بعد اربع وعشرين ساعة من وصولي الى بيروت. كيف لي ان انسى ذلك. فلولا ذلك اللقاء لربما اتخذت حياتي اطوارا اخرى. سنلتقي في ذلك المطعم الذي اوصلني، لاحقا، الى ارض لم تخطر لي على بال والى اناس لم افكر بلقائهم والى صروف حياة ما كنت سأعيشها، بل والى ما انا

عليه الان من تباريح احلام اعترض طريقها اقزام وعماليق وافاقون ومغتصبو اشواق.

نحو الحادية عشرة كنت استقل «السرفيس» الى «الطريق الجديدة». مرت سيارة الاجرة من الطريق المعهودة: الروشة، كلية التربية، مستديرة اليونسكو حيث تمثال حبيب ابو شهلا أحد رموز الاستقلال في لبنان. لكن التمثال لم يعد موجودا. شلع من اساسه ابان تبادل شلع الهالات الرموز. نصنع من الحجر رمزا ثم تصير له حياة نقتص منها في ما بعد. كأننا نريد ان نريق دم الحجر. ان نراه يسيل من الكتلة الصلدة التي احتملت، بصبر الطبيعة العجيب، خبط اجنحة الليل والنهار وتعاقب الفصول المضني. تذكرت انوف التماثيل الرومانية التي جدعها العرب في بلاد الفتح. نبهني الى ذلك، لأول مرة حسن خضر الذي قادني قبل سنوات في جولة في متحف تونس. جدع الانف هو تحطيم نهائي للكبرياء، حتى لو كانت من حجر.

لم تكن سيارة الاجرة تجاوزت مستديرة اليونسكو كثيرا عندما سمعنا، فجأة، صوت انفجارات قوية. تمهلت السيارة قليلا. كان بعض السابلة يتطلعون الى السماء. يتابعون نقطة بعينها. نظرت من النافذة الى حيث يشخصون. كانت هناك طائرات. تساءل ركاب السيارة عن الامر. انها طائرات هوليكوبتر على ما يبدو. غير ان علوها والبالونات التي كانت تتركها في ذيلها ترجح ان تكون اسرائيلية.

منذ حصار بيروت عام ١٩٨٢ لم تشاهد في سماء بيروت طائرات اسرائيلية على هذا النحو. لم اطق البقاء في السيارة التي تورطت في زحمة استثنائية. اصوات الكوابح والابواق تشتبك بأصوات البشر الماشين او الواقفين على ارصفة محتها خطاهم. بشر يطلعون من ازقة «مار الياس» الضيقة الرطبة. من بيوت اعلاها بحجم قامة رجل. متاهة اخرى تفور في هذا الضحى المنذر بما لا تحمد عقباه. رائحة الشواء تنبعث من عربات ومطاعم مرتجلة وتتداخل في ثياب فضفاضة لرجال ريفيين لا بد انهم قدموا من حوران سورية. نزلت واشتبكت في

هذه المتاهة المثقلة بالروائح والاصوات والالوان، كوفيات ترد اصحابها الى منابتهم الاولى بين السبخات وقطعان الماشية، عسكريون تعطيهم قبعاتهم وشاراتهم حصانة مزيفة مثل الساعات الذهبية التي يتفحصونها على مفرش بائع يزين لهم دقتها ونوعها، نساء يرفلن بروائح مطابخهن وقسوة رجالهن، ثياب داخلية رخيصة، عربات خضار تعرض اكواما من الفول الاخضر النازل في اول موسمه، ثياب مستخدمة يتفحصها شراةٌ مُتربون.

كأن أزمنة تعاقبت علي وانا اعبر جانبا من هذه المتاهة. عبرت «جسر الكولا» الذي لم يكن جاهزا للاستخدام يوم كنا في هذه المدينة. تحت هذا الجسر رأيت عماد الرحايمة اكثر من مرة الى جانب راجمة للصواريخ اثناء الحصار.

هذه «بناية النصر» التي كان في دورها الأرضي مقر الاتحاد العام لطلاب الاردن. هنا كان حاجز لـ«الكفاح المسلح الفلسطيني» يمعن النظر في العابر الى «جمهورية الفاكهاني» وهنا كانت «مكتبة الطليعة»، .. وهذا هو «مطعم الاندلس». ظل الاسم فقط ولكن لا شيء فيه بقي كما كان. لا نادله ابو خليل بقامته الطويلة وسمته المحبب ولا طاولاته الخشب وكراسيه القش الواطئة ولا رواده الذين كانوا خليطا من طلاب جامعة بيروت العربية والمقاتلين وسائقي سيارات الاجرة على خط بيروت ـ دمشق ـ عمان ولا كبايات شايه الكبيرة ولا صحون فوله الفخارية البنية اللون ولا صور الشهداء الفلسطينيين الملصقة على واجهته. لا شيء. لا شيء. بل لا احد. كنت الزبون الوحيد الجالس على طاولة بلاستيكية بيضاء في ركنه الذي يطل على «شارع فليفل». طلبت قهوة واخذت اجيل نظرا حسيرا في الاركان. عائلة بيروتية تتكون من رجل وامرأته وابنهما تدير المطعم. صار مطعم طلبات للمحال والمصالح التجارية الصغيرة المجاورة اكثر منه مطعما للجلوس.

مرة اخرى دوت الانفجارات. هرعت عائلة المطعم الى الشارع، كذلك تدفق على الارصفة خلق كثيرون يرون بالعين المجردة الطائرات وهي تتمترس في نقطة في السماء ومن ذيلها تنطلق بالونات حرارية. عادت العائلة الى المطعم. ادار الرجل

مفتاح الراديو. جاء شخص ليتصل بهاتف المطعم فوجده بلا حرارة. كانت الانفجارات قريبة جدا. لكنني لم ابرح مطرحي. قالت المرأة للرجل: ما دخلنا نحن بحزب الله. حزب الله يضربهم في الجنوب، وهم يضربون بيروت. «يا خيي شوها القصة». «شو هيدا.. شو هيدا ما بدنا نخلص بقى». صوت الانفجارات التي دوت في «الضاحية الجنوبية» اعادت الى ذهني ذكرى انفجارات اخرى حصلت هنا بالضبط. حدث دلك صيف ١٩٨٢. كأنها البارحة. صوت الطائرات لا يزال يئز في اذني. الموت دان دنو حبل الوريد والرحمة عالية علو الكواسر المعدنية التي تتسلط على السماء بصلف. الطائرات. الطائرات. من يستطيع ان ينسى الطائرات التي يمشي في ركابها الرعب والموت. في انقضاضها العمودي. في الغبار المنبعث من العمائر والمصائر المنهارة. اكاد اسمع اصوات القذائف التي كانت ترسلها البوارج وهي تندفع من فوهات مدافعها في عرض البحر وتظل تعوي الى ان تصل الى اهدافها.

يومها لم تكن هناك سماء. ولم تكن هناك شمس. كانت الطائرات فقط تجيء من الشرق والغرب وتنقض على الارض التي ترتعش يسبقها هدير يمزق الاحشاء. كان الفتيان المسمرون الى مدافعهم المضادة يوجهون الرصاص الغزير الى الكواسر المعدنية. لا شيء يحدث سوى المزيد من الانقضاض والبالونات الحرارية التي تخلفها الطائرات وراءها كفقاعات من الصابون. كسخرية جارحة. ولم يحدث شيء في الفضاء العربي. فيالق يشوع بن نون الميكانيكية تمشي الى «اريحا» اخرى. تحاصرها من كل جانب فيما الكهنة المسلحون يدكون اسوار المدينة بالليزر بدلا من الابواق. واسوار بيروت كانت من لحم ودم.

كثيرون تحدثوا بعد ذلك عن البطولة وانا العائد الى مسرح الموت لا اتذكر الآن سوى الخوف. اتذكر اللحظات التي تأرجحت فيها الروح بين القذيفة والصاروخ، بين انقضاضتين للكواسر المعدنية. تعود إليّ تلك اللحظة التي أفرغ فيها القلب من الخفقان عندما اندفع الينا في قبو «المجلس التوري لحركة فتح» غبار بناية «ابو اياد» المجاورة. رغم ماركسيتي وجدتني انطق بالشهادتين. سيأخذ الرب وديعته عما

قليل. لكنه امتحن معدنها، رازها وتركها الى حين. طلعنا بعد ان خف القصف قليلا لنجد البناية متقوضة كعلبة من الورق المقوى. كان ذلك اول استخدام للقنبلة الفراغية.

ها هي البناية التي كان فيها مكتب القائد الفلسطيني «ابو اياد» كما تركتها الطائرات الاسرائيلية قبل اربع عشرة سنة. طبقات من الركام المائل يظهر منه العصب الحديدي الذي كان يشبك الاسمنت بعضه ببعض. نسفت حياة كان يسترها هذا الاسمنت: دمى الاطفال، مخادع الزوجية، رفوف الكتب، ادوات الزينة، الرسائل المتبادلة بين حبيبين، المطابخ، الثياب التي كانت تخفق بحياة خاصة بها في الخزائن. ها هي كلها تثوي في مقبرة شاخصة امام اعين الرائحين والغادين. ليس بمقدور احد ان يفكك تشابك هذه المصائر. اتحادها في المصير النهائي. وها هو قبالتها ركام البناية التي كان يقع في دورها الارضي «مقهى ام نبيل» المقر الدائم لعلي فوده ورسمي ابو علي ورفاقهما الرصيفيين. هنا كان للقهوة طعم صباحات تبشر بأخوة تغمر هذا العالم. صباحات من الضوء والكلمات التي تحمل عبء الوجود البشري في معازله الشقية.

كنت على وشك ان اغادر المطعم لما وصل حسين بن حمزة. توقعت ان لا يأتي بعد الغارات الاسرائيلية على بيروت فقد اختل ميزان المدينة تماما. لم تكن الغارات كثيفة ولكن الفكرة نفسها وترّت اعماق المدينة وخلخلت تدابيرها. قال لي حسين انه وصل بصعوبة بسبب تعطل حركة السير. شربنا قهوة ثم انطلقنا نجوس في «الفاكهاني».

***

كان مربع «الفاكهاني» يفور بالبشر. كأن الحياة وراء الجدران انتقلت بطنينها ودمدمتها الى الشارع. النساء اللواتي ينسوقن، الاطفال الذين يخترعون انواعا من اللهو لتبرير فرارهم من علب الاسمنت، الباعة الذين لا يكتفون بدواخل محالهم

فيخرجون امعاءها الى ارصفة لا تصلح لمرور قدم، الغسيل بألوانه المتضاربة يتدلى من شرفات مكتظة بأدوات وقطع اثاث لا تستخدم ولا ترمى. الحياة هجرت الجدران والمعازل الكونكريتية وسيطرت على الشوارع. من اين جاءت؟

أين كانت تعيش إذن الجموع التي شوهدت في اواخر صيف عام ١٩٨٢ تخرج من البيوت والاحياء وتتجه ارتالا بأزياء عسكرية الى البحر؟ اين كان يثوي اولئك الذين ظلت السفائن العملاقة تمتصهم في كابيناتها ودواخلها الظليلة نحو عشرة ايام وتمضي بهم الى مناف بعيدة؟

لقد كانوا يملأون كل هذه العمائر، يسيطرون على الشوارع كانت بأيديهم كتب أو بنادق أو حاجيات بيوت، سحناتهم تتراوح بين الالفة أو الحيدة أو الشراسة. كان لهم نساء واطفال واصدقاء ينفقون معهم الليالي بددا او يطلقون الرصاص ليتأكدوا فقط انهم لا يزالون قادرين على الترويع؟

اين كانت اذن المجلات ومحترفات الرسم، حضانات الاطفال ودور النشر، المدارس والاعلام، المشاغل وكاميرات السينما، قصائد الشعراء وخطابات تأبين الشهداء والشعارات المسكونة بالعدل والحرية؟

ان لم يوجد كل ذلك ذات يوم هنا فأين كان اذن؟ لكن اين الفراغ والفجوات والشقوق ومساحات الهجران والاثار التي تدل على الرحيل الجماعي، على الحياة الشاملة التي هجرت المكان؟

كأن انقطاعا لم يحدث في هذه الذبذبة البشرية المتصلة. لا مسامات ولا فجوات ولا فراغ ولا انقطاع. لا آثار سوى في العمائر الضخمة التي فرغتها القنابل من الهواء وتركتها ركاما ملأت شقوقه وفراغاته الامطار والغبار وما تحمله الريح من نتف واجزاء تخلت عنها الحياة في امكنة اخرى.

لم يكن الخارجون في ذلك الصبف الدامي قلة، كانوا شعبا ظلت الحافلات الكبيرة تنقلهم من «الملعب البلدي» الى المرفأ اياما. دموع وارز وازهار وعناق

طويل وتبادل تذكارات، كاميرات تلفزيونية وصحافيون من كل اللغات والسحن، فضوليون ونساء واطفال يتشبثون بأذيالهن، آلام وشمس اواخر آب، عرق ورطوبة، رصاص غزير ورائحة بارود. ايام حشر خرجت فيها خليقة صغيرة من الاقبية والملاجىء والقبور على اصوات النفير ومضت الى البحر. سرنمة شاملة للأرواح والاشياء، للمهجور والمأهول، للخفة والكثافة.

اين الاثار والعلامات التي تدل على وجودهم في هذا المكان الذي لا فجوة فيه ولا شغور بل اتصال وتراص وتلاحم؟.

أزمنة كثيفة عبرتها الى ان وصلت الى «زقاق ام زكور» مع حسين بن حمزة المتخفف من مقاصد رصد الاثر والعلامة.

تراجعت رغبتي في الصعود الى «بيتي». أكتفي بالنظر اليه في الطابق السادس من كعب البناية، غسيل الحالّين محلي يتدلى من حبل معلق على الشرفة الصغيرة. النوافذ التي تطل على البناية المقابلة موصدة. لا اقترب اكثر. اكتفي بهذا الحد من التماس. اتذكر غسان زقطان الذي كان يسكن في نهاية الزقاق. كان اذا رآني في الشرفة يصعد. او كنت اذهب اليه في ليالي الارق واجده ساهرا في شرفة منزله في الدور الارضي. كانت شجرة كولونيا في حديقة جيرانه تدوخ الجو بأنفاسها العطرة وهو بشرب الشاي وينفض رماد سجائره في المدى الذي تتيحه له يده. تكون تلك ساعات الشعر وولاداته المتكررة. يقرأ لي، غالبا، ما كتب ويطلب رأيي في ما سمعت. يشاطرني الرأي في نبرة لم اتيقن يوما من صلابة معدنها. كان غسان، الذي اكاد اراه يندفع بصدر لاعب كرة سلة في هذا الزقاق، اكثر الذين عرفتهم مرونة في النعامل مع الاشخاص والمواقف.

له طواعية اللدائن وملمس «الحكليس»، في سمته الساهي يجتذب الى شبكه اسهل الصيد واصعبه. يروز طريدته بعين الثُعلبان ذي الكيد ينقض عليها ان سهت او يغفل عنها حتى تقع، من تلقائها، في شبكه الناعم متين الخيوط.

ولا شيء يحملني على الظن انه قد تغير في رام الله: الشعر والشاي والتدخين

وتحويل المحيط الى منفضة سجائر كبيرة والاصحاب الذين يأتون ويذهبون دون أن يستقبلهم أو يودعهم. لا يشعر بامتلاءٍ في حضورهم ولا بنقص عند ذهابهم.

بنايات عدة طلعت امام وبجانب البناية التي كنت اسكن فيها. لم تعد «بقالة وليد» هي الوحيدة في الزقاق. هناك لحام وصائغ و«بنشرجي» و«ميني ماركت» ومحمصة للبن اخترقت الحيز الضيق بروائحها وادواتها وطنينها وبدلت حياة الزقاق المنتسب الى تلك السيدة البيروتية قوية الشكيمة «ام زكور» التي كانت تفض النزاعات بلسان لا يتوانى عن استخدام الشتائم البذيئة فينسحب المتنازعون الى بيوتهم مدركين القوة الخفية التي تظللها. فهي، دون غيرها، من يملك دالة على ابراهيم قليلات زعيم «حركة المرابطين» الناصرية منزعا والسنية مذهبا.

فاذا كان الزقاق مسمى باسمها فان «المحلة» كلها، مسماة بأسمه: ابو شاكر.

لم يعد ابراهيم قليلات (ابو شاكر) موجودا ولا مقاتلوه الشرسون الذين اقتحموا فندق «الهوليداي ان» و«طهروه» من «القوات الكتائبية» في حرب السنتين. فقد نفي الى فرنسا بعد ان كسرت شوكته «حركة أمل» الشيعية في اطار انكسار شامل للقوى السنية الفسيفسائية التي ناصرت الفلسطينيين ولم تندرج في الهبوب السوري الكثيف على بيروت.

خرجت هذه القوى التي مثلت الشرائح البيروتية السنية الدنيا من المعادلة السياسية تماما وتمكنت البرجوازية التي لم تلجأ الى السلاح يوما من استعادة زمام المبادرة مرة ثانية.

أعود وحسين بن حمزة القهقرى. ننزل من جانب «الملعب البلدي» الذي طالما شهدت بالقرب منه اشتباكات مسلحة تنشب فجأة بين «قوات المرابطين» ومن تسول له نفسه من القوى الاخرى التغلغل في «المحلة». نصل الى «همبرغر علاء الدين» حيث كان يتمترس سليم بركات في منتصف المسافة بين شقته في «بناية القصر» وعمله في الاعلام الفلسطيني في «شارع الطيبي». يكون بصحبته سعدي

يوسف او جليل حيدر او نبيل البقيلي. تراه مستنفرا على الدوام يكاد يهجم على الهواء بقبضته وبين حين واخر يتحسس مسدسا كبيرا لا يجهد في اخفائه، بل يشعر الجالسين معه، بشيء من التهديد المضمر، بوجوده تحت الحزام. استخدم سليم بركات قبضته ولكن لم يقيض له استخدام مسدسه.

طبعت الرثاثة المنطقة بطابعها، خصوصا، تلك البنايات الاسمنتية التي اقيمت على عجل. صار لها شكل الهياكل العظمية المهددة بالتداعي في اي لحظة.

لكن شيئا لا يعيق التكاثر والانفاس والبلوغ والحب المتبادل بين شرفتين والامل الذي يطلع من بين الشقوق والانكسارات.

الأمل يا لبروقه وهتافاته المضنية.

***

كان مخططا ان اذهب الى صيدا برفقة توفيق رمضان المناضل «السابق» في «منظمة العمل الشيوعي اللبناني» والذي تربطني به صلة قربى. فلصيدا ومحيطها مطرح خاص في ذاكرتي. ففي احدى دساكرها خفق قلبي، اول مرة، بعد خروجي من عمّان. وهناك تعرفت على مقاتلين صاروا حطبا في مواجهات تغبر فيها العدو ولم تتغير ومن نجا منهم مضى به قدره لاجئاً الى حواف الغابات الاسكندنافية. لكن القصف الاسرائيلي اشتد على الجنوب وامتد الى بيروت وبدت موجة من النزوح تلوح في الافق. فبعد ان اغارت الطائرات الاسرائيلية على الضاحية الجنوبية في بيروت لم يعد الاشتباك محدودا كما كنا نظن. هناك استهدافات اخرى وراء توسيع نطاق الضربات ودفع الحد الامني الاسرائيلي الى العاصمة. لم اذهب الى الجنوب، لان حركة السير صارت معكوسة: من الجنوب الى بيروت. كان عباس بيضون قد ذهب الى صيدا وعاد سريعا، فأهله لا يزالون يقيمون هناك. اتفقنا على اللقاء في «ملحق النهار». وذهبت. وجدت في مكتب الملحق الشاعر بلال خبيز الذي يشغل منصب سكرتير تحرير فيه. كنا قد التقينا على نحو خاطف في جريدة

«السفير» لكننا لم نتبادل الحديث. ينتمي بلال خبيز الى جيل الثمانينات الذي وجد ان تطلعات النص الادبي اللبناني السابق عليه عربية. فبيروت يومها كانت عربية، بمعنى انشباكها العضوي في المشترك العربي: القضية الفلسطينية، الصراع العربي ـ الاسرائيلي، بقايا احلام الوحدة، سؤال الهوية، لكن بيروت تغيرت كما تغيرت عناوين الصراع في لبنان والقوى المنخرطة فيه. صارت شواغل البلد والناس اكثر محلية مما مضى. اسأل بلال عن النص الادبي لجيله: كيف يشتغل والى اين يتطلع ومما يستمد نسغه ومراجعه؟

فيقول اولا هو نص ادبي لبناني منكفىء الى الداخل. ليس له هموم يستمدها من خارج المحل ولا يتطلع الى لعب دور ما في المسعى الحداثي او التجديدي العربي. حتى لغته «العربية» هي لبنانية تنهل من اليومي والدارج ولا تحفل بأي فصاحة. فلا معنى ولا موقع للفصاحة والتماسك في واقع ركيك مفكك.

أسأل خبيز: ولكن اين تلتقي لبنانية هذا النص مع دعاوى لبنانية سابقة؟

فيجيب: ليس هناك وجه شبه، في الجوهر، بين ما يكتب الان وما دعا اليه اصحاب النزعة اللبنانية في الاربعينات (ميشال شيحا، سعيد عقل، فؤاد مالك). الكتابة الراهنة تعبير عن الشرخ والانكسار ونبذ المزاعم الكبيرة، وهي تقريبا بدون دعاوى أدبية بينما النزعة القديمة كانت ايديولوجية الدوافع وذات محمول خرافي. والغريب انها استخدمت لغة عربية اكثر فصاحة مما كان سائدا في الكتابة العربية القومية الطابع. لا تنشغل الكتابة الادبية اللبنانية اليوم بسؤال الهوية. بل بسؤال اليومي والتفصيلي في مكان مشظى. فسؤال العروبة في لبنان لم يعد مطروحا، اقله، على الكتابة.

كما لا ترثي ولا تتفجع هذه الكتابة على الحلم الذي مضى فليس لدينا، بعد، احلام ولا مشاغل كبيرة. وليس لدينا ابطال او امثلة. الكبير والجوهري والكوني لا نعرفه. نعرف هذه الحياة التي نباشرها كل يوم في مكان مزقته الحروب والعصبيات. لا النزعة التغريبية الفجة ولا صخب القومية العربية بقادرين على اجتذاب الكتابة

الى اي من خندقيهما المتواجهين. فهما ببساطة لم يعودا موجودين.

وعندما اسأل بلال خبيز عن «مثال» لهذه الكتابة، عن مراجعها الداخلية يجيب: معظم النصوص الشعرية والقصصية التي تكتب الان هي على النحو الذي وصفته. انها المثال على ما اسميه بـ«اللبنانية». وهي الجانب الوحيد الذي تتجلى فيه الوحدة في مجتمع متنابذ. لكن اذا شئت ان اسمي لك مرجعا ففي الشعر هناك وديع سعادة وفي السرد هناك حسن داود.

وماذا عن عباس بيضون والياس خوري؟

يجيب: انهما «عربيان». كتابتهما، حتى وان استمدت من المحل بعض دمها وعصبها، فهي ذات تطلع عربي. منشبكة بالمسعى الكتابي على الصعيد العربي تؤثر وتتأثر به.

ولكن أليس هناك من مؤثر عربي على هذه الكتابة؟ اسأل.

فيقول: لا اكاد المس ذلك. لا احد من روائيينا يكتب على غرار الرواية المصرية ولا من شعرائنا (الجدد) على غرار أدونيس او محمود درويش، او سعدي يوسف او حتى... جيلكم.

أفهم وصف بلال خبيز بل واتفهم، ايضا، لماذا تنكفىء الكتابة في لبنان الى الداخل وتعتصم بالمحل وتدير ظهرها للمرحلة السابقة. فقد عرف تاريخ الادب عربيا، وعالميا، مثل هذه التحولات، المحمول بعضها، على محمل الصدمة ورد الفعل حيال الحروب والكوارث الكبرى.

فما شهده لبنان من تشظ وتفتبت في النسيج الاجتماعي وانهيار في الدعاوى السياسية والفكرية للفرقاء وردائفهم في الخارج سيطبع مستويات عدة من البنية الفوقية بطابعه وفي صميم دلك الكتابة بصفتها الوسيط الاكثر حساسية واستجابة لالتقاط الاهتزازات والتوترات.

مثل هذا الامر حدث في العراق بعد حربين دمويتين إذ تنصلت الكتابة من

مزاعم الحداثة وصرامة الشكل وصار الشعر، خصوصا، يستمد مراجعه من متون وهوامش « غير شعرية » بالمرة.

اذكر انني التقيت بالشاعر العراقي صلاح حسن في عمان قبل اعوام ودار بيني وبينه حديث مماثل لما دار بيني وبين بلال خبيز، وقتها قال حسن ان قصيدة جيله لا مرجع خارجيا لها ولا هي متأثرة بالشعر العراقي السبعيني او الستيني بل بأهوال الحياة التي عاشها الشعراء جنودا على جبهات الحروب.

وبدت لي، وقتها، قصيدة الجيل الشعري الثمانيني في العراق مضادة للشعر. قصيدة ضد القصيدة، او بالاحرى ضد الاشكال والمشاغل التي انجزها الستينيون والسبعينيون عراقيا وعربيا.

افهم ما يعرضه بلال خبيز من « دعاوى » جديدة لـ« الكتابة اللبنانية » ولكنني لم افهم « هذه الكتابة » التي قرأت طائفة منها منشورة في الصحف اليومية او في مجموعات شعرية صادرة حديثا وجدتها في مكتبه او تلك التي اخذتها من « دار الجديد ». وليس مبعث « عدم الفهم » صعوبتها او غموضها بل، للمفارقة، سهولتها ان لم اقل ركتها. فهي تكاد تتخلى عن المنزع التأليفي الذي لا أعرف، شخصيا، كيف تستقيم الكتابة الادبية من دونه. كما انها لا تجد حرجا في نبذها « الادبي » او « الاسلوبي » باعتبارهما من مزاعم الابداع. كأن هذه الكتابة ليست سوى تعبير عار يستمد مبرره من قبضه على اللقطة او الحالة في لحظة تفتتهما. لذلك يحتاج الناقد او المتفحص هذا النتاج الى مقاربة يتضافر فيها النقدي بالسسيولوجي.

«عناقيد الغضب»

كثير من الذين التقوني في بيروت قالوا لي ها انت تعود وفي ركابك اجتياح اسرائيلي جديد!

لا املك دفعا لهذه المصادفة المطيّفة بشيء من القدر والمكتوب. فالاشتباكات

التي لاحت محدودة اول الامر تحولت تحت اسمها الرمزي (عناقيد الغضب) الى عملية اسرائيلية دموية واسعة النطاق جعلت اطراف العاصمة ومحيط القصر الرئاسي ووزارة الدفاع شريطا حدوديا جديدا .

من قضاء « صور » الى « النبطية » ومحيطها الى « القطاع الاوسط » و« البقاع الغربي » وصولا الى « بعلبك » وبيروت كانت تنقض « الاباتشي »؛ تأملوا هذا التحويل الغادر لاسم الضحية النموذجية إلى رمز للقتل! تاركة وراءها بقعا واشرطة من الدم البريء . دم المطمئن في بيته والذاهب الى حقله والحاضنة اطفالها .

لم يتأخر بعض المعلقين الصحافيين اللبنانيين عن رد « عناقيد الغضب » الى « التوراة » : « هلم يا شعبي ادخل اخاديرك واغلق ابوابك عليك . توار قليلا الى ان يجوز السخط . فانه هوذا الرب يخرج من مكانه ليتفقد إثم سكان الارض ضده فتكشف الارض عن دمائها ولا تستر قتلاها بعد (. . .) في ذلك اليوم يفتقد الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لاوياثان الحية المقومة ولاوياثان الحية الملتوية ويقتل التنين الذي في البحر.

في ذلك اليوم غنوا لها انت كرمة خمر. انا الرب حارسها في كل لحظة اسقيها ولئلا يفتقدها مفسد احرسها ليلا ونهارا . انه ليس فيّ غضب، فمن قاومني بالقتاد والشوك في القتال فاني اهجم عليهما واحرقهما جميعا . بل ليتمسك بعزتي . ليعمل معي سلما . ليسالمني » . (نبوءة أشعيا) .

أكانت هذه « النبوءة » نصب اعين الجنرالات الذين جردوا حملة الدم هذه؟

دم من اجل السلام .

ليسالمني .

دم في سيارة الاسعاف .

ودم في « سحمر »

ودم متوج على عرش الأمان في « قانا » .

لا تكف الحروب عن تغطية الجريمة بالمقدس.

لا تستقيم دون ان تستر سوأتها بالكلمات: سلامة الجليل، عناقيد الغضب، نبوءة اشعيا، جون شتاينبك. السلام.

السلام.

هذا السلام

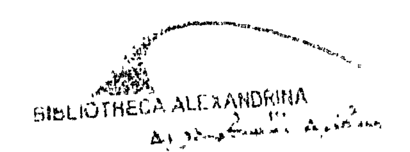
يا له من مذبحة.

نيسان (ابريل) ١٩٩٦



الرحلة العُمانية:

الاساطير، الائمة، الجبال، الافلاج





مرة واحدة كنت بالقرب من عُمان.

حدث ذلك في مطلع العام ١٩٨١ عندما زرت محافظة «المهرة» اليمنية الجنوبية (كانت يومها تسمّى «المحافظة السادسة») في معيّة ثلة من الطلبة العرب المبتعثين إلى عدن.

كنت، حينذاك، «طالباً» من نوع خاص، أتلقى أقساطا كثيفة من العزلة والضجر والصمت أكثر مما أتلقى «العلوم» التي جئت للنهل منها. وكانت تلك «علوم» السمة المميزة للعصر، الطابعة متنه وحواشيه بتوقيعات الثلاثي: ماركس، انجلس، لينين على ما لقننا إياه، بإيمان العجائز الوطيد، أساتذة روس وألمان شرقيون ويمنيون «جنوبيون» متدرجون في مراقي «الاشتراكية العلمية».

كان ابتعاثي إلى عدن المحروسة بأنصال الرواسي البركانية نوعاً من العقوبة لشخص يقيم في مدينة يلعلع فيها كل شيء: الرصاص، القصائد، النساء، الشعارات، ملصقات الحياة والموت، التواريخ التي تُكتب والتواريخ التي تُمحى، لذلك تصرفتُ كما يتصرف المنفي: عداء وتجاهل للمكان الجديد واحتشاد بالحنين المرسل على عواهنه إلى بيروت.

ولا أملك، الآن، سوى الأسف على خيلاء الفتّوة التي جعلتني أمشي على الأرض مرحاً، منصرفاً عن تقري الأزمنة المتعاقبة على الصهاريج الحجرية التي قوّرتها الجنُّ، والروح الباسلة التي تناضل في الأشجار القليلة، والصلة التي تتجاوز التطيّر بين النافذة والغراب الأسود والصمت البليغ الذي يفرض نفسه سيداً أوحد على الظهيرات، والخلخال الفضيّ الذي يلمع في كاحل هضيم لامرأة تصعد الهوينى إلى الحافلة العمومية والعيون السود الكحيلة التي طوّرت في احتجاب الجسد معجماً خاصاً لتراسل الأشواق وروائح البخور والعطور الشرقية الثقيلة المعششة ببعض الحوانيت الباقية من الحقبة الكولونيالية والخط البحري لشركة الهند الشرقية.

وليس بلا دلالة ان تحضر عدن مقرونة بالجنة مرة واخرى بالجحيم.

كما انه ليس بلا دلالة، عجائبية هذه المرة، أن تطوّح المصائر بعلي سالم البيض أخر زعيم اشتراكي لليمن لاجئاً سياسياً إلى عُمان!

لكنني، اليوم، لست في وارد استعادة صورة «اليمن الحنوبي» في ذهن الفتى النزق الذي كنته إلاّ كمدخل لعُمان.

وهو مدخل يبدو غريباً للوهلة الأولى.

فلم يكن هناك ما يجمع «اليمن الجنوبي» بعُمان إلاّ التنافر والخيارات المشدودة على طرفي نقيض. ففيما «الأباضية» هي المذهب السائد في عُمان فان الغلبة للسنّة الشوافع في جنوب اليمن.

وفي الوقت الذي كانت فيه عدن تولي وجهها شطر «الكتلة الشرقية» كانت عُمان تدير وجهها جهة الغرب. في عدن كانت «الاشتراكية العلمية» تجرب حظها العاثر في أفقر مصر عربي وسط صراع الأجنحة الدامي في «الحزب الاشتراكي» فيما كانت مسقط تخرج من وراء أستار العزلة القاسية التي فرضها عليها انحطاط مصائر التاريخ وتجتث آخر التمردات الكبرى في شبه الجزيرة العربية، حاثة الخطى للحاق بالعصر في طوره الغربي.

ولم تكن عُمان في نظري، يومذاك، سوى مصر عربي مجهول أشدُّ عزلة من اليمن، معلومها الوحيد عندي، وعند أبناء جيلي، هو «ثورة ظفار» التي انقصم ظهرها في العام ١٩٧٥ وتشتتت فلولها في الآفاق ولم تقم لها قائمة بعدئذ.

وبسبب بقايا «الثورة الظفارية» وبيارقها المهزومة وكتبها الحمراء المبعثرة ذهبت الى «المحافظة السادسة» في ركب فتيان من الطيف العربي الواسع متطوعين بحماسة ثورية لتعليم الصغار والأميين من اهل الصقع ولاجئيه من الظفاريين مبادىء القراءة والكتابة.

وكانت تلك أقرب نقطة من عُمان.

بل لعلها النقطة التي عبرت منها بعض الهجرات التاريخية للقبائل العربية الجنوبية التي هجرت مرابعها بعد انهيار سد مأرب واستقرت في عُمان.

ويبدو أنني لم آنس في نفسي ميلاً للتعليم ولا للبقاء في ذلك المكان فقفلت عائدا إلى عدن.

ومذ ذاك انتهى تماسّي العابر مع عُمان.

***

كان الشعر والعمل الصحافي هما اللذان حملاني الى الأماكن التي زرتها وليس طلب الرحلة في حدّ ذاتها. فالحياة العربية العاصفة والمنشقة على نفسها تجعل الرحلة، حيث ترغبُ، دونها خرط القتاد.

فالشعر إذن، هذا الشغف العربي الذي لم تفتر له همّة، كان بوابة دخولي إلى عُمان. فمسقط، عاصمة الديار العمانية، بادرت منذ عامين إلى اقامة مهرجان شعري سنوي ينظمه «النادي الثقافي» وهو مؤسسة غير حكومية تُعنى بالنشاطات الثقافية الأهلية. بذلك تكون مسقط هي العاصمة الوحيدة في شبه الجزيرة العربية التي تستضيف مهرجانا مكرسا للشعر غير مصحوب بعدة المهرجان الثقافية من فنون وفلكلور وترفيه.

وأحسب أن الأمر بادرة من الكتاب والشعراء العمانيين المنضوين في «النادي الثقافي» ممن عرفوا الحياة الأدبية العربية بتنوع صورها واتجاهاتها يتقدمهم، كما لاح لنا، محمد اليحيائي وهو شاعر وكاتب قصة أشرف على القسم الثقافي في صحيفة «عُمان» ردحا من الزمن.

ولئن كان اليحيائي وزميله في مجلس ادارة النادي الكاتب علي المعمري ممن

يميلون الى «الحداثة» و«الحداثيين» فأن في «النادي الثقافي» شخصيات وسطية متنورة تحاول الموازنة بين القديم والجديد مثل الشيخ سالم العبري عضو مجلس الشورى العماني الذي كان له مع كاتب هذه السطور نقاش تحلى بالتفتح والعمق.

ويرأس «النادي الثقافي» الذي يشبه رابطة للكتاب والمثقفين (إذ ليس في عُمان، على حد علمي، نشاط نقابي)، الشيخ سيف بن هاشل المسكري ذو الأفق العروبي.

هكذا انطلقت من لندن الى مسقط على متن «طيران الخليج» لسبع ليالٍ بقين من شباط (فبراير) الماضي بصحبة الشاعر الفلسطيني محمد القيسي في رحلة استغرقت ثماني ساعات ونصف من الطيران المتواصل، كانت مثالا للعبور الخارق من الارض التي يهدر حدّها بحر الظلمات إلى الأرض التي يسرح على حوافها خليج عُمان خفيفا، أزرق كالأبد.

غادرنا لندن في مساء رمادي بارد ووصلنا مسقط في صباح مكلل ببركات الشمس التي كان لها في تلك الديار، شأن سائر بلاد الشرق العربي، معابد وتهاليل.

«مراسيم» الزجاجة الاسكتلندية

كانت في استقبالنا، بعد أن دلفنا إلى قاعة المطار، موظفة سمراء ترتدي زيّا حديثا محتشما وتغطي رأسها بإحكام. لم يكن صعبا التعرف إلينا، فلم تصل الى مطار مسقط في ذلك الصباح المبكر سوى الطائرة القادمة من لندن وليس بين ركابها ذوي الغلبة الانكليزية والهندية عرب، ربما، سوى نحن الاثنين.

قادتنا الموظفة الى قاعة خاصة وأحضرت لنا قهوة وسألتنا أن نرتاح ريثما تُهيىء معاملات الدخول.

قلت للشابة: هل انت سودانية؟

فضحكت، مستهجنة سؤالي، وأجابت وهي تصرف هذا الاحتمال الغريب بحركة من يدها: لا. لا. بل عُمانية!

ثم أردفت: أمي إيرانية الأصل ووالدي عُماني.

سألتني وهي تبتسم: ولِمَ ظننت انني سودانية؟

لم أقل لها: ان ذلك بسبب سمرتها الداكنة وملامحها الافريقية، بل قلت ربما بسبب لهجتك. فلست على معرفة باللهجة العمانية.

ويخيل إليّ أن مظن سؤالي لا يتعلق باللون والملمح فقط بل أيضاً بما وقر في ذهني عن بلدان الخليج لجهة الاعتماد المفرط على العمالة الخارجية. وستبرهن لي الأيام التي قضيتها في ربوع هذا البلد أنني مخطيء. فأوجه الشبه بين عُمان وأخواتها في «مجلس التعاون الخليجي» ليست كبيرة، خصوصا، على هذا الصعيد. وسيتعين علينا أن نرى عُمانيات وعُمانيين يعملون في مرافق شتى جنباً إلى جنب مع عرب وأجانب. فالخطاب السياسي الرسمي الذي وقعنا على شذرات منه هنا وهناك يدرج الإعتماد على العمالة العمانية مدرج الهدف الوطني العالي.

فرغنا من قهوتنا فعادت الشابة وقد أنجزت جانبا من معاملاتنا. فمهرنا جوازات سفرنا بالأختام السلطانية ووضعنا حقائبنا كلّ على «ترولّلي» وهممنا بالخروج. لكن أحد أفراد الشرطة طلب، في اللحظة الأخيرة، أن يرى الكيس البلاستيكي الذي يحمله محمد القيسي فوجد فيه «زجاجة» سوداء الغلاف، اسكتلندية المنشأ.

قال الشرطي: إن إدخال المشروب إلى عُمان ممنوع من قبل المسلمين.

فرد القيسي: ولكنني ابتعتها من الطائرة الخليجية القادمة إلى عُمان ولم يقل لي أحد ما إذا كان المشروب ممنوعا هنا أم لا.

فقال الشرطي: هذه هي التعليمات.

لاحظت إننا كنا نحمل جوازي سفرنا بأيدينا. القيسي يحمل جواز سفر أردنيا

وأنا جوازاً بريطانياً .

ألهذا، يا ترى، لم يطلب الشرطي أن يرى شيئاً من أمتعتي مع انني كنت أحمل كيساً مطابقاً للكيس «المشبوه» الذي يحمله زميلي؟ هكذا عنّ لي أن اتساءل في ما بعد .

كان على القيسي أن يحضر «مراسم» اتلاف الزجاجة الاسكتلندية سوداء الغلاف أمام ناظريه ولكنه أعفي، أقلّه، من دفع الغرامة البالغة خمسة ريالات عُمانية، أي ما يعادل خمسة عشر دولارا، نظراً لكونه شاعراً !

في باحة المطار الخارجية كان راشد المكتومي مندوب «النادي الثقافي» وثلاث كاتبات عُمانيات يستقبلوننا . وقد تساءلوا عن سبب تأخرنا في الخروج فأبلغناهم بحديث «الزجاجة» فضحكوا قائلين ان هذا ما جرى للشعراء العرب «المسلمين» الذين حلّوا قبلنا .

«مسقط» و «مطرح»

استغرقت الرحلة من مطار «السيب» الى فندق «الانتركونتنيال» الواقع على «ساحل القرم» في العاصمة نحو عشرين دقيقة .

كانت المنطقة التي تمرُّ بها السيارة منبسطة وخالية من العمران الذي أخذ يلوح ويكثُف كلما اقتربنا من الساحل .

تقع مسقط على خليج عُمان، في الجزء الجنوبي مما يسمى بـ «ساحل الباطنة» وتتصل شرقاً بسلسلة «جبال الحجر» التي تشكل قوساً عظيماً يتجه من الشمال الشرقي للبلاد الى حنوبها الغربي .

والعاصمة العمانية تتكون، كما خبرنا لاحقاً ، من مدينتين اثنتين واحدة تدعى «مسقط» والاخرى تبعد عنها نحو ميلين وتسمى «مطرح» .

والاثنتان تحتلان شريطاً ساحلياً ضيقا يقع تحت أنظار الحبال الجرداء.

في الاولى تقع المرافق السلطانية والحكومية ويندر فيها وجود سكن أهلي أما الثانية فتتوافر على الأسواق الشعبية والسكنى معاً وتختلط فيها سحن بشرية متنوعة، وإن كان الملمح الاسيوي (الهندي) هو الغالب.

وباستثناء القصر والمرافق السلطانية وبعض أسواق «مطرح» وحاراتها القديمة فإن أحياء العاصمة الأخرى مثل «روي» و«ساحل القرم» و«الخوير» و«بوشر» حديثة العهد، ومعظمها تم تشييده بعد عام ١٩٧٠.

فحسب بعض المنشورات الحكومية الذي يتحدث عن «النهضة»، وهي مصطلح يشير إلى تسلم السلطان قابوس مقاليد الحكم في البلاد، فإن العاصمة لم يتجاوز امتدادها على الساحل أكثر من نصف ميل في العهد السابق. عهد والد السلطان قابوس المتسم بالغموض والعزلة والاضطرابات الداخلية العنيفة والتفكك الإداري واسع النطاق. فقد كانت رقعة العاصمة في العهد السابق مضغوطة بين قلعتي «الجلالي» و«الميراني» اللتين ترجّعان أصداء الصراعات الداخلية والخارجية على المكان. وبهذا المعنى تعتبر مسقط بأحيائها الجديدة وحدائقها المستنبتة وشبكات اتصالها وطرقها من أحدث العواصم العربية سناً.

ولا يخفى على الناظر، وهو يعبر شوارعها ان يلحظ نظافتها الاستثنائية. وليست النظافة متأتية من قلة الحركة (وهذه ظاهرة ملفتة للنظر) بل من الجهود البلدية المبذولة على هذا الصعيد. والحال، فليس غريباً أن تشاهد أكثر من يافطة مكتوب عليها «ممنوع البصق في الشوارع». وقد انتهى الى علمنا ان البلدية تفرض غرامة مالية على كل من يضبط «متلبسا» بهذا الفعل القبيح!

لكن مسقط الحديثة لها آفتها ايضا، وهي آفة عربية الطابع. فكأن التحديث، في التصّور العربي، هو قطع حبل السرة مع البيئة وخبرات الماضي واستجلاب مواد وأنماط بناء وعيش «عصرية» لا تستقيم مع المحيط الطبيعي. فالنمط المعماري

العمـاني الذي تحضّ عليه الادارة الـسياسـية لا يتـجاوز، في الواقع، حـدود الشكل والزينة ما دامت مادته غريبة عن البيئة وهجينة عليها.

وقد لاحظ هذه الآفة أكثر من باحث ودارس بينهم هلال بن علي الهنائي الأستاذ في كلية الهندسة بجامعة السلطان قابوس في مقالة نشرها في العدد الأول من مجلة «نزوى» تناول فيها الأنماط المعمارية التقليدية في عمان.

وفي مقـالتـه تلك يرى الهنـائي أن التطورات المعـمـارية التي شـاعت مـؤخـرا في بلدان الخليج العربي تميزت بإغفـال الكـثيـر من مبـادىء اقتـصـاديات الطاقة التي تم بلورتها عبر الزمن في الانماط المعمارية المحلية.

حدث ذلك على الرغم من كفاءة هذه الأنماط المعمـارية التقليـدية في توفير بيئة حرارية ملائمة في جو المنطقة القاسي خلال مئات عديدة من السنين.

ونتج عن إهدار هذا الإرث، كما يرى الهنـائي، إسراف كبير في توليد واستهلاك الطاقـة الكهـربيـة لمواجهـة الإحـتـيـاجـات المتزايدة للبنـاء ونمط العيش الجـديد والتي وصلت، في سلطنة عمان على سبيل المثال، إلى استهلاك ٧٠٪ من الطاقة الكهربية المولدة لتكييف المباني الحديثة ذات الكفاءة الحرارية المنخفضة.

ومشكلة عُمان على هذا المستوى أكثـر إلحاحاً من سائر بلدان الخليج العربي الأخرى، نظراً لكون المخزون النفطي في السلطنة يقـدر بحوالي ٤٠ عاما، وهي فترة أقل من العمر الافتراضي لأي مبنى حديث.

فالتحـديث لم يقتصر على إهمال مواد البناء المستنبطة من البيئة والإستعاضة عنها بالاسمنت والحديد بل طاول، دون شك، أسلوب البناء التقليدي ونمط المعيشة نفسها.

ومن المؤكـد أن التغلب على الحرارة العالية والرطوبة القيـاسية، خصـوصاً في المناطق السـاحلية، كان هاجس العمارة التقليدية. فهـا هو ماركو بولو يصف مدينة «هرمز» العمانية في كتاب رحلته إلى الصين فيقول «فالحرارة النـي تنجم هنا مفرطة

ولكن القوم يتزودون بكل بيت بمراوح يدخلون بواسطتها الهواء إلى مختلف الطوابق وإلى كل شقة من شقق المنزل حسب الإرادة. فلولا هذه الوسيلة ما أمكن العيش بتلك المنطقة».

وها أنذا بعد ماركو بولو بقرون عديدة وفي فصل من أجمل فصول عُمان، هو فصل الربيع، أجلس مع رفاقي الشعراء العرب والعُمانيين في صالة من صالات «الانتركونتنيال» العديدة في جو من التكييف الصناعي الذي تكتم هديره الكهربي التكنولوجيا الحديثة. ويمكن لنا أن نتخيل أي صورة من صور الجحيم ستكون عليه الحياة في هذا الطود الأسمنتي المحكم الإغلاق إذا ما انقطع التكييف الصناعي في صيف تتجاوز فيه الحرارة خمسين درجة مئوية مصحوبة برطوبة تبلغ نحو سبعين في المئة؟

رحلة مالك بن فهم

أزعم أن عُمان ظلت حتى عهد قريب من أكثر الاقطار العربية غموضاً ونأياً، ولعلها لا تزال كذلك في خيال البعض.

إذ قلما يصادف المرء أسمها أو صورتها في أخبار العرب التي لا تكف عن إدهاشنا بمدى سوئها. وفي الحال العربية فان «اللاأخبار» هي حسب المثل الأنكليزي، أخبار جيدة. مع أن الناس في داخلية عُمان لا يزالون إلى يومنا هذا يبادرون الضيف بالسؤال عن الأخبار!

غير أن «غموض» عُمان ليس متأتياً من قلّة «الأخبار» فقط بل من الموقع الجغرافي والتكوين المذهبي وانكفاء البلاد على شؤونها أيضاً.

ولكننا إذا عدنا إلى المراجع التاريخية العربية وأدبيات الأخباريين العرب سنجد لها ذكراً حميداً، وقد نفاجأ أبضاً إذا عرفنا أنها كانت، يوماً، «امبراطورية» ذات شوكة تمكنت من بسط نفوذها على شرق أفريقيا ووصل مجالها الحيوي إلى الهند

والصين.

ولنبدأ من حيث يرد أول ذكر لها في الوثائق التاريخية.

ويبدو، حسب ما جاء عند وندل فيليبس الذي وضع كتاباً عن تاريخ عُمان لا ينقصه الهوى والأبتسار، أن بطليموس هو أول مؤرخ أجنبي يأتي على ذكرها. فقد وصفها بأنها «بلد قاحل، عنيف وقاس، يقطنه سكان انطبعت نفوسهم على ما أضفته عليهم بيئتهم».

ولا ندري عن أي قوم يتحدث بطليموس وإلى أي مدى احنك بهؤلاء السكان المنطبعة في نفوسهم صور القسوة والعنف غير أن بعض الروايات التاريخية يشير إلى وجود مملكة مزدهرة في عُمان قبل وقوع الغزو الفارسي في عهد «قورش العظيم» الذي كانت من جملة مآثره إعادة اليهود إلى فلسطين بعد سبيهم على يد نبوخذ نصر الكلداني.

أما المؤرخ العماني الإمام نور الدين السالمي فيشير في كتابه القيم «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» الذي أهدانيه حفيده زاهر السالمي فيرجع أول وجود عربي غي عمان إلى فترة متقدمة على الإسلام، فيقول «وسمعت من يدعي المعرفة بذلك يقول: إن ذلك كان قبل الإسلام بألفي عام. وذلك بعدما أرسل الله على سبأ سيل العرم وخرجت (قبائل) الأزد منها إلى مكة وأرسلوا روادهم في النواحي يرتادون الأمكنة، وتفرقوا من هنالك إلى الأطراف وخرج مالك (بن فهم) في جملة مس خرج إلى (جبال) السراة، ثم منها الى عُمان».

ومن المستبعد أن تكون هجرة الأزد قد حدثت قبل الأسلام بألفي عام والمرجح، حسب أكثر الروايات تطابقاً، بانها حدثت في القرن الثامن قبل الميلاد.

أما قصة خروج مالك بن فهم زعيم قبائل الأرد العربية إلى عُمان التي ترد عند أكثر من أخباري عربي بينهم المسعودي والسجستاني فهي على قدر معتبر من الطرافة والدلالة في آن.

فيروى أن أبناء أخي مالك بن فهم كان يسرحون بأغنامهم على طريق بيت جار لهم كانت لديه كلبة تنبحهم وتفرق شمل غنمهم كلما مروا. فمان كان من أحدهم إلاّ أن رماها بسهم فقتلها. فرفع صاحب الكلبة الأمر إلى مالك فغضب وقال: لا أقيم ببلد ينال فيه جاري مثل هذا. ثم خرج من أرض السراة فيمن أطاعه من قومه ومن اتبعه من أحياء «قضاعة» وسار متوجهاً إلى عُمان تاركاً وراءه بني أخيه الذين اعتدوا على كلبة جاره.

وقد اعتزل عنهم ابنه جذيمة الأبرش بن مالك فيمن والاه من الأزد وسافر إلى أرض العراق.

ويروى أيضاً أن أبل زعيم الازد بعد ان قطعت شوطاً بعيداً عن «السراة» حنت إلى مراعيها وأقبلت تتلفت نحوها فأنشد مالك قصيدة منها هذا البيت:

فحني رويداً واستريحي وبلغي

فهيهات منك اليوم تلك المألف.

عبر مالك بن فهم في مسيرته الشاقة من «اليمامة» في أرض الحجاز إلى «قلهات» القريبة من ميناء «صور» العماني ماراً بحضرموت فوادي مسيلة ومنه إلى «سيحوت».

وقد بلغه أن جيشاً عرماً من الفرس يعسّكر في عُمان فبعث برسالة إلى «المرزبان» عامل الملك الفارسي على عُمان يقول له فيها «لا بد لي من المقام في قطر من عُمان وان تواسوني في الماء والمرعى. فإن تركتموني طوعاً نزلت في قطر من البلاد وحمدتكم وان أبيتم أقمت على كرهكم وان قاتلتموني قاتلتكم، ثم ان ظهرت علىكم فتلت المقاتلة وسبيت الدراري ولم أترك أحداً منكم ينزل عُمان أبداً»..

فرفض عامل الملك الفارسي طلبه فاستعد مالك لمقاتلته. وقيل أن الجيش الفارسي المرابط في عُمان كان يبلغ زهاء ثلاثين ألف رجل فيما لم تتجاوز عزوة مالك بن

فهم عشرة الآف.

ويفيد بعض الروايات أن القتال بين الجيشين الذي دارت رحاه بالقرب من مدينة «نزوى» في وسط عُمان، استمر نحو أربع سنوات كانت الغلبة فيه لأتباع مالك بن فهم. فاضطر «الفرس» إلى عقد هدنة بين الطرفين لكن هذه الهدنة نقضت لاحقاً فعاد رجال مالك إلى منازلة الفرس وهزموهم مرة أخرى.

وحسب وندل فيليبس فان مالك هو اول حاكم عربي مستقل بسط نفوذه على أرجاء واسعة من عُمان واستمر حكمه حسب الروايات العربية زهاء سبعين سنة وقتل خطأ على يد أصغر أبنائه وأكثرهم حظوة لديه وقد بلغ من العمر العشرين بعد المئة.

وإلى مالك بن فهم ينسب بيت الشعر العربي القائل:

أعلمه الرماية كلَّ يوم

ولما اشتدّ ساعدُه رماني.

وتلك اشارة محزنة إلى السهم الذي أطلقه عليه إبنه الصغير عندما كان موجلاً حراسة مقره ظاناً انه متسلل يريد الغدر بوالده!

ويبدو ان مالك بن فهم قد بسط نفوذه على البر والبحر وصارت تنسج حوله الأساطير. فها هو المؤرخ نور الدين السالمي ينقل في مؤلفه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان» حديثاً أورده المؤرخ العماني العوتبي في كتابه «الأنساب» عن أبن عباس يقول ان مالك هو الذي جاء ذكره في القرآن بأنه كان يأخذ كل سفينة غصباً

وبحيلنا هذا إلى قصة موسى والخضر.

يقول السالمي في الرواية المعنعنة «فأنطلق موسى والخضر ويوشع بن نون، حتى إذا ركبوا السفبنة ولجوا خرق الخضر السفبنة وموسى عليه السلام نائم. فقال أهل

السفينة ماذا صنعت؟ خرقت سفينتنا وأهلكتنا. فأيقظوا موسى وقالوا ما صحب الناس أشرّ منكم. خرقتم سفينتنا في هذا المكان. فغضب موسى حتى قام شعره فخرج من مدرعته واحمرّت عيناه وأخذ برجل الخضر ليلقيه في البحر فقال «أَخرَقْتَهَا لتُغْرقَ أَهْلَهاَ لقدْ جئتَ شيئاً إمْراً». قال له يوشع يا نبي الله أذكر العهد الذي عاهدته. قال صدقت. فرد غضبه وسكن شعره وجعل القوم ينزفون من سفينتهم الماء وهم منها على خطر عظيم وجلس موسى في ناحية السفينة يلوم نفسه، يقول لو كنت في غنى عن هذا في بني اسرائيل أقرأ لهم كتاب الله غدوة وعشية فما أدناني إلى ما صنعت؟ فعلم الخضر ما يحدّث به نفسه فضحك ثم قال «ألم أقلْ لكَ إنّك لن تستطيعَ معي صبراً».

أحدثت نفسك بكذا وكذا؟ قال موسى «لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسراً». فانطلقوا حتى انتهوا إلى عُمان وكان الملك يريد أن ينتقل منها وكان كلما مرت سفينة أخذها وألقى أهلها، فإذا الناس على ساحل البحر كالغنم لا يدرون ما يصنعون فلما قدمت سفينتهم قال أعوان الملك: أخرجوا عن هذه السفينة. قالوا إن شئتم فعلنا ولكنها مُخرقة. فلما رأوها وخرقها قالوا لا حاجة لنا بها. فقال أصحاب السفينة جزاكم الله عنا خيراً فما صحب قوم قوماً أعظم بركة منكم. وأصلح الخضر السفينة فعادت كما كانت».

ولم يكن الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً سوى مالك بن فهم.

***

الإحباريون العرب مولعون بالأسطوري والخارق. ولم يشأوا أن يتركوا عُمان دون نصيبها من القصص العجيب.

مثل ذلك ما يرويه العوتبي في «الأنساب» عن مرور النبي سليمان بن داوود صاحب الجن في عُمان فيقول «ان سلیمان بن داوود عليهما السلام سار من أرض

فارس في قلعة اصطخر إلى عُمان نصف يوم ونزل موضع القصر من سلوت من عُمان، وهو بناء جديد كأنما رفع الصناع أيديهم منه في ذلك الوقت وإذا عليه نسر فسأله نبي الله عليه السلام عنه فقال: يا نبي الله أخبرني أبي عن أبيه عن جده أنه عهده على هذه الحال. فقال في ذلك بعض الشياطين الذين صحبوا سليمان عليه السلام:

عُدونا من قرى اصطخر .. إلى القصر فقلناه
فإن نسأل عن القصر.. فإنا قد وجدناه
وللشيء على الشيء.. مقاييس وأشباه
يقاس المرء بالمرء.. إذا ما المرء ماشاه».

لكن القصة عند هذا الحدّ لا تبلغ الدلالة المتوخاة منها. وليس علينا أن ندقق في خبرها من زاوية صدقه أو واقعيته أو كون الشياطين تنشد شعراً بالعربية، ركيكا الى هذا الحدّ فما هذا مربط الفرس.

ذروة القصة أو خبرها هو أن سليمان بن داوود أقام في عُمان عشرة أيام وأمر الشياطين أن تحفر ألف نهر في اليوم. فكانت حصيلة الزيارة عشرة آلاف نهر تفجرت في انحاء عُمان!

فهل هذا الذكر العابر لسليمان بن داوود وبضعة اخبار يهودية اخرى ما دفع المؤرخ اللبناني المرموق كمال الصليبي الى توسيع فرجار حفرياته اللغوية، في تقصيه أصل التوراة، ليطال عُمان ايضا؟

«اباضية» لا «خوارج»

المؤكد، في تاريخ عُمان، ان مالك بن فهم ومن خلفه من زعماء الأزد لم يبسطوا نفودهم على كامل الأرض والسواحل العمانية فملكوا شطراً كبيراً منها وظلّ الفرس يملكون على بعض السواحل. ولا تشير الروايات إلى مواجهات كبرى

بين العرب والفرس بعد واقعة مالك بن فهم، بل يبدو ان التعايش والتبادل التجاري ظلاّ قائمين بين الطرفين.

ولن تتبدل هذه الحال إلاّ مع انتشار الدعوة الإسلامية وبلوغها أطراف شبه الجزيرة العربية، ومن بينها عُمان.

وفي صدد إسلام عُمان هناك روايات عديدة يوردها المؤرخ العماني الإمام نور الدين السالمي في مؤلفه «تحفة الأعيان» نقلا عن مؤرخين وإخباريين عرب عديدين وإن كانت الروايات، كلها، تجمع على حدوث ذلك في أواخر عهد الرسول وكلهاّ يجمع على أن عمرو بن العاص كان رسوله إلى أبني الجلندي حاكمي عُمان في تلك الآونة.

ولا يحدثنا السالمي عن العبادة التي كانت سائدة في عُمان قبيل وصول عمرو بن العاص إليها ولكن يبدو انها مماثلة لما كان سائداً في شبه الجزيرة العربية يومذاك حيث اختلطت الوثنية (عبادة الأصنام) بالمسيحية واليهودية. وفي الحالة العمانية يمكن أن نزيد الزرادشتية بسبب من وجود الفرس فترة طويلة هناك.

والمؤكد أن إسلام القبائل العربية العُمانية تم طوعاً. فلم يكن مع عمرو بن العاص رسول النبي محمد جيش ولا قوة عسكرية. ففاوض عبد وجيفر ابني الجلندي وعرفهما على مبادىء الإسلام فاستجابا إليه بعد تلكؤ خصوصا عندما علما بأمر الزكاة والخراج وما شاكل ذلك من جبايات. وبقي ابن العاص عاملاً على عُمان حتى بلغه نبأ وفاة الرسول فقفل راجعاً إلى المدينة يرافقه عبد بن الجلندي الذي سلّم على أبي بكر وبايعه.

وهناك رواية تفيد ان القبائل العُمانية أرتدت بعد وفاة الرسول مع من ارتد من القبائل العربية، فحاربها أبوبكر. لكن نور الدين السالمي ينفي ذلك بحميّة ويراه تخرصاً لا أساس له من الصحة.

وليس من صلب اهتمامي التاريخ ولا اقتفاء أحداثه ونوازله ولا هذا من أدب

الرحلة ولا من دأبها لكنني وجدت نفسي ملزماً الغوص في بطون كتب عديدة لاستخلاص ما يعين على بناء مسرح للأحداث ذات الدلالة الخاصة التي شهدها هذا البلد العربي النائي. فقد اكتشفت أن ذخيرتي من أخبار عُمان وأحوالها لم تكن أكثر من شذرات وشظايا ليست كلها صحيحة، على كل حال.

من ذلك، مثلا، ما وقر في أذهاننا انها البلد الذي اعتصم به «الخوارج» بعد حادثة «التحكيم» بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وما جرى بعد ذلك في واقعة «النهروان».

و«الخوارج»، مصطلحا، يلحظ كما يقول الباحث صالح بن احمد الصوافي في كتابه «الامام جابر بن زيد العماني واثاره في الدعوة»، «اولئك الذين خرجوا من «الكوفة» الى «النهروان» وكان ذلك في اول امرهم... ولم يكن خروجهم في ذلك الوقت خروجا عن الدين أو مروقا عن الجادة بل العكس هو الصحيح. فعلي بن ابي طالب لما سئل عنهم ووصفوا بالكفر امامه قال بل من الكفر فروا ونفى عنهم النفاق. غير أنه من الثابت بعد ذلك افتراق أمر هؤلاء الخوارج. لأنه بعد واقعة «النهروان» عمد البعض الى سلوك طريق لا يتفق مع الاصول الصحيحة للشريعة واحدثوا في الاسلام حدثا كبيرا بما استحلوا من اعراض المسلمين بالسيف وتكفير أهل القبلة الذين لا يذهبون مذهبهم.

ونفرق هؤلاء الخارجون الى فرق عديدة كان منها الأزارقة والصفرية والنجدات وهؤلاء هم الذين أصبحوا يعرفون بالخوارج.

اما «الاباضية» فهم لا يرون رأي الخوارج بل يرونهم مارقين عن الدين. ورغم انهم يوالون «المُحكّمة» الاولى وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي إلا انهم لم يوافقوا الأزارقة ومن والاهم من بعده بل تبرأوا منهم».

***

ويعاني العُمانيون الذين يعنيهم الأمر من هذا الاعتقاد السيار في أوساط السنّة العرب ويرون ذلك مثالاً على سوء الفهم والإحتطاب ليلاً .

فالمراجع التراثية العربية تقرن «الإباضية»، وهي المذهب الحاكم في عُمان، بالخوارج. ولم يشذ عن هذا الصراط مؤرخ معتبر من عيار إبن خلدون ولا حتى المعاجم المصنفة اليوم.

ففي «موسوعة المورد» يرد تحت كلمة «الإباضية» ما يلي: «فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله ابن إباض الذي انشقّ على الخوارج الأكثر تعصباً عام ٦٨٤ للميلاد. ثارت على الأمويين وسيطرت فترة من الزمن على اليمن وحضرموت وعُمان وانتشرت تعاليمها انتشاراً واسعاً بين البربر في شمال إفريقيا. ويتواجد الإباضيون اليوم في عُمان، في المقام الأول، وفي تونس والجزائر».

وفي كتاب «الفرق بين الفرق» جاء تحت بند «الإباضية» ما يلي: «اجمعت الاباضية على القول بإمامة عبد الله بن إباض وافترقت فيما بينها فرقاً يجمعها القول بان كفار هذه الأمة - يعنون بذلك مخالفيهم - براء من الشرك والأيمان وانهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار. وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم في السرّ واستحلوها في العلانية.

وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم وزعموا انهم في ذلك محاربون لله ولرسوله ولا يدينون دين الحق».

ويستخلص الدكتور ألبير نصري نادر محقق كتاب «الملل والنحل» لعبد القاهر البغدادي الصادر عن دار «الشرق» اللبنانية ثلاثة مواقف مهمة للإباضية تفردها عن سائر الفرق الأخرى هي:

١ - عدم قبول الإباضية بالقدر على ما قالت به المعتزلة.

٢ - الأنسان غير محاسب عن التوحيد ما لم يأته نبي يعلمه بان الله واحد لا شريك له.

٣ ـ يجوز ان يأمر الله بحكمين متضادين في شيء واحد .

ويتصدى الإمام نور الدين السالمي المؤرخ العُماني الذي تكررت الإشارة إليه في هذه الرحلة، بعصبية، للخلط الشائع بين « الإباضية » و« الخوارج » قائلاً : « إطلاق لفظ الخوارج على الأباضية أهل الحق والاستقامة من الدعايات الفاجرة التي نشأت عن التعصب السياسي أولاً ثم عن المذهبي ثانياً لما ظهر غلاة المذاهب . وقد خلطوا بين الأباضية والأزارقة والصفرية والنجدية . فالأباضية أهل الحق لم يجمعهم جامع بالصفرية والأزارقة ومن نحا نحوهم إلاّ إنكار الحكومة (يعني التحكيم) بين علي ومعاوية . وأما استحلال الدماء والأموال من أهل التوحيد والحكم بكفرهم كفر شرك فقد انفرد به الأزارقة والصفرية والنجدية وبه استباحوا حمى المسلمين . ولما كان مخالفونا لا يتورعون ولا يكلفون أنفسهم مؤنة البحث عن الحق فيلقفوا عنده » .

ولكن بماذا ينفرد « الأباضية » عن السنة والشيعة ليكونوا مذهباً اسلامياً خاصاً؟

يجيب عن هذا السؤال نور الدين السالمي نفسه في مبحث من مباحث كتابه « تحفة الأعيان » بالقول : (. . .) وأهل عُمان هم أهل الطريق القويم وأهل الصراط المستقيم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ودعا العرب والعجم إليه وجاهدهم عليه حتى دخلوا فيه رغبا ورهبا، وعليه لقي ربه، صلى الله عليه وسلّم، وعليه نص الخليفتان الراضبان المرضيان حتى لقيا ربهما (يقصد أبوبكر وعمر) وعليه مضى عثمان بن عفان في صدر خلافته حتى غيرّ وبدّل فقاموا عليه وعاتبوه فتوبوه فرجع إلى تغييره ثم عاتبوه فتوبوه ثم عاد إلى تغييره وأعذروا إلى الله حتى عذروا بين الخاص والعام وطلبوا الإعتزال عن أمرهم فأبى فاجتمعوا عليه وحاصروه حتى قتل في داره، ثم اجتمعوا على علّي بن أبي طالب فقدموه وبايعوه على القيام بما يرضي الله ومضى على ذلك ما شاء الله من الزمان وقاتل أهل الفتنة القائمين لقتاله المنستربن عند العوام بطلب دم عثمان حتى قتل منهم ألوفا وهزم صفوفاً ثم

رجع القهقري وحكَّم الرجال على حكم أمضاه الله، ليس لأحد أن يحكم فيه برأيه، فعاتبوه فلم يعتبهم وخاصموه فخصموه فكانت لهم الحجة عليه، فهمّ أن يرجع إليهم ويترك ما صالح عليه البغاة من التحكيم في حكم الله فقامت عليه رؤساء قومه فأطاعهم وعصى المسلمين فاعتزلوه بعد أن خلع نفسه بتحكيم الرجال في إمامته وهو يظن أن الأمر باق في يده وهيهات».

والواضح ان الفئة التي رفضت التحكيم وعاتبت علي بن أبي طالب عليه قد نصّبت على نفسها إماماً هو عبد الله بن وهب الراسبي الذي سار عليّ إلى جماعته وقاتلهم في موقعة «النهروان».

ويبدو ان علّي بن أبي طالب قد أباد طائفة كبيرة منهم ولم ينج إلاّ نفر قليل. ولكن اتباع هذا الفريق الأسلامي في عُمان ظلوا متمسكين برأيهم وعمدوا إلى انتخاب أئمة منهم حكموا بينهم طوال قرون عديدة ولم تستطع الخلافتان الاموية والعباسية وما تلاهما من أمراء طوائف وأعراق الشرق أن يفرضوا رأيهم أو حكمهم على عُمان.

وبمختصر القول فان «الأباضية» تفردت في معارضة قيام الحكم الأسلامي على أساس الوراثة أو على أساس الشوكة الاجتماعية وقالت بمبدأ انتخاب الأفضل والأصلح. وبحسب العرف الساري يخضع انتخاب الإمام إلى شروط صريحة منها: أن يكون ذكرا بالغاً، وأن لا يكون مصاباً بعاهة جسدية، وأن يكون ورعاً تقياً وأن ينال سهماً وافراً في الانتخابات.

ولا يستفتى في شأن إمامة الإمام جمهرة الناس بل العلماء منهم الذين لهم الحق في نزع الإمامة عنه متى حاد عن الحادة. وللإمام الحق في تفويض السلطة إلى خليفة يختاره شريطة أن لا بكون من صلبه.

لكن بعد ٩٠٠ سنة من حكم الأئمة في عُمان ظهر خلال حكم اليعاربة اتجاه لتوريث الابناء منصب الامامة وقد بدأ بعد وفاة الامام اليعربي الثاني سلطان بن سيف حيث خلفه في الامامة ابنه يعرب بن سلطان.

البرتغاليون واليعاربة

هناك بضع عاديات يمكن لزائر « مسقط » ان يذهب إليها ويقف من خلالها على شيء من تاريخ هذه العاصمة التي عرفت الغلبة يوما والغُلب يوماً آخر، الأنتشار إلى حدود الصين وشرق أفريقيا حينا والإنكفاء وراء أسوارها حينا ثانيا وذلك تبعاً للأحوال الدولية والأقليمية من جهة وأحوال الأسر والممالك العمانية التي تعاقبت على حكم البلاد من جهة ثانية.

وفي الأيام التي قضيتها في « مسقط » حاولت أن ألمّ بشظايا من تواريخ مبعثرة مكتوبة مستعيناً بالعيان والملاحظة والسؤال، فضلا عما أمكنني الحصول عليه من مراجع مكتوبة كيما أكوّن تصوراً تاريخياً متسقاً لتاريخ هذا المكان الغامض.

ولشد ما أدهشني أن اكتشف قلة ما تبقى من آثار الممالك المتعاقبة على حكم « مسقط » سواء تعلق الأمر بأسرة « اليعاربة » التي يرجع إليها الفضل في طرد البرتغاليين من عُمان وتوحيد البلاد تحت رايتهم، أم ما يتعلق بـ« أسرة البوسعيد » التي حكمت منذ العام ١٧٤٩ ولا تزال على رأس البلاد إلى يومنا هذا.

لكن ما يثير الدهشة أكثر هو ضآلة المادة التاريخية المكتوبة عن عُمان خصوصاً، بأقلام عُمانيين معاصرين.

فباستثناء كتابي « تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان » للإمام نور الدين السالمي وكتاب « نهضة الأعيان بحرية عُمان » لأبنه أبي بشير، فأنك غير واجد سوى شذرات ومقالات لا تبني سياقاً متكاملاً لتاريخ هذا البلد الذي كان جزءآ حيوياً وفاعلاً في محيطه منذ أقدم العصور. وقد احتاجني الامر الى صحبة ولم أطل حتى وجدتها.

هكذا لم أكن وحيداً في استطلاع المكان والوقوف على معالمه بل رافقني مثقفون عُمانيون عرفت بعضهم بالأسم والنتاج الأدبي من قبل مثل الشاعر سماء عيسى والفنانة التشكيلية نادرة المحمود والقاص محمود الرحبي وآخرون تعرفت

إليهم هناك وهؤلاء هم الأحدث سناً وتجربة مثل الشاعر عامر الرحبي والكاتب مرهون العزري.

بفضل هؤلاء جُلت في «مسقط» و«مطرح» والأحياء الجديدة التي تسمى «مدناً» كـ«مدينة الإعلام» و«المدينة الدبلوماسية» التي تضم مباني الهيئات الدبلوماسية الأجنبية وسكن الدبلوماسيين و«المدينة التجارية» التي تضم المجمعات التجارية الكبيرة ومؤسسات المال العمانية وبورصة «مسقط» والأسواق الشعبية التي تكاد تكون حكراً على العمالة الأسيوية الفقيرة حيث محلات «كل شيء بريال»!

ومن الملاحظات التي لا بّد أن تسترعي انتباه الزائر سيطرة الهنود و«البلوش» على التجارة الصغيرة مقابل سيطرة «اللواتي»، وهم من اصول شيعية هندية، على ما يبدو، على التجارة الكبيرة.

وكل «مدن» العاصمة العمانية يمكن لك أن تستنفد زيارتها في ساعات قليلة. فالمدينة رغم ما هي عليه من «مدن» تظلُّ صغيرة بالقياس إلى العواصم العربية غير الخليجية. ولا يتجاوز عدد سكانها، بما في ذلك العمالة الأجنبية، نصف مليون نسمة.

أما أبرز ما تقع عليه العين من الأثر القديم فليس هناك أهم من قلعتي «الجلالي» و«الميراني» و«حصن مطرح» وقد أنشأ البرتغاليون هذه المعاقل العسكرية الثلاثة خلال احتلالهم للشواطىء العمانية.

فقلعة «الجلالي» شيدت عام ١٥٧٨ فيما انشئت قلعة «الميرابي» في العام ١٥٨٨. وذلك على اثر محاولة العثمانيبن السيطرة على الميناءين.

ولم أقف على ذكر لتاريخ انشاء «حصن مطرح» ولكنه لا يتجاوز، على الأغلب، حدود هذين التاريخين. والفلعتان مشيدتان على مرتفعين صخريين يتحكمان بالمدخل المائي للعاصمة ولا يمكن الوصول إليهما الاّ عبر ممرات ضيقة،

وهما يمثلان نموذجاً لعمارة القلاع البرتغالية في القرون الوسطى.

ومن نافل القول انهما شيدتا في هذين الموقعين الحيويين لأسباب دفاعية. فبأمكان المدافع المنصوبة في الكوات صد أي هجوم أو تسلل إلى المدينة عن طريق البحر. فالسيطرة البرتغالية على قسم من الشواطىء العمانية والتي استمرت نحو ١٤٠ عاماً لم تكن محكمة على الدوام ولا حالت دون الهجمات المتكررة التي قام بها العمانيون أو القراصنة أو القوى الطالعة على المسرح الأقليمي كالعثمانيين مثلاً لطرد البرتغالين من عُمان.

وللملم بقسط من تاريخ عُمان لا يمكن النظر إلى القلعتين المتقابلتين دون أن يتذكر الرؤوس التي جندلت فيهما والأجساد التي ألقيت منهما إلى البحر والمؤامرات التي حيكت للوصول إليهما أو في داخلهما.

ولعله يتذكر بصورة خاصة اقتحامهما على يد الإمام سلطان بن سيف اليعربي، لينطوي بذلك، وإلى الأبد، الإحتلال البرتغالي الوحشي لعمان مؤذناً، في الوقت نفسه، بأفول نجم الامبراطورية البرتغالية لا في جنوب الجزيرة العربية فحسب بل في شرق أفريقيا والمحيط الهندي أيضاً، ليصعد في سماء المنطقة نجم امبراطورية جديدة هي الامبراطورية العمانية التي ظلت تحتفظ الى عهد قريب بأملاك لها في زنجبار (... التي لا بد ان تكون الفتاة العمانية افريقية الملامح التي لاقتنا في المطار تتحدر، هي وعشرات الوجوه الافريقية التي تراها في مسقط، من هناك) وإلى هاتين القلعتين و«حصن مطرح» هناك البناء الحديث اللافت للنظر مثل مبنى «بلدية مسقط» الذي فاز بجائزة المدن العربية عام ١٩٩٤ وهو مزيج من المعمار الاسلامي والمعمار الحديث. فضلا عن مبنى «الاوقاف والشؤون الاسلامية» في «الخوير» الذي ينبثق ببياضه وزرقة قبتيه الخفيضين وسط خضرة مستنبتة جاعلا في الفراغ المحيط متكأ مريحا للعين. والابيض لون سائد في المعمار العماني الجديد فيما اللون الاشهب هو السائد في المعمار القديم.

***

الذاهب الى « مسقط » لا يصيب من شخصية المكان العماني الاّ لمحات ولا يظفر من تواريخه وثقافته واجتماعه، الاّ كل ما يؤيد اللحظة الراهنة المنخرطة في معمعان التحديث.

فهي اليوم شأنها شأن الحواضر العربية المستحدثة هجينة نوعاً ، مختلطة الوجوه والطرز وان كانت على قدر ممتاز من حسن التنظيم والتخطيط. ويتوجب على المرتحل الى عُمان قصد تقري شخصية المكان وجس نبضه أن يمضي إلى داخلية البلاد.

ولن تكون له وجهة أفضل من« نزوى ».

فهذا أسم علم في التاريخ العماني له رجّعه القوي في المدونات التاريخية العربية والعمانية التي أرّخت لسيرة وأحوال هذا الشطر من ديار العرب.

ومن حسن حظنا ان القائمين على « مهرجان مسقط الشعري الثاني » جعلوا واحدة من أمسياته تعقد هناك. هكذا انطلقنا ثلة من الشعراء العرب تضم عبد الرزاق عبد الواحد (العراق)، ممدوح عدوان (سورية)، المنصف المزغني (تونس)، محمد القيسي (فلسطين) وكاتب هذه السطور يقودنا إلى رحاب المدينة الشيخ سالم العبري مسؤول الانشطة في « النادي الثقافي » وكان خير الرفيق والدليل، لإلمامه بالحواضر العمانية من جهة ولكونه من سكان المناطق القريبة من « نزوى » من جهة ثانية.

تبعد « نزوى » عن العاصمة العمانية نحو ١٧٠ كيلومترا تربط بينهما طريق تتسع في قسط منها الى خطين فيما بقي القسط الأكبر خطا واحدا، ولكنه حديث على العموم، مزود بالشواخص والشارات الضرورية التي تنبه السائق إلى مخاطر أو مفاجآت الطريق وتحدد الوجهة الرئيسية والوجهات الثانوية التي تتفرع منها. وهو أمر قلما تصادفه في الطرق العربية على هذا النحو الدقيق.

ويحاذي الطريق، الذي شُقّ في أرض منبسطة نسبياً ، سلسلة « جبال الحجر » ذات الطابع التراكمي، التي تقطع تراصّها ثغرة هنا وثغرة هناك. وهذه السلسلة

الجبلية جرداء عموما لا ينبت فيها سوى القليل من النباتات الشوكية، جبال شاهقة، حادة لا يكاد يطير اليها الطير، تخلف في النفس انقباضا وأحساساً بالحصار. فليس ثمة مجال لتسريح النظر فهو إما مصطدم بهذا الطود الراسخ أو متطلع إلى السماء، وحيثما يممت ستظلّ الجبال ترقبك بحدقاتها القاحلة.

وقد كنت أحسب قبل زيارتي إلى عُمان أن تكرار لفظة «الجبال» في قصائد الشاعر العُماني سيف الرحبي ووسمه عمله الأخير بها، مجرد رمز أو مجاز حتى طالعتني هذه السلسلة الجبلية، الفريدة من نوعها، بحضورها ألا محيد عنه.

ولا يعدم وجود تلال وتلعات صغيرة عند أقدام الجبال الضخمة تبدو لناظرها أشبه بتكوينات عائلية، فخلفها قمم السلسلة الجبلية تعلو أو تدنو والتلاع الصغيرة متكئة إليها أو طالعة من رحمها القاسي.

وحيثما تتواجد قرية بمائها الشحيح ونخيلها وبيوتها القليلة يكون على هذه التلاع أبراج مراقبة صغيرة ترابية اللون مثل التي يراها المرء في القلاع والحصون التي تكثر في «داخلية عُمان».

وحسبما فهمنا من الشيخ سالم العبري فان لهذه الأبراج أهميتها الدفاعية أيام الاضطرابات الأهلية التي كانت تشهدها عُمان في غيبة الحكم المركزي. فقد كان شائعاً أن تتبادل القبائل الغارات على خلفية التنابذ العشائري والمذهبي.

ولا تفصح المصادر العمانية التاريخية عن سبب هذه الإنقسامات التي شغلت البلاد طويلاً ولكنها ترجع، على الأرجح، إلى انقسام القبائل العمانية إلى عربية جنوبية، أصلها اليمن، وأخرى من وسط وشمال الجزيرة العربية وانقسامها مذهبياً ، كذلك، إلى «سنّة» و«إباضية» وان كان للأخيرة، غالباً ، سدّة الحكم وصولجانه، لكن البلاد سرعان ما تلتئم لحمتها كلما هددها غاز أو مشى إلبها مجتاح.

ولا ينبغي أن يفوت عن البال، تماما، الباعث المذهبي أو القبلي في اشعال فتيل الأضطرابات والمنازعات الحادة مهما كانت الأقنعة السياسية أو الايديولوجية، التي

تتخذها لنفسها. وفي السجل العماني والعربي آيات كلاسيكية على ذلك.

ويلفت نظر المرتحل على طريق مسقط - نزوى حفاظ القرى على الطابع العماني في المعمار واللباس رغم زحف الأسمنت ومظاهر التحديث على هذه الدساكر التي بالقليل من الماء، القليل حقا، ابتدعت طراز حياة متسق مع الطبيعة القاسية وتحدياتها واستنبتت في السفوح وما تركته الجبال من انبساط، خضرة تقتات منها وتفيء إلى ظلالها، فليس نادراً أن تجد الصحون اللاقطة للبث الفضائي تستدير بأجرامها المتباينة حجماً صوب جهة من السماء وغالباً ما يكون ذلك في الجهة المقابلة لسلسلة الجبال. كذلك ستلحظ الإعلانات والعلامات التجارية لسلع لا تفتأ تخترق حصانات الهوية والثقافة وأنماط العيش الخاصة.

وبامكانك أن ترى الصبية يروحون ويغدون بجلابيبهم والرجال بأزيائهم العمانية الجميلة المكونة من «دشداشة» بلا ياقة وعمامة ملوّنة أو بطاقية دون عمامة يسمونها «الكُمة» بعضهم يتزنر بحزام عريض يتوسطه خنجر فضي معقوف ويحمل بيده قضيبا خيزرانياً أو عصا يمكن له أن يتوكأ عليها وبعضهم الأخر من دون الخنجر والعصا ولكن، قط، ليس من دون العمامة أو «الكُمة». وان صادفت رجلاً في «داخلية عُمان» يرتدي ثياباً «افرنجية» فهو، قطعاً، ليس عُمانياً. حتى في العاصمة فان قلّة من الشباب العماني يرتدون مثل هذه الثياب. وقد علمت ان ارتداء الزي العماني الكامل (أي بالخنجر) إلزامي في جميع المصالح الحكومية باستثناء الجيش والشرطة.

وكم كانت دهشتي كبيرة أن أرى الصديق الشاعر سيف الرحبي مرتدياً الزي العماني. وقد شعرت لوهلة بان هناك «خطأ» ما.

ووجدت الزي العماني الذي استجملته على الآخرين غريباً بل غير مصاقب البتة لسيف الرحبي. فهو صرم شطراً كبيراً من حياته في منافي الجبر والإختيار، ولم يعد إلى بلاده، نهائياً (!)، سوى منذ ثلاث سنوات ليؤسس ويرأس تحرير الدورية الثقافيه المرموقة «نزوى» المسماة على اسم ونية المدينة العمانية العريقة.

كما أن لقاءاتي السابقة بسيف الرحبي وهي كثيرة، تمت كلها على « أرض محايدة » لا تستوجب التسربل بالزي الوطني الذي لا أظن أنه من المغرمين به.

«نزوى» بيضة الاسلام

ندخل « نزوى » ظهرا. الشمس تتوهج فوق هذه المدينة الترابية المتكئة، برسوخ، على حواف الجبال، فتعبق رائحة القدامة. فجأة تطلع لك « نزوى » من كتاب التاريخ، ولولا أعمدة الكهرباء والطرق المسفلتة والسيارات الحديثة التي تجوب شوارعها وبضعة اعلانات سفيهة لسلع غربية لقلت بأن « نزوى » لا تزال في زمن الأئمة الكبار: أشجار النخيل المباركة، قاتمة الخضرة، تترامى حولها والقلعة والحصن يذخران الشوكة والمنعة من دون بهرج القوة وصلافتها.

لا عليك من ضخامة معمار القلعة والحصن وغلظ الأسوار فذلك لا يتناقض إلاّ ظاهرياً مع السكينة التي ما تبرح ان تتحسس دفقها في الحنيات والمنعطفات والأزقة والأسواق الظليلة وفي هوينى حركة الأجساد وملامح العابرين بلا جلبة من طرف في المدينة إلى اخر.

فإذا مضيت إلى الأسواق ستهب عليك، فجأة، روائح الأفاوية والبخور والأعشاب والهال وماء الورد والعطور الشرقية وسترى أمام المحال الصغيرة الباعة في أزيائهم العمانية بعضهم يبيع من دون مساومات حادة مع المشتري، كعادة الأسواق العربية، وبعضهم الأخر مستكين إلى النداوة التي تمنحها ظلال السوق.

ومن الصعب أن تتفادى غواية اللعبة الأبدية بين الظل والضوء، بين الحرّ والنداوة خصوصاً في هذا المكان الذي تحكم فيه الشمس، مع الجبال، حصارا لا فكاك منه فتأخذ في رصد تراقص الاضواء المتسربة من الفتحات والكوى العالية والازقة الضيقة.

فبمجرد انتقالك من الساحة إلى « السوق الشرقي » مثلا، ستعبر من الضوء

الوهاج إلى الظلال والرطوبة، فكأنك تنقّل الخطى بين عالمين يتبادلان لعبة يعرف الجدار والكوة والزقاق والنوافذ العالية قانونها جيداً .

وسيبرهن بناء القلعة على الإستعدادات الكبيرة لصدّ هجوم الشمس الذي لا يفّل له ساعد واستثمار الحدّ الأقصى للظلال في القيظ الذي يدمغ بخاتمه اللهاب معظم شهور السنة .

وفي الساحة الصغيرة التي تتفرع منها مداخل الأسواق المصممة على النمط العماني القديم تشعر لوهلة بأنك وسط ديكورات لفيلم تاريخي . فاللون الترابي الموحد وجدة ونظافة المعمار، ورؤوس أشجار النخيل التي تلوح من بعيد ومن خلفها الجبال تدفعك لأن تحاول تقري الجدران بيديك لتقف على حقيقتها هذا ما قلته للشاعر التونسي المنصف المزغني الذي لم يتوقف عن التقاط الصور بكاميرته الصغيرة، المثيرة للشفقة، فوافقني قائلاً : فعلاً كأنها صفحة من كتاب « ألف ليلة وليلة » .

لم يكن المزغني وحده الذي « يطقطق » بكاميرته بل سرعان ما لحق بنا فوج سياحي ياباني كبير شرع أفراده على الفور باستلال كاميراتهم وأخذوا يمسحون المكان بأعينهم الصغيرة وعدساتهم سواء بسواء .

***

سأترك لهذه الذكرى التي تهبُّ، فجأة، أن تستولي عليَّ وأن تستردّ أبواباً كبيرة لخانات وحصون وبيوتات وجهاء وأكابر، خشبها مشقق النسيج لكنه صامد للعوادي تثوي فيه مسامير بطبعات صدئة سيئة الأستدارة ومزاليج ضخمة تقلّب عليها الحرُّ والقرُّ والمطر والرّيح والنسيان . سأتذكرُ أيضاً بوابة صغيرة في الجانب الأيمن من الباب الكبير تفتحها يد غضة فتصدر أنيناً كأنين ناعورة عربية مهجورة رأيتها في ظاهر غرناطة يوماً .

سأترك للذاكرة أيضا أن تمعن في التداعي : دخان شفاف يتصاعد من أثاف أمام

بيوت طينية بعلو قامة رجل وروائح مختلطة: لبنٌ مخيضٌ، صابون جلبه مسافرو الليالي، قمح غامق الخضرة يُشوى، شاي بالقرفة. ثمة شمس هائلة وهاجة تبسط أحكامها على المشهد الصامت.

كيف انبثقت هذه الذكرى وأنا أجلس مستظلاً حائطاً بالقرب من «السوق الشرقي» في «نزوى» ومما تألفت؟ ومن أين جاءت؟

أمن قرى «حوران» التي عبرها عمي «موسى» على صهوة حصانه الأسحم وأنا مرتدف خلفه أطالع بعين الطفل الذي كنته بيوتاً طينية وأخرى كحلية الحجر يتصاعد فوقها الدخان وأبقاراً تقضم الأعشاب الكثيفة على حواف السواقي وأشباه المستنقعات، وفي البعيد تنداح أصوات أراغيل ومواويل شجية.. وفي واحدة من هذه القرى يترجل عمي المهرب الأسطوري (في نظري آنذاك) أمام بيت كبير من الحجر له باب خشبي كبير ذو مزاليج حديدية واحدها بطول ذراع رجل وفي الجانب الأيمن بوابة صغيرة ذات مزلاج حديدي صغير يعبرها، هو، متطامنا واعبرها انا دون أن أنحني؟

أم جاءتني هذه الذكرى من زيارة مبكرة لواحة «الأزرق» الأردنية حيث ينبثق الماء بمعجزة وسط الصحراء فيصنع حياة خضراء في قلب الصفرة والهجير والصمت والإنقطاع. ثمة قلعة كبيرة أيضاً (أو لعلني أظنها كذلك) وبيوت من الحجر الأبيض المصفر ببوابات خشبية كبيرة يدخلها الفارس على صهوة جواده؟

أم لعل هذه الذكرى المباغتة انضفرت من قراءات الأسفار ووصف مدائن الأحلام: سمرقند، بخارى، غرناطة، فاس، بغداد؟

أو قد تكون ذكرى باقية من حياة سابقة عشتها محارباً في جيوش الأسلام التي فتحت مدناً أسطورية ووصلت بقاعاً لم تطأها حوافر الخيول العربية من قبل؟

لن أصرّ على محاصرة هذه الذكرى وردّها إلى منشأها الأول. لا جدوى من ذلك ولا ضرورة أيضاً.

يكفيني هذا الأثر البهيج لخلخلة الذاكرة وتقطع سلسلتها المحكمة. يكفيني أن تكون بوابة في «نزوى» قد جعلتني أعيش أزمنة هنا وهناك في اللحظة نفسها.

***

لكن ليس هذا ما توحي به لك قلعة «نزوى» وأنت تقف ضئيلاً أمام جرمها الحجري الهائل.

لا. لا ألفة بينك وبين هذه الكمأة الحجرية الهائلة. لا تجدي المقارنة ولا فائدة من حذاقة الذاكرة. فليس لها، أغلب الظن، مثيلاً في أي مكان آخر. لا لأنها كبيرة، فهناك قطعاً ما هو أكبر منها حجماً ولا لإعجازها الهندسي فهناك دون ريب ما يبزها على هذا الصعيد ولكن لأنها نسيج وحدها. فهي لا تشبه القلاع العربية والصليبية التي رأيتها في الأردن (قلعة الكرك، قلعة عجلون، قلعة الأزرق الخ) ولا تشبه أيضاً قلعة حلب التي وقفت ذات يوم بعيد تحت أسوارها المتطاولة ولا تشبه قلعة «أرنون» التي شهدت مقتلة كبيرة للفلسطينيين والأسرائيليين في غزو عام ١٩٨٢ ولا قلعة «صيدا» التي تتلاطم تحتها أمواج المتوسط ولا قلعة المذبحة الشهيرة في القاهرة.

ولا تشبه حتى قلعتي «الميراني» و«الجلالي» في مسقط اللتين بناهما البرتغاليون.

إنها أبنة المكان العُماني بأمتياز.

أبنة حجره وحصّه وأخشابه.

أبنة سؤاله الوجودي والروحي المقتفي تأويلاً خاصا للرسالة المحمدية.

أبنة تحدي ضعفه وهوان أمره.

سيداخلني تهيؤ انني أسمع وأنا ألج بوابة القلعة التي يربض أمامها مدفعان على قاعدنين حجريتبن، الإمام سلطان بن سيف اليعربي وهو يحث رجاله على صنع أعجوبة تسبر بها الركبان. فها هم المهندسون والصناع والعبيد المجهولون يرفعون

البناء أعلى فأعلى تحت حدقة الشمس الملتهبة والإمام الاسطوري يستزيد . فهو عائد لتوه من موقعة « ديو » التي هزم فيها البرتغاليين في واحدة من أكبر قواعدهم العسكرية في آسيا وأغتنم ثرواتهم وسبى بعضاً من ذريتهم البيضاء وجاء بمدافعهم أيضاً ليحصن داره بما لا قبل لاحد به، قبل ان يكرَّ كرَّته القاتلة عليهم في مسقط ويفنيهم عن بكرة ابيهم. ولكنني أسمع ايضاً أنين الأجراء والعبيد وهم يرفعون بناء سيظن الأهلون الذين لم يشهدوا ملحمة الحجر هذه إنه من صنع الجن، لا الأيدي التي براها الحجر وأفناها التراب وصارت نسياً منسياً .

***

لم نكن نظن ونحن نغادر « مسقط » إلى « نزوى » إننا سنكون ازاء واحدة من أكبر مفاجآت عُمان بل لعلها الأكبر طراً ، فقصارى ما حملني اليه الظن هو اننا نساق الى دسكرة أو بلدة قديمة رفعها المديح الأهلي المبالغ به إلى مصافّ الحاضرة .

فلم نكد نسمع مذ حللنا في « مسقط » سوى حماسات مفرطة لـ « عاصمة العلم » و« عاصمة عُمان القديمة » و« بيضة الأسلام » و« الشهباء » فقلت في نفسي إن القوم يحتاجون إلى نوع من « قيروان » أو « قرويين » أو « كوفة » أو « فسطاط » خاصة بهم .

ولا أظن أن شيئاً أبعد من هذا دار في خلد رفاق رحلتي من العرب. فهم نزلوا عند رغبة القائمين على « النادي الثقافي » لقراءة قصائدهم في بقعة نائية لا يعلمون من أمرها شيئاً .

ولعلهم أعتبروا الرحلة بمجملها تضحية تكافيء أريحية المضيفين!

هكذا تلقينا صدمة الجمال والفرادة والمنعة التي كانت تعدها لنا « نزوى » كاملة ومن حيث لم نحتسب .

وها نحن أمام بوابة القلعة يتظرنا رهط من رسميي الولايه بكامل أوصافهم :

اللحى الخفيفة، الدشداشات البيضاء النظيفة القصيرة نوعا (سُنّة تقتدي برجال الأسلام الأُول) العمامات الملونة، أحزمة الجلد العريضة المزركشة يتوسطها خنجر فضي معقوف مرصع بلآليء صغيرة تلمع في الشمس، عصي الخيزران الرفيعة تهتز في الأيدي السمر النحيفة.

عبرنا من فورنا إلى مضيف داخل القلعة مستطيل الشكل مفروش بالسجاجيد والبسط وبعض الارائك. خلعنا احذيتنا واتخذنا لنا مجلساً في المضيف ذي النداوة المنعشة. فدار السلام والكلام والتعارف والسؤال عن الأخبار على الطريقة العربية التقليدية.

لاحظت ان عاداتنا في بادية الشام شبيهة بالعادات العمانية خصوصاً لجهة « السؤال عن الأخبار » بعد أن يكون الضيف استقر في مجلسه وتخفف من وعثاء السفر.

« وش علومك »؟ هكذا يسألون عندنا الضيف القادم من بعيد. و« العلوم » (بتسكين العين) جمع « علم » و« العلم » هو الخبر.

ورغم الهاتف النقال أو « البيجر » الذي تلمحه مشبوكاً بالحزام، قريباً من الخنجر، فإن « السؤال عن الاخبار » لا يزال يجري على ألسنة العمانيين.

سؤال فقد وظيفته في عصر التوطين ومشاريع الإسكان الكبرى والمياه المحمولة إلى البيوت والستلايت والهواتف النقالة وظل مجرد ترصيع للكلام. مجرد حلية رسبت في دارج القول من زمن التنقل والغزو والاهتداء بالنجوم والشارات التي لا تطويها الأيام.

تبدأ الضيافة العمانية بالحلوى التي تعرف على نطاق واسع في بلدان الخليج باسم « الحلوى العمانية » وهي مكونة من النشا الممزوج بالدقيق والسمن البلدي والسكر وحب الهال والزعفران وماء الورد تقدم في طاسات وتؤكل بالأيدي.

والطازجة منها لها ملمس الجيلاتين وذات رائحة دسمة مستحكمة.

وقيل لنا ان الحلوى التي تصنع في «نزوى» هي «الحلوى العمانية» بامتياز. فالولاية مشهورة بصناعة ماء الورد الذي يستخدم في الحلوى. بل يكاد ان يكون «ماء الورد» حكراً عليها.

وُضعتْ أمام كل أثنين أو ثلاثة منا طاسة من الحلوى فمددنا أيدينا إلى الكتلة البنية اللزجة الرجراجة ذات الرائحة النفاذة بشيء من التردد. التقمنا لقيمات صغيرة واكتفينا لفرط دسمها. كان مضيفونا العمانيون مستغربين، على الأرجح، من ترددنا أمام هذه الحلوى ذائعة الصيت المصنوعة على نحو مخصوص وبعناية فائقة من اجلنا. كانت معدتي مضطربة بسبب السفر وتغير طبيعة الطعام ومع ذلك التقمت من الحلوى أكثر مما فعل زملائي. فجرياً على عاداتنا البدوية فان رفض تناول الطعام أو الشراب عند مُضيفك، أيا كان السبب، يعدُّ إهانة بالغة. وفي الزمن الماضي كانت مثل هذه الفعلة تعتبر اضماراً للشرّ.

وبعد الحلوى، جيء لنا بالقهوة، والقهوة العُمانية صفراء، خفيفة، كثيرة الهال شبيهة، عموما، بما يصنعه الخليجيون على عكس قهوتنا في بادية الشام. فهي سوداء، كثيفة يزيد هالها أو يقلُّ حسب المنزلة الإجتماعية للمُضيف. فحبُّ الهال كان، ولعله لا يزال، من أغلى المطيبات ثمناً.

لم يطل بنا المقام في مضيف القلعة. فما أن فرغنا في مراسم الضيافة حتى أنطلقنا نجوب في أرجائها يتقدمنا دليل سياحي عماني محترف.

كان لابدّ أن نسمع شرحاً مختصراً عن اسم «نزوى» وموقعها على الخريطة العمانية وشيئاً من تاريخها قبل الولوج في متاهة القلعة.

فولاية «نزوى» حسب دليلنا، تشكل همزة وصل بين مناطق السلطنة المختلفة (الداخلية، الظاهرة، الجنوبية) يبلغ عدد سكانها اليوم ستين ألفاً موزعين على ٤٣ قرية وبلدة فضلاً عن المدينة نفسها.

ومن اسماء «نزوى» الذائعة «بيضة الإسلام»، والبيضة حسب لسان العرب هي الساحة، كما أنها تسمى أيضاً «قصبة عمان» وتلقب كذلك بـ «عاصمة العلم».

والعلم، هنا، يعني علوم الدين. ففي المدينة كان يتم انتخاب وتنصيب الأئمة على مدار تاريخها الإسلامي.

وبهذا فهي شبيهة، اليوم، بـ«الأزهر» في مصر مع فارق ان دور علماء «الأزهر» يقتصر على الإفتاء في شؤون الدين واسداء النصح للحاكم فيما الإمام في المذهب الاباضي كان حاكماً دينياً ودنيوياً معاً، وقد استقل بالحكم في ما يسمى بـ «داخلية عمان» استقلالا كاملا عن السلطان في «مسقط» بين عامي ١٩٢٠ و١٩٥٥ وكان اخر امام مستقل هو محمد بن عبد الله الخليلي الذي تعاون مع السلطان سعيد بن تيمور من أجل إخراج السعوديين الذين احتلوا واحة البريمي بعد تفجر ازمة «واحة البريمي» مع السعودية.

وهكذا يتبدى معنى مقولة «من يحكم نزوى يحكم عُمان».

وفي «نزوى» بضعة مساجد تاريخية مهمة مثل مسجد «الشواذنة» الذي أعيد ترميمه في سنة ١٠٧ هجرية ومسجد «سعال» الذي شيد في السنة الثامنة للهجرة فضلا عن بضعة حصون وقلاع اخرى اهمها قلعة «تنوف» و«بيت الرديدة».

التجليات السبع للقلعة

من يحكم «نزوى» يحكم عُمان ومن يحكم القلعة يحكم «نزوى».

فالقلعة بهذا المعنى هي واسطة عقد البلاد ان لم تكن حجر سنّمارها أيضاً.

وهي الاثر الدفاعي الاضخم في كل عُمان والاكثر فرادة في جنوب شبه الجزيرة العربية على ما يقول العارفون بشؤون هده المنطقة.

والحال، ليس غريباً أن ينسب الأهلون بناءها إلى «الجن» كدأبهم امام الظواهر الخارقة. من ذلك، مثلا، ما حصل في عصرنا الراهن عندما أسقط مقاومو «الجبل» الاخضر طائرة حربية بريطانية اثناء مواجهات ١٩٥٧، فقيل، والعهدة على الرواة، ان الجن كانت تحارب الى صف الشيخ سليمان بن حمير المناهض للانكليز.

ترافق بناء القلعة مع لحظة نهوض عمانية حاسمة تولى زمامها الامام سلطان بن سيف اليعربي الذي تولى الامامة عام ١٦٤٩ ولكن قبله كان سلفه الإمام ناصر بن مرشد قد مهّد الطريق لهذه النهضة من خلال توحيده البلاد. وسيكون على الإمام سلطان بن سيف أن يخرج البرتغاليين من مسقط وهي آخر معاقلهم في الجزيرة العربية.

وقد امكن بناء القلعة الذي استمر اثنتي عشرة سنة بفضل الغنائم التي عاد بها الامام اليعربي من حملة « ديو ».

ويتكون هذا الصرح المعماري المهيب من مبنى دائري كبير مشيد بالحجر والجص العماني يبلغ ارتفاعه نحو ١١٥ قدما بقطر ١٥٠ قدما.

نصعد الى اعلى القلعة بواسطة سلم ضيق يتخذ شكل حرف « الحاء » حيث يوجد عند كل منعطف من السلم باب غرضه اعاقة المقتحمين المفترضين. ويبلغ عدد المنعطفات سبعة (هل الرقم مجرد مصادفة ام يرمز الى ايام الخلق السبعة؟) تحميها فتحات ضيقة من أعلى القلعة يمكن للمرابطين فيها ان يسكبوا من خلالها الدبس المغلي على المتسللين كما يوجد تحت كل منعطف بئر وأمامها باب ذو متاريس.

فإن أفلت مقتحمو القلعة من الدبس المغلي الذي ينهال عليهم من الفتحات في الأعلى سقطوا في البئر، وان نجوا من الاثنين عرقلتهم البوابة، واذا تمكنوا من تجاوز ذلك في المعطف الأول تلقاهم الثاني وهكذا دواليك.

ويبدو أن تصميم القلعة قد أخذ في الإعتبار إمكان اقتحام بوابتها المنيعة فهيأ مصائد داخلية قاتلة للمقتحمين.

وبالصعود إلى المنعطف السابع نكون قد وصلنا إلى سطح القلعة، أو منصتها، حيث تطالعنا فتحتان مغطاتان بشبك من الحديد الثقيل تفضيان إلى حجرتين عمق كل منهما خمسة أمتار قال لنا أحد زملائنا العمانيين انهما كانتا تسنخدمان كزنزانتين.

وقد ذكرني ذلك بزنازين قصبة غرناطة سوى ان الأخيرة تحت سطح الأرض.

لا توجد أية مرافق على هذا السطح الحجري الواسع سوى تلك المهيئة للدفاع أو لتزويد الحامية بالأحتياجات الضرورية مثل بئر الماء وبضعة مخازن للأسلحة وأخرى للراحة. ويحيط بمنصة القلعة سور دائري ارتفاعه عشرة أمتار مزود بفتحات سفلى للمدافع عددها ٢٤ فتحة تكفل انتشار القذائف من جميع الجهات كما يمكن لرماة البنادق أن يطلقوا نيرانهم عبر ٤٨٠ مرمى صغيرا في القسم العلوي من السور الذي يمكن الصعود إليه من خلال ٤٠ درجا ضيقا منتشرا على مدار المنصة.

وحسب دليلنا العماني فان قلعة «نزوى» اكتسبت خصوصيتها الحربية من كونها جارت التطور الذي عرفته حرب مدفعية الأبراج في ذلك الزمن.

ومن الواضح إن الفكر الهندسي العماني كان على دراية بهذه النقلة الحاسمة في الحروب فجاء تصميمها ليستوعب المعطيات الهندسية التي أفرزها دخول المدفع إلى برج القلعة سواء تعلق ذلك بصلابة البناء أم قدرته على امتصاص الإرتجاجات.

فالقلعة تتمتع بقدر كبير من المتانة. فهي تنهض على أسس راسخة عمقها نحو ثلاثين متراً تحت الأرض وبإمكان جسمها الظاهر أن يمتص الأرتجاجات الناجمة عن اطلاق أعيرة مختلفة من المدافع.

ويشهد على متانة بنائها، حتى بمعيار زمننا هذا، ما يرويه وندل فيليبس الذي يقول ان الصواريخ المضادة للدبابات التي اطلقت عليها أثناء ثورة «الجبل الأخضر» قد إرتدت عنها دون أن تنال منها شيئاً على ما يبدو.

ويتميز بناء القلعة، رغم ضخامته واتساقه الهندسي وتعقيد تصميمه الداخلي، بالتقشف من الناحية الزخرفية والتزيينية وهو، بذلك، ينسجم مع الرسالة التي يبثها لناظرة: المنعة.

ولا يتوقع المرء من صرح كهذا أي انشغال جمالي قد يعطي انطباعاً بميل القوم، وهم في لحظة مواجهة حاسمة مع البرتغاليين، إلى الدعة واللين.

غير أن التقشف صارم حتى في المرافق الداخلية الحميمة التي لا يصلها نظر العدو أو المتطفل مثل القسم الخاص بعائلة الإمام.

فلا ترى في غرفة نوم القائد السياسي و العسكري والديني للبلاد أي مظهر يدل على الرفاه. فهي ضيقة، خفيضة السقف، عادية الجدران إلاّ من بعض كوى صغيرة توضع فيها آنية للزينة، لا يميزها نقش ولا تنطوي على زخرفة. لكن الملفت للأهتمام فيها وجود فتحة صغيرة تتصل، حسب ما أكدت التنقيبات، بسرداب يقود إلى خارج القلعة. والفتحة مغطاة ببساط عند أقدام السرير لا يمكن للناظر أن يلحظها.

ومن الواضح ان ترتيبات اعاقة الاقتحام المفترض والنجاة منها، في حال نجاحه، هي في أساس التصميم الداخلي للقلعة وليس هناك أهم من الإمام وعائلته لتوفير سبيل النجاة أمامهم عندما يقع ما يستدعي ذلك.

وتتصل غرفة النوم بحمام يستمدُّ ماءه من بئر داخلية تنضح بأدوات مخصصة لذلك وتجري في قناة صغيرة مكشوفة لتصب في صهريج من اللبن في داخله تنور لتدفئة الماء.

فالنظافة أساسية في حياة المسلم اليومية وعمادها الماء. وهذا رغم شُحّه متوفر في القلعة. فهي تستقي من سبع آبار موجودة فيها (الرقم سبعة يتكرر مرة أخرى!) فضلاً عن عين ماء جارية تحتها، وترفع المياه من الآبار إلى الأماكن العليا بواسطة حبال تدور على عجلة مثبتة في سطح القلعة.

وكما هي عادة المعمار العربي والإسلامي فليس هناك ذكر لمهندس الفلعة.

لا أحد يعرف من هو الذي خطط مناهتها الداخلية في منتهى الدقة حاسباً حساباً للظلال والأضواء، الرطوبة والقبظ، التسلل والمصائد والنجاة.

بقي إسم الذي أمر ببناء القلعة وأسماء شعراء ومداحين كالوا الثناء للإمام اليعربي واندثر أسم مهندسها.

ألم نقف على هذا الغياب ـ الحضور للمهندسين العظام الذين خططوا جوامع القاهرة الفاطمية والمملوكية و« القيروان » و« القرويين » و« الجامع الأموي » بل و« قصر الحمراء » بكل إعجازه الجمالي ؟

فلماذا يبقى إسم الشاعر ويغيب إسم المهندس؟

هل ذلك لأننا أمة ترى بناء الكلمات هو الأجدر بالبقاء بينما بناء الحجر زائل؟

فان لم يكن الأمر كذلك فلماذا لا نقع على ذكر لمن رفع في هذا المكان العسير معجزةً من حجر؟

ينتهي تطوافنا في القلعة ولا ينتهي الأثر الذي يتركه فيك باب من أبوابها صدَّ الريح وتقلّبت عليه متوالية النهار والليل عبر القرون. نقف تحت سورها العظيم وتكون الشمس قد جازت كبد السماء ومالت إلى الغرب لكن نورها وحرارتها لا يزالان على عزيمتهما الأولى.

نقول وداعاً للأقواس والظلال التي تتراقص في باحاتها المكشوفة.

نقول وداعاً للأبراج التي تبسط سيطرة غير مرئية على المدى.

ونقول وداعاً لمهندسها وعمالها وعبيدها وحاميتها الذين يمكن لمن توقف ورأى وأنصت أن يرى أشباحهم ويستعيد أصواتهم وهم يصنعون معلقة فذة من الحجر والجص والتراب.

نمضي إلى موعد مضروب مع وجهاء « نزوى » . . ونتطلع إلى الهيولى الحجرية الرابضة في الخلف.

«فلج دارس» : نعمة الماء

بالقرب من « فلج دارس » أولم لنا والي المدينة بحضور وجهائها العشائريين والدينيين.

تحت ظلال الأشجار التي تستقي من أقدم « افلاج » عُمان وأكبرها كان القوم

ينتظرون مجيء الشعراء العرب، فما أن رأونا قادمين حتى هبوا على أقدامهم هبّة رجل واحد. كان من الصعب علينا أن نفرق بين مقاماتهم ومراتبهم الإجتماعية. فهم يتزيّون بالزيّ نفسه. كلهم بثياب بيضاء وعمامات ملونة على الرؤوس وخناجر معقوفة في وسط الأحزمة والعصي في أيديهم ولهم تلك السحنة الهادئة التي يتميز بها المنسجمون مع محيطهم.

وجرياً على العادة العربية كان علينا أن نسلّم عليهم واحداً واحداً وكانوا ينوفون عن الأربعين.

فرغنا من السلام وظل القوم واقفين كل يتبادل الحديث مع القريب منه ونحن في حيرة من أمر هذا الوقوف.

فهل ينتظرون، يا ترى، ضيوفاً غيرنا؟

لكن أحداً لم يأت.

وطال الوقوف.

كنا، المنصف المزغني، محمد القيسي وأنا نقف متجاورين. وبالتأكيد كنا متعبين بعد طوافنا في القلعة والأسواق.

ولما لم يكن المزغني على بينة بالعادات العربية المشرقية فقد جلس على الأرض بعد وقوف طال فتحولت إليه نحو ثمانين عيناً.

ولكي لا أترك زميلي التونسي في حرجه فقد جلست أنا الآخر رغم معرفتي بما تنطوي عليه هذه الفعلة من خرق لسنّة الإحترام بين الرجال فتبعني القيسي وظل مضيفونا واقفين ولكن أعينهم المستنكرة قد تحوّلت عنا. فهم، لا ريب، شفعوا لنا ضعف تضلعنا بالعرف والعادة وليس أدلّ على بعدنا عن منابتنا الأولى من ثيابنا «الأفرنجية» وشعورنا المتبعة التقاليع الحديثة. وقد هيأ لنا حرج موقفنا ان الوقوف سيطول أبدا حتى وصلت القصاع الكبيرة التي تعلوها الخراف المشوية على الطريقة العمانية فتداعى الجمع الواقف إلى الجلوس فسُمع خفق للدشاديش وتحرك الهواء الساكن.

لكننا لم نمد أيدينا إلاّ بعد أن طلب إلينا العُمانيون القريبون منا أن نفعل.

فيكفينا حرج واحد!

قال لي أحد مضيفينا بعد أن عرف أنني أردني إن هذه الأكلة عند العُمانيين هي في منزلة «المنسف» لدى الأردنيين. لكني رأيتها لا تشبه المنسف إلاّ في اشتمالها على اللحم والأرز. والحقيقة إنها تشبه أكثر ما يسميه بعض بدو الأردن بـ «المزروب».

وهذا ضرب خاص من شوي اللحم حيث تدفن الذبيحة أو بعض أجزائها في حفرة تجمَّر حطبها تماماً وتترك ليستوي اللحم ببطء.

وقد يستغرق الأمر ليلة أو بعضها بحسب حجم ونوع «المزروب» فيها.

والعُمانيون يفعلون الشيء نفسه على نطاق واسع ولكن لحم الذبيحة يترك لمدة يوم وليلة ثم يستخرج من الحفرة المخصصة لهذه الغاية ويوضع فوق الأرز المخلوط بحبّ الهال والزعفران والزبيب، فما أن تمدّ يدك إلى أي جزء منه حتى يُنسْلُ ليناً.

وبطبيعة الحال فإن الأكل، هنا، يتم بتحلق مجموعة حول القصعة، وكما هو الأمر مع «المنسف»، ايضا، يكون الأكل بالأيدي.

لكن الغريب ان العمانيين يضعون الفاكهة، قبيل الفراغ من الطعام، على القصعة نفسها فيمكن لك أن تخلط العنب والبرتقال وما صادف من فاكهة الموسم مع الأرز واللحم أو أن تكتفي بالفاكهة وحدها.

فرغت من الطعام واستبدت بي الرغبة، بالتدخين. وكانت علبتي أمامي فمددت يدي إليها لكن جاري العماني نبهني إلى ضرورة تأجيل ذلك.

فسألت جاري: وهل التدخين ممنوع؟

فقال لي: لا. ليس ممنوعاً ولكنه مكروه. وبيننا، كما ترى، رجال دين على رأسهم قاضي الولاية، فيستحسن والحال هذه أن تؤجل السيجارة إلى حين تغادر.

لم يكن أمامي سوى الامتثال .

وكنت لاحظت وأنا أضع علبة السجائر أمامي عدداً من العيون تطالعني وما أن أمسكتها بيدي حتى توسعت الحدقات أكثر خشية وقوع المكروه!

ولعلهم كانوا يظنون انني سأشعل سيجارة ولكنني أرحتهم من ذلك الحرج فوضعتها في جيبي .

وقد علمت أن التدخين ممنوع في جميع المحلات والدوائر العامة، وبإستثناء المثقفين الشباب الذين التقينا بهم في مسقط فان غالبية العمانيين الاباضيين لا يدخنون .

ويبدو ان زميلي العماني الذي نبهني الى الإمتناع عن التدخين لم يرد أن يصدمني . فالحقيقة التي عرفتها، لاحقاً، ان التدخين محرم عند «الإباضيين» . فأبو بشير محمد شيبة ابن المؤرخ والإمام الكفيف نور الدين السالمي يشير في كتابه «نهضة الأعيان بحرية عُمان» الى الحدِّ الذي كان يوقع على مرتكب جرم التدخين في عهد الإمام سالم بن راشد الخروصي وهو يتراوح بين عشر وعشرين جلدة قدام الملأ . ولما صارت الإمامة إلى سلفه الخليلي اكتفى، فقط، بحبس المدخِّن!

***

كان الغداء الذي دعينا إليه قريباً من «فلج دارس» وهو أكبر أفلاج عُمان . و«الافلاج»خصيصة عُمانية بامتياز .

فليس هناك طريقة للإستقاء والري مماثلة لها في العالم .

فليس «الفلج» عين ماء جارية تضبط مياهها في قنوات ولا هي آبار أيضا . ورغم بساطتها الظاهرة فهي معقدة لجهة الوصول إلى الماء وتقنيته . والواضح ان الأمر يحتاج إلى معرفة بطبقات الأرض التي تتجمع فيها المياه .

و« الفلج » في « اللسان » هو بمعنى الفلق أو الشق ولكنه، في الواقع، ليس أي شق عادي. فمبدأ « الفلج » يقوم على حقيقة ان مستوى الطبقات الارضية التي يتجمع تحتها الماء يرتفع مع ارتفاع مستوى الطبقات التي تعلوها.

وهكذا يصبح ممكناً الحفر أفقياً في سفوح التلال للوصول إلى الطبقات الأرضية الحاملة للمياه التي تتدفق عبر الأنابيب الأفقية إلى حفر تجميع تتوزع بعدها في أقنية الري. كما يمكن إدخال أنابيب عمودية إلى الأنفاق الأفقية لتسهيل استخراج الماء من جهة ولاقامة آبار عادية من جهة أخرى.

وتمتد قنوات « الفلج » أميالا عدة حتى تصل أرضاً قابلة للزراعة وغالبا ما تكون منتزعة من براثن الجبال الواقفة بالمرصاد لكل سهل أو بسطة في الأرض.

وفي كتاب إنكليزي مصور عن معالم شبه الجزيرة العربية قرأت ان « الأفلاج »، الفريدة من نوعها في بلاد العرب، تشبه نظام الري الإيراني القديم. وقد يكون هذا المصدر الإنكليزي استند في ذلك إلى اقامة الفرس في عُمان حتى بزوغ الإسلام. ولكن أليس أقرب إلى الصحة ان نقول أن « إختراع » الأفلاج هو حاجة أملتها الطبيعة العُمانية نفسها على السكان وليس بالضرورة أن تكون « تقنية مستوردة »، وخصيصة الأفلاج تأتي من خصيصة عُمان نفسها على مستوى الطبيعة والبيئة.

أقف أمام « فلج دارس » بما يشبه الإنخطاف.

لا شيء أثمن من هذه الدفقات، هذه الرقرقات، هذا التلألؤ المثير للمياه تحت أنظار الجبال الجرداء وتحت العين النارية للشمس المسلطة، من دون مساومة، على الأحياء والجمادات.

جدير بمياه هذا « الفلج » أن تغنيها القصائد،

جدير بها أن تُبارك في مسراها من قلب الحجر الى قلب الإنسان والشجرة والبهيمة.

فهي التي جعلت الحياة ممكنة في هذا القاع الصفصف.

أنحني على قناة «الفلج» كمن يتبرَّك وأحتفن بيدي من مياهه وأشرب. أروي ظمأ البدوي إلى الماء. الظمأ الخالد. أحتفن وأغسل وجهي بأثمن مادة في الوجود. وأردد، صامتاً، الآية الكريمة و«جعلنا من الماء كلَّ شيء حي».

لن يقدّر المقيم على ضفاف «التيمز» ولا «السين» ولا «الأمازون» ولا الأنهار الكبرى هذه الهبة الاستثنائية، التي تمنحها الطبيعة. العربي والمخفور بالصحراء مثله هما من يعرف كيف تنبثق الحياة من حول عين تذرف أكسير الوجود وكيف تبرعم الخضرة ويشبُّ الخصب والشهوة في النبتة والجسد بجانب ساقية فقيرة.

من نقرة ماء صنع العرب حياة وشعراً وعلى بئر أو واحة شنوا حروباً وغزوات.

من الظمأ إلى الماء خرجوا بقامات ناحلة وعلى أخفّ جياد في العالم وصلوا إلى الأنهار الكبرى والمحيطات التي لم يعرفوا لها أسماً فأسموا بعضها بحر الظلمات.

فليتمجد هذا الماء.

وليتبارك.

الصعود الى الجبل الاخضر

بعد عودتنا من «نزوى» إلى «مسقط» اقترح الشاعر العماني ناصر العلوي، في ليلة سمر ضمتنا مع سيف الرحبي وسعدي يوسف وقاسم حداد، أن يتدبر لمن يرغب منا رحلة إلى «الجبل الأخضر». وقد تنازع هذا الاقتراح مع عرض آخر بدا أكثر إغراء لزملائنا العُمانيين: اقامة حفل شواء وشراب في مزرعة قريبة من مسقط تخص، كما أظن، «حسن بوس» صديق سيف الرحبي وصاحب العرض السبارطي.

لكن إصرارنا، سعدي بوسف وقاسم حداد وأنا، على اهتبال فرصة الذهاب إلى «الجبل الأخضر» ذي التاريخ التمردي قضى على آمال سيف الرحبي ورهطه في قضاء نهار من اللهو والقصف.

قلنا الاكل والشراب يمكن تعويضهما أما «الجبل الأخضر» فلا.
وهذا ما كان.

إذ عمد ناصر العلوي على الفور، إلى استصدار تصريح عسكري باسمائنا وتدبر سيارة ذات دفع رباعي يقودها صديق له من سكان «الجبل الأخضر» وضربنا موعداً صباحياً باكراً للقاء في اليوم الموالي في ردهة «الانتركونتنيال». وهكذا انطلقنا، خمستنا، بعد أن إنضم إلينا القاص الشاب محمود الرحبي، إلى نقطة لقاء دليلنا في «بركة الموز».

وتحتم عليّ أن أعود، والحال هذه، مرة أخرى إلى ولاية «نزوى».

إذ أن «الجبل الأخضر» تابع لها والطريق إليه من «مسقط» هي نفسها المؤدية إلى «نزوى» ولكن من دون أن نصل إلى الأخيرة. فقبل «نزوى» بنحو أربعين كيلومترا تقع بلدة «بركة الموز» التي كان ينتظرنا فيها دليلنا أحمد سالم الريامي بسيارته.

تزودنا في «بركة الموز» بزجاجات المياه وأفلام للكاميرا الوحيدة التي كانت بحوزتنا، وهي لسعدي يوسف، وانطلقت بنا السيارة الى «بيت الرديدة»، الصرح التاريخي البديع، فتوقفنا أمامه هنيهة منعمين النظر في معماره العماني البديع.

من «بركة الموز» نتوجه إلى «وادي المعيدن» أكبر الأودية المؤدية إلى «الجبل الأخضر».

واد سحيقٌ كأنه شقّ بين جبلين تلمع في قاعه الحصى تحت وهج الشمس. ومن هذه النقطة حتى قمة الجبل ستكون الطريق ترابية، ضيقة، بالكاد تتسع لسيارة والأخطر انها متعرجة وذات انعطافات حادة.
الوعورة والقسوة هما السمة المميزة لهذا المدى الحجري.
السيارة تخض أحشاءنا خضاً وهي تتسلق جبلاً لا تبدو له نهاية.

ليس هناك معبر للجبل، من هذه الوجهة، سوى الذي نسلكه، ولكن يتعين علينا قبل اقتحام منعته واستعصائه أن نتوقف أمام «باب الجبل» وهو نقطة عسكرية

تتحكم بالمدخل الوحيد للجبل ولا تجتازها إلاّ السيارات المصرح لها بذلك.

كان بضعة جنود يرتدون حللاً عسكرية مرقطة يقفون إلى جانب الحاجز الحديدي أو بجوار غرفة الراحة المخصصة لهذه الحامية الصغيرة يترأسهم، كما بدا لنا، ضابط برتبة ملازم. فما أن تأكدوا من التصريح الخاص بنا حتى ودّعونا متمنين لنا رحلة موفقة.

سألت أحمد الريامي عما إذا كان تصريح زيارة الجبل مقتصراً على الأجانب أم انه إجباري للجميع فقال انه اجراء يخضع إليه الجميع سواء كانوا عُمانيين أم أجانب فالمنطقة، كلها، تابعة للجيش.

وخطر لي أن الأمر قد يكون من عواقب الثورة التي عرفها الجبل في أواسط الخمسينيات. فسألت أحمد: أهذا بسبب ثورة «الجبل الأخضر»؟

فأجاب على نحو بدا لي مواربا: ربما كان كذلك في البداية لكنه الان يتعلق بصلاحية السيارة لعبور الجبل. فلا يسمح للسيارات التي لا تملك مواصفات خاصة، منها الدفع الرباعي للعجلات، باجتياز هذه النقطة فالطريق، كما سترى، خطرة ولا تستطيع أي سيارة عبورها.

ولم يكن كلام أحمد الريامي، الذي تقطن قبيلته القوية «بنو ريام» الجبل وشطراً من «نزوى»، يحتاج إلى برهان.

فقد بدا لي كأن سيارته اليابانية تصعد ملوية سامراء الشهيرة وليس جبلاً.

فقد كانت تطلق عنيناً متواصلاً، ومؤلما في الوقت نفسه، بسبب استخدامه «الغيار الاول» غالباً والثاني عندما تنبسط الطريق لأمتار معدودة تاركة حولها دوامة من الغبار.

وقد يخطر لمن يسمع بـ «الجبل الأخضر» انه أخضر فعلا، أو على الأقل، حرجياً كما هي حال «جبل الشوف» في لبنان أو «حبال عجلون» في الأردن، ولكنه لبس أخضر ولا هو يشبه هذين الجبلين، فما يبديه لنا الجبل ونحن نصعد طريقه الملتوية

لا يتجاوز بضع أشجار تسمى «الشحس» متفرقة هنا وهناك فضلاً عن الزيتون البري، وهي شجرة قصيرة القامة لا تشبه الزيتون المثمر الذي يسمونه هنا «زيتون الشام».

ولا يعدم، بالطبع، وجود بضع أكمات من النباتات والزهور البرية الغريبة. جهرت لدليلنا أحمد بما يشبه الخيبة قائلا: يبدو ان «الجبل الأخضر» أسم على غير مسمى!

فابتسم بأدب وقال انه ليس أخضر تماما ولكنه ليس أجرد مثل «جبال الحجر». فنحن ما نزال في كعبه ولربما غيرّت رأيك، قليلا، عندما نصل إلى الأماكن التي نقصدها.

كنت، على ما ظهر، الأكثر الحاحاً بين رفاق رحلتي على السؤال فيما كان الباقون مستغرقين بتشكيلات الجبل وتلاله ووهاده السحيقة.

وبعد نصف ساعة من الصعود الشاق بدأ الضغط يؤثر على آذاننا كما أخذ الهواء يخفُّ ويبرد. صرنا نرى زهورا ونباتات برية تفتحت اكمامها في الربيع وأشجاراً وخضرة أكثر خصوصاً شجرة «البوت» التي لها ثمرة سوداء صغيرة بحجم حبة الكرز. قال لنا احمد الريامي ان هذه الشجرة لا تنبت إلاّ في «الجبل الأخضر».

وحتى الأن لم نر انساناً أو دابة في المحيط كله.
ولم تزاحمنا على الطريق الضيقة سيارة أخرى.
كأن لا أحد يأتي أو يذهب.

لاشيء في هذا المدى المترامي من التلال والوهاد والقمم العالية سوى الصمت وغبار الطريق الترابية وعُقاب وحيد يحلّق في كبد السماء كأنه يرقب ببصره الثاقب هذه الدابة الميكانيكية التي لا يعوق تقدمها المضني في ثنايا الجبل شيء.

هدا مكان منالي للانقطاع عن العالم.

لا أثر، حتى الان، لإختراق «عولمة» السلع وشارات الإستهلاك لهذا المكان

المعصوم.

فلا علب «كوكا كولا» أو أطعمة محفوظة أو «مارلبورو» أو أكياس بلاستيكية تدل على النفاذ السحري لرموز «الشمال» الصناعي الى قلب العالم القديم ناظمة اياه في قيم الاستهلاك كونية النطاق. فأي حصانة لهذا الجبل؟!

***

عزلة الجبل

حصانة هذا الجبل ليست موضع شك. فأهله وأهل ولاية «نزوى»، بالعموم، يفخرون بعدم حاجتهم للعالم الخارجي ويكادون يجزمون بأن الاقدام الأجنبية التي تجولت في جنبات الولاية، هي من القلة، بحيث يمكن احصاؤها على اليد الواحدة.

هذا باستثناء الإنكليز الذين شاركوا في اخماد آخر تمرد عرفته الولاية في عامي ٥٧-١٩٥٨.

فها هو أبو بشير ابن المؤرخ نور الدين السالمي يقول في كتابه «نهضة الأعيان بحرية عُمان» حول صلة حكومة الإمام (في نزوى) بالعالم الخارجي: «.. ولم تكن لحكومة الإمام بعُمان علاقة بالدول العربية والأجنبية، لأن من شأن العُمانيين العزلة والانفراد. فهم لا يحبون الإتصال بالعالم الخارجي خوفاً على استقلال بلادهم وتغير طباعهم ولم يسمحوا للأجانب بانشاء سفارة مخافة أن يجر السماح الى فتح باب للدخلاء».

وهو يستشهد لتعضيد قولته بما جاء في كتاب «عُمان» الذي أصدرته شركة النفط الأمريكية وجاء فيه «إن بلاد عُمان المعروفة هنا بأنها تضم الجانب الأكبر من السلسلة الطويلة من الجبال التي يطلق عليها اسم «الحجر»، والأراضي الواقعة بين

هذه الجبال وبين « الربع الخالي » هي من أشد أجزاء الجزيرة العربية امتناعاً على الرواد ولم يزرها أحد سوى عدد قليل جدا من الرواد الغربيين.

والسياسة الرسمية التي تتبعها حكومة الامام (وهي غير حكومة السلطان في مسقط) في ثني أهلها عن الإتصال بالعالم الخارجي تعزز هذه العزلة في أرضها ».

ولكن « الجبل الأخضر » ليس مكاناً مثالياً للانقطاع عن العالم الخارجي فحسب بل هو مكان مثالي للتمرد. وسأكتفي، هنا، بذكر حادثتين كبيرتين في هذا السياق. الأولى وقعت في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي الذي سيّر جيشاً كبيراً من البصرة إلى وسط عُمان لقهر سليمان وسعيد إبني عباد الجلندي ولإدراج البلاد في الخلافة الأموية. وبعد مواجهات طاحنة بين جيش الحجاج واتباع أبني الجلندي تمكن الجيش الأموي من هزيمة العُمانيين فالتجأ إبنا الجلندي ومن بقي من اتباعهما إلى « الجبل الاخضر » وتحصنا فيه.

أما الحادثة الثانية فحصلت في أواسط الخمسينيات من هذا القرن بعد وفاة الأمام محمد بن عبد الله الخليلي (١٩٥٤) حيث استخلف الإمام الخليلي، غالب بن علي الهنائي ليكون إماماً وقد تم تأكيد الاستخلاف بمبايعة العمانيين للإمام غالب. لكن السلطان سعيد بن تيمور والد السلطان قابوس لم يعترف بغالب إماماً.

وصادف في ذلك الوقت تفجر أزمة « واحة البريمي » وتصاعد التدخل الإنكليزي في الشؤون العُمانية. وقد حظي التمرد الذي كان قائماً في داخلية البلاد في مواجهة الانكليز بدعم عربي ودولي أهمه الدعم المصري.

وبعد أن تمكنت قوات السلطان المؤيدة بالعتاد والعسكر الانكليزيين من دحر الثورة في سهل ولاية « نزوى » تحصن مس تبقى من الثائرين في « الجبل الأخضر » ويصف السالمي الأبن هذه الفترة بالقول: « وتحصن بهذا الجبل الإمام غالب بن علي الهنائي بمن عنده. من المجاهدين لما حملت الانكليز على عمان عام ١٣٧٦ - ٧٧ (هجرية) فبقيت تقذفهم بشرر الطائرات ثمانية عشر شهراً . وقد عجزت جنودها من الصعود إلى المجاهدين فاستعانت بالطيران ».

وبعد نحو سنتين من الحصار والقصف تمكن طارق بن تيمور الشقيق الأصغر للسلطان من الإجهاز على ثورة «الجبل الأخضر» وفرّ قادة التمرد الى الخارج، بعض إلى مصر وبعض آخر إلى السعودية.

وعلمتُ ان الشيخ سليمان بن حمير أحد القادة الثلاثة الذين تحصنوا في الجبل الاخضر بمعية الإمام غالب بن علي الهنائي وأخوه الشيخ طالب أثناء قصف الطيران الانكليزي قد عاد إلى عُمان منذ ثلاثة أشهر بعد نحو أربعة عقود من اللجوء في السعودية.

وهو الأن مشلول وقد شارف على المئة.

***

يرتفع «الجبل الأخضر» نحو عشرة الاف قدم فوق سطح البحر وبهذا يكون من أكثر جبال عُمان علوا، فلا غرو، إذن، أن الهواء، هنا، أخفّ وأبرد.

الهواء يلعب حراً وطليقاً فوق هذا الجبل فيما هو محبوس في «نزوى» المطوقة بالرواسي.

الخضرة أيضاً تزداد لكن ليس كما يوحي به الأسم. نلاحظ وجود نباتات وزهور بعضها مما نعرف في بلاد الشام وبعضها الآخر مما لا نعرف، ولحسن الحظ فإن دليلنا أحمد سالم الريامي من المتضلعين بالنباتات والزهور التي تنبت في فصول مختلفة في الجبل الأخضر. وهي ذات تسميات عُمانية غير مألوفة لدينا، باستثناء «العشرق» التي نلفظ قافها جيماً و«إبرة الحمام» التي يسميها العمانيون «شويب الحمام»، فضلاً عن «الآس» المسمى عندنا بالأسم نفسه والذي يعيدني عبقه الى زيارات قبور لا أتذكر الآن لمن وأين؟

ويؤكد الباحث البريطاني جيمس مندفيل في دراسة نشرت في عُمان «حول الازهار البرية في شمال عُمان»، ان الكثير من النباتات التي تنبت في هذه المنطقة

آسيوية الأصل، تشبه ما هو موجود في الأراضي الإيرانية وحتى في جبال الهملايا. ويعتقد هذا الباحث ان رابطاً برياً كان يربط بين هذه الوجهة من عمان والبر الأسيوي الآخر قبل نحو ٢٠ الف عام.

بعد نحو ساعة من دوران السيارة وتسلقها الشاق للطريق الوحيدة بدأت الأرض تنبسط لتأخذ شكل هضبة. صار ممكناً أن نرى على البعد بيوتاً تتكىء متراصة في السفوح مزنرة بخضرة كثيفة. وتوجد القرى، والحياة البشرية، حيث توجد «الأفلاج».

ليست هناك مصادر مائية كبيرة في هذه الجهة من الجبل (الشمالية) وقيل لنا ان الجهة الأخرى أقلّ انحداراً وأكثر خضرة وقابلية للسكنى.

ومن المفيد أن نذكر أن أمطار الجبل موسمية، أي انها تهطل صيفاً. ويقول دليلنا الريامي انها غالباً ما تتساقط بعد الظهر، بغزارة، أحيانا، ما يحوّل الأودية الجافة على مدار السنة إلى سيول جارفة غير مأمونة العاقبة. وهي بهذا تشبه بعض مناطق اليمن التي تقع في نطاق الأمطار الموسمية.

وسنلاحظ شبهاً آخر باليمن أيضاً: المدرجات الزراعية.

وترجع أصول «الرياميين» الذين يملكون «الجبل الأخضر» برمته إلى اليمن. وهم، بحسب العالم الجغرافي الهمداني، سدنة «معبد النار» اليمني الذي كان يضم أوثاناً لعبادة الشمس والقمر.

وعلى ذمة وندل فيليبس، الباحث الأمريكي الذي كانت له صولات «علمية» في كل من اليمن وعُمان، فان هذا المعبد كان لا يزال موجوداً حتى العام ١٩٥٠. وكان يعتبر من الأماكن المقدسة التي يُحَج إليها في اليمن!

قبر رمزي لطيار انكليزي

ليس ممكناً أن يقف المرء على نوع «الجبل الأخضر» في يوم وليلة. فالأمر

يحتاج وقتاً أطول لمعرفة قراه وشعابه وحياة نباتاته النادرة وحكايات أبرز أحداثه المعاصرة، لذلك اكتفينا بالمرور بقرى « سيح قطنة »، « وادي سيق » وحططنا رحالنا في وادي « بني حبيب » وقبل أن نصل إلى قرية « سيح قطنة » توقفت السيارة بجانب الطريق وقال لنا أحمد الريامي « تعالوا أريكم شيئاً ».

هبطنا.

كان هناك حطام طائرة تآكلها الصدأ.

قلنا له ما هذا؟

قال: إنه حطام طائرة حربية بريطانية أسقطها مقاومو « الجبل الأخضر » أثناء الثورة ووجد طيارها الإنكليزي محترقاً بالقرب منها.

وليس بعيداً عن حطام الطائرة رأينا قبراً رمزياً للطيار. قال أحمد ان الإمام غالب هو الذي أمر رجاله بأن يدفنوا رفات الطيار إكراماً لحرمة الموت.

وبعد القضاء على الثورة وضع الإنكليز شاهدة رخامية على القبر تحمل أسم الطيار وتاريخ ولادته ووفاته.

ويتذكر أحمد أن أهل الطيار دأبوا على وضع إكليل من الزهور على قبره في ذكرى وفاته كل عام.

ويبدو انهم توقفوا عن فعل ذلك مع تباعد الوقت وبهوت الذكرى.

قلنا لأحمد، ولكن أين هي الشاهدة التي تتحدث عنها؟

فقال ان أطفال القرية المجاورة اقتلعوها هي والصليب الذي يعلوها!

كان قاسم حداد هو الأكثر اهتماما بيننا بحطام الطائرة، فقد ظلّ يتملاه ويجسه بيده كأنه يستنطق مكنونه الثاوي، أو يستعيد تلك اللحظة الرهيبة التي يخفق فيها القلب خفقته الأخيرة ثم ينفطر.

وقبل معادرتنا الموقع اقتطع قاسم جزءاً من الحطام الصديء وأخذه.

قال: ذكرى من «الجبل الأخضر»!
لِمَ لا؟ قلتُ.

فليس كل يوم يشاهد المرء حطام طائرة بريطانية اسقطتها «الجن» (!) على بعد الاف الأميال من جزيرة «صاحبة الجلالة» التي انتدبت نفسها للأخذ بيد الشعوب «المتخلفة» و«البدائية» إلى مدارج المدنية!

فكرت بمصير الطيار البريطاني الذي قصف هو ورفاقه القرى والكهوف المجاورة بالصواريخ (وقيل بالنابالم) كيف انتهى ليكون جزءاً من التراب العربي. جزءاً من عضوية الأرض والمطرة والنبتة وما تحمله الريح من بذار وغبار وأوراق نباتات وأعشاب ماتت في مكان لتصير، بقوة النماء الغامضة، جزءا من حياة جديدة في مكان اخر.

أفليس أديم الأرض من هذه الأجساد على حدّ التعبير الثاقب والمرير لأبي العلاء المعري؟

***

كانت قرية وادي «بني حبيب» هي الأكثر إثارة للنجوى والخيال. توقفنا في الإستراحة الجديدة، والنظيفة جداً، التي أقامتها الإدارة المحلية في ظاهر البلدة استعداداً لخطط سياحة مقبلة على ما يبدو. القرية تلوح في المنقلب الثاني من الوادي كأنها علب من الورق المقوى وضعت بتصور هندسي ساذج فوق بعضها البعض.

ليس هناك طريق للبلدة سوى الإنحدار الحاد الى بطن الوادي. لم نعثر حتى على الدرب الذي يفترض أن تكون أقدام الأهلين ودوابهم قد مهدته عبر الأيام. فتحتم علينا أن نقفز من صخرة إلى أخرى وأن نضع أقداماً حذرة، غير مدربة بين حجرين أو أي انبساطة نسبية في هذا الحرف.

كان رجل عجوز في العقد الثامن من عمره يصعد من الوادي من دون أن

يتوقف لمرة واحدة. كان يصعد ببطء، مستعيناً بعصاه، طريقا اجترحها لنفسه. كان يعرف عن ظهر قلب أين يضع قدمه. ظللت أرقبه حتى وصل إلى كتف الوادي.

كان الوادي والسفح المقابل له انبلاجة خضراء لم نتصور وجودها قط في هذا المكان. كأنها إفترار ثغر هذه الطبيعة القاسية. لفتتها الحنون لمن أختاروها سكناً ومأوى لهم. أشجار سنط وجوز ورمان وخوخ لا تزال عارية الغصون، ومدرجات صغيرة نبتت فيها الأعشاب وبعض خضرة الموسم. نداوة منعشة. ارتخاءة في العصب المشدود للصخور.

وفجأة سمعت الصوت الذي سكنني منذ أمد بعيد كموسيقى التكوين الأول. الصوت الذي يشبه ترتيلاً رتيباً مفعماً بالعرفان ترفعه الحياة، بامتنان الموعوزين، الى بارئها: إنه صوت خرير المياه.

كانت مياه « فلج » القرية نميرة، صافية، لألاءة، تتدفق ضئيلة في المجرى ثم تسيل في الوادي متخللة حصاه البيض المغسولة منذ دهور بهذه المادة النفيسة. مادة الحياة. أستطيع أن أجلس ساعات متواصلة منقطعاً إلى هذا القداس الطقسي. كأنني أستعيد شطراً من طفولتي صرّمته على حواف السواقي والقنوات الطينية في كنف جدي الذي نبذ العشيرة واستقر عاصياً وغريباً في بلدة « تل شهاب » على الحدود السورية الأردنية.

يا لهذا التغريد الضئيل المتتابع، دون كلل، في قلب الصمت والهجران.
يا لهذه التكسرات اللحنية التي تهدهد الروح.

اي شيء في هذا الجبل القاسي، في قلب هذه العزلة الشاملة أثمن من هدا الأنس الذي يسبغه على الجوارح صوت المياه؟

انه صوت الحياة الوحيد في وادي « بني حبيب » الذي هجرته الحياة البشرية إلى الأسمنت والكهرباء والوظيفة الحكومية والمياه المنقولة بالأنابيب والسلع التي تصعد من « بركة الموز » وبلدات السهل الأخرى إلى الجبل.

كان الهجران شاملاً .

البيوت التي عرفت، لا بدّ، سورات الحبّ والغضب وصخب الأطفال متروكة لسلطان الصمت. بيوت مثل حياة الناس السابقة تستند الى بعضها بعضاً على نحو وشائجي. رابطة الدم هي التي تجعل مثل هذه القربى، التنافذ، الإطلالة بين الأبواب والنوافذ ممكنة. كأن هذه الجمهرة من البيوت الصغيرة، واطئة السقوف، خفيضة الأبواب، صغيرة الشبابيك بيتاً واحداً . بيت عائلة كبيرة من الزمن الذي كان فيه الناس يعيشون ويتزوجون وينجبون ويموتون في بيت واحد.

بيت ينمو باضطراد. مكتف بنفسه. حدّه هو حدُّ العالم.

وقفت كوكبتنا الصغيرة أمام القرية المهجورة بصمت.

فقد فرض الهجران شروطه علينا. لم يكن التعب ما جعل الكلام عديم الجدوى بل قوة المشهد.

بيوت مغلقة الأبواب والنوافذ، روث حيوانات، حطب متروك وأغصان متهالكة، مزق ثياب بالية، بطارية من طراز «إفر ريدي» (اختراق حداثي وبرهان على كونية (امبريالية!) السلعة الغربية)، أسلاك حديدية، مسامير صدئة، فردة حذاء بلاستيكية حمراء لطفلة صغيرة (التقطها قاسم حداد وضمها إلى مقتنياته الفريدة من الجبل الاخضر)، ممرات ترابية مرصوصة جيداً بين البيوت بالكاد تتسع لمرور شخص. فرن لشوي اللحم مكشوف ومترمد.

إنه متحف للهجران والصمت. وهذه هي مقتنياته.

وما وقفتنا كشعراء «حديثين» امام هذه البيوت، سوى وقفة طللية.

غير ان الحياة المهجورة، هنا، لا تخصنا لنبكي كما درج اسلافنا، بل لنتأمل، بتعاطف مفتوح، ما آلت اليه مصائر هذه المرابع.

لا صوت في وادي «بني حبيب» سوى خرير المياه الضئيل ووقع أقدامنا على الحصى. فقد ترك الأهلون مسرح حياتهم كما هو علبه دون أن يسدلوا الستار.

فظلّ ما تساقط وما هجر من الأشياء شاهداً على حياة اعتصمت، طويلاً ، بهذه المنعة الطبيعية. كأن جائحة حلت فجأة على هذه القرية ففرّ الأهلون من أمامها.

أتذكر قرى كهذه رأيتها في شمال الأردن وجنوبه. ولكن الهجران لم يكن تاماً.

رأيت في طفولتي قرى قررت، تحت زحف «الحداثة» الحثيث، الانتقال من بيوت الطين والبئر و«الخابية» الفخارية الكبيرة و«الطابون» و«اللوكس» الى الاسمنت وصنابير المياه وأعمدة الكهرباء والخبز الأفرنجي، لكن النقلة كانت بطيئة ومتداخلة. بيت طيني يهدم وعلى انقاضه أو بجانبه يطلع الأسمنت. يحرق الأرض ويميت الحياة التي كانت تندلع في الربيع على سطوح البيوت كحدائق معلقة.

القرية الوحيدة الشبيهة بهذه هي «طيبة زمان» بالقرب من «البتراء» التي آلت، بقضها وقضيضها، إلى شركة سياحية حولتها إلى منتجع يلبي رغبة السياح الغربيين بالإقامة في ألفة الماضي ودنوه من الأرض بعد أن أتت آلة الحداثة الغربية على روح الطبيعة.

وأخشى أن يكون أهالي قرية وادي «بني حبيب» الذين انتزعوا الحياة، بالقوة، من مخالب الصخور يعدون لقريتهم مستقبلاً شبيهاً بـ«طيبة زمان»!

يلتقط سعدي يوسف الذي كان يرتدي قبعة صيادين بيضاء صوراً لنا أمام بيوت القرية. يهمهم بكلمات مبهمة. لعله يردد نوعاً من رقية أو تعزيم.

أما أنا فأردد في نفسي أغنية بدوية تتحدث، بحرقة، عن هجر الديار ومغادرة مرابع الطفولة.

لم تكن هذه الفرية وحيدة في سفح الوادي. كانت هناك فرية مفابلة لها وشبيهة بها تماماً .

سألنا دليلنا أحمد الريامي عن أسمها فقال انها تدعى «الساب»، فمضينا إليها نتقافز بين الحجارة ونتشبث بالأشجار البرية الطالعة من بين الصخور.

كان المشهد مماثلاً سوى ان البيوت أحدث، على ما يبدو، من الاولى وأقل.

أيضاً لا أحد هناك.

لا نأمة.

قال أحمد أن القرية الأولى هي الأصل. أما هذه فمجرد توسع وامتداد. فالأرض الصالحة للعمران في القرية الأولى محدودة. لا مجال للإستزادة فيها. فكان التوسع، استجابة للتكاثر، في هذه الجهة.

والقريتان، بطبيعة الحال، تتبعان فرعاً واحداً من «بني ريام». فلا متسع في ربوع كهذه للغريب.

بل قل من أين سيأتي الغريب؟ فرابطة الدم هي التي تحدد، في القبائل العربية، مطارح السكنى. ومن النادر أن يخترق «حرمة» أرضها وسكنها غريب. ولا يزال هذا العرف سارياً في بعض البوادي العربية والأرياف، حيث تعرف مناطق وقرى بأسرها باسم القبيلة التي تقطنها.

فعندما تذكر «الجبل الأخضر» في عُمان يقفز إلى الذهن أسم «بني ريام» كذلك لا يمكن أن تذكر «الموقّر» في الأردن دون أن يحضر، على الفور، أسم قبيلة «بني صخر».

لا جبل فوق هذا الجبل

هبوب «الحداثة» والانتقال إلى لحظة العصر هما اللذان أدبا إلى شغور القريتين تماماً من سكانهما. فالاعتصام بالنأي والعزلة لم يعد ممكناً في ظلّ الدولة العصرية التي تبث مجساتها وقرون استشعارها الإلكترونية في كل مكان.

ومع ولادة السجلات المدنية والجيوش والأعلام الوطنية وتوطين البدو والتعليم الإلزامي والأمراض والضرائب أصبح من الصعب على الأهلين أن يفروا بأبنائهم من وجه الدولة ـ الأب.

وحيال تراجع أنماط الأنتاج الأهلية الأولى وتحوّل الدولة العربية إلى أكبر رب عمل فقدت المناطق النائية والمعزولة والقبائل المترحلة استقلالها وصار شبه مستحيل تفادي الإندراج في دواليب الدولة ومؤسساتها المتشعبة.

هكذا بدأ «الجبل الأخضر» يفقد عصمته أمام الأرتباط المتزايد بشبكات الأنتاج الحديثة والتعليم والكهرباء والمذياع والبث التلفزي والوحدات الصحية والهجرة إلى خارج البلاد بحثاً عن عمل.

ولما كان صعباً ربط القريتين بالشبكات والأنظمة الحديثة التي لا يمكن، بعد الأن، تجاهل شيوعها وتحكمها، فقد صعد أهاليهما إلى كتف الوادي، فانشأوا قرية جديدة مسخة الطراز، مبعثرة البيوت. فظهر التمايز الأجتماعي بين الأهلين الذي كان مستوراً وراء الشكل الموحد لبيوت الزمن القديم. فلم تعد البيوت متكئة على بعضها البعض ولا متماثلة في الحجم أو في نجارة الأبواب والشبابيك. فثمة البيت الكبير ذو الطلاء الفاقع والسياج الواسع وعلى سطحه ينتصب «أنتين» التلفزيون وعلى مقربة منه البيت الصغير المتواضع الذي لم يكتمل سياجه بعد. كما تتمايز البيوت، ايضا، بالسيارات التي تقف أمامها، كفارق ملحوظ في المنزلة الإجتماعية. هنا تلمس أثر النفط على الحياة الإجتماعية.

فقد وجدت شبهاً في «النعمة المستحدثة» بين هذه القرية وبين القرى الحديدة التي استوطنها البدو في الأردن. فبيوت الذين ساقهم، «حظهم السعيد» الى العمل في الخليج العربي مختلفة عن بيوت اقربائهم الدين لا بزالون يعملون في الجيش أو المؤسسات الحكومبة الأردنبة الأخرى.

فالأولى كبيرة وقابلة للتوسع المشوه باستمرار فيما الثانية صغيرة بالكاد يتمكن

أهلوها من اضافة غرفة جديدة أو « مضافة » لمواجهة تكاثر أفراد العائلة. في الأولى تجد دائماً ، « مضافتين » واحدة عربية مفروشة بالبسط والسجاجيد والأخرى « افرنجية » تضم طقم « كنبايات » كبير القطع، غليظ الطراز أمام كل قطعة منه طاولة قهوة صغيرة عليها علبة محارم ورق مذهبة ومن سقف المضافة تتدلى مروحة كبيرة، فيما « مضافة » البيت الذي لم تلفحه رياح النفط هي عربية مفروشة بفرشات اسفنجية مستطيلة مغطاة ببسط بدوية.

ولسوف تتأكد عندي هذه التمايزات عندما ندعى الى بيت احمد الريامي لتناول طعام الغداء بعد خروجنا من بطن « وادي بني حبيب » ثم، أيضاً ، عندما يصرُّ جار له، وجدناه عنده عرضاً ، على دعوتنا إلى شرب القهوة وتناول الحلوى العُمانية في منزله.

سأجد أن « العائد النفطي » قد أوجد طرازاً جديداً من الأثاث والديكور والمقتنيات المتشابهة تماماً بين أبناء القبائل في بلد نفطي (متواضع الانتاج) كعُمان ونظرائهم الأردنيين (مثلاً) الذين يعملون في بلدان الخليج العربي، فقد استبدلت، تقريباً ، كل الأدوات وقطع الأثاث التقليدية بأخرى « حديثة » يسودها اللون الذهبي، غالباً ، تقذف بها مصانع « النمور الأسيوية » إلى أسواق الخليج.

فلن « تُحمّص » القهوة، بعد الأن، على نار الموقد ولن تختلط برائحة دخان حطبه المحترق، ولن يُسمع صوت « المهباش » يعلن، بإيقاع خاص، للقاصي والداني عن مخاض القهوة في الصباح الباكر ولن تُغلى على جمر الموقد ولن تُسكب في « الدلة » النحاسية.

سنتولى هذه السلسلة الجمالية المعقدة، ببساطة فجة، عين « البوتوغاز » وآلة « المولينكس » ليستقر مزاج القهوة والهال في « براد » ذي رسوم وألوان فكاهية ليحفظها ساخنة، ومسخة الطعم، طول الوقت.

انتهى زمان

وجاء زمان آخر.

لكن الحياة العربية لا تزال تنوس بين الأداة الحديثة وبين البداوة.
لا الأولى من صنع أيدينا ولا الثانية ظلت على فطرتها الأولى.

***

نودّع «الجبل الاخضر» في مساء بدأ يطلق نجومه الباكرة لترعى في مدى لا حدَّ لاتساعه.
لا جبل فوق «الجبل الأخضر»
ولا سماء أشد التصاقاً بالمطلق والمتعالي، في هذا الصقع النائي، من هذه السماء.

شباط (فبراير) ١٩٩٧

دمشق:

الدار المسقية والدمّ الذي سال في شق



تهبط طائرة الخطوط الجوية السورية القادمة من لندن في مطار دمشق بعد رحلة استغرقت خمس ساعات، وأجد مع زميل رحلتي الكاتب والصحافي المصري منير عبيد، مستقبلين من إدارة مهرجان دمشق السينمائي التي وقفت وراء هذه الدعوة في انتظارنا. نشرب قهوة في صالة خاصة بالضيوف ريثما ينجز الداعون إجراءات الدخول، ثم تنطلق بنا السيارة على طريق واسعة مشجرة على الجانبين وتكون «جرمانا» ومخيمها الذي تتكوم بيوته الإسمنتية البائسة فوق بعضها بعضا مكللة، مع ذلك، بصحون التقاط البث الفضائي، اول ما يطالعنا من ضواحي دمشق.

ها هي دمشق تظهر تحت شمس لا حَيْلَ لها. شمس تهوي، مكتنفة بالغيوم، في الأفق الغربي.

تسابق سيارتنا حافلات محملة بخضر وفواكه الموسم تتدفق من ريف دمشق والارياف الأبعد لتمد البشر بالنسغ الضروري للحراك في ورطتهم الوجودية المفرطة في هذا القفص الإسمنتي الكبير المسمّى مدينة.

حافلات من طرز يابانية وكورية مزينة ومزركشة مكتوب عليها حكم وأمثال سائرة أو أقوال ظريفة وأخرى بلا زينة او زخرف تحمل صناديق خشبية محملة بالخيار والبندورة والفجل والباذنجان والتفاح والخرما والبرتقال ذي اللون الأخضر، تشق طريقها في أحشاء المدينة لتصل الى «أسواق الجملة».

السيارات كثيرة والأبواق تصدح. الزحام على أشدّه. أسأل سائقنا عن سر هذا الزحام، فيقول انه وقت الخروج من العمل. ساعة الذروة المسائية. لكن ذاكرتي لا تحتفظ بزحام كهذا في دمشق، كما أنها لا تحتفظ بهذه الطرز الجديدة من السيارات. كانت السيارات السورية بالنسبة لواحد مثلي يأتي من لبنان (قبل الاجتياح الاسرائيلي) تليق بمتحف للعاديات. أما الان، وبعد انفتاح اقتصادي نسبي، فهي من طرز عديدة ومن كل حدب وصوب، وان كان الياباني منها ذا سهم وافر. لست السيارات وكثرة طرازاتها هي ما يشكل فارقا بين صورة دمشق الذاكرة وصورة دمشق الواقع، بل العمائر الجديدة، والمصالح التجارية، التي انبثقت

من لحظة انفتاح في قوانين التجارة الخارجية. تنبىء عن ذلك اليافطات المعلقة، على نحو يشوش النظر، على واجهات المكاتب. مصالح مختلطة وتجارات متباينة: من المخابر الطبية إلى وكالات السيارات والأدوات الكهربائية، مروراً بمكاتب المحاماة والشركات السياحية تتراصف جنباً إلى جنب.

ولكن ليس هذا هو الفارق الوحيد الملفت للنظر بل أيضا ندرة العسكر في شوارع المدينة. العسكر الذين كانوا بجيبباتهم الروسية الخضراء وازيائهم المبرقعة واسلحتهم الخفيفة يشكلون مظهرا خاصا بمدينة دمشق. مظهر المدينة الذاهبة الى الحرب او القادمة منها. الوجود الأمني الشرطي هو الأبرز اليوم. فـ«الكولبات» التي كان يرى المرء فيها رجالاً بلباس مدني يتمنطقون بالمسدسات أو تتدلى «الكلاشنات» من أكتافهم قلّت وتراجعت. تراها أمام المصالح العامة وبيوت كبار المسؤولين في الدولة والحزب والجيش. لا تبدو المدينة مستنفرة، كما دأبت على الظهور في العشرين سنة الأخيرة، بل تظهر على شيء من الدعة والإستقرار.

ولكن الى جانب الإسترخاء في المظهر المدني والانفتاح الاقتصادي النسبي اللذين يطبعان دمشق اليوم هناك اليافطات التي لا تزال تحث على وحدة طبقات الشعب العامل وبناء الاشتراكية وإقامة الوحدة العربية.

يافطات تحمل شعارات ترقى الى عهد الحرب الباردة والتوازن الدولي والمنظومة الاشتراكية تتعايش مع اعلانات تعبر عن حركة اقتصادية متواكبة مع لحظة «العولمة» التي تهدم الخصوصيات والحواجز والأسوار الصينية حتى من دون أن يسمع لها صوت.

وقد خطر لي ان هذا التجاور بين البناء القديم والجديد، الجسور المعلقة والطرق الترابية، السيارة المصنعة باليد والمرسيدس، اعلانات الحزب والمسرح التجاري هو مظهر، غير مُفكّر به، من مظاهر «ما بعد الحداثة»!

وعلى كل حال تبدو سورية لزائرها اليوم البلد العربي الاكثر «تماسكا» في وجه العصف الكوكبي الذي تقوضت تحت زعانفه وشفراته الفولاذ منظومات سياسية

واقتصادية كبرى. وبهذا المعنى فلا يزال للأيديولوجيا حضور في دمشق، بل انها «العصبية» الظاهرة التي تستند اليها القوة ويقوم عليها السلطان.

فندق الشام . . وكتاب الدراما

يذهب بنا الداعون الى «فندق الشام». وهذا اضافة سياحية لم تكن موجودة في اخر مرة زرت فيها دمشق. وهو على ما يبدو ثمرة مشاركة بين القطاعين الخاص والعام. فمعظم المؤتمرات والندوات التي تعقدها مؤسسات الدولة تقام هناك، كما ينزل فيه المشاركون فيها.

يقع الفندق في قلب دمشق التجاري وبالقرب من احيائها الراقية بحيث يصعب على من يريد التسوّق او الذهاب الى السينما او حتى التمشي ان يتفاداه.

ولسبب ما اصبح «مقهى البرازيل» التابع للفندق (وهو مقهى زجاجي على الطريقة الفرنسية) ملتقى الكتاب والشعراء والممثلين والصحافيين. فلم يعد مقهى «الهافانا» يجتذب اليه المثقفين كما كانت عليه الحال في السبعينات والثمانينات. أما مقهى «الروضة» فهو يلم شعث من تبقى من المثقفين العراقيين في العاصمة السورية. المترددين على مقهى «الهافانا» (تجدد واصبحت جدرانه الخارجية من الرخام الأسود) الشاعر العراقي مظفر النواب، أما عبد الوهاب البياتي فقد رأيته يرابط يوميا في «مقهى البرازيل» رغم انه يقيم رسميا في عمان!

كذلك تجدد «اللاتيرنا» (أو القنديل) الذي كان مقهى ومطعما يتمترس فيه المثقفون السوريون في اواخر السبعينات واوائل الثمانينات ينفقون جل وقتهم ويهرون أعصابهم في الحديث عن «قصيدة النثر» و«التفعيلة» ويخوضون في أحاديث «ممنوعة» سياسياً، لكن السلطة، على كل حال، كانت تغض الطرف عن هذا «الطراز» من النقد والمعارضة ما دام الأمر لا يصل الى حد العمل السياسي المنظم أو التعرض لأمن الدولة.

وهذه ميزة رآها المثقفون العراقيون الذين قذفت بهم أقدارهم إلى دمشق في اواخر السبعينات في أول محطة من «أوديستهم» الطويلة ضرباً من التسامح غير المعهود بالنسبة لهم، وأنستهم «طراوة» الشام ونظامها ان النظامين يشتركان في أصل أيديولوجي واحد هو «حزب البعث العربي الإشتراكي»، بل طالما تساءلوا، تحت غمر هذه «الطراوة»، وتحت خفّة هواء «الشام» كيف يستوي أن يكون النظامان متحدرين من منشأ واحد وفكرة واحدة.

فليقل المثقفون، ما داموا يبسطون نقدهم على المقاهي، ما يشاؤون، فلن تهتز ريشة في قنزعة الدولة العالية. كان هذا ،ولعله لا يزال، هو لسان حال النظام السوري الذي يدرك ان لا تهديد يأتي من جهة المقهى أو الحانة.

كانت نقطة الإرتكاز في «اللاتيرنا» هو الشاعر علي الجندي وقد التف حوله نفر من الشعراء والكتاب الشبان، يعطي، بجرمه الضخم، مظهراً لـ«العراب» الثقافي ولكن الذي لا يقل صعلكة واقبالا على الحياة من اصغر المتحلقين حوله وأكثرهم شبقاً.

ازيلت «بحيرة» الماء التي كانت تميز صحن «اللاتيرنا» وترطب اجواءه، على طريقة «صحن الديار» الدمشقية ولم يعد يجلس فيه علي الجندي، بل ان الجندي بعد ان تقدمت به السن، قد هجر دمشق كلها وعاد الى بلدته «السلمية» بزوجة (ثالثة) صغيرة السن كان يسميها «القرقورة». اما نجم «اللاتيرنا»، الان ومركز الجذب فيه فهو الشاعر لقمان ديركي الذي قفز، دفعة واحدة، من ظلال «قصيدة النثر» الى اضواء الدراما التلفزيونية وعالم الفنانين الصاخب. تراه في «القنديل» وقت الظهيرة، خصوصاً، مصحوباً بزوجته الممثلة أمية ملص ابنة المخرج السينمائي المعروف محمد ملص يدخن ويصخب ويدلي بملاحظات وأوامر للمحيطين حوله من ذوي التطلعات والأوهام الكتابية والفنية. يتعامل نادلو «القنديل» مع ديركي بصفته زعيم الفنانين والكتاب الشباب ويعملون كسكرتاريا له: يسجلون أسماء وأرقام هواتف المتصلين به (على المطعم!) ويحفظون له الرسائل والسيناريوهات أو

الكتب التي يتركها الذين يأتون لرؤيته ولا يجدونه!

لكن «مقهى البرازيل» وليس «اللاتيرنا» هو الذي سيكون عليَّ ان اتخذه مطرحاً للقاءاتي ومواعيدي طوال اقامتي في دمشق، وهو، المكان الذي يمكن ان تقابل فيه معظم المثقفين والفنانين. فما عليك سوى ان تجلس هناك وسيأتي، حتما، عاجلا او آجلا، من تسعى إلى لقائه.. من دون موعد!

***

لم يكن ممكناً ان تصادف في السبعينات وحتى مطلع الثمانينات كاتباً أو شاعراً سورياً يجرؤ على التفكير في الكتابة الى التلفزيون. فذلك عالم للتسلية واللهو وربما الابتذال أيضا، لا يجدر بالكاتب الجاد ان يضيع وقته فيه، كما لا يجدر بكتابته أن تنزل الى هذا الدرك!

ولعل الأدباء محقون في نظرتهم الى هذا الجهاز الاعلامي الخطير، فمعظم المواد الدرامية التي كان يبثها التلفزيون لا تتوافر على الحدود الدنيا من الدراما الجادة التي تعالج قضايا المجتمع ومشكلات الفرد، فضلا عن ان هذه المواد كانت تتسم بفقر مدقع في الخيال. كانت مجرد مواد لتزجية الوقت يكتبها اشخاص من خارج الحقل الثقافي. بعضهم من الممثلين الفاشلين ولكن الذين يلمّون بتقنية كتابة السيناريو والحوار وبعضهم الاخر من العاملين في حقول على تماس يومي مع حياة واشكالات الناس كالطب والمحاماة ويأنسون في انفسهم هوى للكتابة.

لكن الأمر لم يعد كذلك، فاليوم، وتحت طائلة أسباب عدة، أبرزها تحطم أحلام التغيير واخفاق «تطبيقات» رؤاهم الأيديولوجية في نماذجها العالمية والعربية دخل الكتاب والشعراء السوريون ميدان الدراما، كما لم يفعل المثقفون العرب في أي ساحة ثقافية اخرى.

كانت السياسة في عقدي السبعينات والثمانينات والتحولات الأدبية والهموم

الجمالية تكوّن، مجتمعة، الهتافات البعيدة والغامضة التي يسعى المثقفون السوريون في اثرها مسرنمين.

لا شيء كان يعلو أو يتقدم على أحلام التغيير وشعاراته.

كان المثقفون السوريون، بمجملهم، معارضين لسياسات النظام، حتى لو كانت، بالمصادفة تتقاطع مع شعاراتهم. فالأصل في المثقف ان يكون معارضاً جذرياً، وفي أضعف الإيمان انتقادياً لنظامه، والحال لم تكن لقاءات وتجمعات المثقفين السوريين الخاصة تخلو من حديث السياسة.

وقد حظي «التدخل» العسكري السوري في لبنان بأكبر قدر من حبر وعصب المثقفين السوريين، كذلك سكنت القضية الفلسطينية، في تصور مغاير بالكامل لتصور الحكم وأقرب ما يكون الى اليسار الفلسطيني، وجدان ومسلك المثقفين السوريين، اضافة بالطبع الى المفردة السحرية، المتعالية: الديمقراطية. فكيف يمكن لمثقفين من هذا النوع ان يلهوا في تدبيج مسلسلات الى التلفزيون ـ الملهاة؟

هكذا لاحظت ان الغالبية العظمى ممن أعرف من الكتاب والشعراء السوريين ينخرطون في كتابة الدراما التلفزيونية، فمن النادر ان تلاقي كاتباً او شاعراً سورياً لم يقدم عملاً درامياً واحداً، أو ليس يعكف على كتابة واحد.

فإن سألت أحد هؤلاء ماذا تفعل هذه الأيام؟ أجابك: أكتب عملا! و«العمل» هو المصطلح الدارج في الوسط التليفزيوني للدراما.

وقد صرت من فرط تكرر هذه الحالة أبادر الكاتب او الشاعر بالقول: هل لديك «عمل»؟ فيأتي الجواب غالبا بالايجاب. الوحيد من بين الذين التقيتهم قال لي انه لم يكتب عملاً ولن يكتب هو الشاعر عادل محمود الذي كان، مع ذلك، الى وقت قريب خلا يدير شركة للانتاج التلفزيوني!

وعادل محمود العائد إلى بلاده مؤخراً بعد غيبة عشر سنين قضاها في الإعلام الفلسطيني في كل من قبرص وتونس ليس متفائلاً بالمشهد الثقافي السوري الراهن

ولا بالمناخ العام الذي يطبع البلد . ويرى ان تغيرات الحياة السورية التي بسطتها أمامه الميالة نحو شيء من الديمقراطية وقبول الإختلاف و« اللبرلة » ليست تغيرات في العمق. كان يتحدث بنفس الثقة التي عهدتها فيه عندما التقينا أول مرة أواخر السبعينات . وكان الشعر الذي هجره على ما يبدو طويلا هو خلاصه الوحيد .

ليست، إذن، هذه الهبّة الدرامية والكتابة للصحافة الخليجية بلا سبب . فالإحباط الذي أصاب مشاريع التغيير العربية التي كان المثقفون عمادها (. . . ووقودها أيضاً) دفع الغالبية العظمى منهم إلى مغادرة العمل السياسي بمعناه الحزبي . فنادراً ان تجد اليوم، مثقفين عرباً لا يزالون أعضاء في أحزاب وتنظيمات سياسية، بل ونادراً أن تجد بقية رمق في هذه الاحزاب والتنظيمات نفسها التي كانت تملأ أفق الحياة العربية وعوداً وعلامات نصر لم تتحقق قط .

وحال المثقفين السوريين مثل حال نظرائهم العرب، مع الالماح الى خصيصة في الوضع السوري (. . . لم تعد كذلك اليوم) وهي ان « البديل » الجدي للنظام كان في نظر معظم المثقفين كارثياً إلى حد يمكن ان يدفع البلاد الى حرب أهلية محققة .

إنني أشير، هنا، الى الحرب المعلنة التي جردها « الأخوان المسلمون » على الحكم في الثمانينات وأدخلت البلد في دوامة من العنف والدم غير مشهودة في التاريخ السوري . لكن العنف « الاخواني » قوبل بعنف اشد هولا من قبل النظام . عنف طاول مدناً وأحياء واجتث شأفة « الأخوان » من جذورها، وقدّم « درساً » رهيباً للقوى والجماعات التي يمكن أن تحذوا حذو « الإخوان » عن كيفية رد النظام وطبيعة دفاعه عن وجوده .

هذا البديل « الاسلاموي » الذي لم يجهد لإخفاء رائحته الطائفية، ربما، كان أحد الأسباب التي دفعت العديد من المثقفين السوريين (وكلهم بطبيعة الحال يساريون) الى إعادة النظر في المعادلة السياسية الداخلية وتجميد صراعهم المباشر مع النظام كي لا يصب في مصلحة « الاخوان المسلمين » .

هذه الأحداث، برغم مرور اكثر من عشر سنين على انصرامها، لا تزال ماثلة، بقوة، في خلفية مشهد الحياة السورية رغم أن السطح يوحي بعكس ذلك.

وإلى الانفضاض عن العمل السياسي (وليس المواقف السياسية) الذي دفع عددا من الكتاب الى خوض ميدان الدراما التلفزيونية، فإن هناك اسبابا موضوعية جعلت الدراما السورية مطلوبة وعززت علاقة الكتاب بها، منها تكاثر محطات التلفزة الفضائية والارضية وطول ساعات البث والتنافس بين شركات الانتاج الخاصة.. ورغبة المشاهدين في التنويع على الدراما المصرية التي تسيطر على المشهد تماما.

وفي ظني ان نجاح مسلسل «نهاية رجل شجاع» الذي وضع له السيناريو والحوار الكاتب حسن م. يوسف انطلاقا من رواية للكاتب المعروف حنا مينه، وغيره من الاعمال الاخرى قد شجع الكتاب والشعراء على الدخول في هذا الحقل ولكن من دون أن تقترب أعمالهم من نقد اللحظة الراهنة فظلت تدور، بمعظمها، في فلكين لا تتجاوزهما: الفنتازية التاريخية أو التاريخ الفعلي ولكن الذي يتوقف عند مجيء «حزب البعث» إلى السلطة عام ١٩٦١ ولا يجاوزه.

والحال ليس الشاعر ممدوح عدوان وحيداً الان في ساحة الدراما التلفزيونية وان كان من السباقين إليها. فهناك ممن التقيت في «مقهى البرازيل» التابع لـ«فندق الشام» العديد، أمثال: نهاد سيريس، رياض عصمت، سحبان سواح، عمار مصارع، لقمان ديركي، حكم البابا، خالد خليفة، خليل صويلح، اضافة الى عدد آخر من الذين يكتبون الدراما ولم التق بهم في رحلتي هده.

ويبدو ان اغراء الكتابة الى التلفزيون يتزايد يوما بعد يوم، خصوصا، بعد ان اثبت الكتاب والشعراء تفوقا كاسحاً على اولئك الذين كانوا يحتكرون كتابة الدراما من خارج الحقل الأدبي. وليس المردود المالي (على اهميته الحاسمة في حياة المثقفين المعيشية البائسة) هو العامل الوحيد وراء سعي الكتاب والشعراء الى الدراما التلفزيونية، بل كذلك الأزمة التي يعاني منها قطاع النشر حاليا والمصاعب التي تواجه حركة الكتاب.

فهناك روايات لم يتمكن الكتاب من نشرها في كتاب فحولوها الى عمل درامي وهناك قصص قصيرة جرى تحويلها الى سهرات تلفزيونية.

هذا دون ان ننسى إغراء وغواية مخاطبة جمهور واسع من الناس عبر العمل الدرامي وهو ما ليس ممكناً أو متاحاً للكتاب المطبوع.

من يدخل «مقهى البرازيل» في «فندق الشام» سيرى خليطاً عجباً من الكتاب والشعراء والممثلين والمخرجين والممثلات أو الفتيات الساعيات الى التقاط فرصة للتمثيل. أما الأحاديث التي تدور وسط غيومٍ من الدخان وفناجين القهوة فهي تتحدث عن «الأعمال»، من يكتب، ومن دخل التصوير، ومن أمّن تمويلا، ومن تعاقد مع فضائية عربية في اوروبا. وهكذا في ايام قليلة جالست بفضل اصدقائي الكتاب والشعراء دوي الإهتمامات الدرامية عددا من الممثلات والممثلين الذين لم أر بعضهم من قبل إلا على الشاشة.. أو لم أرهم قط.

***

أتذكر وأنا أرتشف أول فنجان قهوة لي في «مقهى البرازيل» محاطا بهؤلاء ان آخر مرة لي في دمشق كانت مظللة بظلال قاتمة عكستها الاحداث الضخمة لتلك اللحظة. لحظة العصف الاسرائيلي بلبنان.. وخروجنا من بيروت بقامات مائلة وارواح كسيرة تحت ضغط العاصفة.

تل شهاب: شلالات تهدر في الذاكرة

لم تكن، إذن، آخر مرة لي في دمشق مجرد زيارة عابرة، كما هي حالي اليوم، بل محاولة للإفامة فيها في ظل حالة انكسار مشهودة.

كان ذلك في أعقاب حصار بيروت أواخر صيف عام ١٩٨٢.

خرجت من بيروت مع آخر الخارجين منها من الفلسطينيين والعرب المنضوين تحت لواء المقاومة الفلسطينية إلى مدينة بعلبك حيث كانت زوجتي فرّت بطفلتنا يارا البالغة ثلاث سنوات مع بدء الغارات الإسرائيلية المكثفة على مواقع مختارة في بيروت الغربية، لم يكن بعضها بعيداً عن بيتنا.

كان اسمي مسجلاً على قوائم المغادرين إلى تونس. فقررت، في اللحظة الأخيرة، أن أذهب إلى البقاع اللبناني، وربما من هناك إلى سورية، بدلاً من الذهاب إلى تونس.

كانت زوجتي التي ذهبت إلى بيت ذويها في بعلبك تظن أن الغارات الاسرائيلية لن تستمر طويلا.

أيام قليلة وتعود بعدها إلى بيتنا في بيروت.

ولكنها كانت مخطئة.

فما ظنّت أنه لن يستغرق سوى أيام قليلة استغرق فصل الصيف بأسره.

كما أننا لن نعود، قط، إلى بيتنا في بيروت.

كانت أكثف غارات شهدتها المنطقة العربية على مدار تاريخها، ربما، باستثناء ما شهدته سموات الحرب العراقية الإيرانية التي ظلت تخضُّ الهواء وتطحنه نحو ثماني سنوات.

مكثتُ بضعة أيام في بيت أهل زوجتي في بعلبك التي لم تكن بعيدة تماماً، على كل حال، عن الجحيم الذي فتح أبوابه وكواه على بيروت الغربية وبعض مناطق الجبل، إذ بالقرب منها وقعت معركة بين الطيران السوري والطيران الإسرائيلي أسفرت عن مجزرة للطائرات السورية التي سقط منها ما يقارب ثمانين طائرة حربية.

كانت الليالي القليلة التي قضيتها في بعلبك مليئة بالكوابيس.

لم أصدق إنني خرجت حياً من مدينة تحطمت أمام انظار العالم دون أن يتمكن

أحد من زجر الطائرات الاسرائيلية التي كانت تفلح سماءها أثلاماً صغيرة. ولكن الذي لم أصدقه أكثر هو كيف استطعت النفاذ من بين حواجز الإسرائيليين و«القوات اللبنانية» التي كانت تحكم قبضتها على جميع مخارج بيروت وصولاً إلى مدينة «صوفر» في «جبل لبنان».

هذه الحقيقة وحدها جعلتني أرتعد فرقاً كلما تذكرتها.

كان قَتْلُ الذين يشتبه بعلاقتهم بالمقاومة الفلسطينية عملاً لا ينطوي على تردد أو تساؤل طويل. فقد اختفى، إلى يومنا هذا، ثلاثة مهندسي صوت عراقيين كانوا يعملون في الإذاعة الفلسطينية التي كنت أعمل فيها يومذاك ولم يعثر لهم على أثر.

حدث ذلك في ربع الساعة الأخير من الحصار. كثَّف الإسرائيليون قصفهم من السماء والأرض والبحر على نحو لم تعرفه المدينة من قبل. أراد الإسرائيليون، على ما يبدو، أن يبلغوا المحاصرين رسالة، لا التباس في مضمونها المرعب والمهين في آن: الحصار سيستمر والقصف لن يتوقف حتى ترفعوا الرايات البيض!

تحت ضغط نحو ربع مليون قذيفة وصاروخ كل يوم على مُربّع صغير من الأرض يدعى «بيروت الغربية» بدأ بعض المثقفين العرب والفلسطينيين الخروج من بيروت بمغامرة، لا تقل خطراً عن البقاء في المدينة المحاصرة.

تمكن بعضهم من اجتياز الحصار ولم يتمكن البعض الآخر، ومن بين هؤلاء مهندسو الصوت العراقيون الثلاثة سيئو الحظ.

كان عزائي الوحيد في بعلبك وجود زوجتي وطفلتي اللتين لم أرهما منذ ثلاثة أشهر تقريباً، فتركت نفسي للعواطف المحتبسة وتلك التي يؤججها الخوف وغموض المصير.

كان مجيء صديقي الكاتب الأردني موفق محادين للإطمئنان عليّ في بعلبك مفاجأة ضاعفت عزائي.

كان موفق يقيم، منذ منتصف السبعينات، في العاصمة السورية، وكان هو، بين اعتبارات أخرى، من أسباب ذهابي إلى دمشق.

فمن قبل كنت أزور دمشق بين حين وآخر ولكنني لم أفكر في الإقامة فيها.

كانت بيروت بالنسبة لواحد مثلي، وفي نظر المثقفين والمناضلين السياسيين العرب كذلك، مدينة لا تقارن بأي مدينة اخرى.

مهرة المدن الصاهلة

قلعة التمرد

مختبر التغيير

مطبعة العالم العربي

مسرح الاحلام والهلوسات

ورشة الحداثة العربية.

لم نكن نفكر، بالطبع، بما يسببه وجودنا من تفتيت وتشظية لمعادلة العيش المشترك اللبنانية هشة التركيب أصلاً، فما كان مهماً بالنسبة لنا، على نحو انخطافي، ونعمل على تعميمه عربياً هو تحرير الحياة العربية من سلطة الدولة غافلين عن المجتمع اللبناني الذي يتفتت، تحت سطح الشعار، مزقاً وشظايا. كان تقويض أركان الدولة العربية القائمة حلم الذين اتخذوا من بيروت نموذجاً وقلعة لهم.

لكنها كانت قلعة محاصرة، على نحو محكم، بالدولة العربية واسرائيل.

ولن يطول الوقت حتى تسقط هذه القلعة بفعل السوس الذي ينخرها من الداخل، والتواطؤ الصامت والمريب بين إسرائيل والدولة العربية، من الخارج.

لم أكن أصدق أن سقوط بيروت تحت فوهة «الميركافا» ومناظير ارييل شارون المقرّبة، هو في وجه من وجوهه، مثل سقوط غرناطة: نهاية حلم ومشروع وزمن، إلاّ بعد أن سقطت فعلاً.

كان الجرح ساخناً ولم يكن ممكناً تقدير عمقه.

وكنت قريباً من الركام الى حد كان صعباً تبينّ حجمه ومداه.

وفي ظلّ الوضع الذي كان عليه العالم العربي يومذاك (وربما لم يزل) كانت دمشق هي العاصمة الأقرب إلى بيروت على غير صعيد، ولهذا السبب بالذات، تلقت، من دون العواصم الأخرى، القسط الأكبر من استحقاقات الإجتياح الإسرائيلي للبنان.

هكذا وقبل أن يبرد الجرح انطلقت وزوجتي وطفلتي من بعلبك إلى دمشق في رحلة لا تتجاوز ساعة بالسيارة، لينتهي بي المطاف مقيماً في الجادة الثالثة من منطقة «شورى» في سفح «قاسيون» الدمشقي على بعد جادة أو أثنتين من بيت ذوي صديقي الشاعر نوري الجراح الذي التحق بنا في بيروت عام ١٩٨١ وأصرّ أن يبقى هناك بعد خروجنا ليكون شاهداً على مجزرة صبرا وشاتيلا التي ستحدث بعد قليل.

***

كانت دمشق، في نهاية صيف عام ١٩٨٢ المشؤوم، تموج بما أسفر عنه القصف الإسرائيلي للبنان: نازحون لبنانيون وفلسطينيون مدنيون فروا بأرواحهم من جنون القصف الاسرائيلي، فصائل فلسطينية (... وعربية كانت مستضافة من لدن الفلسطينيين في لبنان)، مثقفون وصعاليك وحالمون ضربت زعانف العاصفة الإسرائيلية مقاهيهم ومرابعهم وقلبتها رأساً على عقب، تجار أضرت الحرب والحصار بمصالحهم وآخرون يتسوقون، تحت ضغط الحاجة وانتهازاً للفرصة، بضائع سورية رخيصة ويرسلونها إلى لبنان.

كان يكفي أن ينزل المرء إلى فنادق «الصالحية» أو «المرجة» أو «الحجاز» أو يذهب إلى «مخيم اليرموك» ليرى كم من الناس تهجّروا أو هجروا بيوتهم في لبنان الذي كانت الطائرات الإسرائبلية قادرة على انتقاء أصغر هدف فيه وضربه، حتى لو

كان بيتاً في زقاق ضيّق.

كان الخارجون من بيروت يتلاقون، تحت وطأة مصابهم الذي أعاد ذكريات «النكبة» أو هزيمة حزيران ١٩٦٧، لتجاذب أطراف حديث غالباً ما يكون عن بيروت وما جرى فيها. يلتقون من أجل أن يكونوا عزاء، لا يمكن لغيرهم ان يعرف فعالية ترياقه، بعضهم لبعض. .ولم يكن هناك أي شيء صالح للحديث عن بيروت سوى بيروت. كنت أهبط يومياً من «شورى» إلى «الصالحية» للقاء بعض الأصدقاء ولقراءة الصحف اللبنانية في مكاتب المقاومة الفلسطينية.

كانت قراءة الصحف اللبنانية أكثر من مجرد عادة، إنها الآن برهان على أن العلاقة مع بيروت لم تنقطع. على اننا ما نزال نتلقى خبراً، نسمة، شيئاً ما من ذلك الفردوس الجريح.

لقد حجبت بيروت عني دمشق. فلم أرها. حتى أنني، بالكاد، كنت ألتقي اصدقائي من المثقفين السوريين الذين كنت آتي إلى زيارتهم، خصيصاً، قبل الإجتياح.

ولا أدري الآن، حقاً، هل كان ما حصل مجرد مصادفة أم لا، فمع وصول الخارجين من بيروت إلى دمشق كان التلفزيون السوري يبث مسلسلاً مصرياً عن سقوط غرناطة. عن أبي عبد الله الصغير الذي سلّم مفاتيح مملكته إلى أيدي أعدائه وقاهريه!

لقد بدا الأمر، لكثيرين منا، ذا دلالة تتجاوز المصادفة. أبعد من وقع الحافر على الحافر.

كانت اللحظة على كل حال، ظالمة لنا جميعاً، وعلى الأخص للمدينة التي يشعر العربي فيها بأنه في مدينته وبين أهله.

هكذا سأقيم أشهراً في دمشق، نازلاً صاعداً بين «شورى» و«الصالحية» لائبا في حيّز صغير من المكان لا أبرحه.

بالكاد كان الهواء يحمل إليّ ضوع الياسمين الذي تترنح تحته ليالي دمشق، وقلما كان يتخّطف نظري، كما دأب من قبل، جمال المرأة الشامية الراكز، العفي، المصفّى، المربّى في الظلّ. الجمال بعلامته الظاهرة (لي) يومذاك (وربما الى يومنا هذا) : البياض، البضّ، الرّيان الضارب في حمّرة طفيفة تشبه حمّرة مشّمش الشام نفسها .

مرتان اثنتان خرجت فيهما من مُربّعي الدمشقي الصغير: واحدة على شكل « سيران » شامي إلى « الربوة » أصطحبني فيه، مع زوجتي وطفلتي، صديقي موفق محادين وزوجته (يومذاك) وطفله . و« السيران » إلى الربوة عادة شامية قديمة يحمل الناس معهم متاعاً للجلوس والأكل ويصرفون نهارهم، تحت ظلال الأشجار، هرباً من الصيف الدمشقي اللاهب . والربوة التي تقع في ظاهر دمشق وتتخللها الأشجار والمياه الغزيرة هي موضع روايات تاريخية متواترة تزعم أنها كانت مأوى للسيدة مريم وأبنها السيد المسيح عندما كانا يأتيان إلى دمشق .

أما المرة الثانية التي خرجت فيها من مُربّعي الدمشقي فكانت لزيارة عمي المقيم في بلدة تل شهاب التي ينتصب على أطرافها سياج شائك معزز بحقل ألغام يفصل الحدود السورية عن الأردنية أُقيم بعيد مواجهات ايلول (سبتمبر) العام ١٩٧٠ لمنع تسلل الفدائيين الفلسطينيين الى الأردن .

قبل هذا التاريخ كان خط الحدود وهمياً . فلم تكن ثمة فواصل طبيعية أو اصطناعية، تفصل بين الأرض السورية والأردنية التي تشكل امتداداً واحداً لسهل حوران المستحق في الأزمنة الرومانية لقب « اهراءات روما » . سأترك، هنا، لذاكرتي ان تستحضر صوراً، أن تتداعى . فلن أتمكن من كبح اندفاع الصور وانثيال الذكرى :

تشتهر تل شهاب بشلالاتها التي قد تكون الأكبر في بلاد الشام، فضلاً عن كونها أحد معابر التهريب الأساسية بين الأردن وسورية قبل أن يجعل السياج الشائك الملغم، هذا النشاط، الذي أزدهرت بسببه القرى الواقعة على الحدود، نسياً

منسياً.

يمكن للناظر إلى الشلالات من الأسفل أن يرى تدفقاً عنيداً ومتواصلاً لمياه غزيرة تسقط من حالق لتصطدم بقوة على الصخور وتطير رذاذاً يصنع ضباباً خفيفاً.

وبالقرب من مساقط المياه ثمة مطاحن حبوب تعمل بقوة الدفع التي يوفرها سقوط الماء.

كان يمكن للمرء أن يرى نساء الفلاحين بالقرب من دوابهن (حمير غالباً) وأحمالهن ينتظرن دورهن لطحن حبوبهن، وأخريات يسلكن طرقاً وعرة وراء بهائمهن التي تنوء بأكياس الطحين صاعدات الطريق الشاقة الى كتف الوادي.

وفي الجهة المقابلة للشلالات ثمة بيوت مبنية من حجر البازلت الأسود أو اللبن الطيني المخلوط بالتبن على تلّة جرداء تبدو لناظرها، من بعيد، وكأنها رجم وثني لحراسة الشلالات أو عبادتها.

هذا الرجم من الحجارة السوداء واللون الطيني هو بلدة تل شهاب القديمة، التي تستمد أسمها، كما هو واضح، من موقعها (التل) ومن اسم شخص يدعى شهاب لا أعلم من يكون.

للبلدة جناح جنوبي أقل إثارة هو ذاك المسمى بـ« المنشية » المشيد معظم دوره على كتف نهر صغير محاذ للحدود الاردنية.

ففي مقابل « تل شهاب » و« المنشية » يمكن رؤية بيوت أربع قرى أردنية، هي: الطرة، الشجرة، عمراوة، الذنيبة.

وبعيداً عن الشلالات ومحيطها ثمة بساتين على امتداد النظر. تربة حمراء كأنها أكباد فتتت للتو. طنابر تجرها خيول « مكدشة » صابرة تحت أحمالها من الغلال. صبايا بمناديل رؤوسهن الملونة (تسمى « طفخات ») واثوابهن السود (تسمى « شروشا ») يضحكن ويضعن أيديهن على أفواههن كأن الضحك عيب او عورة. فلاحون بكوفيات منقطة بالأسود (تسمى « سُلوكا ») وعُقْلٍ سود

وسراويل سوداء مربوطة بـ« دكة » قماشية او مطاطية (.. الأخيرة للصغار فقط) فضفاضة السرج إلى حدّ أنها تخبُّ بين الساقين وتنتهي ضيقة تماماً عند القدمين. بدو بقامات نحيلة تحت دشاديشهم المجعدة بوجوه سمر ضامرة، رؤوسهم ملفعة بـ« الحطات » أو « الكوفيات »، وبعيونهم الحادة الحذرة يرعون قطعانهم الأبدية على هوامش الحقول وحواف البساتين مشرأبين لأي طارىء.

نايات تتناهى من البعيد مجروحة ورجع اغان ملتاعة وسماء زرقاء واسعة لا حدود لزرقتها واتساعها.

كانت هذه صورة لتل شهاب في ذاكرة الطفل الأردني الذي دأب على المجيء الى بيت عمه في عطل الصيف المدرسية ظلت، كما كانت عليه، حتى آخر زيارة قام بها (ولم يعد طفلاً لحظتها) اثناء اقامته في سورية خريف عام ١٩٨٢.

هذا الطفل الذي لم يعد موجوداً.

الطفل الذي كنته.

لكن صورة تل شهاب تلك التي أغرت بهذين الاستطراد والتداعي لم تعد تحتفظ اليوم (شتاء ١٩٩٦) بواحد من أهم عناصرها وأكثرها إثارة للنجوى والخيال : الشلالات.

فالشلالات التي نقف على كتفها، الآن، أنا وعمي وأبي الذي عبر بسيارته « أوبل » الالمانية المتداعية الحدود الأردنية ـ السورية ليراني، لم يبق منها سوى خيط رفيع من المياه المتسربة من قنوات الري والحقول المجاورة.

فقد حولّت السلطات المعنية مياه « نبع الفوار » و« بحيرة المزيريب » التي كانت تغذي الشلالات بالمياه، إلى أغراض الشرب والري فصار مجرى الشلالات جافاً موحشاً يردد في ذاكرته انشودة مياه متدفقة لن يُسمع لحنها الفاتن، على الأغلب، مرة اخرى.

ليست الشلالات هي الوحيدة التي أفُرغت من نُسغها وحياتها بل كذلك رجم

الحجارة السود الذي هجره، هو الآخر، معظم ساكنيه فصار أطلالاً بحق، تسرح بينها كلاب سائبة عجفاء أو أطفال بثياب بالية يحمل بعضها ماركات رياضية غربية (مزورة على الأغلب) يطاردون بعضهم بعضاً بين الأسوار القصيرة والحيطان المتهدمة فَتَفُحُّ الرائحة الحريفة لروث البهائم وتتقافز دجاجات وديوك هنا وهناك.

مررنا أثناء تجوالنا، أبي وعمي وأنا، أمام دكان صغير مبني من اللبن الطيني، حديث العهد، متنح قليلاً عن بقية البيوت. كان ثلاثة رجال يصعب تقدير أعمارهم بسبب لحاهم النابتة ورؤوسهم المغطاة بـ« الشُمغ » وهندامهم المتشابه جالسون. اثنان من هؤلاء كانا يتربعان على دكة طينية وثالث مقرفص أمامهما. يشربون الشاي من ابريق توتياء صغير ويدخنون. سلمنا عليهم فهبّوا واقفين. تقدم المقرفص من عمي وصافحه بحرارة. كان واضحاً انه يعرفه. ثم قدمنا عمي اليه. من دون أن يقدمه إلينا. كان الرجل هو صاحب الدكان الذي لم يكن يحتوي، كما بدا لي من وقفتي أمام بابه، سوى على مواد غذائية محدودة: معلبات، صابون، زيت نباتي، سجائر. الحّ الرجل على أن نشرب الشاي معهم، لكن عمي قال إن علينا أن نذهب إلى « ذرعا ». سلّمنا عليهم ومضينا. لاحظت انهم ظلوا يتابعوننا بعيونهم إلى ان اختفينا عنهم.

لم يبق في قرية تل شهاب التي ضربتها الرثاثة على نحو بدعو إلى الرثاء سوى عائلات قليلة لا تملك أن تبني بيوتاً في التجمعات الجديدة التي أخذت تنشأ بالقرب من الطريق المؤدية الى مدينة درعا أسوة بالآخرين.

سيبقى هؤلاء في رجم حجارةٍ على تلة تشرف على وادٍ موحشٍ كان مسرحاً، طلقاً، للثعالب والضباع والخنازير البرّية ذات يوم (وربما لا يزال)، يتدبرون، بصعوبة، الدرجة صفر من العيش: البقاء.

لم تكن زيارتي، هذه، الى تل شهاب مدرجة، على كل حال، في برنامج رحلتي الراهنة إلى سورية اذ ان ما جئت من اجله، الا وهو مهرجان السينما، يستدعي مني البقاء في دمشق، لا بل قل في « فندق الشام » الذى ينزل فيه، مثلي،

سائر ضيوف المهرجان وتعقد فيه الندوات مع مخرجي الأفلام المشاركة وتعرض في إحدى صالاته معظم العروض السينمائية.

فلولا رغبة والدي التي بدت لي ملحة وغريبة، أن نلتقي عند بيت عمي في تل شهاب ولو لأربعٍ وعشرين ساعة لاقتصرت زيارتي على دمشق وحدها.

ولكن حسناً فعل والدي، الذي لم يكن قد مرَّ على آخر لقاء بيننا في الاردن أكثر من ثلاثة أشهر، باصراره ليس على ان نلتقي في تل شهاب فقط بل على ان يحضر الى دمشق نفسها في سيارة قديمة لا يمكن الوثوق بأدائها ليقلني الى تل شهاب.

فمن يدري كم من الوقت سيمر قبل أن أعود (أو لا أعود) إلى تلك القرية التي ما زالت شلالاتها تهدر في ذاكرتي حتى لو لم تعد موجودة في الواقع.

دم سال في شق

كنا في مستهل المراهقة نلهو، الى جانب استحقاقات تحولاتنا البدنية، باشتقاق بعض الكلمات وردّ كلمات اخرى الى أصولها والمساءلة عن جذر بعض الاسماء.

فوفد مرة الى حلقتنا هذه صبي سوري كان يكبرنا سنة او سنتين فسألنا عن معنى اسم «دمشق».

كان السؤال أصعب، على ما يبدو، من بهلوانياتنا اللغوية آنذاك. فعجزنا. فبادر الى القول إنه مركب من ثلاث كلمات: دم سال في شق، فاختصر، مع التكرار، الى دمشق!

ولكن ما هي حكاية التسمية؟

هكذا هتفنا مبهورين بهذا الإشراق المفاجيء الذي رفع الصبي السوري فوقنا درجات. فقال: ان ذلك يرجع الى عهد سيدنا أدم الذي كان يسكن في ذلك المكان. فاقتتل ولداه قابيل وهابيل لأن تضحية الاول لم تُقبل بينما تَقَبّل اللّه

تضحية الثاني فغار قابيل من أخيه هابيل فقتله فسال دمه في شق من شقوق الارض. فهتف الناس: دم سال في شق، وصار ذلك أسماً للمكان مذاك!

هكذا أسترجع صدى تلك الحكاية ذات الفضاء الاسطوري وأنا أدخل دمشق بعد نحو خمس عشرة سنة على زيارتي الاخيرة لها.

وقد حرصت أثناء زيارتي هذه الى دمشق على تعقب حكاية الصبي السوري بخصوص تسمية المدينة فلم اعثر لها، بالنحو الذي صاغها لنا، على سند كتابي، وإن وقعتُ على روايات شفهية واخرى مكتوبة قريبة منها. أما صياغة الصبي السوري، الذي لا اعلم اين قادته مصائره، لحكايته هذه فهي على الارجح من قدح خياله وقد نحتها لتوه ليتفوق بها علينا. وكان له ذلك. فمن منا كان يخطر في باله أن يكون أسم العاصمة السورية متعلقا بأول دم سال في التاريخ. دم الكائن البشري الاول الذي جندله تحت ضربة شمس الحسد، أخوه. دم ليس له تراث من الألم. ولا يعرف له تسمية بعد. دم بكر. منطوق، يا للغرابة، بكلام عربي. كأن اللغة العربية، احتضنت، في كلماتها، الدم الأول والتسميات الأولى.

كنتُ، آنذاك، على وعي بقصة قابيل وهابيل ولكنني ظننتها حدثت في ارض الحجاز. ربما لأنها الأرض الأكثر قدسية في المخيلة العربية وربما تسلل اليَّ ذلك من القصص القرآني الذي تناول سيّر الأنبياء. المهم أن دمشق كانت مستبعدة من ذهني كمسرح لهذه الحكاية حتى وقفتُ على أكثر من سند لها، من بين ذلك كتاب وضعه الدكتور عفيف بهنسي عن مدينة دمشق.

ففي هذا الكتاب المصور هناك تقصٍ لإسم دمشق في المصادر الدينبة والتاريخية المختلفة. فالمؤرخ ستيفانوس الذي عاش في القرن السادس الميلادي يرى ان هذا الاسم يرجع الى أسم «دمسكوس» أبن الإله هرمس في الميثولوجيا اليونانية، ببنما يرى ياقوت الحموي انه عائد الى «دما شق» بن قاني بن مالك بن أزمحشد بن سام بن نوح. وفي التوراة يرد ذكر اسم دمشق على اكثر من لفظة فهي مرة «درمسق» ومرة «دومسق» ومرة «دموسق».

ويرجع معظم المؤرخين الذين كتبوا عن دمشق أسم المدينة إلى اصله الارامي الذي يعني الدار المسقية أو الـ« دورمسكس » أي المسك المضاعف وذلك لطيب رائحتها وعبق جنائنها على ما يبدو. فدعونا نتذكر ان « غوطة » دمشق، التي تتضاءل وتقتم خضرتها الآن تحت زحف التمدد المزعج للعاصمة السورية، تبدو كانبثاقة خضراء مفاجئة في محيط اجرد ووعر.

أما في العربية فعدت الى « لسان العرب » فوجدت الإسم يحيل إلى معنى السرعة والعجلة من الأمر. فحسب « اللسان » فإن دَمْشَقَ الشيء زينّه ودَمْشَقَ عمله: أسرع فيه. والدِّمْشَقُ: الناقة الخفيفة، السريعة. ودِمَشْقُ: جند من أجناد الشام. أو حسب الجوهري هي: قصبة الشام.

لكن الغريب أن ظل الصبي السوري الذي قال ان الأسم له صلة بأول دم سفك في التاريخ لم يفارقني. وقد وجدتُ اصداء لحكايته الأسطورية عندما علمت بمغارة في « جبل قاسيون » الذي يشرف على مدينة دمشق يروى انها شهدت قتال قابيل وهابيل تدعى « مغارة الدم ».

وقد تواترت حكاية المغارة عند أكثر من إخباري ورحالة عربي من بينهم الرحالة المغربي العظيم إبن بطوطة الذي قال « من مشاهد « جبل قاسيون » هذه المغارة التي تدعى « مغارة الدم » وبالقرب منها « دم هابيل بن آدم عليه السلام، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثراً مُحْمَرّاً وهو الموضع، الذي قتله أخوه به وإجترّه إلى المغارة، ويذكر ان تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين، وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ».

حكاية الصبي السوري تتفق مع ما رواه إبن بطولة في خصوص هرق الدم في مكان ذي شقوق (صخر، حجر) عكس ما رواه ابو الحسن الهروي الذي قال إن الأخوين إقتتلا داخل المغارة فسال دم هابيل فيها ولم يجترّه أخوه إليها.

لكن لا إبن بطوطة ولا الهروي يجعلان سفك دم هابيل أسساً لإسم المدينة. فدم

هابيل ظل، حسب المرويات العربية، إسماً لهذه المغارة إلى يومنا هذا فمن أين جاء الصبي السوري بتلك الحكاية العجيبة التي تبدو لي الآن وكأنها جرت على الألسن كثيراً حتى صقلت واتخذت لنفسها إيقاعاً وسلاسة وقدرة على إثارة المفارقة؟ فالحكاية كيما تملك القدرة على الإقناع ينبغي لها أن تجري على الألسن. ان تكون رويت كثيراً. فهل سمعها يا ترى تُروى أم ألّفها على هذا النحو المحكم، في التوّ واللحظة؟

لا أدري!

الذي أدريه إنني أصل إلى دمشق في مساء شتوي وبين عيني تتراقص صورة الصبي الذي جعلني، بعد ذلك، افكك كثيراً من المفردات وأردها الى أصول مفترضة علني أحصل على سرِّ كيمياء الأسماء والكلمات... ولكن دون جدوى.

وصف الجامع الاموي

طيلة أيام أقامتي القلقة في دمشق بعيد خروجي من بيروت عام ١٩٨٢ لم أزر اي «مَعْلَمٍ سياحي» من معالم المدينة ولم اكن راغباً أو معنياً بذلك. وها أنني، اليوم، اقوم بدور «السائح»، في مدينة كنت اظن انني اعرفها فأكتشفت ان ما اعرفه عنها لا يتجاوز نتف حكايات ومشاهد وروايات تاريخية ملتبسة. وأبدأ تجوالي في دمشق من أحد أبرز معالمها وأكثرها تمثيلاً للأطوار الحضارية التي مرت على المكان. إنه الجامع الأموي الكبير الأثر الأكثر جذباً لزائر المدينة. فليس في عاصمة الأمويين ما يضاهي هذا الصرح المعماري العجيب سواء من حيث الإنشاء الهندسي والجماليات أم من حيث ديمومة الوظيفة. فهو ليس مجرد أثر جميل هجرته الحياة يأتي إليه السياح ليلتقطوا لأنفسهم صوراً في رحابه ليتأكدوا، حين عودتهم، أنهم كانوا في دمشق، وانما المسجد الذي يحرص زعماء سورية، على مر العصور، على أن يخطب لهم من منبره. إنه الجامع الذي لا بدّ للسلطة أن تستمد منه شرعيتها حتى في ظل أنظمتها العلمانية. فمنه تنقل صلوات الجمعة والأعياد

وفي حرمه يظهر القادة في الصف الأول من المصلين. ويعطيك الجامع الأموي بصحنه الكبير وأروقته المتعددة ومنبره، وبكثافة التواريخ المنقوشة على حجره ورخامه هذا الانطباع. يكفي ان تتذكر أن أقوى خلفاء المسلمين وأرفع رجالات الإسلام شأناً الذين حكموا من دمشق أو الذين أقاموا فيها كانوا يركعون تحت هذا الثقل الباذخ لأطوار التاريخ ومصائره وتمثيلاته المهيبة.

ويمكننا ان نتخيل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وقد حسم تردده وتغلب على إحساسه بـ« نقض العهد » فيأمر في يوم من ايام سنة ٧٠٥م وزراءه ومهندسيه بانشاء جامع يليق بالمنزلة التي كان عليها الاسلام يومذاك. وعلينا ان نتحلى بخيال واسع يتجاوز ضيق اللحظة العربية الراهنة لنلم بشساعة الامبراطورية التي كان الوليد بن عبد الملك يديرها من عاصمته دمشق.

فقد كانت « ارض الاسلام » الخاضعة الى حكمه تمتد من قلب أوروبا غرباً حتى حدود الصين شرقاً مرورا بكلّ العالم القديم.

أما لماذا كان الوليد متردداً بانشاء جامع في هذا الموقع بالذات؟ فلذلك قصة.

فعندما فتح خالد بن الوليد وابو عبيدة الجراح دمشق أُخذ بعض المدينة بالقوة وبعضها الاخر صلحا، وكان قسم من الكنيسة التي يقوم عليها الجامع الاموي اليوم من ضمن المواقع التي شملها الصلح. فعمد المسلمون الى الصلاة في قسمها الشرقي بينما ظل القسم الغربي في يد النصارى الذين استمروا في أداء صلواتهم وشعائرهم جنبا الى جنب مع المسلمين.

لكن الوليد الذي كان يرغب في اقامة اضخم جامع في عاصمة العالم الاسلامي المترامي الأطراف اعاد بحث اتفاقية الصلح التي وقعها اسلافه مع النصارى فوجد فيها، على ما يبدو، « ثغرات » تتيح له التحلل من العهد، فعرض على المسيحيين ان يبني لهم كنيسة كبيرة او يعوضهم بأي مال يرغبون لكنهم حسب رواية « الروض المعطار في خبر الاقطار » للحميري رفضوا ذلك وتمسكوا بما ينص عليه الصلح بينهم وبين المسلمين، فلم يكن من الوليد الا ان انتزعه منهم عنوة واشرف بنفسه

على هدمه. وكان المسيحيون يقولون ان من يهدم كنيستهم يصاب بالجنون. فسُمع الوليد يقول: «وأنا أول من يجن في الله»! وباشر الهدم بيديه فتبعه باقي المسلمين... لكن القائمين على شؤون المسيحيين لم ييأسوا فأعادوا طرح الموضوع مدعوما بوثائق الصلح على الخليفة عمر بن عبد العزيز وكاد ان يمكنهم من المسجد الاموي لولا هبة من المسلمين، فعاد وأرضاهم بمال واقطاعات.

ويعكس تاريخ هذا المَعْلَم الذي قام على أساسه الجامع الاموي، هو الاخر، اطوار القوة والضعف التي عرفتها دمشق والحلقات الحضارية التي سادت وبادت على أرضها، فأصل الكنيسة هو معبد روماني لجوبيتر الدمشقي اقيم في وقت متوافق مع الميلاد وما زالت بقاياه موجودة حتى يومنا هذا، غير ان معبد «جوبيتر» لم يكن هو الاول، فقبله، وفي المكان نفسه، كان هناك معبد آرامي (ويقال كنعاني) لعبادة «حدد» اله العاصفة والمطر والخصب.

إذن لجامع بني أمية الكبير تواريخ متراكبة ومتداخلة وازمان تتدرج من الوثنية الى التوحيد تعكس مصائر الأديان والعقائد في تلك الارض وإن انتهى ليكون واحداً من اكثر آثار الحضارة العربية الاسلامية شهرة وتفردا وتأثيراً في توجيه طراز المساجد في المشرق والمغرب العربيين لاحقاً.

هناك حكايات ووقائع طريفة أو ذات دلالة تتعلق بأصل هذا المسجد وبنائه منها أن الوليد بن عبد الملك طلب من اعدائه البيزنطيين أن يرسلوا إليه صناعاً وحرفيين ليسهموا في بناء المسجد فأرسلوا له طائفة من الصناع والحرفيين يبلغ عددها، في بعض الروايات، إثني عشر ألف شخص.

ومن المشكوك فيه أن يكون الوليد قد «أمر ملك الروم» أن يرسل إليه هؤلاء الصناع كما يرد في معظم المرويات العربية، والأرجح أن يكون ذلك جزء من التعاون الذي كان ينشأ بين دول وكيانات متجاورة رغم «حالة الحرب» الرسمية بينها.

أليس الجامع الأموي بهذا المعنى هو وارث هذا الإرث الباذخ من جدل القوة والمقدس، الأنا و«الآخر»؟

***

زرت دمشق أكثر من مرة ولكنني لم أدخل الجامع الأموي إلا مرة واحدة «خطأ».

كان ذلك في العام ١٩٧٥ وكنت أعمل يومها، في عمّان، فقررت مع صديق مصري لي يدعى مصطفى يعمل في «بسطة» كتب كبيرة بجانب مبنى «أمانة العاصمة» أن «نتفسح» في دمشق ليومين أو ثلاثة.

كان الوقت صيفا وكنا نرغب بالفرار من «الجفاف الاجتماعي» المريع لعمان، فكانت دمشق أقرب مدينة إلينا. فلم يكن ممكنا أن نفكر بمدينة صديقي الإسكندرية، وذلك لبعد الشقة وقلة الزاد!

أقمنا لدى وصولنا دمشق في فندق شعبي في «ساحة المرجة» كان مكتظا بالبدو والفلاحين السوريين الذين ظهروا كأنهم مقذوفون إلى عالم لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم فيه. ودمشق كسائر العواصم العربية، هي المركز السياسي والإداري والاقتصادي للبلاد. فكثير من المعاملات الادارية لا تنجز إلاّ فيها وكثير من الحاجيات والصفقات لا تتم إلاّ في أسواقها ومراكزها التجارية. هكذا كان معظم نزلاء الفندق الذين نمنا على سطحه قادمين من الأرياف والبوادي لانجاز معاملة أو للتبضع.

من «ساحة المرجة»، وهي قلب دمشق الصخاب، كنت وصديقي ننطلق للتسكع في جنبات المدينة: على طول نهر بردى، وكان وقتها لا يزال موجودا، او في «الصالحية»، أو ابعد من ذلك إلى «باب توما» (الذي لم أكن اعرف يومها أن محمد الماغوط قد كتب عنه قصيدة جميلة) ومنه الى «سوق الحميدية».

كان «سوق الحميدية»، الذي يستمد اسمه على ما أظن من السلطان العثماني عبد الحميد حيث بني في عهده، يفور بالمشترين والسائحين والمتسكعين (أمثالنا) والسلع المندلقة من الحوانيت الصغيرة الى جانبي الشارع، اصوات الباعة ومساومات المشترين وروائح العطور الشرقية، وهفهفة ثياب النساء والظلال السابغة وسط هجير الصيف كل ذلك في مشهد يعكس تقاليد مهن وحياة تحاصرها المدينة العربية الحديثة في جزر معزولة، ريثما تنقرض تباعا.

ودمشق الشام محظوظة بأنها لا تزال تضم بضعة أسواق لم يزحف عليها «التحديث» العشوائي وإن كان «سوق الحميدية» هو أكبرها وأكملها صورة.

مؤكد أنني لم أفكر بخصوصية «سوق الحميدية» وفرادته لدن زيارتي الأولى له، فكل ما اجتذبني وصديقي، يومذاك، الفرجة، ليس على ما تعرضه السوق من بضائع فقط (وكان فرق العملة يظهرنا كخليجيين من الدرجة الثالثة!) بل وعلى ما يزخر به من نساء. ولاحظت أن «سوق الحميدية» مكان مثالي لـ«الغزل العربي» الذي يقوم على النظرة المتدلهة، أو التمسيد باليد على شعر الرأس أو القرص أو كلمات الإطراء التي غالبا ما تعبر عن الأذى الذي ألحقه جمال المتغزل بها بشخص المتغزل وستبدو مثل هذه التعبيرات لمن لم يألفها كأنها شتيمة أو عدوان على وشك الوقوع. وفي سوق مكتظة بالرواد كهذه فان احتمال اللمس او الاحتكاك اللذين يزعمان العفوية وارد جدا. هذا الى جانب القرص الذي غالباً ما يمارسه أبناء الأرياف والبوادي بمتعة ضارية.

فاذا وقع الإعجاب «من النظرة الأولى» فان الإحتكاك غالبا ما يكون متواطأً عليه. وهو في حالة كهذه، غاية الطلب ومنتهى الأرب. اللهم الا اذا تجاوز الأمر حدود السوق واتخذ لنفسه طورا اخر خارجها.

هكذا وبينما كنا نتسكع في «سوق الحميدية» لا ننشد سوى السلوى وتزجية الوقت و«الإحتكاك» وإذ بنا وجها لوجه أمام بوابة الجامع الأموي.

كان السوق قد انتهى، فخرجنا فجأة من الظل والنداوة إلى ما يشبه الهجير. كانت هناك فسحة صغيرة غير مسقوفة أمام مدخل الجامع. فسحة، تعيد تذكير الزائر بالهجير الذي ينتظره ما ان يبرح السوق.

خلعنا أحذيتنا عند مدخل الجامع ودلفنا الى صحنه، ومن ثم دخلنا، اتقاء للحرارة، الى الداخل، وطفنا بأجنحة الجامع وأروقته.

لا أتذكر من تلك الزيارة سوى السكينة المهيبة التي تسلمتنا من العتبة. كان هناك من يطوف بأجنحة الجامع وثمة من يقرأ في قرآن، او كتاب امامه. لكن السكينة هي السيدة. السكينة التي لا تتكرر الا حيث تخف موازين النفس وتنضو عنها مواضعات الخارج واعتباراته.

***

وها أنذا اجيء لرؤية الجامع الاموي، خصيصا، هذه المرة مصحوبا بالكاتبة الفلسطينية المقيمة في دمشق نعمة خالد والزميل منير عبيد مسؤول البرامج الثقافية في الـ B.B.C في لندن. ورغم أنني آتي الى جامع بني أمية كما يأتي هؤلاء السياح الذين نراهم يتدفقون في أفواج صغيرة متسلحين بالعين الفضولية والكاميرا، إلاّ أن لهذا الجامع في ذاكرتي صورا خاصة. وبما ان زميلتنا نعمة خالد سافرة الرأس ولا تحمل غطاء لرأسها فقد بقيت في الخارج بينما دلفنا نحن الاثنان من الباب الذي دلفت منه أول مرة.

لا شيء تغير، في جامع بني امية، فرخامه لا يزال يملك تلك اللمعة الكابية نفسها، التي تعني ان الايام توالت عليه بتصميم قاس، لا يعرف الكلل. ولا يزال حجره الابيض صامدا للعوادي، والزخارف والفسيفساء التي تراها في انحاء مختلفة من الجامع وخاصة في الواجهة التي تطل على الصحن لا تزال على حالها... الذي تغير هو انا. زدت اثنين وعشرين عاما. اقل براءة ودهشة مما كنت واشد حاجة الى

سكينة الاعماق.

المرة السابقة جئت الجامع الاموي من عمان واليوم اجيئه من لندن. وبين هذين المكانين انصرم اكثر من عقدين من الزمان انقصم خلالهما ظهر العرب وبلغ ابناء الدنيا العربية مغارب الشمس نفيا واقصاء ونجاة بالانفس من مصارع الثورات ومهالك الاحلام.

ادخل الجامع الاموي وتتسلمني السكينة من الباب.

اقف في الصحن الذي تحيط به من جهاته الثلاث ثلاثة اروقة ذات اقواس محمولة على اعمدة مستدقة ربما كانت رومانية الاصل، اضافة الى حرم في الطرف الجنوبي من الصحن. الصحن فسيح، بل لعله ان يكون من أكبر صحون المساجد طرا. ويقال ان هذا التصميم المستطيل للجامع الاموي مماثل لمخطط مسجد الرسول الذي انشأه في المدينة، غير ان الطول في المسجد الاخير هو من القبلة الى الشمال.

اتقدم من مدخل الحرم الكبير المفتوح على الصحن وانظر الى الفسيفساء الخضراء على واجهته: صور أشجار ونباتات مدهشة الجمال والصنع شبه كاملة، رغم وجود فراغات وتقطعات في اللوحات تشير الى خراب لحقها، ولا أدري على ماذا تدل هذه الاشجار، ولكن لا بد ان تكون مما ينبت في البيئة نفسها. وليس بين اللوحات الفسيفسائية المنتشرة على واجهات المسجد وقناطر الاروقة رسم بشر او حيوان وذلك انسجاما مع المفهوم الاسلامي للفن الذي لا يحبذ تجسيد المخلوقات. وهذا بحد ذاته دليل على صلة هذه الفسيفساء ببناء الجامع، اي انها ليست جزءا من اصل المكان القديم في عهوده ما قبل الاسلامية مثل بعض المرافق الاخرى خصوصا الأعمدة.

وهناك في الصحن، ايضا، قبتان واحدة تدعى «قبة المال» وهي ترجع الى العصر العباسي اما الاخرى فتدعى «قبة الساعات» وكانت هناك قبة ثالثة ندعى «البركة» ولكنها ازيلت.

اما حرم الجامع الاموي فينقسم الى ثلاثة اجنحة تمتد موازية للجدار القديم الجنوبي الذي يحدد القبلة، على ان ترتيب هذه الاجنحة الممتدة بشكل عرضي من الشرق الى الغرب ينقطع بجناح اوسط عريض ممتد من الشمال الى الجنوب يحمل في وسطه قبة عالية يطلق عليها أسم «قبة النسر» ويمتد هذا الجناح حتى المحراب.

أدخل الى الحرم واتخذ لي مكانا قريبا من ضريح يوحنا المعمدان او بالتسمية العربية يحيى بن زكريا (.. يحيى، كان لي اسم كهذا)! الذي يبدو انه كان جزءا من اصل المكان القديم ولم يغير المسلمون من أمره شيئا. فيحيى هو الذي عنته الاية «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعلْ له من قبلُ سميّا». هو النبي «الأردني» الذي عمّد المسيح في الجهة الشرقية من نهر الأردن كما تقول بعض الروايات لا في الغربية.

أما في التاريخ فتخبرنا الرواية، انه احد الذين بشروا بقدوم المسيح عيسى بن مريم وكان يعمّد الناس في مياه نهر الاردن ويحضهم على التمسك بأهداب الفضيلة الامر الذي اثار حفيظة «سالومي» فأوغرت عليه صدر الامبراطور الروماني هيرودس فأمر بقتله. وقيل ان سالومي اخذت رأسه ودفنته في هذا الموقع!

فهذا إذن ليس سوى ضريح لرأس نبي الماء، ابن بلادي التي تجفّ وتذوي تحت شمس العطش. وبين هؤلاء الذين يطقطقون بكاميراتهم أو يتنقلون بصمت في ارجاء المسجد الفسيح انا الوحيد، ربما، الذي تستعيد ذاكرته صورا من الطفولة متعلقة، خصوصا، بشهر رمضان.

أتذكر، بخفّة خالصة، تلك اللحظات التي يبلغ فيها الصوم ذروته ومذياعنا الكبير المفتوح على اذاعة دمشق يبث تواشيح دينية تتغنى بفضائل الشهر ثم يقطع الغناء الديني صوت المذيع الذي يقول «والآن ننتقل بكم الى اذاعة خارجية منقولة من المسجد الاموي الكبير» حيث يكون الشيخ توفيق المنجّد بصوته ذي الرنة الطفولية متأهبا لرفع اذان الافطار.

لا ادري هل لا يزال الشيخ المنجّد على قيد الحياة ام لا ولكن اسمه، على كل

حال كان مرتبطا في ذهني على نحو لا يمكن فصم عراه برفع الاذان من الجامع الاموي وبفرقته للتواشيح الدينية التي تحتل ركنا اساسيا في حياتنا في شهر رمضان ثم تتراجع الى الظل بقية اشهر السنة.

واظن ان صلاة الجمعة والعيدين وسائر المناسبات الدينية الكبيرة لا تزال تنقل من رحاب هذا الجامع الذي استغرق بناؤه عشر سنوات وقيل انه تكلف نحو احد عشر مليون دينار ذهبي من بيت مال المسلمين وشارك في بنائه ابرز المهندسين والحرفيين في امبراطورية بني امية يومذاك.. من دون أن ننسى حرفيي الروم وصناعهم.

عند ضريح ابن عربي

عندما كنت أسمع في زياراتي المبكِّرة إلى دمشق معاوني سائقي الباصات، وهم فتيان غالباً، ينادون على السابلة بينما يتأرجحون، في خفّة، بأبواب باصاتهم «الشيخ محدّين»، «الشيخ محدّين» لم أكن أتصوّر أن الأمر يتعلق بمحي الدين بن عربي الصوفي الأندلسي العظيم الذي أقام في دمشق وتوفي ودفن فيها.. وصار أحد أوليائها الكبار.

كان «الشيخ محدّين»، الذي ينطق إسمه الشوام مدغوماً بحيث يبدو لسامعه كلمة واحدة، يعني لي، ذلك الحي السكني الذي تصعده باصات «الميكرو» ناقلة ركاباً خليطاً من الموظفين والعسكر والطلبة في أزياء الشبيبة الكاكية [هذه صورة ثابتة في ذهني لطلبة وطالبات دمشق]. ولكن حتى لو عرفت أن الأمر يتعلق بالصوفي الكبير هذا فما كان سيعنيني كثيراً. فإلى وقت قريب كانت الصوفية تعني، لي، ضرباً من التخريف والشطط العقليين ولا تصلح أن تدخل في «خلطة التراث» التي أعدَّتها، على عجل، الماركسية العربية من بين أربعة عشر قرناً من التراث العربي والإسلامي لكي لا تبدو عدمية تماماً أمام جمهورها و«مستوردة» بالكامل من الخارج.

كان أبطالنا التراثيون قلة يتراوحون بين علي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري والقرامطة.. ومن شابههم في موقفه من سلطة الخلافة.. وهنا يمكن أن يدخل الجانب الرفضي عند «الحلاج» وليست صوفيته، موقفه من السلطة لا كشوفاته الروحية، صلبه في قلب بغداد لا «طواسينه».

والآن، بعد أن تم «رد الإعتبار» إلى الصوفية على المستوى الثقافي العربي وتحوّل أدبياتها إلى مصدر من مصادر «الحداثة الأدبية» (خصوصاً منذ اقترح أدونيس النفّريَّ على الحياة الشعرية العربية) ينبعث محي الدين بن عربي من بين ركام العلمانيات والماركسيات والقوميات ليصبح، هو وأقرانه من أقطاب الصوفية العرب والمسلمين، «اكتشافاً» معرفياً عربياً و«ملجأ» روحياً في نهاية القرن.. و«نهاية التاريخ».

هكذا يصبح لنداء معاوني سائقي الباصات على السابلة: «الشيخ محدّين»، «الشيخ محدّين» معنى آخر. صارت للكلمة جهة أخرى تسافر إليها أبعد من ذلك الحيّ الذي تصعده باصات «الميكرو» وهي تئن بحملها.

صار النداء يعني «الشيخ الأكبر» صاحب «الفتوحات المكيّة» و«فصوص الحكم» و«ترجمان الأشواق». أمسى «للشيخ محدّين» صلة بـ«مرسية»، ولدمشق صلة بالأندلس. وغدا معاونو الباصات، من دون أن يدروا، مغمورين بـ«وحدة الوجود».

إلى «الشيخ الأكبر» ذهبت في زيارتي الحالية إلى دمشق، مرتين.

مرة مع الصديق الفنان السوري بشار زرقان الملحن والمغني الذي انغمر في الشعر العرفاني العربي القديم واقتفى في الشعر الحديث خيط المواجيد والمواجع الروحية ولوعات الفؤاد.

فقد تنقّل، زرقان، في غنائه بين أكثر من قمة من قمم العرفان والعارفين. من «تهْ دلالاً» لابن الفارض إلى «أبداً تحنُ إليكم الأرواح» للسهروردي المقتول، معرِّجاً

على الشاعر الأردني طاهر رياض الملوِّح، هو الآخر، بأنفاس الصوفية.

مصادفة التقيت ببشار في «النوفرة»، وهو حي يقع خلف الجامع الأموي ويعتبر من مناطق الجذب السياحي في دمشق اليوم لاحتفاظه بطابعه الدمشقي القديم وتوافره على أسواق للحرف اليدوية، ومقاه تعبقُ برائحة التنباك العجمي والمعسّل حيث يجد المرء على كراسيّها المتناثرة في الخارج سياحاً أوروبيين يشربون الشاي أو القهوة ويدخّن، بعضهم، «الأراجيل» بعد أن يكونوا طافوا في الجامع الأموي وقبر صلاح الدين الأيوبي الذي يقال ان الجنرال الفرنسي غورو وضع قدمه عليه عندما احتل دمشق عام ١٩٢٠ وقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين!

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها بشار زرقان بعد أن غادر باريس واستقر، مع عائلته، في دمشق. سألني ما أنا فاعل في التوّ، فقلت له إنني أنوي أن أزور الشيخ محي الدين بن عربي اليوم. قال سأرافقك ولكن دعنا نمرُّ أولاً على بيت أهلي في حي قريب ثم ننطلق من هناك. كان بيت ذوي بشار يقع في حي يدعى «العمارة». وهو حي دمشقي قديم يتصل اتصالاً عضوياً بالأحياء الملاصقة له التي تشكل في مجموعة صورة لطراز البناء في الأحياء الشامية الشعبية التي قد تجد لها مثيلاً في مدن عربية عتيقة خصوصاً فاس وغرناطة: بيوت متلاصقة تلاصقاً شديداً، شبابيكها عالية، معظم الطرقات ضيق ومسقوف، بالكاد يسمح بمرور عربة صغيرة بل ويتعين أحياناً أن تركن العربة في أي فسحة جانبية، كي تتمكن من الوصول إلى حي آخر من خلال طرقات تتسع للراجلين فقط. أحياء هذه المنطقة أشبه ما تكون بالامعاء الداخلية، لا تعرف أين تبدأ ولا أين تنتهي. ملتفتة على بعضها البعض. ليست «النوفرة» وحدها من يحتفظ بالطراز الدمشقي في البناء والحياة اليومية، بل كل المنطقة المجاورة لها، لكن الأولى أكثر سياحية. فرغم ان بيوت هذه المنطقة ليست كلها في حالة عمرانية جيدة إلاّ أنها لا تزال عامرة بأهلها الذين يعرفون، كما بدا لي من خلال حديثي مع بعضهم، قيمتها الرمزية وأهمية الحفاظ عليها في وجه زحف «الباطون» و«حداثته» الفظة.

كان لبشار الفضل في تجوالي في «باب السلام» و«حي الجورة» و«القيمرية» التي لا يتوغل فيها الزائر العابر اليكتفي، عادة، بالوقوف على الأوابد ذات السمعة السياحية. فهناك روايات ترقى بالأحياء المحيطة بالجامع الأموي إلى العصر العموري - الكنعاني ثم الآرامي. بل لعل المنطقة بأسرها قد أقيمت في محيط معبد الإله «حدد» الذي هو كما ذكرت في غضون هذه الرحلة، أحد أسس، بل الأطوار التاريخية الأولى التي عرفها هذا المكان المقدس ليصبح في «ختام» سلسلة المصائر هذه الجامع الاموي.

انطلقنا في سيارة بشار زرقان البيجو ٦٠٤ شارع بغداد بالقرب من بيت ذويه إلى «حي الشيخ محي الدين» المتلطي في سفح «قاسيون». كان الإزدحام شديداً في وسط المدينة، خصوصاً، في «الصالحية» التي يعتبر «حي الشيخ محي الدين» امتداداً لها. وصلنا إلى الشارع المؤدي إلى مسجد الشيخ وهو يدعى «شارع المدارس» وذلك لاحتضانه مدارس تاريخية عدة منها «المدرسة العمرية»، «المدرسة المرشدية»، «المدرسة التكريتية»، «المدرسة الأتابكية»، ولكننا لم نستطع التقدم. أوقفتنا مياه تتدفق من رأس الشارع حيث يقع المسجد. كانت مياهاً غزيرة وموحلة. الناس يتقافزون من جانب إلى آخر، يشمّرون عن ثيابهم ويتفادون الخوض في هذه الساقية.

أوقفنا السيارة بجانب بقالية صغيرة يقف وراء دكتها الخشبية بائع في أواسط العمر يتجاذب حديثاً مع رجل في مثل عمره يرتدي عباءة سوداء مقصبة الأطراف تحتها دشداشة بيضاء، ويعتمر قبعة منسوجة تغطي نصف رأسه الحليقة. سألنا الرجل ذا العباءة عن سرٍّ هذه المياه، فقال ان أحد الأنابيب التي تغذي المنطقة بالمياه مكسور بالقرب من الجامع. قلنا له إننا نريد ان نذهب الى جامع الشيخ محي الدين. فقال عليكما أن تخوضا في هذه المياه أو أن تجدا طريقاً أخرى إلى المسجد من أسفل الحارة. ووصف الرجل لبشار الطريق الأخرى. لكن بشار لم يكن يعرف المنطقة جيداً. حاولنا، بشار وأنا، أن نذهب مشياً على الأقدام، ولكن ذلك كان

صعباً. عدنا إلى حيث يقف الرجل ذو العباءة، في الأثناء انطلق صوت مؤذن رقيق وهش ينادي على صلاة المغرب. قال الرجل ذو العباءة «يا مرحباً بذكر اللّه». كان على وشك المغادرة عندما سألنا لماذا نريد الذهاب إلى المسجد؟ (كان مقتنعاً على ما يبدو أننا لسنا من جماعة المصلين) فقال له بشار إننا نرغب في زيارة ضريح الشيخ محي الدين.

فقال أنه من الأفضل زيارة الضريح في النّهار. تعالا غداً فربما تكون «الماسورة» قد أُصلحت. قال ذلك ثم سلّم علينا ومضى.

عدنا أدراجنا. أخبرني بشار أنه لم يزر ضريح إبن عربي قبلاً وإن هذه كانت فرصة مناسبة. قال اننا يمكن أن نعود بعد يومين فغدا لدي ارتباط ولن أتمكن من المجيء معك. فقلت له بعد يومين سأكون في لندن، فليس لدي سوى يوم غد. لا عليك سأتدبر أمري.

في ظهيرة اليوم التالي كنت في «مقهى البرازيل» أهمُّ بالانطلاق عندما جاءت الفنانة التشكيلية السورية هالة الفيصل وجلست إلى طاولتي. كنا قد دأبنا على اللقاء في هذا المقهى معظم أيام زيارتي الحالية إلى دمشق. لاحظت هالة التي كانت تتدثر بشال صوفي أسود إنني متأهبٌ، فسألتني عما إذا كنت باقياً أم مغادراً. فقلت لها إنني أريد الذهاب إلى «الشيخ محي الدين». بدا انها استغربت. فقلت، مستدركاً، محي الدين بن عربي. فقالت بانفعال أنها ترغب، ان لم يكن لدي مانع في مرافقتي ، فهي لم تزر مقامه قط.

رحّبت بذلك. وانطلقنا من فورنا.

تذكّرني هالة الفيصل بأصدقاء مشتركين منهم الصديق الراحل جميل حتمل الذي عرفني عليها في قبرص عام ١٩٨٣ حيث كنت أقيم يومها. كانت في مستهلّ عشريناتها تتفجر أنوثة وصخباً واشتباكاً مع العالم. تريد الكثير. ترى في عينيها نهماً للحياة وشوقاً لمعانقة الوجود. كانت تبدو كأنها خارجة للتوّ من

محبس أو كأنها ترى العالم للمرة الأولى. كانت ترتدي عندما رأيتها، للمرة الاولى، زيّاً صيفياً خفيفاً وقصيراً يبرز تناسق جسدها الصغير المشدود وتنتعل صندلاً جلدياً ولها قصة شعر قصيرة تجعلها أصغر سناً مما هي عليه.

كانت ترسم وتريد أن تمثّل في السينما وربما أن تعمل في الصحافة أيضاً. وقد مثّلت فعلاً. أخذت أدواراً أولى في أفلام سورية. ولا أظن أنها عملت بالصحافة ولكن من المؤكد أنها اصبحت فنانة تشكيلية مميزة وصلتني أصداء معارضها إلى لندن. منذ لقاءاتنا في الصيف القبرصي الحار عام ١٩٨٣ لم نلتق مرة اخرى. في الأثناء تغيرت أشياء كثيرة في العالم ومسّنا التغير، نحن ايضاً عمقاً وسطحاً. لم نعد نملك زهو العشرينات وتفجراتها على غير صعيد. مرت هالة الفيصل، كما عرفت من صديق مشترك، بظروف حياتية صعبة، خيبة رهانات شخصية، إنكسار احلام جعلتها تتراجع. على ما يبدو، الى مربّعها الأول: ذاتها.

هذا يمكن ملاحظته ليس في سيمائها التي بدت لي هادئة، تعكس سلاماً مع النفس ولكن في لوحاتها. فالشخص الحاضر دائماً في معظم اللوحات التي أرتني إياها في شقتها الصغيرة في أحد أحياء دمشق الراقية، هو شخصها في أشكال وصور عدّة.

أظن أنَّ وجود شخصها في اعمالها هو نوع من تحليل الذات ومحاولة لفهم صورها المتعددة أكثر مما هو تمركز على الذات أو عبادة لها.

كانت السماء غائمة والجو بارداً اكثر مما كان عليه في الأيام القليلة التي مرّت علّي في دمشق. كان يبدو انها ستمطر في أي لحظة. وهي لم تمطر حتى الآن رغم اننا في تشرين الثاني. اوقفنا سيارة اجرة (ما أكثرها في دمشق هذه الأيام) بالقرب من المقهى وقلنا له اننا نريد ان نذهب إلى مسجد الشيخ محي الدين ولكن ليس من خلال « شارع المدارس » . فأوصلنا إلى أقرب نقطة من المسجد لجهة الجنوب. كانت هناك طريق ضيقة بين صفين من البيوت ذات درج اسمنتي صعدناها حتى وصلنا الى المسجد. كانت « الماسورة » قد اصلحت ولكن بقايا المياه لا تزال تشكل

بركا في الشارع المحفَّر.. المجوَّر، ولكن مع ذلك فالناس يروحون ويجيئون بهمة ونشاط. يُفاجئُ زائر مسجد الشيخ الأكبر وجود سوق كبيرة بالقرب منه ويرى امامه باعة خضر وفواكه الموسم، وعلى الأخص البرتقال والرمان، ينادون على بضاعتهم، واللحامون يعلقون ذبائحهم في كلابات في مداخل حوانيتهم، وروائح الشواء تفوح في الجوِّ، تختلط بروائح التوابل والأفاوية التي تنبعث من محال العطارة.

سوق كاملة ترفع قواعدها وتطلق أصواتها وروائحها امام مسجد الشيخ محي الدين وبالقرب منه. حياة متصلة الهرج تنبض في محيط «الشيخ الأكبر». ليس مسجد الشيخ محي الدين (ولا ضريحه) آبدة انقطعت عنها الحياة ولا اثرا معزولاً. انه في صميم الحياة الشعبية الدمشقية يحيا حياتها ويعيش الاهمال البلدي ذاته الذي تعيشه هذه الاحياء، مع ان الشارع الذي يقع فيه المسجد هو احد أشهر شوارع «الصالحية» التاريخية بل اشهر شوارع العلم في القرون الوسطى «شارع المدارس» الذي يقال ان مؤسسيه هم بنو قدامة المقدسيون الدين هربوا الى دمشق بعد سقوط القدس بيد الصليبيين والمذابح التي ارتكبوها بحق اهلها فصار اكبر موئل للعلم في زمانه. سلسلة كليات وجامعات بمقياس زماننا يضمها شارع صغير لم تنقطع عنه الحياة يوماً، انه الشارع ذاته الذي قصده في يوم من ايام عام ١٢٢٣ ميلادية متصوف ومتفلسف اندلسي ذائع الصيت يدعى محمد بن علي الحاتمي المعروف بلقب سيصبح ذا رنين كوني هو «محي الدين بن عربي» ليقضي فيه السنين السبع عشرة الاخيرة من حياته وليدركه الأجل ويدفن فيه عن عمر يناهز ٧٥ عاما.

سوية ارض الجامع أخفض قليلا من سوية الشارع المقابل له، ننزل درجات قليلة الى صحن الجامع ذي البلاط المكسر في بعض جوانبه فنجد خادم المسجد «يشطف» مياها متسربة الى الصحن. نخلع احذيتنا ونطأ ارضا وطأها قبلنا مؤمنون ومريدون وملتمسو بركة او سكينة أو فضوليون. كانت الحصر القديمة شبه

البالية مرفوعة على دكة بجانب الصحن الذي يمكن للملاحظ ان يرى التوسعة التي طرأت عليه. فالقسم الخلفي من الصحن ينهض على اعمدة ذات تيجان كورنثية عكس الاعمدة الامامية الحديثة. وليس غريبا وجود أعمدة تعلوها تيجان كورنثية رومانية الطابع. فكثير من الأوابد الاسلامية (ومنها الجامع الاموي كما سبق الذكر) تستخدم حجارة واعمدة من أوابد سابقة عليها. القديم يدخل في الجديد ويعطيه شيئا من حياته ولكنه لا يتخلى عن حياته السابقة. الرموز تنتقل من مكان الى اخر ولكنها لا تندثر. هناك، دون شك، حجارة اقتطعها الحجارون خصيصا لهذا المسجد العثماني ولكن هناك حجارة اعمدة نقلت من أوابد اخرى وتم تحويلها لتناسب حياتها الجديدة.

والحجارة شاهدة ابدا على التحولات. الحجارة تبقى ويزول الذين أعطوها سمتا ووجّهوها وجهة او زودوها بالرموز.

ولحسن الحظ فأن التاريخ يحفظ لنا، هذه المرة، اسم المهندس المعماري الذي صمم مسجد «الشيخ الاكبر»، على عكس كثير من روائع البناء الإسلامي، انه المهندس الدمشقي شهاب الدين العطار. ليس ذلك مسطرا على لوحة المسجد التي تحمل اسم السلطان العثماني سليم الأول الذي أمر ببنائه عام ١٥١٨ لينتهي عام ١٥٢٤، ولكن اسم المهندس ورد في اكثر من ادبية ارخت للجامع وفترته.

ندلف الى الجامع فتغطي هالة الفيصل رأسها بشالها. ليس الجامع كبيرا ولا هو استثنائي الطراز. بل يتميز بالبساطة، ان لم أقل بالتقشف الجمالي.

فهو يتكون من رواقين بينهما عدد من الأعمدة بعضها من الحجر الغرانيتي وبعضها من الحجر الأبيض. الحجر الغرانيتي (أو المسمى زرزوري) نحت خصيصاً للمسجد، على ما يبدو، بيما هناك اعمدة اجتلبوها من بناء النائب الشامي جان بلاط في منطقة اصطبل «دار السعادة»، وكان بلاط قد اجتلبها، بدوره، من موقع دمشقي آخر.

وتنهض على الأعمدة عدة قناطر مكونة من الحجر الأبيض والبني، ويتدلى من السقف بضع ثريات مختلفة الأشكال والأحجام مربوطة بزرد حديدية تظهر أشرطة الكهرباء بين بعضها، فضلاً عن المراوح التي يستعان بها على حر صيف الشام المشهود.

أما أرضية قاعة الصلاة فمفروشة بقطع من السجاد متباينة الأشكال والأحجام والأصول، كما هو حال الثريات، يغلب على الظن أنها، والثريات أيضاً، من تبرع المريدين والملتمسين بركات «الشيخ الأكبر» وهم كثر، فلا ينتظمها ذوق أو حجم أو منشأ واحد ويدل مظهرها على فقر ورثاثة يستغرب المرء وجودهما في هذا المعلم الجاذب للمريد والسائح العابر من أربعة أركان الأرض. فقر ورثاثة يعكسان إهمالا أكثر مما هما تواضع وبساطة.

وبما أن موقع المسجد كان يحاذي نهر يزيد أحد أنهار دمشق الصغيرة الذي لم يعد له وجود، فهناك في الجهة الجنوبية أربعة شبابيك مستطيلة الواحد منها بقامة رجل أو أعلى، وفي القسم العلوي من الجامع العدد نفسه وواحد ينفتح على الشرق.

ليس مقام «الشيخ الأكبر» داخل الجامع بل ملاصق له وتعلوه قبة خضراء ،فمن الجهة الشرقية للجامع ثمة درج يهبطه الزائر ليصبح داخل المقام.

ويبدو أن الدخول إلى ضريح ابن عربي كان يتم بُعيد الفترة التي بني فيها المسجد والمقام من داخل المسجد نفسه وليس من صحنه الخارجي. فهذا متصوف دمشقي معروف وأحد المنافحين عن«الشيخ الأكبر» عبد الغني النابلسي يذكر في كتابه «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز» أن الباب المفضي إلى المقام من داخل المسجد يعرفه قليل من الناس.

وكان الزوار يدلفون الى الضريح من هذا الباب لكنَّ القيّمين على المسجد وجدوا حرجاً في إغلاق باب الضريح داخل المسجد فعمدوا الى اسنخدام باب خارجي يمكن فتحه وغلقه بشكل مستقل.

هبطنا، هالة الفيصل وأنا، إلى ضريح ابن عربي وكان خادم الضريح يقف في الباب فتنحّى لنا. رأينا بقرب الضريح امرأتين وشابة صغيرة يد إحداهن، وهي الأقرب إلى الشابة، تلامس الضريح ويبدو من الهمهمة الصادرة منها أنها تطلب شفاعة أو تدعو في سرها. كانت النسوة الثلاث يرتدين «إيشاربات» على رؤوسهن على عكس معظم النسوة، الفتيات خصوصاً، اللواتي رأيتهن قبل سنوات يتبركن بضريح مولاي إدريس بمسجد القرويين في فاس القديمة. يومها استغربت سفور النساء في قلب واحد من أقدم وأعرق جوامع العالم الإسلامي.

جلسنا غير بعيدين عن النسوة الثلاث اللواتي يبدو من هندامهن شبه البيتي والألفة التي تطبع جلستهن حيال المكان أنهن لم يجئن من قصيّ بل لعلهن من سكنة الحي نفسه وجدن وقتاً في هذه الظهيرة التي يكون فيها الرجال في أعمالهم والأطفال في مدارسهم لزيارة «الشيخ الأكبر» لأمر يخص إحداهن، لعله أن يكون للشابة الصغيرة.

على كل حال لم يكن يبدو على سحنهن انهن، مبتليات ببلاء ما أو مصابات بمصيبة، فلا قلق في السمت ولا ضراعة في الدعاء أو الرجاء ،لعلها زيارة تبرّك روتينية.

فخلال الساعة أو نحوها التي قضيناها داخل المقام جاء عدد لا بأس به من الرجال والنساء. كان بعضهم يدعو في سرّه أو يقرأ ما تيسر من القرآن الذي توجد منه نسخ مختلفة في «مكتبة» صغيرة في المقام أو يصلي ركعتين ويمضي، ليس ثمة دهشة أو غرابة في السلوك مع المكان. ليس ثمة القصد الذي أجيء به. فأنا أجيء من الثقافة، من «إعادة اكتشاف» إبن عربي وهم يأتون من مألوف العادة، من كون إبن عربي جزءا من محيطهم وحياتهم اليومية.

لا أدري بماذا كانت تفكر هالة ونحن نجلس عند رأس ابن عربي لكن أمام عينيَّ امتدت خارطة كبيرة ومتشعبة قطعها هذا المثقف الأندلسي الكبير المتعدد المواهب والإعطيات إلى أن انتهى به المقام في سفح «قاسيون».

من مرسية ومدن الأندلس الكبرى التي كانت تسّاقط تباعاً بيد الإسبان إلى حواضر الشمال الأفريقي، ومن القاهرة إلى بغداد والموصل، ومن حلب إلى قونية، ومن مكة (.. التي سيصاب فيها بضربة شمس «النظام») إلى دمشق التي انتهى إليها أمره.

داخل هذه الجغرافيا الإسلامية المفتوحة كانت تمور مذاهب وعقائد وتصورات للخليقة والخالق لم تكن على وفاق مع الإسلام السني الحاكم بل كان بعضها، وخصوصاً الصوفية، يتعارض، في العمق، مع التأويل السني للنصوص الدينية.

كان بعض هذه الاتجاهات الصوفية، يصل إلى حد التفارق باطناً مع التأويل السائد للدين رغم التشبث بطقوسه وشعائره، وفي قلب هذا التفارق تقع صوفية ابن عربي خصوصاً مذهب «وحدة الوجود» الذي ينسب اليه، وتحمله إلينا تفسيرات متباينة هي الأخرى، فمنها ما ترده إلى «قويم» الدين وتجعل له مخرجاً سنياً أصيلاً ومنها ما تخرج به من هذا الدين وتضعه في أرض الحلولية والكفر.

ولكن هذه الجغرافيا الواسعة، الرحبة رغم تشرذمها السياسي المريع، كانت تقبل ابن تيمية في فهمه الأصولي، النقي، المتشدد للدين، وابن عربي الذي تتساوى لديه العقائد والأديان كلّها، كان فيها للعرفان مطرح وللبرهان مطرح، للسني الحاكم باسم قويم الدين وأصيله مكان وللشيعي المعتصم بآل البيت الباكي على مصائرهم أبد الدهر موقع، لليهودي كنيسه وأسفاره وللمسيحي كنيسته وأناجيله وصليبه الذي سال عليه دم المسيح، كان هناك الصابئي الذي تذكّر علاقته المقدسة بالماء بيوحنا المعمدان ،واليزيدي الذي تربطه الثقافة الشائعة بعبادة الشيطان، عدا مللٍ ونحلٍ ومذاهب صغيرة تمكّنت من الحفاظ على وجودها عبر القرون على شكل فسيفساء معقدة ترصّع صفحة شرق الآلهة والأنبياء والعقائد والأساطير.. والفتن.

لا أريد أن أرسم صورة وردية لهذه «الجغرافيا الإسلامية» فلم يكن وجود «الأقلي» فيها معترفاً به تماماً مثل «الأكثري» ولم يتمتع بالحقوق نفسها، ولكنه، على كل حال، كان قادراً على ما هو أكثر من مجرد البقاء. كان موجوداً.

فكم تبدو الجغرافيا التي عاش فيها إبن عربي وحاول أن يبث في أرجائها « دين الحب » أكثر رحابة وتسامحاً من الجغرافيا الإسلامية الراهنة. مع العلم أن « الشيخ الأكبر » عاش في ظل بداية تفكك الإمبراطورية الموحدية في المغرب العربي والأندلس مما افضى إلى تساقط اثنتين من مدن الأندلس الكبرى هما « قرطبة » و« بلنسية » وزحف المغول على المشرق العربي وتدميرهم بغداد وقضائهم على الخلافة العباسية، إضافة إلى تواصل الحروب الصليبية في بلاد الشام.

ألأنه رأى وجال وعاش وأحبّ خفّت موازين التعصب لديه ومال إلى الحب رحاباً يدخلها البشر بقلوب خافقة وأرواح رهيفة، وأقدام مضيئة تطير إلى العناق والضم حتى الإنصهار والوحدة؟
يحلو لي أن أتصوّر الأمر هكذا.

يحلو لي أن أرى ابن عربي في هذ السمت، فوق العنصر والفهم الضيّق للعقيدة، فوق الجهة والملّة وفوق الدين بما هو اطمئنان الى حقيقة واحدة جامعة مانعة، بما هو مجرد إجراء يحفظ الجانب الطقسي، الشعائري الذي تتمسك به الكثرة وتحرص عليه وتعتبره الدليل الوحيد على الدين ويغفل عن الجانب الرمزي والمجازي له.

حتى هذه الزيارة لم أكن أعرف الكثير عن إبن عربي.

فما قرأت له وعنه كان شظايا ونتفاً ومجتزآت وما أعرض له، هنا، من أفكار وآراء ومعلومات تتعلق بابن عربي إنما وقفت على معظمها بعد الزيارة.

لكن هذه الزبارة ـ السياحة لم تكن لتتم لولا إنني صرتّ قريباً من أرض « الشيخ الأكبر » قربا لا أستطيع تحديده الآن. لا أظن أنني مهيأ لدخول تلك الحمى.. وقد لا أكون. فلم تنته حربي على الحيز والمكانة والمنفعة ولمّا تزل نفسي مليئة بالهوى والغضب والشهوات. ولا يدهب إلى تلك الحمى امرؤ بنفس طافحة بهذه الكثافة

الحسية التي من طينها جبل الانسان .الانسان الذي تميزه كثافته العجيبة هذه عن باقي الكائنات . لذلك أطلُّ على تلك الحمى من مبعدة . أطلُّ وأظل بعيداً تثقلني كثافتي التي لا أفعل لها شيئاً لاطمئناني، ربما، إلى آدميتها . طبيعيتها .

قد يحتاج الأمر إلى استعداد خاص لولوج تلك الأرض التي تخفُّ فيها الأنفس أو ربما، الى إقامة طويلة في الصبر والضنى والبلوى . وانا لست صبورا ولم اصب بمصيبة وما عرفت البلوى ، كما انني لست مقدودا من معدن المقيمين، والأرجح أنني عابر اتلبّث هنا أو هناك ولكنني لا أطيل المقام .
وليس العابر كالمقيم .
ميلي إلى ابن عربي ميل ثقافي مطّيف بظلال من الفضول الروحي إذا جاز التعبير .

ويتراءى لي أن الإهتمام المتزايد الذي تبديه الثقافة العربية والمثقفون العرب باعادة قراءة التراث الصوفي العربي ـ الاسلامي ،وفي قلبه ابن عربي ، إنما يتم على أرض الخيبات الايديولوجية والانكسارات السياسية التي تسم العقدين الأخيرين من قرننا هذا . وإذا لم يكن من العسف أن يربط المرء ظاهرة ثقافية وفكرية ما بحدث أو لحظة تاريخية بعينها فإنني أحيل «إعادة القراءة» هذه إلى سقوط بيروت بيد الإسرائيليين عام ١٩٨٢ وانهيار «الدولة الإشتراكية» بعد ذلك بنحو ثماني سنين، مما كشف الغطاء عن الثقافة العربية العلمانية وعرّاها أمام نفسها قبل أي شيء آخر، لأن القسم الأعظم، الأكثر حراكا في هذه الثقافة كان يدور في فضاء التحرر الوطني والاجتماعي ذي الجذور الماركسية .

ومن الواضح إنني أشير إلى أمرين متلازمين: هزيمة فكرة التحرر العربية بمعناها الكفاحي الذي مثلته الثورة الفلسطينية وإنهيار فكرة (أو تطبيق) إقامة المجتمع الإشتراكي .

والامران ينهلان من معين علماني، كوني الطابع، ليس فيه من « جذور » الذات و« خصائصها » ما يكفي لابقائها واقفة على قدميها في لحظة العصف هذه . فإعادة

قراءة التراث أو «اكتشاف» الصوفية، بهذا المعنى، كأنهما إعادة اكتشاف للذات نفسها، لما يجعل لها جذوراً في العالم ويسند وجودها على أرض تسحب من تحت أقدامها وتتركها على هامش الفعل الحضاري.

هل أحتاج لأذكّر هنا بتصاعد الحراك الديني لـ« ملء الفراغ» الذي خلفه انسحاب الايديولوجيات العلمانية إلى الهوامش؟

بيد أنني لا أربط، تماما، بين بروز الفكرة الدينية وبين «إعادة قراءة» أو «إعادة اكتشاف» التراث الصوفي. فالمشترك بين الأمرين، بالعمق، ليس كبيراً إلى هذا الحدّ، بل لعلهما يقفان في جوانب عديدة في مواجهة بعضهما البعض. فالفكرة الدينية السلفية المتشددة التي تسيطر على الشارع العربي (.. والاسلامي) اليوم ترى في الصوفية تخريفاً وشططاً عقائديين ودعوة إلى اعتزال الصراع.

ورأي مرجع السلفية الكبير إبن تيمية في الصوفية، عموماً، وصوفية ابن عربي خصوصاً معروف. فهو يكاد يخرجها من الإسلام تماماً واضعاً إبن عربي، من خلال تفسيره مذهب «وحدة الوجود» ،في خانة قريبة من الحلوليين الذي يقولون إن الموجودات (العالم) هي الله والله هو الموجودات نفسها وأن لا فرق بين الخالق والمخلوق، والرّب والمربوب.

ليس الاثنان اذن شيئا واحدا حتى وان قالا بالاسلام،

فكم من «اسلامات» عرفتها تلك اللحظة وكم من «اسلامات» لا تزال تشحن نفوس أنصارها بالشدة وتكفير الكثرة حتى اليوم؟

فلا يجمع الاسلام، إذن، إبن تيمية وإبن عربي إلاّ في إطاره الثقافي العريض.

اتساءل هل اقترابي من إبن عربي مختلف عن «المقاربة الثقافية» لتراثه؟

يتهيأ لي أنها تختلف قليلاً. لا أزعم أنها مقاربة روحية خالصة ولكنها لا تخلو من «الفضول الروحي».

وإلا ما الذي جاء بي إلى ضريحه؟

دين الحبّ

تجذب قارىء إبن عربي اليوم أفكار كثيرة ابتدعها أو طوّرها «الشيخ الأكبر» على مدار مشواره الطويل، منها أفكاره عن الرّحمة والتّسامح ووحدة الوجود.. وبشكل خاص عن الحبّ، تلك الفكرة التي لا تطرد من فضائها الواسع حتى الوصال نفسه. لا تلقي بأشواق البشر وأنينهم خارجاً. فالوجود عنده متعلق بالرحمة. وبين الرَّحمة والرّحمن نسب ووشائج ليس أقلّها النسب اللغوي. والرحمة ليست خاصة بأحد دون آخر ولا بشيء دون شيء، بل هي رحمة شاملة، تسع كلّ شيء وتطوي تحت جناحها الموجودات كلّها. فالرحمة والتراحم بين البشر هي من خصائص «الحق». فبالرحمة يتخلق الانسان بصفة الإله، فالرحمة عند إبن عربي، وكما يشرحها محقق وشارح «فصوص الحكم» ابو العلا عفيفي، ليست الشفقة على البشر ولا غفران معاصيهم وإنما يقصد بها النعمة السابغة التي أسبغها الله على الوجود بأسره، انها بتعبير عفيفي «منح كل موجود وجوده الخاص» واظهار حكمها فيه باظهار الصفات التي يتميز بها كل موجود عن غيره.

ويربط إبن عربي بين اسمي «الله» و«الرحمن» في اطار فهمه للرحمة. فالله هو الرّحمن لأنه يتجلى بوجوده على كل موجود وتجليه هذا هو رحمته التي يرحم بها هذا الموجود. ولا تعرف الرحمة عند الشيخ الاكبر الغرض او الملاءمة او الانتقائية. فالخير والشر أمران اعتباريان لا دخل لهما في الأفعال من حيث هي، والرحمة تتوجه الى ايجاد الاشياء والافعال من حيث هي. فهي، بهذا المعنى، مرادفة للمشيئة الالهية.

يقول ابن عربي ان «المحجوبين» يسألون «الحق» ان يرحمهم في اعتقادهم أما «أهل الكشف» فيسألون رحمة الله ان تقوم بهم. أن يصيروا راحمين لا مرحومين. ولا أستبعد وجود وشيجة بين الرَّحمة والخلق نفسه. فإذا كانت الرحمة ذات صلة لغوية بـ«الرحمن» ،وهي من صيغ المبالغة والتكثير، أفليس من الممكن ان تكون لها صلة بالرحم ايضاً. رحم الأنثى التي تكوّن فيها الانسان. ببيته الأول. فللكلمتين

مصدر لغوي واحد. والرَّحم أيضاً، النسب و القرب. وإذا كانت الرَّحمة هي بيت الانسان الأول فيها تخلّق ومنها إنحدر فإن الحبّ هو ايضاً نوع من رحم معنوي. فلولاه لما وجدت الموجودات من العدم. هذا ما يراه إبن عربي. فهو يرقى بالحبِّ إلى مستوى الأساس الأول للوجود. فالله خلق خلقه لأنه أحبَّهم، لا لأنهم ضروريون له. لأنه أراد أن يعرف بهم..

ويؤسس «الشيخ الأكبر» ،الذي قد يكون الوحيد بين أقطاب الصوفية الكبار الذي وضع ديواناً شعرياً كاملاً في الحبِّ هو «ترجمان الأشواق»، مملكة للحبِّ على الأرض. بل انه يجعل الحب دينا وعبادة.

أما بخصوص فكرته عن الحبِّ وكونه أصلاً لهذا الوجود، تياراً يسري في أوصاله فتلحظ د. سعاد الحكيم الباحثة اللبنانية المختصة بتراث إبن عربي ثلاث رتب للحبِّ عند «الشيخ الأكبر» هي: «الحب الطبيعي» وهو حبٌ حسي ينصرف إلى الجسد والتلذذ به من دون أن يكون معنيا بالنفس. هو حبٌ جسدي. حبٌ يحبه المحب لذاته، لملذاته لا لنفس المحبوب فيحضر فيه طرف ويغيب طرف. يحضر فيه الفاعل ويغيب فيه المفعول به.

والرتبة الثانية هي «الحب الروحاني» وهو ارتقاء درجة اعلى في سلك الحب وسلمه. . هنا يسعى المحبُّ في نيل رضا محبوبه ولا يبقى له منه غرض ولا إرادة. فلا تنصرف هذه الرتبة من الحبِّ الى الجسد فقط بل الى الجسد والنفس معا. الى الانسان كوحدة واحدة لا فصل بين الحسي والمعنوي فيها. لذلك فان الحب الروحاني يتضمن الحبَّ الطبيعي، يحتويه ولكنه يرقى به درجة أعلى، ويتطلب هذا الطراز من الحب إتحاداً بالمحبوب جسداً وروحاً، تلاحماً كاملاً، تداخلاً وتطابقاً، تماهياً يلغي الإثنينية وينتفي فيه الفاعل والمفعول به بحيث تصبح «ذات المحبوب عين ذات المحبِّ وذات المحبِّ عين ذات المحبوب» بحسب تعبير ابن عربي.

أما الرتبة الثالثة فهي «الحب الإلهي» وهذا حب روحي خالص لا يبين له أثر على جسد الإنسان وروحه. ويمكن للانسان ان يحبّ أنساناً آخر حبا إلهيا. ولا

يبعد عن ذلك حب إبن عربي نفسه للصبية الأصفهانية « النظام بنت مكين الدين »التي لقيها في مكة وكان يومها شيخاً وعلماً، وهو حب بسط أشواقه ومكابداته في ديوان « ترجمان الأشواق » رغم انه يحمله ،في شرحه للديوان،على وجه الحب الالهي الصرف الذي لا تخالطه مسحة ارضية .فهو يكني عن حب النظام بحب الخالق. وهذا أمر له مطرحه في صوفية إبن عربي، فنحن حتى وأن كنا نحبُّ شخصاً بعينه له أسمه ونسبه وحضوره الجسدي فإنما نحبُّ الله في صورة ذلك الشخص.

للحبِّ، إذن، منزلة كبيرة في مذهب إبن عربي، والحبُّ، بالعودة إلى « فصوص الحكم » هو علة خلق العالم، وهو الأساس الذي يقوم عليه الوجود. إنه يتخلل كل ذرة من ذرات العالم ويدفع بكل شيء الى الظهور بالصورة التي هو عليها. فنحن على ما نحن عليه بسبب الحب الذي هو علة وجودنا. الحب هو مبدأ الوجود وأصل كل موجود. وهو، عند الصوفيين، السبيل الوحيد لمعرفة الله والتحقق بالوحدة معه. الحبُّ عند أبن عربي هو دين بذاته، بل هو الدين العالمي الذي يدخله البشر أجمعين كلٌّ بحسب همته.

أفليس أبن عربي القائل:

أدين بدين الحب أنّى توجهت
ركائبه فالحب ديني وايماني.

***

لم نتحدث، هالة الفيصل وأنا، عند مغادرتنا ضريح ابن عربي وخروجنا الى سماء دمشق الشتوية سوى عن الخوف الذي ألمَّ بخادم الضريح عندما رآني أدوّن شيئاً على دفتر ملاحظاتي. سألت الرجل المنقطع لخدمة الضريح أسئلة تتعلق بالأشخاص المدفونين الى جانب إبن عربي وعن طبيعة الزوار الذين يأتون اليه وعما اذا كانت تقام حلقات ذكر في المسجد، فكان الرجل يجيبني بانطلاق قبل أن أرتكب حماقة إخراج دفتر الملاحظات من جيبي وابدأ في تدوين كلامه. لحظتها توقف خادم الضريح عن الكلام واشاح بنظره عني ولم ينفع في شيء قولي له أنني

أودّ ان اكتب تحقيقاً صحافياً عن إبن عربي ومقامه، فلم يعد الرجل للكلام معنا.

ولكنه قبل ذلك كان قد أخبرنا قصة طريفة تتعلق بدفن خادم الضريح الأسبق الشيخ أمين الخربوطلي بجانب قبر إبن عربي أسوة بابنّي الشيخ الأكبر، سعد الدين وعماد الدين، والشيخ عبد القادر الجزائري الذي نقلت رفاته الى الجزائر بعد الاستقلال. فخادم المسجد أبدى رغبته، وهو يحتضر، ان يدفن في الضريح الذي صرف عمره في خدمته. قال الرجل انه رأى ابن عربي في المنام وامره ان يبقى قربه. لكن ليس كل من يبدي رغبة بأن يدفن في تربة ابن عربي يستجاب له. فالضريح صغير ومكتظ، على اي حال، بالراغبين في جوار الشيخ الأكبر، فهناك الى من ذكرتهم من قبل شخصيتان او ثلاث شخصيات عثمانية، هذا فضلا عن ان القائمين على الضريح، لم يهضموا ،على ما يبدو، فكرة دفن خادم الضريح بجوار ابن عربي مهما كان تفانيه في خدمته.

فبعد ان صُلّي على جثمان خادم الضريح وهمَّ المشيعون باخراج النعش من المسجد ليصار الى دفنه في مقبرة قريبة استدار النعش على أيدي المشيعين باتجاه الضريح. وعبثاً حاول المشيعون ان يوجهوا النعش الى الخارج، فكلما فعلوا ذلك استدار النعش الى الجهة الاخرى، الى حيث يرقد ابن عربي.

ولم يجد المشيعون، أمام هذا الأمر الخارق، الاّ أن يلبوا رغبة خادم الضريح فدفنوه بجوار إبن عربي، وقد أرانا خادم الضريح الجديد قبر الخادم الأسبق.

واذا لم يعهد عن ابن عربي، الذي كان يوصف بـ« فيلسوف الصوفية » ،خوارق مسلكية أو الإهتمام بهذا النوع من الخوارق فإن خادماً لضريحه سجل خارقة امام الملأ بعد سبعة قرون على وفاة « الشيخ الأكبر » !

امشي مع زميلتي الفنانة التشكيلية السورية التي لم تكن اقل مني تأثرا بالسكينة التي تطبع ضريح ابن عربي في« شارع المدارس »الضاج بحياة الارض وروائحها، بقيمها ورموزها،بقليل الشأن وعظيمه بالنسبة للناس.

السماء غائمة .المطر الذي يُبتهل له في بلادنا قد بدأ بالتساقط .

ارض الشارع الذي لابد ان تكون سلكته قدما ابن عربي مرارا لا تزال مبتلة تماما بفعل «الماسورة» المعطوبة والمطر.

بزيارتي ضريح ابن عربي تنتهي هذه «السياحة» المقصودة في محروسة دمشق لتبدأ ملامح «سياحة» من نوع اخر .اتصور ان اهتمامي بصاحب «الفتوحات المكية» لن يتوقف عند حدود ضريحه ونتف من سيرته وفكره. فأغلب الظن اني سأذهب أبعد من ذلك.

ولكن إلى أي حد؟

الله أعلم!

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧

رحلة الى الدار البيضاء:

مجيء الزمن المغربي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ربما يتذكر أبناء جيلي من الأردنيين الذين كانت تلفظهم البيوت صباحاً إلى المدرسة، لتستقبلهم هناك عصيّ المدرسين الطويلة، ذلك الرسم المتخيل لعقبة بن نافع وهو يقتحم بحصانه بحراً اعترض الإندفاعة اللاهثة للخيول العربية في ذلك الصوب.

فإن لم يشكل ذلك الرسم وما يندُّ عنه من تداعيات صورة مبكرة، غامضة وشبه أسطورية للمغرب في أذهانهم فإنه، لعمري، كان كذلك بالنسبة لي.

كان الفاتح العظيم (... أو الغازي في واحد من الجدالات الصامتة للتاريخ) يتطلع الى الأفق البعيد المحفوظ علمه وخبره، حتى تلك اللحظة، في سدة الغيب، يتفكّرُ، في حيرة، ربما، ما عسى أن يكون وراءه.

كان البحر الذي تلطم أمواجه صدر حصان عقبة، على ما يقول بعض الروايات العربية، هو «بحر الظلمات» أو ما يعرف اليوم بالمحيط الأطلسي، وثمة من يقول بأنه بحر «طنجة».

أما الزمان فهو في حدود العام ٦٨٢ للميلاد.

كأن الأرض انتهت، فجأة، تحت حوافر خيول الفتح التي ظلت تنهبها في انطلاقة محمومة من رباطها في «القيروان»، المدينة العربية الجديدة التي أرسى عقبة أولى لبناتها عام ٦٧٠ ميلادية، مخترقة سهولاً وجبالاً وأودية لم تطأها قدما عربي من قبل ولا حوافر حصان من ذلك المكان البعيد المسمّى جزيرة العرب.

لعلها الحيرة أو لعله العجز ذلك الذي يطبع وقفة حصان الفاتح الفهري امام مفازة المياه العظيمة التي لا حدَّ ولا نهاية لها تبين. مياهٌ تجرُّ مياهاً. لجّة تتلاطم. أفق أزرق يتقوس عند آخر نقطة يدركها النظر. غبشٌ. تيهٌ. الحيرة تبلغ أوجها فيردد عقبة سيّد البرّ الإفريقي الجديد يائساً من اختراق هذا الحجاب العظيم الذي لا قبل له به «اللهم إني أُشهدُك الاّ مجاز. ولو وجدتُ مجازاً لاجتزت»!

كانت صورة عقبة يقحم حصانه مياه البحر المحيط واصلاً الى اقصى نقطة يمكن

ان تبلغها انفاسه اللاهثة هي أول صورة تحتفظ بها ذاكرتي للمغرب، وهي من الرسوخ بحيث لم تتمكن الصور اللاحقة الأجد والأدنى إلى الواقع من محوها. صورة ستنقطع عن سياقها وتحيا في ذاكرتي مستمدة اسباب بقائها من شآبيب الطفولة وتثبيتاتها العجيبة.

ستظل صورة المغرب كمكان قصي تغرب وراءه الشمس وتنتهي عنده الارض ليبدأ بعدها المجهول عالقة ليس في ذاكرتي فحسب بل، ربما، في الذاكرة الاولى للتاريخ العربي الذي كان يدّون اول سطوره من مداد دهشة وشوق ملاقاة العوالم الجديدة. وبعد سقوط غرناطة عن نحو ٨٠٠ عام من الوجود العربي والاسلامي على الضفة الغربية من البحر الابيض المتوسط حيث وجد القادة الذين تلوا عقبة مجازاً فجازوا اليها، سيقدّر للمغرب أن يكون، فعلا، آخر أرض تسكنها العربية ويتردد في جنباتها، الأذان، أليفاً ومطمئنا، في ذلك الشطر من العالم.

سيرجع المغرب إلى صورته الأولى كحافة ينتهي عندها عالم ليبدأ عالم آخر. بل ليبدأ عالم «الآخر» الذي تمكن في «حروب الإسترداد» من جعل الشواطىء التي مرّ بها وتوّقف عندها جيش عقبة بن نافع حداً نهائياً للمدى الذي يمكن ان ينتهي اليه وجود أولئك الفاتحين القدامى، الطالعين الى الماء والخضرة والحواضر من عزلة الصحراء وهجيرها الرهيب. آخر نقطة تستقر فيها «الضاد» ويعلو منابرها الهلال.

لكن المغرب كمكان قصي، محاط بهالة غامضة ليس مجرد صورة اجترحتها مخيلتي وركّبتها من رسمة لعقبة بن نافع في كتاب التاريخ المدرسي ومن نتف واجزاء من سير الفاتحين العرب الميسّرة التي كنت مغرماً بها في طفولتي، بل ان محيطي لم يكن يلمّ بعلم عن المغرب يساعد على تكوبن صور اخرى. صور لها علاقة بالزمن الذي كنت احياه وأتنفسه واتكوّن من شارده ووارده. زمن السيارة والمذياع والسروال الإفرنجي وأم كلثوم والسينما وعبد الناصر وطه حسين ونزار قباني والحروب مع اسرائيل والنازحين الفلسطينيين الذين كنا نحن، أبناء البدو، نقايض ابناءهم البيض والزبدة البلديين بعلب السردين التي كانت توزع عليهم من

الإعانات العربية والدولية، وكان بعضها مكتوبا عليه بخط بدا لي حينها كأنه يقلد الخط العربي: «انتاج المغرب»، وعليه تلك النجمة الخماسية الغريبة، نحيفة الأضلاع.

فلم يكن محيطي القريب المنصرف إلى شؤون يومه يعرف، على الأغلب، عن المغرب سوى انه مملكة عربية إسلامية مثل بلادنا ولكنها تبدو من تسميات ملوكها أكثر قدما من مملكتنا الاردنية ذات النشأة المتواضعة عام ١٩٢١.

محمد الخامس ؟

هذا هو الأسم المغربي الذي استوى على ألسنة الاردنيين (.. وسائر عرب الشام على ما اظن) في الخمسينات والستينات مترافقاً مع صيحات الحرية المنطلقة من جبال الجزائر وقصباتها ليتردد صداها قوياً، مدوياً في مشرق عربي واقف على أطراف أصابعه لملاقاة فجر النهضة الذي طال انتظاره تحت ليلين ثقيلين: الترك والاوروبيون. كان محيطنا واقعاً تحت سحر الناصرية، متأثراً أشد التأثر بكل ما ينطق به (... أو يصمت عنه) إعلامها. فمن ينعته «صوت العرب»، لسان دعاواها الحاد والسليط، وطنيا تلهج بذكره ألسنة الناس، ومن يُسمّى خائناً تلعنه الألسنة نفسها في اليوم التالي، بل ويمكن أن تسيّر ضده تظاهرة تنديد وشجب.

مَثَلُ الأول وآيتُه هو محمد الخامس الذي تهللت الناس فرحاً عند عودته من منفاه وحزنت عليه لمّا وافته المنية بعد وقت قصير من انتزاعه استقلال بلاده من فرنسا.

ومَثلُ الثاني هو الرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة الذي وجد في جولة له على منطقتنا، وكانت ذروتها الدرامية في الضفة الغربية التابعة للإردن يومها، جوّاً عدائياً جاهزاً ينتظره حيث شاهد بعينه وسمع بأذنه الحشود التي صُفّتْ لاستقباله والترحيب به وهي تنقلب على دورها المرسوم وتنعته خائناً ومفرطاً بالقضية الفلسطينية.

والأكيد أن محمد الخامس كان قد وقع على الناصرية « حفراً وتنزيلاً »، كما يقول المثل الدمشقي. فهو نموذج للزعيم الوطني الذي خُلع عن عرشه وتعرض للنفي بسبب علاقته الوطيدة بالحركة الوطنية لبلاده وإصراره على أن يحوز المغرب استقلالاً تاماً عن فرنسا التي لم تكن على ودٍ مع الناصرية، والتي لن يطول بها الوقت حتى تتورط في « العدوان الثلاثي » على مصر في أعقاب تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦. وسأعرف، عندما تتشكل صور واقعية للمغرب في ذهني ويصبح لي اهتمام خاص بشؤونه، أن القاهرة هي التي حشدت التأييد العربي لرفض الإعتراف بابن عرفة الذي نصّبه الفرنسيون سلطاناً دمية على المغرب بعد نفي محمد الخامس وعائلته الى مدغشقر.

كما سترفض القاهرة، في تطوّر آخر وتعميقاً لعلاقتها مع محمد الخامس، الاعتراف باستقلال موريتانيا التي كان المغرب يعتبرها جزءاً من ترابه الوطني.

هكذا، يبدو، أن الناصرية التي جاءت على انقاض ملكية تتحدر من سلالة محمد علي الكبير وانتهت في طورها الاخير الى فساد وانحلال، لم تكن معادية للملكيات من حيث المبدأ. فهي لم تقف الى جانب محمد الخامس في محنة النفي فحسب بل ذهبت، في اطار التعاون السياسي معه الى حدّ ان يؤسسا الى جانب ثلاثة بلدان افريقية اخرى، منظمة الوحدة الافريقية التي كانت عملاً تقدمياً جريئاً في قارة متناهبة بين بضعة استعمارات اوروبية لم تقتصر على قواها الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا بل وصلت إلى حد ان بلداً، هو نفسه بلا هوية خاصة وناجزة مثل بلجيكا لم يقصّر عن اللحاق بركب « تحضير الأمم المتوحشة ».

لكن وإن كانت الناصرية واذاعتها « صوت العرب » هما اللذان أدخلا محمد الخامس الى منتديات ومقاه وبيوت في المشرق العربي يغلّق اهل بعضها الأبواب والشبابيك ليستمعوا الى هذه الاذاعة المحرضة (كما كانت عليه الحال في الأردن، مثلاً) فذلك لا يعني ان تقديره والإعتبار الذي كان يحظى به كان حكراً على اليساريين والمتشيعين للناصرية وحدهم بل جمع اليهم، وهم جمهوريو الميل،

الملكيين ايضاً.

فهذا والدي الملكي، المحافظ، المتدين، الذي لا يلتقي مع الناصرية في أي قاسم، خصوصاً موقفها السلبي، ان لم نقل العدائي، من الملكية الاردنية، كان يتفق معها، على الأقل، في اعتبار محمد الخامس مجاهداً كبيراً فضّل المنفى على ان يخضع بلاده الى مشيئة سلطات «الحماية» الفرنسية.

ومن هم مثل والدي ويميلون ميله ربما حملتهم حميّتهم الدينية على مناصرة الملك المغربي اكثر مما فعلت الرابطة القومية التي اعلتها الناصرية فوق ما عداها واكثر، بالتأكيد، من الموقف التحرري الذي طبع مساندة اليساريين لمحمد الخامس في صراعه مع الاستعمار الفرنسي.

وليس مستبعدا ان تكون الصلة، غير الواضحة تماما في المشرق، للأسرة الملكية المغربية الحاكمة بالعترة النبوية سبباً آخر ليجد محمد الخامس حظوة اضافية لدى اناس تلك الفترة لم يعرفها زعيم آخر باستثناء عبد الناصر.

وعندما كنت اقيم في قبرص اثر خروجي من بيروت في اعقاب الحصار الاسرائيلي عام ١٩٨٢ قابلت فلسطينياً يقيم في حيفا وتحدثنا عن الطوائف اليهودية المختلفة التي تكوّن المجتمع الاسرائيلي فأدهشني ان أعرف منه ان كثيراً من العائلات اليهودية المغربية المهاجرة الى اسرائيل لا يحتفظ معظمها بطراز حياته المغربي فحسب بل ان بعضهم لا يزال يعلق صورة محمد الخامس في صدر بيته.

اليسار والصحراء

لكني لم أذهب الى المغرب للمرة الاولى في ربيع عام ١٩٩١ بصورة عقبة بن نافع وهو يقحم حصانه البحر المحيط ولا بالصيت الطيب لمحمد الخامس في محيطي العائلي فقط بل بصور أخرى للمغرب تعرّضت للتعديل والتوضيح والتقريب مرات عديدة.

فما ان بدأت السياسة تهتف إليّ بالإغواء الذي كانت تمثله الماركسية في منتصف السبعينات حتى كان اسم المغرب قد صنّف في دفاتر اليسار العربي في خانة اليمين الرجعي وانتهى الامر.

كانت تلك الأيام ذروة نهوض اليسار الجديد الذي أراد ان يقوّض معاً وبضربة واحدة معاقل اليسار التقليدي واليمين الرجعي!

يسار حماسي، شاب، طالع من رحم الإنكسارات والهزائم، متأثر بخليط مشوش من الأفكار الماوية والجيفارية والتروتسكية وجد شطره الأعظم في الثورة الفلسطينية حليفاً وملجأ وقاعدة للتدريب.

هكذا وقفت على أخبار منظمتي «٢٣ مارس» و«إلى الأمام» اللتين شكلتا العمود الفقري لليسار المغربي الجديد القريب في طروحاته وتحليلاته للوضع العربي والدولي من اليسار الفلسطيني. كان هذان التنظيمان يشكلان تحالفا عبر عن مواقفه الايديولوجية والسياسية من خلال ادبيات ومنابر مشتركة. لكن يبدو ان خلافات دبت بينهما من بينها، وربما ابرزها، الموقف من قضية الصحراء، ادت الى تباعدهما وافتراق خطيهما تماما. ففي عام ١٩٧٤ طرحت قضية الصحراء على محكمة العدل الدولية في لاهاي التي حكمت بأواصر التبعية التي تحكم العلاقة بين المغرب والصحراء، وعلى إثر صدور الحكم نظم الملك الحسن الثاني «المسيرة الخضراء» كتحرك شعبي ضم ٣٥٠ ألف مواطن (حاصل مشاركة جميع الولايات المغربية) توجهوا نحو شريط الحدود الذي كان يضعه الاسبان بين المغرب وصحرائه واجتازوه.

والواضح ان منظمة «٢٣ مارس» تبنت، على عكس منظمة «الى الامام»، مغربية الصحراء بالمعنى التاريخي بينما تشبثت «الى الامام» بمبدأ حق تقرير المصير للصحراويين.

ومن يعرف المغرب يعلم ان مغربية الصحراء موضوع يحظى بإجماع المغاربة معارضين للقصر ام موالين له واي حديث عن تقرير المصير للصحراويين هو هرطقة

ترقى الى مرتبة «الخيانة الوطنية».

كانت صورة منظمة «إلى الأمام» أقل وضوحا عند اليسار العربي الجديد في المشرق من منظمة «٢٣ مارس» التي تمتعت بحضور أفضل من خلال علاقاتها باليسار الفلسطيني، خصوصاً، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. رغم ان الاخيرة تبنَّت في برنامجها العربي حق تقرير المصير للصحراويين وأقامت علاقات جيدة مع جبهة «البوليساريو» التي كانت تخوض كفاحاً مسلحاً ضد الوجود المغربي في الصحراء بدعم مباشر وصريح من الجزائر (... وعلى خلفية الحرب الباردة وانقسام العالم الي معسكرين احدهما يدور في فلك موسكو والاخر في فلك واشنطن).

لكن مجموعة «إلى الامام» التي لم أقع على شيء من أدبياتها النظرية أو السياسية، كانت تتفوق على منظمة «٢٣ مارس» لجهة كونها تضم كتاباً وشعراء في صفوفها، كان أبرز من سمعت به وقرأت له منهم الشاعر السجين، آنذاك، عبد اللطيف اللعبي الذي نشر له غالي شكري قصائد مترجمة بعنوان «شجرة الحديد أزهرت» في مجلة «البلاغ» جزائرية الدعم والميل السياسي التي كان يعمل فيها.

غير أن منظمة «٢٣ مارس» كانت الأقرب اليَّ نظرياً وسياسياً من خلال صلاتها بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كنت عضواً في لجنتها الإعلامية المركزية، ومحرراً في مجلة «الهدف» الناطقة باسمها.

وفي بيروت سألتقي بأحد كوادرها في الخارج وهو شاب أسمر طويل ذو شعر اكرت يدعى «عمر» (اسم حركي على الأغلب) تزوج من مناضلة فلسطينية في «الجبهة الشعبية» تدعى «هالة» وسكنا في بيت قريب من مخيم «مار الياس» كان اشبه بمضافة لمناضلين يساريين عرب ممن كانت تعج بهم بيروت يومذاك. واتذكر ان اول نقاش حول الصحراء وصلتها بالمغرب دار بيني وبينه في مجلة «الهدف». يومها كنت اردد موقف «الجبهة» من قضية الصحراء من دون حتى ان اعرف اين تقع على الخريطة، ناهيك عن معرفة الصلات التاريخية والديموغرافية التي تربطها بالمغرب.

لم يمكث «عمر» الذي كنت أراه دائماً يحمل حقيبة تتدلى من كتفه مليئة بالمنشورات والكراسات السياسية طويلا في بيروت بعد زواجه من «هالة» فقد غادراها الى باريس ولم اسمع شيئا عنهما مذاك.

لكن على المستوى الثقافي ظلت جهة المغرب صامتة بالنسبة لي وربما لأبناء جيلي أيضا.

فلا صوت يصلنا من هناك.

لا قصيدة، لا رواية، لا قصة قصيرة، لا أغنية.

كأن لا شيء يحدث او كأن لا جسر يربطنا بما يحدث هناك.

فمن تونس قرأنا الشابي في المدرسة (... ثم صمتت تونس او لم يعد يصلنا صوتها طويلا) ومن الجزائر قرأنا ترجمات لمالك حداد (ليس على رصيف الأزهار من يجيب) ومحمد ديب (الدار الكبيرة، الحريق، النول) وكاتب ياسين (نجمة، الأجداد يزدادون ضراوة) ولا شيء من المغرب.

ثمة خطأ دون شك.

ولكن ما هو،

أين هو؟

لا أدري!

لن يقدر لي أن اسمع اول صوت ثقافي مغربي إلاّ في أواخر السبعينات وذلك عندما شارك محمد برادة على رأس وفد من اتحاد كتاب المغرب في المؤتمر الحادي عشر لاتحاد الأدباء العرب الذي انعقد في دمشق في ظل شهر العسل اليتيم بين سورية والعراق.

وسيفصح صوت المغرب عن اختلاف في رؤية الثقافة والعالم واختلاف في فهم علاقة الثقافي بالسياسي مثير للدهشة وسط خطابات طنانة، شعارية فاقدة لأي محتوى حقيقي كانت تتصبب عرقا على المنبر.

كان محمد برادة نجم المؤتمر بحق.

شخصت إليه أعيننا، نحن الأعضاء الشباب المشاركين في وفود عربية مشرقية مختلفة (كنت أشارك يومها في الوفد الفلسطيني القادم من بيروت). كنا نوّد لو أن رؤساء وفودنا يقولون قوله. يلامسون الأفق الواسع الذي فرد عليه جناحيه رغم صغر جرمه.

لم أكن قد عهدت من قبل، في مُترأسي الاتحادات العربية، هذه الدقة في الطرح والقدرة على التحليل واللغة المتخففة إلى أقصى حد من ثقل المعطيات الحاسمة والنهائية والصوت الهادىء الخفيض.

لم تلاق كلمة برادة إعجاب الوفدين الكبيرين في المؤتمر: سورية والعراق. فالتركيز على الحريات الديمقراطية واستقلالية الإتحادات عن الأنظمة واستقلال الثقافي نسبيا عن السياسي التي تناولتها كلمته (كما استرجعها الآن من ذاكرتي) كانت كأنما تشير إلى هذين الوفدين الحكوميين المسيطرين على المؤتمر، العراقي بنفوذه المالي وتحالفاته العربية الواسعة والسوري بنفوذه المعنوي وانعقاد المؤتمر على أرضه. كشفت كلمة برادة، التي قوبلت بتصفيق طويل ومتواصل من قبل قاعدة المشاركين، عن مغرب لا نعرفه. مغرب ثقافي يبلور أسئلة معرفية سيأتي الوقت الذي تُفاجىء وتُحرّج فيه «المركز» المنشغل بحطام الوصف وصخب الأيديولوجيا.

كانت كلمة برادة (.. وحضوره الشخصي في المؤتمر) قد سبقت تعرفي على مجلة «الثقافة الجديدة» التي كان يصدرها محمد بنيس وشكلت الاثنتان، الكلمة والمجلة، التي حدثني عنها واعطاني بعض اعدادها الشاعر العراقي جليل حيدر، مدخلي الاول الى عالم الثقافة المغربية ثم جاءت مجلة «اليوم السابع» التي اصدرها الكاتب والصحافي الفلسطيني بلال الحسن في باريس في عام ١٩٨٤، وهي واحدة من أهم حلقات الصحافة العربية المهاجرة وأكثرها ريادة، لتقيم جسراً مع المغرب والثقافة المغربية سنرثه في «القدس العربي» ونوطد دعائمه من اجل عبور يومي في ثلاثة اتجاهات: مشرق، مغرب، مهجر.

المعارضة في الحكم

تهبط طائرة الخطوط الملكية المغربية القادمة من لندن في مطار محمد الخامس بالدار البيضاء في مساء شتوي لا أثر فيه لغيمة واحدة. مساء صاف، أزرق الأفق دافىء تبلغ درجة حرارته نحو ثماني عشرة درجة مئوية كما بشرنا بذلك كابتن الطائرة.

لكن ما هو بُشرى للسائحين الإنكليز الذين يشكلون معظم ركاب الطائرة ليس، بالضرورة، أن يكون كذلك للمغاربة. فان تكون السماء صافية، لا أثر فيها لغيمة واحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) فذلك ليس خبراً ساراً للمحاصيل الزراعية التي تعتمد على الأمطار، خصوصاً، الحبوب، ولا لتربية المواشي التي تعتمد على كلأ المراعي والسهوب. كما لن يكون خبراً ساراً، ايضاً لـ« حكومة التداول » الجديدة إذا ما احتجبت الأمطار أمداً طويلاً. فمن شأن ذلك أن يضاعف متاعبها التي هلّت فعلاً بمواجهات عنيفة مع حملة الشهادات الجامعية العليا العاطلين من العمل الذين أضربوا احتجاجاً على عدم وجود وظائف لهم.

فقد اضطرت حكومة عبد الرحمن اليوسفي قائد « الكتلة الديمقراطية » (الإتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية وحلفائه) التي ربما تكون أول معارضة يسارية مستقلة تصل الى الوزارة في الحياة السياسية العربية المعاصرة، إلى استخدام قوات الشرطة لفضّ احتجاجات العاطلين عن العمل.

وقد نشرت الصحف العربية الصادرة في لندن صوراً لرجال الشرطة وهم ينزلون بهراواتهم على أجساد المضربين لم تعد مألوفة في مغرب حكومات القصر فما بالك في مغرب المعارضة الإشتراكية التي يرى بعض المغاربة ان توزيرها في ظل المصاعب الاقتصادية المغربية الحالية ليس سوى محاولة من القصر لـ« حرقها » امام جمهورها الواسع!

ولكن رغم ذلك فالحكومة لا تزال في مستهل عهدها ولم ييأس المغاربة من

امكانية اجتراحها المعجزات، ولا هي استسلمت لقصر ذات اليد على صعيدي الصلاحيات والامكانات. «إنهم يعتقدون ان حكومة اليوسفي تملك عصا سحرية، تحلُّ بها مشاكل البلاد المتراكمة دفعة واحدة». هذا ما قاله لي «محمد» السائق الذي أرسلته وزارة الثقافة المغربية التي دعتني للمشاركة في فعاليات «معرض الكتاب» ليقلني من المطار عندما سألته ونحن نتوجه إلى الدار البيضاء عن ظن المغاربة بالحكومة الجديدة.

واضاف «محمد» الذي كان يقود سيارة «فولفو» حكومية موديل اوائل التسعينات: «أنا رجل بسيط ولا أفهم بالسياسة، ولكنني أرى ان اليوسفي رجل شريف ولديه نوايا طيبة هو وفريقه الوزاري ولكن البلاد مرت عليها حكومات سيئة قبل ذلك وتركت مشاكل كثيرة وراءها وهو لا يستطيع أن يحل هذه المشاكل بين ليلة وضحاها. يحتاج الأمر الى الصبر».

كان «محمد» أسمر البشرة، الأربعيني أبهق. وجهه ورقبته مبقعان ببقع زهرية اللون. كان يرتدي حلة زرقاء اللون وقميصاً أبيض ورباط عنق مشجرا ولكنه منسجم مع لون حلته.

كنت رأيته في الممر المؤدي الى قاعة شرطة الجوازات وكان يرفع لوحاً كرتونياً صغيراً مكتوبا عليه اسمان مختلفان، تماما، لشخص واحد هو: أنا.

توجهت اليه وعرّفته بنفسي. ابتسم وهو يشير إلى الاسمين المكتوبين على اللافتة وقال: أعرف المشكلة، لكنه لم يأخذ جواز سفري لإنجاز معاملة الدخول كما هو الحال في معظم الدول العربية التي دعيت اليها، بل اكتفى بالقول انه سينتظرني بعد خروجي من منفذ الجمارك. وفيما كنت أقف في الصف بين زملاء رحلتي من السياح الانكليز منتظراً دوري، كان أكثر من شخص مغربي ممن ينتظرون ضيوفاً مثل «محمد» يُدخلون ضيوفهم (العرب في أغلب الظن) من ممر خاص دون ان يقفوا في الصف لمهر جوازاتهم.أسوة بالآخرين.

لم أكن، لحظتها، أعرف وظيفة «محمد» ولكني قدّرت أنه لا يملك سلطة مَن

أدخلوا ضيوفهم عبر ممر خاص أمام استغراب السياح الانكليز الذين لم يألفوا تدبيراً كهذا في مطاراتهم. وبدا مْستقبِلي الذي لم اكن عرفت اسمه بعد من ذهابه السريع وكأنه هو نفسه يخشى الشرطة والاجراءات الرسمية. والخوف من الزي الرسمي، الأزرار النحاس، النسر الجمهوري أو التاج الملكي، الأختام التي تحتفظ في نقشها وحرفها بأسرار القوة، مصمتة وعصية على التشكيك، أصيل في النفس العربية المقهورة بثقلي القوة والمقدس. فهذه رموز وشارات السلطة القادرة على التدخل في مصائر الجماعات والأفراد إلى ابعد حد ممكن دون ان تكون مسؤولة إلاّ من نفسها.

ليس مُستقبِلي المربوط، وجوداً وعيشاً، بأدنى درجات السلّم الوظيفي الحكومي، كما تبين لاحقاً، هو وحده من يرهب أوجه السلطة وتمثيلاتها، الأمنية خصوصاً، بل انه على ما أزعم، رهاب العربي مهما علا كعبه في المجتمع الاهلي. فبعد واحد وعشرين عاماً على مغادرتي الأردن وتحولي، بفعل الزمن والإنكسارات، من مواطن منشبك بالجهود والقوى الساعية للتغيير في البلد الى مجرد «ضيف»، مدعو في أغلب الأحيان، من لدن مؤسسات رسمية، مثل مهرجان جرش، فان الرهبة من ممثلي السلطة الأمنيين، خصوصاً في المنافذ الحدودية، لم تزايلني.

ولكن ليس لدي ما أخشاه في مطار محمد الخامس بالمعنى المذكور. فقصارى ما يمكن ان تفعله السلطات المختصة من سوء ضدي هو ان تردني على عقبيّ. فالمرء لا يتوقع لنفسه مصيراً مجهولاً، هنا، إذا تشابه اسمه باسم أحد «المطلوبين»، مثلاً، اولسبب مرفوع في الألواح المحفوظة لمن يحكمون المطارات والحدود في بلدان عربية اخرى.

كنت ارغب، فقط، ممن سيستقبلني في المطار ان يجنبني حرجين اثنين سبق وان تعرضت لهما في زيارتي السابقة الى المغرب الا وهما: عدم اكتفاء ضابط الجوازات بما يحتويه جواز سفري البريطاني من معلومات وبراهين قاطعة مثل: شكل الجواز ونقوشه وصحة أصله ومصدره ومطابقة الصورة، الممهورة، على نحو

سري، بختم الإمبراطورية الآفلة، لسمتي الراهن دون ان يطرأ عليه اي تغير يذكر لجهة الشاربين أو اللحية أو التقدم في السن، والطلب مني ان اكشف له عن جنسيتي الاصل لكي يدونها في سجلاته إلى جانب ما يفترض ان يضمنه الجواز من معلومات تحدد جنسيتي ومرجعي واقامتي الراهنة.

ويبدو أن الجواز البريطاني الذي نلته بعد ان أقسمت يمين الولاء للملكة اليزابيث الثانية ومن يخلفها على عرش المملكة المتحدة، لم يغير شيئا من حقيقتي الأصلية: وجهي ولون بشرتي. وما دمت لست أبيض اللون محمرّه مثل هؤلاء السياح الانكليز الذين أحمل جواز سفر مطابقا، من حيث المواصفات لجوازاتهم، فأنا لست بريطانياً وعليّ، بالتالي، أن أكشف للضابط الذي لا ينطلي عليه أمر كهذا، عن بلدي وجنسيتي الأصليين.

أما الحرج الثاني، الأشد مضاضة، فهو السؤال عن «هدية» مالية او عينية (سجائر، مشروبات مثلا) من قبل ضابط الجمارك بعد اجتياز ضابط الجوازات. وهذا طلب ينزل علي نزول الصاعقة. ليس لأنه لا سبب يستوجب تقديم «هدية» لموظف حكومي يؤدي مهمته الرسمية بل لأنه، في الأصل، مهين لكرامة الطرفين: السائل والمسؤول. فلا الوقوف في الطابور الى اجل غير مسمى ولا استفرادي من بين الجمع لأسأل اسئلة لا يسألونها ولا حتى ردي على عقبّي يمكن ان يثير حفيظتي مثل ان يطلب مني موظف رسمي «بقشيشا» أو «هدية» مقابل تسهيل معاملتي أو التغاضي عن مخالفة، ممكنة، للوائح والقوانين المرعية.

كان هذا يثير غيظي، دائماً، في عدد من المطارات أو الحدود البرية العربية، ولطالما اعتبرته امتحاناً مؤلما للكرامة الانسانية. ولكن يبدو ان الجهاز الاداري في الدول العربية، كثيفة السكان، فقيرة أو محدودة الامكانات الإقتصادية تُرك ليستجمع رزقه من علاقته بالأهلين، مستغلا حاجتهم الى الأوراق الثبوتية والوثائق والأختام الضرورية لأي معاملة مهما صغر شأنها: من استحراج شهادة ميلاد الى استصدار ترخيص دفن مروراً بكل ما يحتاجه المرء بين هذين الحدين حدّ ورطة

الوجود وحدّ التحرر منه.

ألا يفسر هذا جانباً من انفلاش وضعف، ان لم أقل انعدام، انتاجية هذا الجهاز وتحوّله في معظم الدول العربية إلى عالة على الدولة والمجتمع؟ وسأعرف من « محمد » وغيره من صغار الموظفين الذين التقيت بهم سواء في الدار البيضاء او في فاس، في رحلتي الراهنة كيف ان العيش، صرفا ومن دون أي كماليات، هو بحد ذاته معجزة حقيقية عليهم ان يتدبروا أمرها كل صباح. ففي المغرب كما في مصر وسورية (وهذه الدول الثلاث تشكل تقريبا، نصف العالم العربي) لا يتناسب دخل الفرد مع غلاء المعيشة، على الأخص في المغرب ومصر، حيث اصبح تدخل الدولة في السوق ودعم بعض السلع الأساسية محدوداً.

ففي مصر أطلق الانفتاح الاقتصادي قوى السوق الشرهة من عقالها فغيرت (الى جانب هجرة العمالة الكثيفة من المدينة والريف الى الخارج) في سنين قليلة وجه المجتمع المصري. فمن يعرف مصر قبل الانفتاح لن يعرفها بعده. هذا ما تقوله الأدبيات الاجتماعية، والثقافية التي رصدت حياة المجتمع المصري بين حقبتين وهو ايضا ما تفصح عنه الصور التي يحتفظ بها أرشيف السينما المصرية. ففي ظل تخلص الدولة المصرية من صورتها « الاشتراكية » صعدت شرائح غير مصنفة طبقيا، بالمعنى الانتاجي التقليدي، درجات السلم الاجتماعي، وانحدرت، ان لم تختف، اخرى مثل الطبقة الوسطى التي كانت واحدة من اعرض واعرق الطبقات الوسطى في العالم العربي.

اما في المغرب فقد بدا لي من خلال الملاحظة والاستقصاء الشخصيين ان الطبقة الوسطى المغربية هي في النصف الأسفل من السلّم الاجتماعي على مستوى المعاش. فالتباين الطبقي في المغرب شديد الوضوح، وسأقف على صوره الصارخة في الدار البيضاء، كبرى المدن المغربية، التي تمثل مسرح التناقضات والصراعات الاجتماعية والاقتصادية.

الدار البيضاء وجه الحداثة المغربية المؤلم.

وكما توقعت، توقف ضابط الجوازات المغربي أمام جواز سفري البريطاني أكثر مما فعل مع اي واحد من السياح الانكليز الذين أقف بينهم في الطابور.

سألني بالعربية، دون تردد كأن الجواز الإنكليزي لا يعني شيئاً: من أين أنت؟

فقلت له: كما ترى جواز سفري بريطاني.

فقال: ولكن أصلاً من أين؟

فقلت له: من الاردن. وانحنى على سجل بجانبه وكتب شيئاً لم أره. ثم اجتزت، بعد ان مهر جواز سفري، الى ضابط الجمارك الذي كان ينظر إليّ وأنا أتقدم في اتجاهه حاملاً اكياساً من السوق الحرة اللندنية كأنه يسبر أعماقي أو يروز معدني.

كان ضابط الجوازات مربوعاً على شيء من البدانة، يرتدي بزة شتوية، زيتية اللون ويعتمر كاسكيتا من القماش نفسه. ومن نطاقه يتدلىٰ مسدس في جراب جلدي بني اللون. لاحظت ان زي افراد الشرطة المغربية شبيه بزي نظرائهم في تونس وسورية ولبنان.

المرجعية الفرنسية في أزياء الشرطة والجيش في البلدان التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي واضحة مثل المرجعية الانكليزية في البلدان العربية التي كانت من «نصيب» بريطانيا كالأردن والعراق ومصر. اما الاجتهادات الوطنية في هذه الازياء فمحدودة للغاية، ولا تتجاوز، ربما، شعار البلد وشارة الوحدة او الفرقة التي ينتمي اليها مرتدي الزي، وليس مستبعدا ان يكون هذان، الشعار والشارة، من تصميم فرنسي او بريطاني مثلما هو حال عملاتنا الوطنية، التي تطبع وتسكُّ في اوروبا. مع ان سكّ العملة في الحياة السياسية العربية القديمة كان دليلا على الاستقلال بالحكم واعطائه مرجعا محليا.

ابتسم ضابط الجمارك عندما صرت في مواجهته، بشيء من التواطؤ و«همس» على مسمع ومرأى اثنين من زملائه اللذين بديا محايدين:

ـ الأخ من أين؟

ـ فقلت له: من الأردن.

فقال: وماذا يحمل الأخ الاردني لأخيه المغربي؟

تصنعت عدم الفهم وقلت له إنني مدعو من قبل وزارة الثقافة وان هناك من ينتظرني. بدا وكأنه أسقط في يده، فاكتفى بنظرة سريعة على محتويات الأكياس وصرفني من دون ان يلقي بالاً الى أغراضي الأخرى.

لاحظت ان السياح الانكليز كانوا يمرون دون ان «يهمس» اليهم ضباط الجمارك بما همس به إلي، وسأعرف، من أحد الأصدقاء المغاربة ان هذا «الهمس» مقتصر على المغتربين المغاربة والسياح العرب، وخصوصاً الخليجيين منهم، ولا يشمل السائحين الأجانب الذين قد يكتفي الشرطي بالتلميح البعيد إلى قصده من دون التصريح.

كان «محمد» الذي بدا أطول مما توقعت عندما رأيته يحمل اللافتة المكتوب عليها اسمي (إسمّي) ينتظرني بعد ان اجتزت منفذ الجمارك. أصر على ان يحمل حقيبتي ومضينا الى الباحة الخارجية حيث اوقف سيارته الحكومية.

كانت السماء صافية، مطرزة بنجوم وكواكب يندر ان يرى المرء مثلها في سماء لندن في هذا الوقت، نجوم اهتدت بنورها ومواقعها قوافل وعابرو ليال وسَمَرَ تحتها قرويون روضوا وحشة الليل بالحكاية، وعدّها على اصابعهم صبية كان اهلوهم ينهرونهم عن عدّها كيلا تطلع الثآليل في أيديهم. نجوم وكواكب، لكل واحد اسم، وحكاية، ونسب. عُبد بعضها وعاش بعضها الآخر في المراصد والقصائد وأعين العشاق والباحثين عن تفسير حركة الكون بهذه القناديل الغامضة.

لا أدري لماذا ذكرني بريق وتلألؤ هذه الأنجم والكواكب بآية من سورة «الأنعام» تقول «ولما جَنَّ الليلُ ورأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحبُّ الآفلين» رددها على مسمعي تحت سماء غرناطة المُنجَّمة الصديق عيسى مخلوف منجذباً على الاغلب الى ايقاعها الساحر الذي يصف حيرة ابراهيم وهو يبحث عن رب يُعبد. ربٍ لا يزول.

لكن هذه السماء المرصعة بالنجوم في مثل هذا الوقت من العام كانت موضع قلق « محمد » الذي ردّ على امتداحي صفاء السماء ودفء الطقس قائلا : ان المزارعين عندنا يأملون ان لا تتأخر الأمطار أكثر مما فعلت والاّ تضررت محاصيل اساسية .

واضاف « محمد » الذي ربما اعتبر أنه تعجّل الرّد : ولكن كل شيء بيد الله .

حكومة القصر وحكومة الشعب

في طريقنا إلى الدار البيضاء التي تستغرق نحو نصف ساعة ظل الحديث متصلاً بيني وبين « محمد » الذي رُغم بساطة وضعه الوظيفي، وربما التعليمي أيضاً، فإنه مدرك للمعنى الذي ينطوي عليه توزير المعارضة الاشتراكية، أو في الأقل، عارف بالفوارق بين حكومات القصر السابقة و« حكومة الشعب » وما يترتب عليها من رهانات مختلفة .

فهو، كما فهمت منه، موظف على ملاك دائرة للمراسم تابعة لوزارة الخارجية ومنتدب إلى وزارة الثقافة لنقل الضيوف العرب المدعوين للمشاركة في النشاطات الموازية لمعرض الكتاب في الدار البيضاء .

ومن خلال عمله كسائق في دائرة تابعة لوزارة من « وزارات السيادة » (وزارات يعينها الملك وليس رئيس الوزراء، هي الخارجية، الداخلية، العدل، والاوقاف والشؤون الاسلامية، وهذه تخريجة مغربية لا مثيل لها في الحياة العربية) . فهو مندهش للإختلاف في الشخصية والأداء بين « المسؤولين الاشتراكيين » والمسؤولين المحسوبين على القصر وأحزابه الصورية في الوزارات والادارات المختلفة التي قيض له الاحتكاك بها في غضون الأشهر الثمانية التي مرت على « حكومة التناوب » .

فالأولون أقل تمسكاً بالشكليات وأكثر مباشرة في علاقاتهم مع موظفيهم ومن يراجعونهم من المواطنين بينما يتمسك الأخيرون بأهداب الأعراف الحكومية بما هي عليه من فصلٍ وتعالٍ وبيروقراطية .

كان « محمد » يشير، دون أن يسمي ذلك، الى الفوارق بين أبناء الأعيان والنخب الاجتماعية والاقتصادية، الذين يوصلهم محتدهم، او حالهم الاقتصادية الى الوظيفة الحكومية العالية وبين الذين وصلوا اليها (الآن) من طريق العمل السياسي في الاحزاب اليسارية المعارضة وهم يتحدرون إجمالاً من عائلات مدينية بسيطة أو من الارياف، كما هي حال قاعدة وكوادر « الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية » الذي يرأس زعيمه عبد الرحمن اليوسفي الحكومة.

ويبدو أنه، رُغم التهذيب العام الذي يطبع الشخصية المغربية كبيرها وصغيرها، فإن التراتب الاجتماعي راسخ ومصان في المجتمع المغربي. فهناك فوق وهناك تحت. هناك سادة وهناك مسودون. وليست كلمة « سيدي » الدارجة على اللسان المغربي مجرد ترصيع في الكلام أو تعبير عن تهذيبٍ مطبوعٍ فقط بل هي على ما يبدو تعبير، مباشر حينا وغير مباشر حيناً اخر، عن هذا التباين والانقسام الذي ألمعت اليه.

لكن الرهان الذي يظهر ان المغاربة يعقدونه على حكومة اليوسفي لا يتعلق بالشكليات والفوارق في صورة الموظف الحكومي وادائه بل يتعلق أساساً بالعيش.

يردُّ « محمد » هذا الرّهان إلى كون « حكومة اليوسفي » جاءت أصلاً من موقع نقد لأحوال المعيشة ومعارضة لإدارة دواليب الدولة للخير العام. فمحمد وان لم يكن اشتراكياً ولا يزال يجد مسحة التباس بين الاشتراكية والإلحاد إلاّ انه من قراء صحيفة « الاتحاد الاشتراكي » التي دأبت على طرح القضايا المعيشية والمطلبية للمغاربة، والتنديد بأداء الحكومات السابقة وتصرفها في اقتصاديات البلاد لغير صالح الجمهور العريض. فاليوسفي ومعظم فريقه الوزاري الذي تنطق هذه الصحيفة باسمهم، يعرفون، والحال، الظروف المعيشية للمغاربة أكثر من غيرهم لذلك فهم مطالبون بأن يطبقوا ما كانوا ينادون الحكومات السابقة بتطبيقه.

حال « محمد » كموظف صغير، نموذجية لفهم صعوبة الوضع المعاشي لقطاع كبير من المغاربة، اليوم. فراتبه، بعد نحو عشرين سنة من العمل الحكومي يبلغ

٢٠٠٠ درهم (اي ما يعادل ٢٠٠ دولار) وهو متزوج ولديه ستة أولاد وبنات ويكتري شقة على طريق مطار «سلا» مكونة من غرفتي نوم وصالون ومطبخ بنحو ٨٠٠ درهم.

وعليه أن يتدبر أمور الأكل والملبس وفواتير الكهرباء والماء والطبابة ومتطلبات الدراسة لأولاده بما يتبقى؟

أسأله: هل هذا ممكن؟

فيقول نظرياً غير ممكن، ولكن بشد الأحزمة وتدبير سيدة المنزل وببعض الإمدادات التموينية من البلد وبدلات السفر والمهام الحكومية (مثل هذه المهمة) يصبح الأمر ممكناً... ولكن على حد الكفاف.

وراتب «محمد» كما فهمت منه، أعلى من الحد الأدنى للأجور الذي يبلغ ١٦٠٠ درهم أي ما يعادل ١٦٠ دولاراً. وحسب معطيات صحافية، مغربية، حصلت عليها لاحقاً فإن هناك نحو ٥٠ الف موظف في القطاعين العام والخاص يتقاضون رواتب دون الحد الادنى المنصوص عليه.

وبهذا المعنى فان «محمد» والد الأبناء والبنات الستة، محظوظ أكثر من غيره. فهو كما يقول لي يمتلك عملاً «قاراً» يضفي عليه نوعاً من الأهمية الاجتماعية، كما يؤمن له راتباً تقاعدياً. يقول: «انني، والحمد لله، أفضل حالاً من كثيرين غيري ممن تتقاذفهم البطالة بين المقاهي والارصفة، أو من الذين يعملون يوماً ويتعطلون اياما».

وعندما أسأله كيف يمكن ان تنجب ستة أولاد وانت غير قادر على إعالتهم يجيبني صادقاً: ان رزق الأولاد على الله. فالله يخلق النفس الحية، ويخلق معها رزقها.

اضواء كاليفورنيا

ليس « محمد » متديناً على نحو خاص، فهو وإن كان يصوم رمضان فإنه لا يصلي إلاّ يوم الجمعة. لكن الإيمان، كما لاحظت من خلال زيارتي السابقتين إلى المغرب، وكما سألاحظ هذه المرة، متجذر في الشخصية المغربية. حتى اليساريون الذين عرفتهم ينطوون في عمق شخصيتهم على بذرة دينية. فللدين ثقله في المغرب سواء كان من خلال الممالك التي قامت فيه ولعب فيها الدين (المستمد وهجه أحيانا من الدوحة النبوية التي تنسب ثلاث من ممالكه نفسها إليها) دورا خاصاً أو من خلال الزوايا الصوفية التي لعبت، هي الأخرى، أدواراً مهمة في صياغة الوعي والوجدان المغربيين.

لكن الدين ليس ستاراً يضرب على العينين فلا تريان، ليس مجرد انجاب أولاد والباقي على الله. فـ« محمد » الذي ينجب ستة اولاد ويؤمن ان رزقهم بيد الله يرى، ونحن نعبر حياً راقياً من أحياء الدار البيضاء، الفوارق الاجتماعية والتفاوتات الطبقية. أسأله عن إسم هذا الحي الذي يتميز بالفلل الراقية المسورة بالحدائق فيقول لي انه يدعى « كاليفورنيا »!

ان الطابع الغربي هو أصل مدينة « الدار البيضاء » الجديدة الذي يفصح عنه بجلاء أكبر إسمها الاسباني الأصل « كازابلانكا » لكن مع ذلك فإن هذا الحي يكاد يكون الوحيد الذي يتخذ هذا الإسم ذا الرنين الامريكي الصرف. فالأحياء الاخرى الراقية، منها والبائسة تتخذ اسماء محلية: انفا، الحي المحمدي، المعاريف، عين الشق، عين الذئاب الخ...

أسأل « محمد » لماذا سمي هذا الحيّ الذي تغمره اضواء الشوارع المائلة للصفرة وتضفي عليه أشجار النخيل طابعا « كاليفورنيا »، حقا، بهذا الاسم؟

فيقول إنه لا يعرف. لكنه يعرف ان أجرة البيت الواحد من هذه البيوت الفاخرة في حدود ثلاثة الاف دولار شهرياً!

فأسأله: أي نوع من الناس هؤلاء الذين يدفعون ثلاثة الاف دولار شهرياً للكراء فقط؟

فيقول: يمكن ان يكونوا مغاربة، أثرياء او اجانب من العاملين في المصالح التجارية الاجنبية.

الدار البيضاء ليست داراً واحدة وليست بيضاء دائماً. ولم تنشأ لتكون كذلك. فالمدينة الحديثة العملاقة التي نعرفها اليوم ولدت وشبت من خلال التنافس الاوروبي عليها كميناء وسوق ومدخل إلى «القارة» المغربية التي كانت تنوء تحت ثقل العصور الوسطى، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر الذي شهد استيطاناً أوروبيا مضطردا ما لبث ان أدى الى احتلالها من قبل الفرنسيين عام ١٩٠٧ لتكون مدخلاً لوضع المغرب كله تحت «الحماية» الفرنسية بمقتضى «معاهدة فاس» عام ١٩١٢...

ولكن لذلك قصة اخرى سنعود الى أبرز عناصرها ومفاصلها في ثنايا هذه الرحلة كلما تطلب الأمر الإستنجاد بالتاريخ لفهم الواقع.

***

يوصلني «محمد» الى فندق «الكندرة» الذي سبق وان نزلت فيه لمّا زرت المغرب أول مرة في ربيع العام ١٩٩١. يومها استهجنا محمد عفيفي مطر وانا هذا الاسم فـ« الكندرة» (بضم الكاف) في دارجة بلاد الشام هي الحذاء، بينما في المغرب، وكما اخبرنا مضيفونا في اتحاد الكتاب، هي اسم نوع من الازهار! في تلك الزيارة، التقيت في الفندق نفسه لأول مرة الشاعر المصري محمد عفيفي مطر الذي كان مدعواً مثلي للمشاركة في مهرجان «ربيع فاس الشعري» وكانت تلك أول سفرة له الى الخارج بعد ان اطلقت السلطات المصرية سراحه.

فمطر هو الشاعر العربي الوحيد الذي اعتقل على خلفية موقفه من حرب تدمير

العراق في شتاء ذلك العام. أراني مطر النُدب التي تركها التعذيب الذي تعرض له في الاعتقال على جسده. أتذكر اننا ساهمنا عندما سمعنا نبأ اعتقاله في لندن بحملة لإطلاق سراحه قامت بها مجلة «الناقد» التي كان يرأس تحريرها رياض نجيب الريس وقام بالإتصال بالكتاب والمثقفين العرب الذين شاركوا في هذا العدد الخاص وتحريره الشاعر السوري نوري الجراح.

كانت أصداء عدد «الناقد» الخاص بعفيفي مطر كبيرة إلى حد أنها أسهمت في التعجيل بإطلاق سراحه.

كان عفيفي مطر هو الذي نبهني الى المفارقة التي تنطوي عليها لفظة «الكندرة» بين دارجتين عربيتين تتقاطعان على أرض الفصحى حيناً وتفترقان احيانا. فالدارجة المغربية التي عَسُرَ عليَّ تتبع إيقاعها المسَّكن الحروف، المدغوم، أول الأمر، مطعمة بكثير من مفردات اللسان الامازيغي السابقة على العربية والفرنسية القادمة في ركب «الحماية» ولكن الباقية، بقوة، في لغة العمل والديوان الحكومي و«الثقافة الرفيعة» بعد ٤٢ عاما من الاستقلال. لكن «الكندرة» التي سمعها عفيفي مطر بالعراق (بالقاف بدل الكاف) هي لفظة تركية، على الأغلب، اما كندرة الفندق فهي أمازيغية كما فهمنا وليست بضم الكاف بل بفتحها.

***

وبعد سبع سنوات على تلك الزيارة يبدو الفندق وقد اصابه مس من الرثاثة فنزل به درجة أو درجتين في سلم الخدمات والتعامل والتجهيزات رغم اصرار اصحابه على ابقاء نجومه الاربع لامعة كما كانت عليه. لكن ما كان يلمع في الفندق، حقا، ليس نجوم لوحته النحاس، بل غيده وحسانه اللواتي لم افهم، للوهلة الاولى، سبب كثرتهن في «لوبي» الفندق ومناطق ظلاله ولا ما يبدين عليه من تأهب. فهذا مظهر لم أره في زيارتي الاولى التي تناهبتني خلالها فجاءة اللقاء الاول بالمغرب:

اضــواؤه، اصـواتـه، روائحـه، او لـعل هذه المظاهر التـي لا تخطئــهـا العين، لم تـكن موجودة في تلك الآونة العصبية، التي تضاءل فيها «الوجود الخليجي»، المغذي لها الى ادنى حد بسبب اندفاعة الشارع المغربي في اتجاه مؤازرة العراق.

عرفت من «محمد»، الذي اطمأن عليّ بعد ان تسلمت مفتاح غرفتي لينصرف الى شؤونه، ان الكاتب المصري الصديق سعيد الكفراوي قد وصل قبلي إلى الفندق في اليوم نفسه الذي وصلت فيه.

والكفراوي الذي يصعب أن ينجو من اريحيته مثقف عربي يزور القاهرة سبق وان التقيت به في الدار البيضاء نفسها، وذلك أثناء انعقاد مؤتمر اتحاد الأدباء العرب. وكانت تلك زيارتي الثانية إلى المغرب، وثاني مرة، كذلك، أحضر فيها مؤتمراً لهذا الاتحاد بعد تعرفي، وانشدادي، إلى صوت المغرب المفاجىء الذي مثله محمد برادة في مؤتمر دمشق المشار إليه في مستهل هذه الرحلة.

صعدت إلى غرفتي وعلقت ثيابي القليلة في الخزانة. كانت الغرفة التي يغلب عليها اللون الاخضر واسعة وتطل على مبان يختلط فيها، علي ما يبدو، السكن بالمصلحة التجارية، فموقع الفندق اختير، كما هو واضح، ليكون قريباً من الوسط التجاري فهو وان لم يكن بعيداً عن البحر الاّ انه لا يطلٌّ عليه، كما كانت عليه الحال عندما نزلت في فندق «رياض السلام» الذي استضيف به المشاركون في مؤتمر اتحاد الأدباء العرب حيث كان صوت البحر يهدهد نوم المثقفين العرب الذين لا يحلم معظمهم، لرقة حالهم، بنومة كهذه لولا المؤتمرات العربية التي يوسعونها ذما... والتي تستحق، فعلاً، ذلك! ورغم أني نادراً ما أبقى في غرفة الفندق الذي أنزل فيه لغير النوم فان مجاورة الفندق لأحياء سكنية، وخصوصاً تجارية، تثير فيّ الضيق. فليس هناك أسوأ من الاقامة في فندق محاط بمبان او ورشات عمل او يقع على شارع رئيسي من شوارع العواصم العربية التي تصدح فيها ابواق السيارات لمناسبة أو غير مناسبة.

فالفندق، حتى وان كنت في رحلة عمل، له طابع الإجازة. يكسر سياقك

اليومي ويخرج بك من مواضعاته. ينشيء ايقاعاً انت، الى حد كبير، سيده. فهو يمنحك الإحساس بالاختيار لا بل بالجبر. الصمت شريكك الوحيد فيه. الصمت والسيطرة على الحيِّز وامتلاك الأعضاء. ففي غرفة الفندق تستطيع ان تصغي الى أصوات نفسك. تستطيع أن تكون عارياً. ان ترى، ربما لأول مرة، جسدك غير محجوب بالعائلة. (أتحدث عن المتزوج او الذي يعيش مع ذويه). كما تمنحك غرفة الفندق مساحة واسعة للتوقعات، خصوصا تلك التي يمكن ان تأتي من صوب ذلك العالم العجيب الذي يصعب توقعه: المرأة.

موقع الفندق مهم لجهة الاختلاف والابتعاد عن اليومي والمألوف. لذلك غرفة الفندق مهمة رُغم ان النزلاء قليلا ما يمكثون فيها.

ريموت كونترول بيد الكفراوي

كانت الساعة التاسعة ليلاً. لم اكن تعباً، فالرحلة من لندن الى الدار البيضاء لا تتجاوز ثلاث ساعات. انها لم تستغرق اكثر مما يستغرقه انتقالان او ثلاثة انتقالات يمكن ان يقوم بها المرء داخل لندن. غادرت الغرفة الى بهو الفندق فلم اجد احدا من المدعوين الى معرض الكتاب. كان هناك صوت مغن رديء يردد اغاني عربية من تلك التي تقصف بها الفضائيات المشاهد العربي من دون رحمة. وجوه وكؤوس وسجائر مدخّنة وضحكات في الركن الأيمن من البهو حيث تنخفض الاضواء لتصنع جوا خاصا بالسهر. ظننت ان هناك حفلة خاصة، ولكنها لم تكن. كان هناك «صيادون» بكروش تتدلى امامهم و«طرائد» في وضعية مثالية لهذا الطراز من الصيد الكسول. إنه «الصيد» المتواطأ عليه. الصيد التعاقدي.

سألت في الإستقبال عن سعيد الكفراوي فقيل لي انه في غرفته. هاتفته من البهو ففوجيء بوجودي في المدينة بل وفي الفندق نفسه. دعاني الى العشاء معه في غرفته فرحبت بالفكرة.

ليس ضروريا ان تكون صديقا للكفراوي حتى تحبه، يكفي ان تراه مرة واحدة، لتصبح صديقه. فهو متحدث، بل قل حكاءٌ ساحر. وريث تقاليد الحكي الريفية المصرية العريقة التي انجبت خيرة كتاب القصة والرواية، في العالم العربي. ويضاعف من جاذبية الكفراوي تلك المسحة من الطيبة التي تعلو وجهه وتفتح له قلوب الاخرين، وان كان بعض «أصدقائه اللدودين» يقول ان ذلك ليس سوى «مَكْرٍ فلاّحي» متقنعٍ بالطيبة والغُلب. انا لا اصدق ذلك ولا يهمني حتى وان كان صحيحا. فنحن نلتقي في اماكن وأوقات متباعدة وحسبي أنه كلما التقينا كانت الحميمية هي طابع اللقاء.

والكفراوي فضلاً عن ذلك قاص جيد، قدّم صورة لعالم القرية المصرية، تنوس بين الواقعي والاسطوري، بين إرادة الانسان والأقدار المكتوبة. ففلتات الحياة وطقوس الموت ومصائر البشر المقدّرة والعلاقة التي تتجاوز النفعية مع الحيوان هي «تيمات» متكررة في قصصه.

كانت غرفة الكفراوي في الطابق نفسه الذي فيه غرفتي. استقبلني بجلابيته المصرية، وبيده جهاز «الريموت كونترول» الذي كان يغير من خلاله، مندهشاً قنوات التلفزيون العديدة، فليس في بيته بالقاهرة «دش» ليرى هذه القنوات ولا يحتاج كما اخبرني واحداً. «تكفينا مصائب القنوات المصرية» قال. وبصرف النظر عن تشبع المصريين بأنفسهم وبتمركزهم الشديد حول ذاتهم (الكبيرة) فالتلفزيونات العربية، على الأقل، لا تقدم لهم الاّ بضاعتهم مردودة إليهم.

هذه هي المرة الثالثة التي أزور فيها الدار البيضاء (٥ ـ ٧ ملايين نسمة) ثاني أكبر المدن الإفريقية بعد القاهرة.

فمرة كانت نقطة عبور واستراحة في الطريق إلى فاس ومرتين اثنتين كانت مقصودة لذاتها.

وفي كل مرة اكتشف ان المدينة أكبر مما ظننتُ. فلا يكفي ان نعرّفها بأنها

العاصمة الإقتصادية للمغرب لأن فيها من النشاطات الثقافية والفنية أكثر مما في سائر المدن المغربية بما في ذلك العاصمة. ولا يكفي أن نقول أنها منصة الحداثة في المغرب ومنطلقها لأنها، في الوقت نفسه، متداخلة مع أنماط عيش وسلوك بدوية وريفية، ولا يكفي أن نقول انها المدينة التي حظيت بعناية وتخطيط أوروبيين لأنها تضم، أيضاً، أحياء عشوائية ومناطق مرتجلة لا مثيل لها إلاّ في المدن المنفلتة من عقال التخطيط.

كما لا يمكنك أن ترى المدينة عندما تكون في الجهة الجنوبية الغربية لأن الغنى والرقي في الحياة والعمران سيحجبان عنك حقيقة الفقر والرثاثة التي هي عليها أحياء الصوب الشمالي الشرقي.

أما من الجو فتبدو المدينة عبارة عن إنفلاش مساحات من المربعات والمثلثات والمستطيلات البيض المصطفة والمتداخلة تقطعها خطوط سود منظمة حيناً وغير منظمة في معظم الأحيان. ثم يأتي البحر أزرق واسعاً لا نهائياً.

إذن ما هي «الدار البيضاء»؟

إنها جماع ذلك كله وأكثر أيضاً.

فالمدينة أكبر وأكثر تعقيداً من خطي الإنقسام الكبيرين اللذين وضعهما الأوروبيون أصلاً لنشأتها وحاولوا من خلالهما أن يقيما مدينتين: واحدة أوروبية تمسك بزمام السياسة والاقتصاد والاجتماع وأخرى مغربية تقدم قوتها العضلية في خدمة مصالح الأولى لقاء عيش بائس. وبين هذين العالمين المتباعدين نشأت أحياء وخطَطٌ وسطى تقترب بخجل مرة من العالم الأول وتلتصق معظم الأحيان بالعالم الثاني وإن كانت أرفع منه تعليماً وثقافة.

فهل هذا وضع يخص «الدار البيضاء» وحدها من دون سائر المدن العربية؟

كلا، بالتأكيد، فهناك أوجه شبه ببنها وبين بعض المدن العالمثالثية التي نشأت في العصر الكولونيالي مثل جوهانسبرغ أو عربياً مثل القاهرة الحديثة، لكن الأخيرة شهدت في مرحلة من مراحل تطورها نظاما سياسيا (الناصرية) حاول ان يعترض

على « أقدار » التباين الطبقي فقام بجملة من الاجراءات التي خلخلت بنية القاهرة الإقتصادية والاجتماعية الموروثة من عهد الانتداب البريطاني والحكم الملكي بينما ظلت « الدار البيضاء » تواصل، على ما يبدو، تقاليد التباين والإنقسام والإقصاء التي جاءت في ركاب نظام « الحماية » الفرنسي مع تغييرات وتحويرات جزئية شهدتها مرحلة الإستقلال الوطني.

ويبدو من الصعب، على كل حال، فهم وضع المدينة من دون الوقوف على نشأتها والظروف التي أحاطت بها. فالمدينة، الآن، حسب بعض دارسيها، هي ابنة شرعية لنشأتها الاولى. إبنة « المبادرة الأوروبية »، الفظة ومحاولات التصدي المغربي لفظاظتها وهيلمانها التي وإن كانت نجحت، مع جملة جهود أخرى، في تسريع انكفاء المستعمرين عن البلاد كلها الاّ انها لم تنجح في زحزحة الأثقال التي ورثتها من تلك المرحلة وأبقاها الإستقلال على ما كانت عليه. فظل القديم، إلى حد كبير، على قدَمه.

يعطي اسم « كازابلانكا » الأوروبي المخلوع على هذه المدينة المغربية انطباعاً بحداثة نشأتها وصلتها بالغرب الذي جعل يتدخل في العالم العربي منذ حوالي قرنين. ولهذا الانطباع وجاهته ولكنه ليس وجيهاً تماماً، خصوصاً وأن العلاقة المغربية بجنوب القارة الاوروبية، غزواً وغزواً مضاداً، ترجع إلى فترة أبكر بكثير من تلك التي أطلت فيها القوى الأوروبية على مسرح المشرق العربي.

فللمدينة، حسب معظم المصادر التاريخية المغربية، أكثر من ولادة واحدة. فالبعض يرجع جذورها إلى عصر الفينيقيين الذين أقاموا، على ما يبدو، بضع مدن وثغور بحرية على ساحلي المتوسط والأطلسي، وهناك من يقول ان جذورها تعود إلى العصر الروماني الذي بدأت شمسه بالأفول مع وصول عقبة بن نافع الى الأرض المغربية ووقفته الأسطورية أمام شساعة وغموض بحر الظلمات.

وهناك من يرى ان نشأتها المغربية (البربرية) هي الأرجح، بوصول قبيلة « زناتة » اليها واتخاذها سكنا، لكن أسم « أنفا » الذي ظلت تعرفُ به حتى القرن الثامن

عشر عندما سميت باسم « الدار البيضاء » في عهد سيدي محمد بن عبد الله أحد سلاطين الدولة العلوية الذي أمر بإعادة بناء أسوار المدينة المهدمة وتحصينها في وجه مخاطر الغزو العسكري المتمثلة، خصوصاً، بالبرتغال وأسبانيا، يشير بحسب اكثر من رواية تاريخية احداها رواية القاضي المغربي هاشم المعروفي الذي وضع كتابا تقصى فيه تاريخ هذه المدينة الى اصلها الفنيقي .

وبحسب رواية المعروفي، المنقولة هي الاخرى عن روايات مؤرخين وإخباريين عرب واجانب ابرزهم المؤرخ والرحالة مارمول الذي وصف المدينة في الجزء الثاني من « كتاب افريقيا » بالقول انها من جملة المدن الفينيقية التي بناها « حنون » وفق ديوان قرطاجنة وهي واقعة في احسن موقع في افريقيا يحيط بها البحر من جهة وسهول خصبة من جهة اخرى.

ويبدو ان « حنون »، الربان والقائد البحري الفينيقي، وجد موقع المدينة (المغربية) شبيها بموقع ميناء لبناني يدعى « انفا » فشيد موقعا فيه اسماه « انفا » تيمنا بشبيهه اللبناني الذي يقع بالقرب من مدينة طرابلس. ويلاحظ، على كل حال، ان الفينيقيين مثل غيرهم من الشعوب الغازية والمهاجرة سموا كثيرا من المواقع الجديدة التي حلوا فيها بأسماء مدن او مواقع في بلادهم الاصل.

وبصرف النظر عن صحة هذه الرواية او عدمها فان العرب لما غزوا المغرب وجدوا هذه المدينة تدعى « أنفا » . وستصبح مطرحاً لامارة أمازيغية زناتية تسمى « برغواطة » أقامت حكمها في المنطقة التي كانت تدعى « تامسنا »، وهي البسائط الممتدة بين « وادي ام الربيع » و« ووادي سبو »، في أوائل القرن الثاني الهجري وكانت « أنفا » البلدة المغمورة، يومذاك، أحد أعمالها .

ويبدو إن الإسلام الذي لم تتشبت أركانه في المغرب إلاّ مع إطلالة الدولة الادريسية على المسرح السياسي في المغرب الأقصى كان لا يزال ضعيف الجذور، أو على الأقل، عرضة للدعاوى المذهبية الرائجة يومذاك في العالم الإسلامي رواجاً عظيما .

فثمة رواية تفيد أن هذه الإمارة الأمازيغية ارتدت عن الاسلام وأسست لنفسها ديانة خاصة، وثمة من يقول انها لم ترتد عن الإسلام بل كانت خوارجية المذهب وتمكنت من البقاء نحو أربعة قرون إلى أن قضى عليها «الموحدون» نهائياً.

ورُغم أن «الموحدين» أمازيغيون فإنهم استقدموا موجة كبيرة من عرب «بني هلال» وأسكنوهم في تلك المنطقة بعد أن قضوا على الإمارة البرغواطية، ليغيروا، كما يظهر، من الطبيعة الديموغرافية للمنطقة التي صارت تعرف مذ ذاك بـ «الشاوية».

لكن «أنفا» التي لن تعرف باسم «الدار البيضاء» إلاّ في القرن الثامن عشر كانت قد اكتسبت أهمية تجارية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر من خلال الإتجار مع الإسبان وتحّول الطريق الرابط بين مراكش وفاس من الداخل نحو الساحل بسبب انعدام الأمن في ظل انحطاط مشهود للسلطة المركزية في عموم البلاد.

وسيكون موقع الدار البيضاء ووضعها كميناء على المحيط الأطلسي وضآلة، ان لم يكن إنعدام ثقلها التاريخي، من الأسباب التي ستدفع الاوروبيين للتنافس على الاستيطان واقامة مشاريع اقتصادية فيها، هذا التنافس الذي سيحسم، نهائياً، لصالح فرنسا عام ١٩٠٧ عندما ستستغل هبّة قبائل «الشاوية» ضد تشييد ميناء «الدار البيضاء» الحديث كي تحتل المدينة.

ويرى مصطفى شويكي الباحث المغربي في دراسة نشرتها له جامعة الحسن الثاني (عين الشق) ان النشأة الحديثة للدار البيضاء كمركز اقتصادي وكمجال حضري متميز والتي تدخل في إطار السياسة الإستعمارية الرامية الى تحويل مركز الثقل في المغرب من الداخل نحو الساحل والذي يجسده أيضا نقل العاصمة من فاس إلى الرباط، تدخل أيضاً في إطار استراتيجية الفصل بين الوظائف السياسية والاقتصادية. فالتجارة للدار البيضاء والإمارة للرباط، ولتبقى العراقة والقداسة واثقال التاريخ تخيم على فاس ومراكش.

اوروبيون ومغاربة

ومنذ الأيام الأولى لوجود الأوروبيين في «الدار البيضاء» برز التمايز الهائل بينهم وبين المغاربة فظهرت مع تزايد مشاريعهم الاقتصادية، الصناعية خصوصا، «أحياء الصفيح» التي كانت مشاريع إيواء مؤقتة لعمال بعض المصالح الصناعية، وانتهت كأحياء ضخمة يثار لغط حول لا شرعيتها قانوناً ولا انسانية شروطها، ولكنها استمرت تنمو حتى صارت تطوّق المدينة من أكثر من جانب.

هكذا جعل «التمدين» القادم مع الوجود الأوروبي، الذي اكتسب وضعه «القانوني» مع إقرار نظام «الحماية» بين فرنسا والمغرب، يقوم على التمييز بين المغاربة والأوروبيين. وتتجلى أهداف ذلك على المستوى العمراني في محاصرة التعمير المغربي من أجل فتح المجال لتطور نظيره الغربي ذي الطابع الرأسمالي، ويهدف على المستوى الإجتماعي إلى «تدمير المجتمع الأهلي ثم قبول اعضائه فرداً فرداً في المدينة الجديدة المشيدة من طرف ولصالح الأجانب»!

ستكون الأحياء الراقية مدروسة الموقع والمرافق للأوروبيين والأحياء التي ستتخللها مشاريع الإسكان حيناً والبناء العشوائي وأكواخ الصفيح حيناً آخر، ضئيلة المرافق، ان لم يكن منعدمتها، للمغاربة.

وفي الأخيرة ليست الحال واحدة. فإلى التمييز العام الذي يقسم فضاءات المدينة وجمهرة سكانها إلى شطرين واحد أوروبي والثاني مغربي سيكون هناك تمييز اجتماعي بين المغاربة أنفسهم. فليس كل المغاربة سواء. ليس العامل القادم من المدن الداخلية، أو الريف أو البادية مثل الوجيه المحلي أو الموظف الحكومي أو التاجر الصغير. فلهؤلاء بيوت ومنزلة اجتماعية ومستوى معيشي وارتباط بشبكات اقتصادية وثقافية مختلفة عن العمال وصغار الكسبة الذين تدحرهم تمايزات المدينة التي تسهر على ضبطها قوانين وأعراف مرعية، إلى الهامش. وسيحوّل عهد الإستقلال التمابز القومي الى تمايز اجتماعي ترعاه الأعراف والتعاقدات المتواطأ عليها بين السلطة وفئات مصطفاة من المجتمع. ستتغير الحدود قليلاً. تنزاح هنا

وتتداخل هناك بحسب التوسع المضطرد للمصالح الصناعية والتجارية التي تستقطبها المدينة وما تتطلبه من كفاءات وقوة عمل ووقود لمحركاتها الكبيرة. لكن الفواصل الكبرى المادية والمعنوية التي تميّز بين ابن حي «أنفا» وابن حي «عين السبع» أو «المدينة القديمة» أو «الحي المحمدي» ستظل قائمة. وسأقف على هذه التمايزات في زياراتي الثلاث للدار البيضاء. ففي «أنفا» مثلاً، أنت أمام حي مخطط ومدروس على صعيدي المعمار والمرافق، تتخلله شوارع عريضة نظيفة تميزها أشجار النخيل المتواكب غرسها، على ما يبدو، مع بناء الحي نفسه. حي قليل السابلة تتواجد أمام ڤيلله أحدث انواع السيارات الغربية وفي بعض زواياه وأركانه هناك مقاه على الطراز الفرنسي. المصالح التجارية في هذا الحي محدودة وهي كما لاحظت مكاتب شركات أو بنوك او معاهد دراسة اجنبية. النظافة في حي مثل «أنفا» تضاهي أحياء لندن. ولولا السحنة المغربية للشباب والشابات الذين يعبرون الشوارع أو تجدهم في المقاهي لقلت أنك في لندن أو أي عاصمة أوروبية أخرى. فتسريحات الشعر وطراز الملابس والإكسسوارات التي يرتدونها تربطهم بنسق شبابي غربي يصطف فيه أبناء وبنات الموسرين العرب. فمظهر ألـCool بما يلحظه من إطالة للشعر وربطه على شكل ذيل حصان وارتداء الملابس الفضفاضة (Baggy) ووضع سماعات «الوك مان» أو «الديسك مان» في الأذنين والتمايل على أنغام «الهب هوب» او «الراب» أو «الكراج» إلى غير ذلك من تقليعات موسيقية تنظم شباب العالم في «عقيدة» موسيقية كونية تتجاوز الشرط الوطني والمحلي وتضرب عنه صفحا.

***

ان الهموم التي تطبع حي «أنفا» كحي ميسور، من مجرد الملاحظة السريعة لعابر مثلي، ليست هموماً تتعلق بالإحتياجات الأولى للإنسان من مأوى وعيش وتناسل بل تتخطى ذلك إلى اعتبار الـ«كماليات» حاجات مسلما بأمر وجودها.

وليس هذا شأن حي «عين السبع»، مثلا، الذي ينغل بالسابلة ذكوراً وإناثاً ومن كل الأعمار وتخترقه أنواع شتى من المواصلات التي تهدر بمحركات عجولة حينا تودّ أن تخترق الحيزّ المكتظ واخرى هادئة، مستكينة إلى الازدحام خصوصاً في فترة العصر. وعدد قليل من هذه السيارات أو الدراجات حديث، كأنه موجود صدفة أو خطأ في هذا المكان، بينما بقية ما «يتحرك» أو «يُدفع» هو قديم، متسخ، مهلهل كأنه على وشك التداعي من فرط الإستخدام. وتتشابه الآليات، بكل أنواعها، مع الرثاثة العامة التي تطبع المكان: الشوارع، الأرصفة، المباني التي تكاد تشغلها كلها أنواع عديدة من المصالح والأعمال، من المطاعم والبقاليات إلى الكراجات ومحال الأدوات الكهربائية والصيدليات والمقاهي الشعبية المكنظة برواد يبدو أنهم ليسوا على عجلة من أمرهم. حي له معنى هذه الكلمة. فالحياة، رُغم رثاثة أدواتها وما تستعين به على أمرها تفور في صدور الشباب الذين يتقازفون لتأدية غرض أو لطلب حاجة، وفي أعين الفتيات اللواتي يرتدي معظمهن الأزياء المغربية الملونة (ولا تستغرب ان رأيت بعضهن يقود دراجات نارية وهن مرتديات هذه الأزياء)، وفي الأطفال الذين لا تعرف لماذا يتواجدون في الشوارع رغم أن المدارس ليست في عطلة.

الحياة، هنا، تفور في الحّيز كلّه، تشغله حتى آخر سنتيمتر منه، لا شغور ولا فجوات. فالشغور ليس من ديدن أحياء كهذه في «الدار البيضاء» المدينة التي تسجل أعلى نسبة كثافة سكانية في المغرب.

ويقال إنه من فرط كثافة الساكنة في أحياء الدار البيضاء الشعبية، خصوصاً تلك القريبة من المناطق الصناعية، يتعاقب أهل البيت على النوم تباعاً.

فمنهم من ينام ليلاً ومنهم من ينام نهاراً.

فالعائلة المؤلفة من ثمانية أفراد وتسكن غرفة نوم أو غرفتي نوم، في أفضل الأحيان، لا يمكن لجميع أفرادها النوم في وقت واحد.

[. . أفكرّ بالسائق محمد الذي يقطن بيتاً مكوّناً من غرفتي نوم ولديه ستة أطفال بالإضافة الى زوجته وشخصه]، بل سمعت أيضا ان بعض البيوت المعدّة للسكن لا يؤجرها اصحابها فحسب بالغرفة الواحدة كما هو الاتجاه السائد في الأحياء الشعبية بل بالسرير أحياناً. فكثير من العمال القادمين إلى وعود الحياة الأفضل في المدينة التي تستقطب أكثر من ثلثي النشاط الصناعي والتجاري في المغرب ينتهي بهم الأمر في أسرّة تعاقب عليها قبلهم كثيرون.

يقال إن أي امرئ يمكن أن يجد عملاً في الدار البيضاء ولكن ليس بالضرورة ان يجد سكناً.

هكذا ترى الناس، في أحياء كهذه، في الشوارع في أوقات مختلفة من النهار. فمعظم الذين يأتون إلى المدينة من الأرياف والبوادي يعلقون بشباكها ولا يجدون مفراً. المفر الوحيد، لمن يستطيع ذلك، هو عبور المياه التي عبرها سلفهم طارق بن زياد إلى البرِّ الآخر، ولكن ليس غزواً هذه المرة بل بحثاً عن رزق.

الى المدينة القديمة

بعد ثلاثة أيام من وصولي إلى « الدار البيضاء » مرَّ بي في الفندق الصحافي المغربي الزميل الطاهر الطويل الذي يعمل محرراً ثقافيا في صحيفة « الميثاق » لسان حال حزب « التجمع الوطني للأحرار » الذي يرأسه أحمد عصمان أحد الرجالات المقربين من القصر.

كنت أتحدث مع الكاتب المصري سعيد الكفراوي في بهو الفندق عندما وصل الطويل. فقررنا بدل البقاء في الفندق الخاوي على عروشه بعد أن هجرته « كائنات » الليل إلى جحورها أن نذهب إلى « المدينة القديمة ».

انطلقنا من الفندق سالكين شارع « مولاي يوسف » في اتجاه البحر (المحيط) الذي تحجبه عن الفندق سلسلة من البنايات والشوارع العرضية.

كانت الشمس ساطعة بلا تردد. غامرة على نحو يتغلغل الموجودات كلها، تبسط شريعتها على الأحياء والجمادات فتتآخى تحت هذا الفيض العادل. ليست هذه شمس الدوار ولا الغضب، إنها شمس الرضا والخفّة. شمس الشتاء المغربي الرحيمة.

كانت الحركة في الشارع الرئيسي قليلة في هذا الصباح الشفاف ولكنها بدأت تكثر بعد أن اقتربنا من منطقة «المعارض» التي يلوح من ورائها مسجد الحسن الثاني في عزلة مهيبة، نائية ومعتصمة بغموض مفتوح على المطلق، كأنه صورة من عالم آخر لا يمت إلى هذه المدينة الضاجة بكبير صلة.

لا أدري كيف دخلنا فجأة أزقة ذكرتني بمثيل لها في أحياء دمشق القديمة. أغلب الظن إنني سهوت تحت غمر الخفّة التي اصابتني منذ خرجنا من الفندق. فلم أشعر إلاّ وأنا في «المدينة القديمة».

كل المدن العربية القديمة تتشابه، ليس لجهة طرز البناء ولكن لتساند البيوت بعضها إلى بعض وتناسجها في لحمة واحدة، ومع ذلك فكل بيت يعتصم بخصوصيته وينحجب عن انظار السابلة.

فلا ترى وأنت تمرّ شيئاً من دواخله التي تخفيها الجدران العالية. ويظلّ التلصص واستراق النظر إلى ما تمور به البيوت من حيوات (وحرمات) ملكاً للسطح، متنفس البيت ومنصته إلى فضاء الله الواسع. هذه حال بيوت «المدينة القديمة» التي كانت معقل الحياة المغربية في مدينة أرادها الأوروبيون امتدادا لمدينتهم في كل شيء: المعمار، الإجتماع، القيم. فالحميمية في المعمار، والصلة العضوية بين بيت وآخر تتواشج مع عضوية الإجتماع الذي يطبع حياة «الدرب» مقابل التشظي والفردية التي تعيشها الأحياء «الحدينة» التي تجمع ساكنتها على أسس المستوى الاجتماعي أو المهني. ولكن ليس كل معمار «المدينة القديمة» مغربيا بل هو خليط مهجّن بين الإسباني والإيطالي غير انه «مُمغرب» فلا تشعر بهجنته او نفوره.

ويبدو، على كل حال، ان كلمة « درب » التي يستخدمها المغاربة في وصف أحياء « الدار البيضاء » أو غيرها من المدن المغربية، تماثل كلمة « حارة » في الشرق العربي.

وها هو عدد من احياء « كازا » كما يلفظها بعض المغاربة، اختصارا أو « البيضاء » في اختصار آخر أقل شيوعا، يحمل اسم « الدرب » مثل: درب غلف، درب السلطان، درب عمر، في محاولة، على ما يبدو، لتواصل طرز من حياة اجتماعية كانت سائدة في « المدينة القديمة » أو في المدن المغربية الداخلية التي كانت تقوم نواتها، مثل معظم المدن العربية القديمة، على الاحياء، الحارات (الدروب) التي ينتسب اليها المرء ويحمل اسمها، ربما، اكثر من نسبه العائلي. فليست القرابة في « الحي » (الحارة) هي الدم والنسب بل الجيرة. وكثيرا ما يعتد أناس « الحارة » العربية بعلاقات الجيرة وقوتها ويقدمونها، احيانا، على علاقات الدم. فأحد امثالنا الشعبية في الاردن يقول « جارك القريب ولا ابن عمك البعيد ». ولكن مع ذلك فالفوارق كبيرة بين « الدروب » الحديثة التي لم ترسخ لها ذاكرة جماعية بعد وبين « دروب » المدينة القديمة التي لا تزال تواصل اشكالا من الحميمية والتكافل الاجتماعيين انقرضت في احياء المدينة الحديثة.

يكفي هذا التلاصق الشديد بين البيوت لتكون الحميمية بين الأهلين عضوية. نابعة من علاقات الاشتراك في الحيز نفسه، بفضاءاته ومرافقه ومصائره. ومن قوة العادات والتقاليد والأعراف التي تتغير ببطء اشد من احياء المدن الحديثة. فقد لاحظت ان مرتدي الازياء التقليدية من الرجال والنساء هم، هنا، اكثر منهم في الاحياء الاخرى المجاورة للمدينة القديمة. فعلى الجهة الاخرى حيث يقع فندق « حياة ريجنسي » ستكون امام مدينة اخرى. المدينة الحديثة كما تصورها المخطط الاوروبي للدار البيضاء بمعمارها وناسها، وربما، بانماط العيش والتعامل اليومي والنظرة الى العالم.

هذا لا يعني ان « المدينة القديمة » تعيش في عالم حكر عليها. تغلق على نفسها

ابوابها الكبيرة وتنام وراء ما تبقى من اسوارها. فـ«الحداثة» اخترقتها كما اخترقت اشد الامكنة اعتصاما بالخصوصية في العالم. ففي أزقتها الضيقة تجد الدراجات الهوائية والنارية. (وهذه الأخيرة من القدم والغرابة بحيث لم أر مثلها في أي مكان آخر زرته)، ترنّ بأجراسها او تئزّ بمحركاتها، وترى هوائيات التلفزيون، بل وصحون التقاط البث الفضائي، تتوج الأسطح وتتعرش على الجدران فتقيم من دون استئذان، صلة مع العالم القريب والبعيد، المتحدث بالعربية باللهجات المشرقية والراطن باللغات الأوروبية التي يتقن المغاربة بعضها، خصوصا، الفرنسية. لكن رغم اختراق «الحداثة» للمدينة القديمة إلا ان تكوينها المعماري وعمقها التاريخي وما يمكن أن أسميه روحها الخفية تفرض على ساكنتها طراز عيش اكثر مغربية. المعمار يفرض نسقه الاجتماعي والثقافي على قاطنيه او المتعاملين معه. هذه هي عضويته. بل قل شخصيته. فأنت لا تستطيع أن تجترىء على ما يُعتبر حرمة أو حداً. تشعر بأن ثمة من يرعى هذه الحرمة ومن يحرس هذا الحد. وليس بالضرورة، أن يكون ذلك هيئة أو شخصاً. فيمكن لك أن تخدع الهيئة وأن تراوغ الشخص ولكن، قط، لا يمكنك مراوغة روح المكان وشخصيته.

ليست «المدينة القديمة»، مع ذلك، مجرد مطرح سكن ومأوى فقط بل ومكان رزق وتجارة ايضا. ويسمى مجالها هذا بـ«السويقة». والاسم كما هو واضح، تصغير لكلمة «سوق» وتجده في جميع المدن المغربية القديمة. يقصد «السويقة» سكان الأحياء الاخرى للتبضع بالأدوات المنزلية او للتزود بالاغذية الطازجة والحبوب والتوابل. فهناك اجنحة خاصة باللحوم والاسماك واخرى بالخضر والفواكه، فضلا عن الحبوب والتوابل والتمور والحلويات المجففة التي تبدو في اكياسها وقففها المرصوصة جنبا الى جنب لوحة ذات ألوان حارة، ألوان آسيا وأفريقيا المشبعة بالضوء، بالاضافة الى الثياب والحقائب والاحذية والمصنوعات التقليدية المغربية والاشرطة الموسيقية التي تصدح بأغان من كل فج عميق: من العراقي كاظم الساهر واغاني «الراي» الجزائري الى غناء «الشيخات» و«الأجواق» المغربي مرورا بالعناء الامازيغي الذي لا يجد له منفذا حقيقيا الى الاذاعة والتلفزيون المغربيين فينتشر في

بيوت وسيارات ومحال الناطقين بالأمازيغية وهم كثرة كاثرة. وقد لفت نظري في «السويقة» اولئك النسوة والاطفال الذين يبيعون «الحلزون»، فلم اكن ادري ان المغاربة يأكلونه. فلا اظن ان هناك في المشرق العربي من يأكله.

القرابون . . . أو السقاؤون

والى بائعي الحلزون هناك بائعو الشاي الذين يشبهون نظراءهم المصريين الذين تجدهم قرب المرافق العامة والمناطق السياحية او على ضفة النيل. سوى ان المغاربة يشربون، عموما، الشاي الصيني الاخضر مع النعناع ويسمونه «أتاي»،أما الشاي «الأحمر» (او الاسود!) الذي يشربه المصريون وسائر المشارقة فليس شائعا. الشاي المغربي أصفر اللون، حلو المذاق، عابق برائحة النعناع الفاتنة، يشرب في كؤوس صغيرة، ملونة، غالباً، وله عادات وطقوس في السكب والشرب ليس السوق مجالها. فالشاي هنا للماشي والعابر وليس للمتذوق وصاحب المزاج.

كانت رائحة النعناع تنعش هواء «السويقة» وتستخفّه وليس ذلك بسبب أباريق الشاي الصفراء التي تغلي على المواقد الكازية ولكن بسبب حزم النعناع، بل اكوامه، التي تبيعها نسوة في كل ركن من السوق. فلم أر كمية من النعناع مشابهة لهذه في اي سوق خضر عربية اخرى.

[النعناع ياله من نبتة رضية.

يا لأخويتها.

ويالتغلغلها في نسيج ذاكرتي. فكلما رأيت نعناعا ردّني الى حوض النعناع في بيتنا الذي تتعهده امي برعاية لا توليها لنبتة اخرى. النعناع المتوج على الخضرة كلها. امير الصيف. عطر المساءات.] وفي السوق (وخارجه ايضا) يرى المرء السقائين (أو القرابين كما يدعوهم المغاربة نسبة إلى قربهم التي يحملون فيها الماء) الدين يرتدون ثيابا خاصة اشبه بالجلابيب ولكنها خشنة القماش يغلب عليها اللونان البرتقالي او الاحمر ويعتمرون قبعات غريبة الشكل كأنها القبعات

المكسيكية لكنها ليست من القش بل من خوص النخيل منسوجة بخيوط ملونة يسودها اللونان الاحمر والاصفر، وربما الاخضر ايضا، تتدلى منها شراشيب تنتهي بكبب صغيرة لعلها للزينة او لحجب ضوء الشمس. ويتمنطق السقاؤون بأحزمة جلدية تتدلى منها طاسات نحاسية صغيرة بالاضافة الى جرس نحاسي مربوط بسلسلة طويلة وعلى جانبهم الأيسر هناك قربة الماء المشعرة فيما الحقيبة الجلدية التي يضعون فيها النقود تكون على الجانب الايمن. ويزين هذه الحقيبة الجلدية عدد من قطع النقود القديمة.

ليس ماء السقائين من مصدر خاص. ولا يقبل عليه الأهلون والسياح لهذا السبب. فهو ماء صنبور عادي ولكنه مخلوط بما اسماه احد «السقائين» الذين تحدثت اليهم في باحة «المعارض» بـ«القطران»!

عندما رأيت السقائين، لاول مرة، ظننتهم بائعي شراب ما كالعرق سوس او التمر الهندي الذين تراهم في بلاد الشام خصوصا في فصل الصيف بطرابيشهم الحمر وسراويلهم السود الفضفاضة وصدرياتهم المطرزة بخيوط ذهبية يحملون «أباريق» نحاسية ضخمة على ظهورهم، ولم يخطر في بالي انهم يبيعون الماء حتى ولو كان معطرا. فالسقاؤون في مدن المشرق العربي انقرضوا منذ زمن بعيد بعد ان وصلت المياه الجارية الى جميع البيوت، كما انهم لم يكونوا يبيعون ماء للافراد والعابرين، كما هي عليه حال السقائين المغاربة، بل للبيوت والمحال.

ولكن بقاء السقائين المغاربة مرتبط، على الاغلب، بقوة التقليد في المغرب قياسا على ما هي عليه الحال في المشرق، فضلا عن تحوّلهم الى «ظاهرة فلكلورية» صالحة للسياحة التي تشهد ازدهارا مضطردا وتشكل مصدرا اساسيا من مصادر الدخل القومي.

كنا نمشي في «السويقة» لا على النعيين. مررنا بحي «الملاح» الذي كان خاصا باليهود قبيل هجرتهم الكثيفة من المغرب بعد قيام دولة اسرائيل. سألت زميلي الطاهر الطويل ان كان الحي لا يزال مأهولا بهم. فقال انه ربما تبقى منهم نفر قليل

ولكن «الملاح» لم يعد حيا يهوديا. على عكس «الملاح» في مراكش الذي ما زال يشهد وجودا لهم.

اليهود المغاربة هاجروا تحت اغراء وجاذبية قيام «دولتهم» اكثر مما هو تحت ضغط أو إكراه. لا تذكر المصادر المغربية المعنية بالموضوع ولا الاشخاص الذين عايشوا الفترة ان عسفا وقع عليهم او تعرضوا للايذاء في الارواح او الممتلكات كما حصل في بعض البلدان العربية اثر نكبة فلسطين. بدليل ان قسما منهم لا يزال يعيش في المغرب وقسما من الذين هاجروا، خصوصا الى اوروبا، يعودون الى المغرب بين فينة واخرى. وقيل، ان بعض الاسرائيليين المغاربة الاصل يفعلون الأمر نفسه.

ويبدو ان اليهود المغاربة في اسرائيل لا يزالون مغاربة على نحو أو آخر. فقد قرأت مقابلة نشرتها احدى الصحف البريطانية مع مردخاي وعنونو التقني النووي الاسرائيلي الذي كشف أسرارا عن البرنامج النووي الاسرائيلي لصحيفة «الصنداي تايمز» البريطانية قبل سنوات وقامت المخابرات الاسرائيلية باختطافه من ايطاليا [يقود خوان غويتسلو الكاتب الاسباني المقيم في مراكش حملة دولية لاطلاق سراحه ويقترح على اتحاد كتاب المغرب تبنيه كـ«عضو شرف» بصفته مراكشيا] ان والديه المراكشيين يتصرفان في اسرائيل كما لو انهما لم يغادرا المغرب. فالأكل والشرب والغناء والأزياء وفضاء المنزل كله مغربي.

يقول وعنونو ان مرور الزمن وتغير الاطار الديموغرافي بالكامل لم يغير مغربيتهما التي ظلت كما كانت عليه في مراكش.

ألا يؤكد هذا ما قاله لي الشاب الفلسطيني الذي التقيته في قبرص عن صور محمد الخامس المعلقة في بعض بيوت اليهود المغاربة المهاجرين الى اسرائيل؟

في ختام جولتنا في «المدينة القديمة» وسوقها تمهل سعيد الكفراوي امام محل احذية فانقض صبي مغربي يعمل في المحل على لحظة التردد هذه واخذ يعرض، بذرابة وخفّة ظل، بضاعته على الكفراوي. فقال له الاخير: أأشتري احذية مغربية

والقاهرة أم الجِزَم؟

فرد عليه الصبي، بسرعة بديهة وألمعية اهل السوق: لا. لا تقل ذلك. القاهرة أم العرب!

فانفجرنا ضحكا.

كنا نسلك «شارع أنفا» عائدين الى الفندق عندما انطلق صوت اذان الظهر من مسجد قريب (لعله مسجد الحسن الثاني). كان صوت المؤذن وطريقته في الاداء يفتقران الى الحد الادنى من الطلاوة والتنغيم المعهودين في الآذان المشرقي، واللتين لا تذكّران بميقات الصلاة فحسب، بل وتغريان بها. تأخذان بوجدانك اكثر مما تبلغانك امرا او تحثانك عليه. انني لا يمكن ان انسى الآذان الذي كان يرفعه الشيخ توفيق المنجد من المسجد الاموي ويأتينا عبر اثير الاذاعة السورية متموجا، رقراقا، هشا، ذا نبرة طفولية. أو آذان الشيخ مصطفى إسماعيل القوي، الحنون، المتهدج، الذي يكاد، من النجوى والتجلي وخشية الله، ان يشرف على البكاء. سمعت من الاذان والقرآن من مذياع بيتنا الكبير ذي البطارية الكبيرة والسلك المرفوع الى سطح البيت المربوط بعظمة في نهايته، اكثر مما سمعت من الغناء. كان بيتنا بيت مؤمنين مواظبين على اداء الشعائر بتشدد اكثر مما هو عليه المحيط رغم كون اهلي من اصول بدوية، ولا يُعهد عن البدو ميل الى الدين او تشدد فيه. كان بيتنا استثناء. لا ينقطع فيه ذكر الله. لذلك تختزن ذاكرتي اسماء مؤذنين ومقرئين وطرائق آذان وتلاوات قرآن مصرية وشامية ولكنني لم اعهد آذانا كهذا الآذان المغربي. آذان يقتصر على وظيفته الاولى: المناداة الى الصلاة بلا أي تلوين في الصوت او تنغيم فيه. بل حتى بصوت اخشى ان اقول انه مفزع، مداهم، ينزل على أذنيك كالقضاء. صوت خام. غير قابل للطرق أو التليين أو المساومة. صوت صلد. فبه من النذير أكثر مما فيه من التذكير.

سألت الزميل طاهر الطويل ما اذا كان خلو الاذان المغربي من المحسنات الصوتية له صلة بالمذهب المالكي الذي يتبعه معظم المغاربة، فقال إنه لا يظن ذلك. بل الأمر يتعلق، برأيه، بطريقة مغربية في رفع الاذان. فالتوانسة والجزائريون هم في معظمهم

مـالكيـون ولكنـهـم لا يرفـعـون الاذان ولا يتلون الـقـرآن بـالطريقـة التي هـي عليـه في المغرب.

واضاف الطويل يقـول: لقد شهـدت الفترة الأخيـرة محاولات من قبل بعض أئـمة المسـاجد لاقتفاء الـطريقة المشرقيـة في الاذان وتلاوة القرآن لكنهـا جوبهـت بـرد حازم من اعلى المراجع في البلاد.

فـقـد صـدرت تـعليـمـات تطلـب من المؤذنين وأئـمة المسـاجـد الالتـزام بـ« الطريـقـة المغربية» وعدم الحياد عنها.

ومع ادراكي، بل وتـفـهـمي، للحـسـاسـيـة التي بـدأت تظهـر عند بعـض المثـقـفين المغاربة تجاه المشرق بصفته اصلا ومرجعا ومركزا فان هذا لا يحول دون ان اجد الاذان المشـرقي اكـثـر صـفـاء وابعـد شـأوا في جـماليته وتجـاوزه حـدود الحـاجة والوظيـفـة من الاذان المغربي. ولا اظن ان الأمـر يتعلق بالاعتـيـاد والألفة ولا بالصـدور من « مرجـع »أو « مـركـز» بل من حـقـيـقـة تحـول الاذان في المشـرق، عـمـومـا، من مـجـرد نـداء إلى الصـلاة الى فن له قواعده واساطينه.

والحـديـث عن اشكاليـة، مـشـرق ـ مـغـرب و« المـركـز» و« المحـيط» الدائر مـنـذ بضـع سنين في المـغـرب على ألسـنـة كـتـاب ومـفـكـرين مـغـاربة سـيـكـون مـحـور حـديـثنا مع « ممثلين» لثـلاثة اجيـال من المثـقـفين المغـاربة احـدهـم هو الشـاعـر والاسـتـاذ الجـامـعي مـحـمـد بنيـس اكـثـر الأسـمـاء المغـربية شـهـرة في المشـرق العـربي والأعلى صـوتا في نقـد « المـركـز المشـرقي »، امـا الإثـنـان الاخـران فهـمـا الـشـاعـر حسن نجمي رئيس اتحاد كـتـاب المغرب وهشام فهمي احد الكتاب المغاربة الشباب الطالعين الى الكتابة الان.

تشظي المركز

كنا، سعـيـد الكفـراوي وأنا، على موعـد للعشاء مع مـحـمـد بنيس. جاء بنيـس في موعـده. شعر رأسـه ولحيتـه طاعن في البياض. ولكن رُغـم هـذا البياض فإن له سحنة

طفولية لم تُستدرج إلى شَرَك البياض الذي إليه، باكراً، استدرج شعره الأكرت. له عينان ذكيتان وماكرتان وراء نظارتيه الطبيتين وابتسامة مراوغة لا تلبث، إن صادفت هوى، أن تتحول إلى ضحك متفجر. إلى عربدة. يدخن بشيء من العصبية والنهم، ويتلفت حوله من حين إلى آخر. أنيق، بل أكثر أناقة من معظم المغاربة الذين قابلتهم. له ولع خاص بالقمصان والسترات.

ورغم كونه أستاذاً جامعياً فإنه على جانب من الصعلكة بل من الشبق للحياة، ما يفاجىء من لا يعرفه عن قرب. وقد خبرت فيه هذا في أكثر من ليلة سادرة على عواهنها، أحدثها عهداً تلك الليلة الصادحة بتفلتات «بنت الكرمة» وإشراقاتها في أعالي حي «البيازين» بغرناطة التي ضمت إلينا نحن الإثنين الكاتب التونسي حسونة المصباحي، وهو رجل «مزاج» وابن ليل من الطراز الأول.

ومع أن بنيس عقلاني ويملك قدرة فذة على التحليل والمحاججة سواء في كتاباته أم في حديثه فإن فيه شيئاً منُ التفكير التآمري. هناك، دائماً، حروب، غير واضحة لنا نحن الزوار العابرين، تدور حوله. لم نلتق مرة إلاّ واشتكى من حزبية الثقافة والمثقفين في المغرب وصعوبة أن يكون المثقف مستقلاً في وسط يتصنف فيه المرء على أساس البطاقة الحزبية. لكنه مع ذلك تمكّن، عبر كتاباته الشعرية والنقدية الغزيرة وعلاقاته مع المثقفين في المشرق، أن يكون أحد أشهر الأسماء المغربية في المشهد الثقافي العربي، الأمر الذي أعطاه نوعاً من «الحماية» أو السند في صراعاته على جبهة الثقافة المغربية.

لكن هذه الصلة الوطيدة بالمشرق والمثقفين المشارقة، خصوصا الشوام منهم، لم تمنعه من أن يكون أكثر المثقفين المغاربة انتقاداً لـ«المركزية المشرقية» التي عندما تنشغل او تفكر بالثقافة العربية فإنها تنشغل وتفكر بذاتها.

يتحسس بل، ينزعج، عندما يتحدث المثقفون المشارقة أو يعدون أسماء أدبية ولا يكون بينها مغربي.

هناك في المشرق العربي، على كل حال، رأي قوي يقول، منذ وقت، بتشظي

« المركز »، وهناك من يتطرف إلى حد القول بـ« موت المركز ». فشكوى بنيس، بهذا المعنى، لم تعد وجيهة تماماً. فالخلخلة التي طرأت على الحياة العربية في العشرين سنة الماضية والتصدعات التي أصابت المركز المشرقي تضعف من قدرة أطروحته على وصف الحال الراهنة.

لقد تغير مفهوم المركز وطبيعته بعدما شهدته « الهوامش » أو ما يسميه هو بـ« المحيط » [مستعيراً ذلك على الأغلب من نظرية سمير أمين الإقتصادية التي تقسم العالم الى مركز (غربي) ومحيط (عالمثالثي)] من نهوض على أكثر من صعيد، الى درجة أن هناك من يرى أن « الهوامش » ذات الإنتاج الحضاري الضعيف هي التي تسيطر، اليوم، بفعل ما تملكه من وزن مالي كبير، على العالم العربي وتقوده. ناهيك بالطبع عن التطور المخيف في وسائل الاتصال والطبع والنشر التي جعلت فكرة « المركز »، تقنياً وانتاجياً، تحتاج الى إعادة نظر. ولا أدري إن كان محمد بنيس ينسى، في خضم اندفاعته في مواجهة « المركز » المشرقي، أن المغرب، كدولة وكيان، يدير ظهره، تقريباً، للعالم العربي برمته وينفتح على الضفة الغربية من المتوسط وعلى الجانب الآخر من الأطلسي منذ وفاة محمد الخامس الذي تمكّن، في السنين القليلة التي حكم بها بُعيد الإستقلال، من توطيد علائق المغرب، السياسية خصوصاً، مع المشرق.

قد تكون تجربة الملك الحسن الثاني مع عبد الناصر والأنظمة القومية العربية، في الهلال الخصيب التي رغبت في التأثير على مجرى السياسة المغربية مؤلمة. قد يكون رأى في المشرق باباً للخطر على نظامه فأوصده. قد يكون السبب، ايضاً، إقصاء الحركة الوطنية المغربية التي خاضت حرب الإستقلال، عن الحكم وتشكيل ما أسماه الجابري بـ« القوة الثالثة » (وهم شخصيات ورموز اقطاعية وعشائرية لم تكن محسوبة على الحركة الوطنية ولم تتعامل مباشرة مع سلطة الإنتداب وان كان للأخيرة تأثير عليهم) وإسناد الحكم إليهم سبب آخر في ضعف التواصل بين الدولة المغربية والمشرق العربي على المستوى الرسمي. فالتاريخ يعلمنا أن الحركة الوطنية المغربية التي كان يقودها « حزب الإستقلال » بزعامة علال الفاسي والمهدي بن بركة

(... الاخير انشق مع يساريي « حزب الاستقلال » وكونوا عام ١٩٥٩ « الاتحاد الوطني للقوات الشعبية » الذي يعرف اليوم باسم « الإتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية » ويتزعمه رئيس الوزراء اليوسفي) كانت ترتبط بعلاقات وثيقة مع عبد الناصر وحركات التحرر الوطني في المشرق العربي وشمال افريقيا .

فلم يعهد عن الذين حلوا محلّ الحركة الوطنية في الحكومات، وخصوصاً في العلاقة مع القصر، أي توجهات عربية، بل ويذكر محمد عابد الجابري الذي قدم محاضرة ممتازة تطرقت الى هذا الموضوع في بيروت مؤخراً « ان الاستراتيجية الإستعمارية الفرنسية نجحت باستقطاب بعض الشخصيات التي لم تكن داخل الحركة الوطنية واحتفظت مع ذلك بنوع من الولاء للعرش فنصبتها على رأس هذه الصيغة الأخيرة من « القوة الثالثة » (....) وعلينا ان نذكر الآن المرحوم محمد رضا كديره (الذي) وضع نفسه في الطرف المقابل والمواجه للقوات التي تشكلت منها حركة التحرر الوطني في المغرب، فتزعم « القوة الثالثة » بعد إعادة تشكيلها في أواخر الخمسينات .

كان هذا الرجل معروفا لدى الخاص والعام بميوله الفرنسية وارتباطه الشديد بكل ما هو فرنسي، والإعراض عن كل ما هو عربي أو إسلامي أو تحرري وكان ذلك منه موقفاً صريحاً وعلنياً » .

وأظن ان الأمر لا يتعلق بكديره وحده الذي كان أحد المقربين من الملك الحسن الثاني (ولي العهد يومذاك)، وإنما بتوجه عام صبغ المغرب في السنوات التي أعقبت الإستقلال ونزلت فيه القوى التي لها صلة وتطلّع للعلاقة مع العالم العربي، تحت الأرض. وتسيّد في الأثناء المتفرنسون، والثقافة الفرنسية استطراداً على المشهد الثقافي في المغرب، ولم يلبثا أن انتجا ثقافة فرانكوفونية ومثقفين فرانكوفونيين لا يزالون الأقوى والأبعد تأثيراً في التربية والثقافة والإعلام وحركة الكتاب، باعتراف محمد بنيس نفسه .

***

قد تكون هذه اللمحة التاريخية ضرورية لإضاءة جانب لا يتطرق إليه الذين يحمّلون «المركز» المشرقي، وحده، عبء إقصاء المغرب من مداره. إن الثقافة المغربية (العربية) المعاصرة لم تتبلور وتشرع في التأثير داخل المغرب نفسه إلاّ في أواخر الستينات ولن يسمع صوتها في الجناح الشرقي من العالم العربي إلاّ في منتصف السبعينات. ويمكن ان أعزو جانباً من الفضل بإيصال صوت الثقافة المغربية إليّ، شخصيا، ولطائفة من مثقفي المشرق العربي لإتحاد كتاب المغرب الذي دشّن أول اتصال منتظم بين الساحتين الثقافيتين المغربية والعربية، وأسهم في بلورة الصورة المعاصرة للثقافة المغربية.

قبل ذلك كانت البنية الثقافية المغربية، في معظمها، تقليدية، تدور في فلك التراث. تنهل منه وتعيد انتاجه وتنوع عليه.

ولأن معرفتي بالحقل الشعري أفضل من غيرها فسأقتصر على التدليل به.

فأول شاعر مغربي وقفت على آثاره من الذين واكبوا حركة الشعر العربي المعاصر وتأثروا بها هو، على الأغلب، محمد الخمار الكنوني (١٩٤١ - ١٩٩١) الذي يستحق انتاجه أن ينعت بأنه شعر معاصر ينتمي الى صلب لحظة الإبداع العربية، حتى وان لم ينشر في المشرق أو يُعرف فيه. مع التأكيد على حقيقة انه تلقى شطراً من علومه في القاهرة في اوائل الستينات مع انفجار ثورات الكتابة الجديدة في الشعر والسرد على السواء.

ويبدو ان الكنوني، على إقلاله، كان له سهم في نقل القصيدة المغربية إلى أفق الشعر العربي الحديث حيث أسئلة الوجود والذات والعالم والتراث والمعاصرة تضطرم في بنية هذا الشعر التي لن تلبث أن تتصدع وتنشطر وتتعدد أشكالاً ومخاطبات لم يكن المغرب، على كل حال بعيداً عنها. فمع أواخر السبعينات ومجيء الثمانينات ستتوالى موجات القصيدة العربية الحديثة في المغرب في ما يمكن ان أسميه بـ«الإنفجار الشعري» الذي تطلع شظاياه أو تصل إلى المدن المغربية الداخلية: مراكش، أغادير وغيرهما.

ولكن إذا كان الكنوني هو أول حداثة القصيدة المغربية، فهي حداثة متأخرة دون شك عما كان يعرفه «المركز» من تعدد وتنوع واصطخاب في «الحداثات»: من «قصيدة التفعيلة» الى «قصيدة النثر» ومن «الواقعية الإشتراكية» الى «الشعر التموزي» ومن النزعات الوجودية والميتافيزيقية الى «شعر المقاومة الفلسطينية».

ومع ذلك أظن أن صيحة بنيس في وجه تعالي «المركز» كانت ضرورية. ليس لأن اللغة العربية تموت في المغرب، كما يدأب على القول كلما التقينا، بل لأن تلك الصيحة لفتت نظر كثيرين في المشرق إلى الحساسية التي أخذت تنشأ بين المثقفين المغاربة حيال الموقع الهامشي الذي يجدون أنفسهم فيه داخل الثقافة العربية المعاصرة التي ينتمون اليها بحماسة تفوق حماسة المشارقة. وقد اكون أحد الذين أفادوا من هذه الصيحة. فهي من دون شك أسهمت، بين عوامل أخرى، في انتباهتي لعدم الإكتراث أو التعالي الذي يطبع موقف «المركز» حيال «الأطراف». ربما لأنني إبن أحد هذه الأطراف (الأردن) وأقمت وعملت في أحد هذه المراكز (بيروت). ولكن بيروت التي عشت فيها كانت، ايضاً، مركزاً للهامش الثقافي العربي. فإلى رواد «الحداثة» الشعرية العربية الذين كانت تجمعهم بيروت يومذاك، فقد جمعت هذه المدينة المنذورة لأدوار كبرى، طائفة كبيرة من أبناء «الأطراف» وهامشيي «المراكز» المشرقية الاخرى الفارين من طغيان الأنظمة وقمع الثقافة السائدة الى هذه «الكومونة» المؤقتة. إلى جنة ارضية تصنعها الأحلام المجنحة والكلمات المعانقة.

إنها بيروت، تلك التي جعلتني أرى وأسمع أكثر مما لو كنت في القاهرة أو بغداد أو دمشق.

من بيروت، تلك، المرهفة السمع على العالم، سمعت صوت المغرب.

المطبخ المغربي والأندلسي

لا يبعد مطعم « رياض الزيتون » الذي دعانا اليه بنيس سوى عشر دقائق من فندقنا. فالشارع الذي يقع فيه المطعم وتحفُّ به أشجار النخيل الباسقة يتفرع من شارع « أنفا » أحد الشوارع الرئيسية في « الدار البيضاء » لكن ما ان دلفنا قوسه الخارجي حتى انتقلنا من « حداثة » المدينة ووجهها المتطلع الى مسايرة الجديد في العالم على كل صعيد إلى عراقة المدن المغربية القديمة: فاس، مراكش.

لم يكن هجسي بهاتين المدينتين ونحن ندخل « رياض الزيتون » بعيداً عن الصواب، وليس مصدر هذا الهاجس « كشفا » أو « رؤيا » بل زيارة قمت بها الى هاتين الحاضرتين (كل على حدة) منذ سنوات. زيارة تبدو الآن من فرط رهافتها وخفّتها كأنها مجرد حلم.

لا أقول لبنيس والكفراوي شيئاً. انه تداع خاص بي أثاره الزليّج والأقواس والأعمدة واللونان الأخضر والترابي اللذان يغلبان على المكان.

بنيس هو الذي سيقول إن المطعم مراكشي لكن مطبخه فاسي!

وسيضيف ان صاحبه رجل ذواقة يحبُّ الفن والفنانين، وهو صديق للمسرحي المغربي المعروف الطيب الصديقي.

أراد بنيس ان يعرفنا على صاحب « رياض الزيتون » لكنه لم يكن موجوداً. كنا تقريباً، الرواد الوحيدين. فيبدو اننا حضرنا مبكرين أكثر من اللازم. فبعد ساعة أو اكثر بدأت الحركة تدب في المطعم الذي ينقسم الى طابقَيْن، كان مجلسنا في طابقه العلوي.

لاحظت خلال زيارتي السابقة لفاس أن هناك صلة قوية بين المطبخ الفاسي والمطبخ الأندلسي ويمكننا بطبيعة الحال، أن نعمم هذه الصلة على المطبخ المغربي إجمالاً. فالهجرات الأندلسية المتعاقبة في اتجاه المغرب توزعت على عدد من مدنه، بل ان هناك مدناً بناها المهاجرون أو اعادوا احياءها بعد ركود.

لكن تظل لفاس، بين سائر مدن المغرب العربي، خصوصيتها في العلاقة مع الأندلس. فالمدينة المغربية العريقة مكوّنة، أصلاً، من عَدْوتين اثنتين: عَدْوة الأندلسيين وعَدْوة القرويين. فضلاً عن انها كانت عاصمة المغرب سياسياً وعلمياً ردحاً طويلاً من الزمن.

يبدو ان استخدام الفواكه واللوز مع «طواجين» اللحم والدجاج مشترك بين المطبخ الفاسي والمطبخ الأندلسي القديم. وقد هاجرت روائح الطعام ووصفاته وطرائق إعداده، على الأغلب، مع المهاجرين الأندلسيين الأول واختلطت بالمطبخ المغربي. فاستخدام البرقوق والسفرجل والإجاص والتمر والتفاح إضافة إلى العسل مع أكلات يدخل فيها لحم الضأن أو البقر أو الدواجن غير شائع في المشرق العربي. وباستثناء مطبخ مدينة حلب السورية، تحديداً، فإن فكرة دخول الفاكهة على الطبخ المشرقي مستهجنة تماما.

إذ كيف تستقيم حلاوة الفاكهة (والعسل!) مع اللحوم المطهوة بالبصل أو الثوم والمطيبة بالتوابل؟

وكيف يكون الطعم، ناهيك عن النكهة، الذي ينتجه اختلاط هذه العناصر المتنازعة في مادتها ومذاقها؟

الجواب، من خلال التجربة: طعم ونكهة مدهشان.

فلا الفاكهة الطازجة أو المجففة تحتفظ، بعد طهيها باللحم والتوابل بطعمها الأصلي ولا اللحم يظل محتفظاً بطعمه ومقامه المتعالي الذي يبدو ذكورياً قياساً إلى الأنوثة والرقة الثاويتين في الفواكه. ذكورة تقْهر الخضر والحبوب ولكنها ترعوي أمام الفاكهة! ففي «الطجين» الذي يؤكل باليد (بل بثلاثة اصابع من اليد اليمنى)، لا بالملعقة والشوكة، تبوح المواد بمكنون خواصها بعضها لبعض وتتشرب كل مادة نسغ ونكهة المادة الاخرى، خصوصاً إذا تعهدته أيد خبيرة.

في ذلك العشاء الذي تخلله حديث «المشرق» و«المغرب» و«المركز» و«المحيط» ذقت، لأول مرة، «البسطيلة» وطجين الدجاج بالزيتون. وإذا كان ليس مستهجنا

لنا، نحن المشارقة، أن يُطهى الدجاج بالزيتون (رغم اننا لا نفعل ذلك) فإنه من الصعب أن نتصور إضافة السكر والقرفة الى فطيرة محشوة بلحم الدجاج! وهذه هي « البسطيلة ».

لكن هذه الفطيرة المغربية التي اسبغ عليها سعيد الكفراوي مديحاً غامراً وعددتها أنا أطرف الفطائر طراً ليست مجرد فطيرة محشوة بلحم الدجاج فقط. فهي خلطة من لحم الدجاج والبقدونس والبصل والقرفة والفلفل الأسود والزعفران الحر واللوز، محشوة داخل رقائق عجينة خاصة تشوى بالفرن ويذر عليها السكر الناعم بعد ان تحمّر.

مراكز نسبية

فلم يتمكن، للأسف، إغراء « البسطيلة » ولا « الطواجن » التي كللت مائدتنا النحاس المستديرة، الموضوعة على حامل خشبي منخفض في الطبقة الثانية من « رياض الزيتون »، من إقصاء هذه المسألة التي تضاعفت حساسيتها بحضور الكاتب المصري سعيد الكفراوي.

فأي حديث عن « المركز » الثقافي العربي هو حديث عن القاهرة بالدرجة الاولى وبيروت بالدرجة الثانية، بينما تتوارى دمشق وبغداد وراءهما. صحيح ان الأخيرتين عاصمتان منتجتان للابداع ولكن الصحيح أيضاً انهما طاردتان له، فيما تتميز القاهرة وبيروت، لأسباب عدة أهمها البنية التحتية الخاصة بالانتاج الثقافي وحرية التعبير، بقدرتهما على الإستقبال والإستيعاب.

ولكن هذا كان حال « المركز » في لحظته الذهبية وليس الآن.

فلم يعد هناك، على ما اظن، مركزاً مطلقاً كما كانت عليه القاهرة وبيروت قبلاً.

فقد صرنا اليوم إلى ما يمكن أن أسميه بـ« المراكز النسبية »، اي تلك التي تملك إشعاعاً ثقافياً وقدرة على الإضافة والرفد سواء من الموقع الذي يدعوه محمد بنيس

« النموذج » أم من موقع المختلف والمغاير لهذا النموذج (نموذج مضاد !) ولكنها لا تحتكر الإشعاع كلّه ولا المساهمة كلّها.
نحن اليوم أمام نسبية « المركز ».

فرغم الثقل، غير المختلف عليه، للقاهرة والمحاولات التي تقوم بها المؤسسات الثقافية في بيروت لاستئناف دورها بعد الحرب الأهلية المدمرة إلاّ ان ثمة أشياء كثيرة تغيرت في المشهد الثقافي العربي، أهمها، أنه اصبح مكوناً من ألوان عدة وليس من لونين أو ثلاثة.

والرأي عندي ان الأمر لا يتعلق بتراجع دوري القاهرة وبيروت بقدر ما يتعلق ببروز أدوار عواصم اخرى.

ولعل أبرز المتقدمين إلى صدارة هذا المشهد هو المغرب. فالمغرب أصبح (بالمعنى النسبي الذي أشرت اليه) مركزاً هو الآخر، خصوصاً، في السنين العشر الأخيرة. فالتراكم الثقافي الذي حصل فيه منذ الإستقلال صنع بنية ثقافية (معرفياً وإبداعياً) أصبحت قادرة على الإشعاع على المستوى العربي ورفد الثقافة العربية بدم جديد بعد أن أدرك الإجهاد الثقافة في المشرق. لكن مشكلة المغرب كانت، ولا تزال، هي ضعف قدرته على التوصيل. فوسائل إعلامه ودور نشره ومنابره الثقافية وشبكات توزيعه لا تزال تتلكأ وراء الإنتاج المعرفي والإبداعي محلياً فضلاً عن عدم قدرتها على توصيله إلى السوق العربية. وربما من حسن حظ الثقافة المغربية، إنها تنطلق وتتألق في اللحظة التي أخذ يتخلق فيها « مركز » عربي آخر لم يكن في الحسبان: هو المهجر. هذا « المركز » (أستخدم هذه الكلمة بتحفظ) يملك من موقعه « المحايد » قدرة الإطلال على سائر المشهد الثقافي العربي ويستطيع من خلال صلاته ومنابره عابرة الحدود الوطنية أن يصل إلى ما يحدث في الحياة الثقافية العربي وأن يعكس (بتحيّز أقلّ) صورها.

فـ « المهجر » الثقافي العربي في الغرب هو خليط من المشرق والمغرب وإن كان للمشارقة فيه ثقل أكبر، ولكنهم مشارقة فارون، بمعظمهم، من مصارع الحريات في

بلادهم وناقدون، أصلاً، لهيام «المركز» بنفسه.

وأحسب ان المنابر الإعلامية المهجرية، سواء تلك التابعة للانظمة أو المستقلة، مهتمة بالمغرب العربي سواء لأسباب ثقافية صرفة أو بغية التأثير السياسي على الشارع المغربي الذي كشفت «حرب الخليج» عن انحيازاته السياسية الحارة وطاقاته الكامنة. هكذا تتداعى، كما أرى، تدريجياً وضعية «المركز» وما انتجته، بالتالي، من إنشاءات مضادة.

كان حديث بنيس في عشاء «رياض الزيتون» عن «المركز» وموقفه المتجاهل للثقافة والمثقفين في المغرب يثير أسى سعيد الكفراوي.

فهذا القاص المصري يتميز، على نحو خاص، بعاطفة حارّة تجاه أصدقائه. ومحمد بنيس صديقه وبينهما، كما فهمت، لقاءات كثيرة في القاهرة و«المحمدية».

كان كلما انفعل بنيس أو بدا عليه غضب يقول: ولكن المثقفين عندنا يحبونك ويتابعون ما تكتب. أنت معروف في القاهرة يا عمّ محمد وبرادة معروف وكليطو معروف والجابري معروف والعروي معروف والخطيبي معروف والطيب الصديقي معروف.

كان الكفراوي يتمنى، من صميم قلبه، أن لا يكون كلام بنيس عن موقف المثقفين المشارقة (المصريين خصوصاً) من الثقافة المغربية، صحيحاً.

فقد بدا له الأمر مؤلماً على المستوى الشخصي، فهو إبن تصور قومي للثقافة العربية لا يرى الثقافة في المغرب أو مصر أو العراق إلاّ تلوينات داخل ثقافة الأمة.

من جهتي كان كلامي مع بنيس، كدأبي معه، استفزازياً. كان يحتدُّ أحياناً ولكنه كان يعرف من أي موقع يصدر كلامي.

لم أحامل بنيس يوماً ولم يجاملني هو الآخر، لذلك، ربما، ظلت علاقتنا واضحة وقوية. رغم انني كنت اختلف معه بخصوص تحليله للثقافة المغربية وارتباطها

بالحزبية. كان موقفه السلبي، بالغ المرارة، من القوى الوطنية واليسارية في المغرب موضع استغرابي الدائم. ولعلني استنتجت « خطأ » انه يفضل النظام عليها. كان دائماً يقول ان النظام اكثر عقلانية وسعة افق من المعارضة. وعندما كنت أجادله بما هو متوافر لدي من معطيات تناقض ذلك كان يقول أنتم لا تعرفون المغرب!

كذلك لم يؤثر خلافه التاريخي مع محمد برادة على رؤيتي للدور الطليعي الذي لعبه برادة في الثقافة المغربية المعاصرة سواء من خلال موقعه كناقد وكاتب، أو من خلال دوره في اتحاد كتاب المغرب الذي تولى رئاسته ثلاث مرات.

فضلا عن انني لا استطيع أن أخون ذاكرتي. أفلم يكن برادة أول صوت سمعته من تلك البلاد؟

ولأن موضوع المشرق والمغرب، بالطريقة التي يطرحها بنيس، حساس ودقيق فقد فضلت أن أدوّن رأيه لاحقاً، وليس على مائدة عشاء أرخت بها حمّيا النبيذ الأحمر حبال العواطف على الغارب وصعدت بنا إلى مقام الشطح (المعنى المغربي للكلمة هو الرقص، وقد نكون رقصنا فعلاً ولكن من دون أن نبرح مقاعدنا. شطح الأرواح والأنفس إلى ما لا يُعرف).

امرأة الولي البيضاء

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما غادرنا المطعم صوب الفندق.

كانت السماء تتلألأ بالنجوم. توقف سعيد الكفراوي أمام نخلة باسقة من أشجار النخيل التي تزين شارع « الرشيدي » الذي يتفرع من شارع « أنفا » وأخذ يتقرّى عُقدها بيدي الفلاح المصري ذي الحدوس وقال إنها، ربما، تناهز المئة عام.

ردّ بنيس قائلاً ان عمرها يتراوح بين الخمسين والسبعين عاماً. فهي مغروسة مع تخطيط هذا الحي أثناء الاستعمار الفرنسي وهو لا يتجاوز سبعين عاماً.

سألت بنيس عن أصل تسمية، المدينة بـ« الدار البيضاء ». فقال: هناك حكاية تقول أن أصل التسمية يعود إلى وصول ولي تونسي إلى هذه البلدة التي كانت تدعى « أنفا » قبل نحو قرنين من الزمان. ويبدو ان الولي التونسي قد ابتنى داراً وطلاها بالجير الأبيض وكانت امرأته، إلى ذلك، بيضاء. فجعلت النساء يذهبن الى المرأة والرجال يقصدون الولي. صارت النسوة يقلن إنهن ذاهبات إلى دار البيضاء أو عائدات من دار البيضاء. والمقصود بالبيضاء هنا هي المرأة وليس الدار!

هكذا يحلو لمحمد بنيس، ـ استنادا الى رواية أهل الدار البيضاء ومنهم الشاعر مصطفى النيسابوري ـ بردّه التسمية الى المرأة وليس الى الولي، ان يقدّم الأنوثة على القداسة. رغم ان « القداسة » بنيوية في تشكلات التاريخ المغربي عبر العصور وصولاً حتى اللحظة الراهنة. القداسة التي تفيض عنها البركة ويمنحها الشرفاء والأولياء للناس في اضطرابهم المعيشي والوجودي.

لم أعثر لاحقا، على ذكر لهذه الحكاية في المراجع المغربية التي تحدثت عن المدينة ولكني وجدت رواية ترجع اسم المدينة إلى أصل برتغالي رواها الدكتور فيسغربر الذي جاء الى الدار البيضاء في أواخر القرن التاسع عشر لـ« التمهيد للإستعمار الفرنسي للمغرب » حسب قول القاضي هاشم المعروفي، أوردها فيسغربر في كتابه الذي وضعه عام ١٩٠٠ واسماه « الدار البيضاء ».

ففي هذا الكتاب الذي أهداه مؤلفه للجنرال الفرنسي داماد الذي احتل الدار البيضاء سنة ١٩٠٧ يذكر فيسغربر ان البرتغاليين هدموا « أنفا » سنة ١٤٦٨ ثم عادوا إليها عام ١٥١٥ وعندما دنت طلائعهم منها ظهرت لهم دار بيضاء سلمت من الهدم الذي تم على ايديهم في المرة السابقة فأسموا المدينة « كازا برانكا » على اسم تلك الدار البيضاء.

والطريف ان هذه الدار التي لاحت للبرتغاليين وهم يقتربون من الشاطىء في احتلالهم الثاني للمدينة ظلت، حسب المعروفي، قائمة حتى العام ١٩٥٥ وهناك صور ملتقطة لها!

والواضح ان الاسبان هم الذين حولوا اسم المدينة من «كازا برانكا» البرتغالية الى «كازا بلانكا». وظل هذا الاسم متداولاً حتى قام السلطان محمد بن عبدالله بطرد الاسبان منها قبل قرنين. وهو الذي خلع عليها اسمها الحالي. فقد سمع الناس يسمونها «كازا بلانكا» فسأل عن معنى هذا الاسم بالعربية فقالوا له: الدار البيضاء. فقال سموها كذلك.

مرارة مغربية من «التعالي» المشرقي

ليس محمد بنيس وحده من يخوض في اشكالية العلاقة بين المشرق والمغرب ويلحظ «عدم تواضع» الأول، معرفياً، أمام الثاني. فهناك آخرون يطرحون هذه الإشكالية من زوايا مختلفة. فالجابري، أكثر المفكرين المغاربة حضوراً في المشرق العربي، يرى ان الفكر المغربي «برهاني» بينما الفكر المشرقي «عرفاني»، كذلك يفعل الباحث المرموق سالم يفوت خصوصاً في كتابه «إبن حزم والفكر الفلسفي» متحدثاً عن القطيعة بين «الفكرين» المشرقي والمغربي تاريخياً. ليس القولان (قول بنيس وقول الجابري) متشابهين إلا من زاوية وجود إشكالية مع المشرق. فإذا كان بنيس قد صاغ طرحه في فرضية «المركز والمحيط» منكباً على الثقافة العربية المعاصرة، فإن الجابري يرجع بالاشكالية مع المشرق الى متون التراث الكبيرة. فبدءاً من كتابه «نحن والتراث» مروراً بـ«تكوين العقل العربي» وصولا الى «العقل السياسي» تتركز اطروحة الجابري على وجود فارق معرفي كبير بين المشرق والمغرب (الغرب الإسلامي) يتمحور هذا الفارق، الذي يرفعه إلى درجة الإختلاف الجذري، حول «عقلانية» الفكر المغربي متمثلا بابن رشد و«غنوصية» (عرفانية) الفكر المشرقي ممثلاً بابن سينا.

فابن سينا (عند الجابري)، أسس فلسفة مشرقية، «غنوصية» لم تعرف العقلانية، الخالصة كما تركها أرسطو في حين ان فيلسوف قرطبة أسس هذه

اللحظة العقلانية الخالصة في الغرب الإسلامي. والتقابلات التي يعقدها الجابري بين الفيلسوفين ينتصر فيها الجانب الرشدي (= المغربي) دائماً وتبدو وكأنها مقابلة بين عقليتين تختصر كل واحدة منهما جناحاً من العالم العربي الإسلامي وليس بين مفكرين فردين أو حتى اتجاهين فكريين. فابن سينا يؤسس فلسفة «مشرقية» لكي يخرج على الأرسطية (العقلانية) في حين إبن رشد يتشبث بالأرسطية طارداً عنها أية مسحة صوفية. ولعل الجدل الذي جرى بين ابن رشد والغزالي بعد صدور مؤلف الأخير «تهافت الفلسفة» ورد عليه الاول بمؤلفه الشهير «تهافت التهافت» هو، في عمقه، جدل بين إبن رشد وابن سينا.

هذا التقابل الذي يقيمه الجابري بين «الفكرين» المغربي والمشرقي وجد له أنصاراً في المغرب العربي عموماً والمغرب الأقصى خصوصاً كما انه قوبل بنقد عنيف من قبل مفكرين وباحثين مشارقة أبرزهم جورج طرابيشي.

لكن هناك في المغرب العربي من يرى أن هذه المقابلة بين «الفكرين» ليست دقيقة وتسحب صيغاً ومصطلحات حاضرة على زمن ماض. ومن بين المفكرين المغاربيين الذين لا يرون رأي الجابري ولا رأي ناقديه المشارقة في هذا الأمر استاذ الفلسفة في جامعة تونس ابو يعرب المرزوقي الذي كتب مقالاً مطولاً في «القدس العربي» (مطلع عام ١٩٩٩) خلص فيه إلى القول أنه «ليس للمقابلة الحالية بين المغرب والمشرق المعنى الذي كان لها في التحليل الخلدوني ولا المعنى لها الذي يظنه القائلون بالعقلانية المغربية واللاعقلانية المشرقية. ذلك ان ما يزعم لا عقلانية مشرقية صادرة عن العصر الوسيط ليس هو في الحقيقة الا اثر المغرب في المشرق (التصوف العرفاني عامة وتصوف ابن عربي خاصة) وما يزعم عقلانية مغربية صادرة عن العصر الوسيط ليس هو في الحقيقة الا اثر المشرق في المغرب (الكلام العقلاني خاصة وكلام الغزالي الذي فصل بين طور العقل وطور ما بعد العقل فصلا صار عند اس رشد فصلا بين القول الديني والقول الفلسفي). وكذلك الشأن في العصر الحالي. فالمشرق اكثر عقلانية من المغرب، اذا كانت العقلانية هي الفكر

الذرائعي والتكيف مع العصر بأقل الكلف، والمغرب اكثر لا عقلانية من المشرق اذا كانت اللاعقلانية هي الجمع اللامعقول بين ذات ترفض التجاوز الجدلي لذاتها ووعي بالذات يرفض التعيين المتدرج، الجمع اللامعقول بين اقصى الجوهرية اللاواعية واقصى الوعي اللاجوهري. ما يجري في الجزائر لا يكاد يصدقه أو يفهمه عقل. لذلك فانه ينبغي ان نسلم بانه لا المغرب يمثل قياسا مستقلا، ولا كذلك المشرق. فكلاهما يمثل وجها من الذات العربية الاسلامية ومن الوعي بها انفصل عن الوجه الاخر لأسباب تاريخية يمكن تدليلها لاحقا. وتقدم الشرق المنبع لا شك فيه. لكن تقدمه يجعله تجربة ماضية اثمرت ما تستطيع اثماره وحان تجاوزها الى تجربة ارقى يصبح فيها المشرق والمغرب ندين كلاهما منبع الاحسن ما عنده».

قد يكون وصم «الفكر المشرقي» كله باللاعقلانية رد فعل على حال التعالي والتجاهل التي يمارسها المشرق حيال المغرب. وهذا أمر عبر عنه محمد بنيس، صراحة، عندما قال لي انه جاءت لحظة في السبعينات تصاعدت فيها الدعوة في المغرب لمقاطعة المشرق ثقافياً بسبب «عدم تواضعه» غير المبرر معرفياً حيال ثقافة شعب. وأطروحة بنيس بتجاوزها موضوع مشرق ـ مغرب إلى «مركز ومحيط» تلحظ «مغارب» في المشرق و«مشارق» في المغرب.

هذا فارق جوهري بين قولي الجابري وبنيس بصرف النظر عن طبيعة الحقل الذي يشتغل عليه كل قول.

المركز والهامش

أسأل محمد بنيس لاحقاً، لا في عشاء «رياض الزيتون»، متى بدأ يتكون لديه هذا الموقف النقدي من «المركز» المشرقي، فيقول ان المغرب في السبعينات أصبح ينفر من كتابات مشرقية، عن المغرب. والأساس في هذا النفور هو كون هذه الكتابة إما انها تجهل المغرب تماماً أو أنها تعامله بدونية، لا مبرر لها من الناحية المعرفية.

وفي هذه الفترة ارتفعت أصوات عديدة من طرف الكتاب التقدميين والحديثين انذاك مطالبين بقطع الصلة مع المشرق العربي. لأنه مشرق لا يتواضع أمام تاريخ

وثقافة شعب. خاصة وان المغاربة تشبثوا بالمشرق دفاعاً عن عروبتهم.

في هذا السياق كنت اتأمل، يقول بنيس، الخطابات ومفعولها في النفوس في فترة لا تساعد على تعميق التأمل في قضية اعتبرها خطيرة جداً رغم أن أغلب المشارقة لا يعتبرونها كذلك.

ولم أتوصل إلى صياغة فرضية «المركز والمحيط» بطريقة مباشرة، أعني انطلاقاً من الوضعية المغربية، وحدها. كنت منشغلاً بأوضاع ثقافية عربية ودولية، قديمة وحديثة معاً. كانت تلك طريقتي في التأمل، ما دمنا ورثنا الجرح عن الأجيال السابقة علينا في العصر الحديث وورثناه عن تاريخنا القديم.

أسأله ماذا يعني بذلك، فيقول: أعني ان مسألة المشرق والمغرب لم تبد لي كافية، لأنني أخذت أدرك، شيئاً فشيئاً، أن هناك مشرقاً يعاني هو ذاته من المشرق، أقصد وضعية اليمن والسعودية والخليج العربي، وهي كلها ملغاة من مجال التفكير في الثقافة العربية، بل اننا بالعودة إلى التاريخ الحديث لثقافتنا نجد الشاميين يعانون من تجاهل المصريين، والملاحظة ذاتها تنطبق على العراقيين وغيرهم من عرب المنطقة. هذا يعني ان المسألة أصبحت أوسع من المشرق والمغرب.

ويقول محمد بنيس ان هذه الأوضاع المتباعدة شرقاً وغرباً والمركبة جعلته يرى «في المشرق مغارب عديدة وفي المغرب مشارق عديدة». ويبدو ان اول طرح علني لفرضية «المركز والمحيط» قد عبر عنه في حوار صحافي اجراه معه الكاتب التونسي حسونة المصباحي في بداية الثمانينات ثم انكب على صياغتها منهجياً في الفترة نفسها. يقول بنيس حول هذه النقطة: فرضية المركز والمحيط لم يكن من الممكن ان يتأملها شخص من المركز، كما هو في الحالة العربية، كما أن الحوار حولها لم يكن ليتحقق إلاّ بين أهل المحيط. ومن هنا تأتي دلالة الحوار مع حسونة المصباحي الذي كان في الحقيقة معبراً عن القلق التونسي بهذا الخصوص.

أسأل بنيس إلى ماذا كانت تهدف هذه الفرضية؟ هل يتعلق الأمر بمجرد تأمل في

حالة «التهميش» المغربية أم الى محاولة تصحيح مسار خاطىء في الثقافة العربية؟

فيجيب: هذه الفرضية تهدف إلى التنبيه على ان ما يحصل من عدم معرفة المشارقة بالمغاربة، صادر عن عدم معرفة المركز بالمحيط، وأن المحيط هو ما يؤكد أن المركز جاء، في عصرنا الحديث بنموذج ثقافي (فكري، أدبي، شعري) يختلف عن النموذج القديم، وأن هذا المركز لا يصل إلى تسميته كمركز إلاّ عندما ينتقي نموذجاً ويوزعه بالوسائل التي يتوفر عليها ويصبح هذا النموذج مقبولاً خارج المركز. ومن ثم فإن المسألة لا تعود الى وجود أو عدم وجود انتاج ثقافي بل إلى وجود أو عدم وجود نموذج، يخضع انتشاره عربياً لشرائط أوضحتها في تأملات لاحقة.

ويوضح بنيس في حديثه إليّ ان هناك من يخلط بين المحيط والهامش، فيستعمل الهامش مكان المحيط، ويقول انه استعمل، لأول مرة، مصطلح الهامش مقابل المركز بمعنى آخر تماماً، وهو يعني الأعمال الثقافية والأدبية، التي تشتغل خارج المعيار المقبول من طرف الرأي العام في المركز الثقافي أو المحيط على السواء.

أقول لبنيس: ولكن اشكالية المشرق والمغرب (أو المركز والمحيط بتعبيرك) تطرح بحدة قد تؤدي إلى نوع من الحرب الأهلية أو القطيعة داخل الثقافة العربية ليست مبررة ولا أحد يرغب بها على ما اظن فكيف تنظر الى ذلك؟

يجيب بنيس قائلا: كنت دائماً احاول الدفاع عن ضرورة التخلي عن الانفعال لأنه لا يؤدي إلاّ الى القطيعة فعلاً. فيما نحن بحاجة لصياغة تأملات تساعدنا على التخلص مما يضاعف من عدم التفاهم بين المشارقة والمغاربة. ولست أدري اليوم هل كنت مصيباً ام مخطئاً. لأن ما الحظه هو ان المشرق لا يتنازل عن عدم معرفته بالمغرب، وهذا مؤلم جداً ويفعل سلبياً في مستقبل العلاقات الثقافية بين المغرب والمشرق بما لا يراه المشارقة ولا يحسون به لأنهم غير مهيئين لمستقبل مغاير.

أسأل محمد بنيس: ولكن ألا تعتقد أن ما يمكن أن نسميه تجاهل «المركز

المشرقي» للمغرب ثقافياً متأت من كون الأخير لم يقدم انتاجاً ثقافيا (إبداعياً على نحو خاص) على المستوى التاريخي لكي يفرض نفسه على «المركز المشرقي» (المصري خصوصاً) مثلما حدث مع بلد كلبنان الذي استطاع أن يفرض أعلامه وأفكاره وتياراته على المشهد المصري مطالع هذا القرن؟

يجيب بنيس، بانفعال، قائلا: ما تصدر عنه في هذا السؤال هو ما يؤكد لي الفرضية، برمتها ثانية. فأنت عندما تذكر بأن المغرب لم يقدم انتاجاً ثقافياً دليل على أنك تسير وفق الآراء المتداولة ولا تقوم بخطوة نحو المعرفة. ان المركز لا يعترف إلاّ بما يتطابق ونموذجه وهذا شيء يخالف التعدد الثقافي. وأذكر، أكثر من ذلك أن متخيلنا في القراءة هو ما يحدد العلاقة مع ما نقرأ. وهذه فرضية أصبحت مقتنعاً بها من خلال تجربتي مع مناطق أو مع أشخاص أو مع كتاب أو مع مسؤولين.

أقول لمحمد بنيس: ولكن يبدو أن حساسيتك تجاه هذا الموضوع تجعلك لا تحتمل حتى السؤال. فيجيب قائلا: الأمر لا يتعلق بالسؤال بحد ذاته بقدر ما يتعلق بمتخيلك عن ثقافة المغرب. فأنت منقاد بالمتخيل أكثر مما أنت منقاد بمعرفتك، وهذا يحتاج توضيحات. دعني أقول، هنا، انك لا تختلف عن الزيات والإسكندري وجرجي زيدان الذين ألفوا، في بداية هذا القرن، كتباً عن الأدب العربي ولم يضمنوها ولا كلمة واحدة عن الأدب المغربي، بل لم يرد فيها حتى اسم المغرب. وهو ما قاد كتاباً في المغرب العربي إلى الرد على هذا التجاهل بتأليف كتب تظهر قيمة المغرب العربي في هذا المجال. وكان عبد الله كنون ألف كتابه الشهير «النبوغ المغربي في الأدب العربي» رداً على هؤلاء المؤلفين.

نحن الآن في نهاية القرن ويبدو ان هذه المسألة لا تجد حلها بعد، بل هي تصبح اكثر تعقيداً، أي ان الفاصل بين المشرق والمغرب يتسع بشكل مأساوي، رغم ما نلاحظه من تكاثر اللقاءات بين المشارقة والمغاربة، بل يبدو أن الأمر لن يعثر على حل له إلاّ اذا تواضع المشارقة وخطوا خطوات معرفية نحو المغرب الثقافي. المغرب البعيد والقريب في آن.

لبنيس ان يقول قوله. لا «انتصر» لنفسي التي رآها منقادة بالمتخيل عن المغرب لا بمعرفتي عنه. وليس هذا، على كل حال، صحيحاً. فليست هذه الرحلة في المكان والثقافة المغربيين سوى محاولة من مشرقي لمعرفة المغرب الذي استهللت كتابتي هذه بالاعتراف، المخجل، بجهلنا به. أترك اتّهام بنيس لي بتطابق موقفي من المغرب وموقف جرجي زيدان مفتوحاً. لا أردّ عليه. آملا أن تتكفل مقاصد هذه الرحلة بهذه المهمة.

حسن نجمي : السؤال . الجرح

ولكن ليس محمد بنيس وحيداً في موقف المساءلة والنقد، بل قل والغضب، بصدد «المركز» المشرقي، فهناك في ساحة الأدب من يقف الموقف نفسه بكثير من المرارة أو بقليل منها ولكن، دائماً، بمرارة على كل حال.

فهذا شاعر من جيل لاحق على بنيس انطلقت تجربته في فضاء ثقافي عربي ومغربي مغاير للفضاء الذي انطلقت فيه تجربة بنيس مطلع السبعينات يتخذ، تقريباً، الموقف نفسه. كأنه يتلمس، عندما يتحدث عن هذه «الاشكالية» جرحاً غائراً في نفسه رُغم انشداده إلى المشرق كـ«أصل» ومعرفته بكل شاردة وواردة في ثقافته.

إنه الشاعر حسن نجمي.

كان نجمي من أوائل الشعراء المغاربة الذين تعرفت اليهم من الجيل اللاحق على بنيس. في البدء من خلال القصائد والرسائل والتحيات المتبادلة عن بعد، ثم من خلال اللقاء المباشر في مهرجان فاس الشعري عام ١٩٩٢.

كانت هناك أشياء كثيرة مشتركة بيننا، منها الخلفية البدوية التي نتحدر منها نحن الإثنين وتبنينا «قصيدة النثر» كخيار شعري وانتماؤنا إلى فضاء اليسار وخياراته السياسية وعملنا في الصحافة الثقافية وتقاربنا سناً. أتذكر أن أولى

رسائله إلي كانت تناديني بـ« صاحب رعاة العزلة » إشارة إلى كتابي الشعري الثالث الصادر في عمان عام ١٩٨٦ ووجد طريقه، بمعجزة ما، إلى المغرب. كانت كتابات حسن نجمي إليَّ تشي بمعرفة دقيقة بخارطة الكتابة الشعرية المشرقية الجديدة، تجارب وأسماء. كان في تلك الفترة قد أصدر مجموعة شعرية أولى بعنوان « لك الإمارة أيتها الخزامى » لم أقرأها ولكنه كان يستعد لنقلة شعرية ستبدأ مع كتابه « سقط سهواً » ثم تتكلل، بعد سنوات، بكتابه « حياة صغيرة ».

ولكن قبل أن يصدر كتابيه الشعريين الأخيرين كنا قد التقينا في فاس. بدا لحظتها خجولاً، له سحنة أخوية تعكس نوعاً من السلام مع النفس، متحفظاً إلى حد ما عن المشاركة في صخب ليالي المهرجان. لا يدخن ولا يشرب. ولا تلوح عليه علائم الشبق أو الشهوات الحسية. كانت القراءة والكتابة، على ما بدا، شهوته الواضحة. ستتغير هذه الصورة قليلا مع لقاءاتنا التالية سواء داخل المغرب أم خارجه إلاّ انها ستحافظ على خطوطها العريضة. سيصبح أقل خجلاً وأكثر طموحاً، خصوصاً، على صعيد لعب دور أكبر في الحياة العامة. وفعلاً. فبعد أيام من مغادرتي للدار البيضاء سينعقد مؤتمر إتحاد كتاب المغرب وسينتخب حسن نجمي رئيساً، ليكون بذلك أول رئيس اتحاد كتاب عربي مما يمكن أن نسميه (وفق إدوار الخراط) تيار « الحساسية الجديدة » ولعله أن يكون، أيضا، أصغر رئيس اتحاد كتاب عربي.

لم يقفز نجمي بالمظلة على رئاسة إتحاد كتاب المغرب. فقبل ذلك كان عضواً في هيأته القيادية السابقة ومؤسسا (الى جانب بنيس وصلاح بوسريف ومحمد بنطلحة) لـ« بيت الشعر » المغربي الذي ينتدب نفسه لمهمة إعادة الإعتبار للشعر كفن بات يتهدده، من بين عوامل أخرى، الهبوب الإستهلاكي المريع القادم إلينا من الغرب كظاهرة ملازمة لحضارته (نحصل على الإستهلاك وليس على الحضارة!)، كما تسلّم، ولا يزال، الملحق الثقافي في صحيفة « الإتحاد الإشتراكي » الذي لعب، الى جانب ملحق صحيفة « العلم »، دوراً مهماً في ترقية الكتابة الأدبية العربية المعاصرة في بلد لا تزال الفرنسية هي لغة نخبته الأولى نطقاً وقراءة وكتابة.

في زيارتي هذه للدار البيضاء التقيت حسن نجمي أكثر من مرة. كانت هناك استحقاقات على الأبواب: انتخابات اتحاد الكتاب وانتخابات «بيت الشعر»، ولأن الأخير بعيد عن الحزبية المسكة بالحياة العامة في المغرب وقليل التأثير (حتى الآن) فإن الاستعدادات لانتخاباته لم تكن تشغل بال الكثيرين على عكس اتحاد الكتاب الذي كانت هناك معركة تدور في الخفاء على رئاسته.

قال لي حسن انه سيترشح للرئاسة. فسألته ما هي حظوظك. فقال جيدة. فقاعدة الإتحاد هي من الأجيال الجديدة التي أنا أقرب إليها من أي مرشح آخر. فقلت له وماذا عن دعم حزبك لك (.... هو عضو في الإتحاد الإشتراكي للقوات الشعبية)، فقال: الحزب قرر أن لا يدعم مرشحاً محدداً وأن يترك الأمر للقناعات الشخصية للأعضاء.

ويبدو أن هذا ما حصل. إذ قدّر احد المرشحين ان الكفة الانتخابية تميل لصالح نجمي فانسحب مبكراً فيما استمر مرشح آخر محسوب على الحزب نفسه الذي ينتمي اليه نجمي... فخسر.
ولكن هذا موضوع آخر.

أسأل حسن نجمي عن رأيه في خصوص العلاقة بين المشرق والمغرب على الصعيد الثقافي... كيف ينظر إلى هذه العلاقة؟

فيقول: هذا سؤال مهم وضروري بالنسبة اليَّ، ان لم يكن بالسبة لعموم المثقفين المغاربة.

فهناك من يعيش هذا السؤال، في المغرب، كجرح. وهناك من يعيشه كتأمل في مرجعية ثقافية وحضارية، وبالتالي كمساءلة للجذور والإمتدادات. وهناك من يعيشه كأفق لتبيان الخصوصية، وهناك، بالطبع، من لا بعيش هذا السؤال على الإطلاق، لأنه ببساطة لا يهمه او انه تجاوزه ضمن سيرورة تفكبره واهتماماته المعرفية والإبداعية.
أقول لنجمي وكيف تعيش أنت هذا السؤال؟

فيجيب : بالنسبة الي أعيش هذا السؤال الإشكالي بكل هذا التعدد : المشرق بما هو أصول للهوية المغربية، بما هو ركام من التعالي والعجرفة والإدعاء، بما هو نقط مضيئة واخرى مظلمة، بما هو مركز ثقافي متباعد وقريب، بما هو رموز ورواد نتعلم منهم ووطاويط ممتلئة بالسموم والأحقاد.

تصور أن مؤرخي الأدب العربي في المشرق لم يخصصوا ورقة واحدة لتاريخنا الأدبي من عهد الدولة الإدريسية الى العهود الحديثة، كأن الأدارسة والمرابطين والموحدين والوطاسيين والمرينيين والسعديين والعلويين كانوا فقط جحافل عسكرية ولم يصنعوا حضارات وثقافات متراكمة في تاريخ المغرب.

ولذلك انبرى العلامة والأديب المغربي عبد الله كنون فألف كتاباً حاربته القوى الاستعمارية عند صدوره بعنوان «النبوغ المغربي في الأدب العربي بالمغرب الأقصى». وكان هذا المؤلف رد فعل على هذا التجاهل لتاريخ الأدب المغربي.

لقد كان الأشقاء المشارقة، في المركز الثقافي المشرقي القديم يعتبرون ان المغرب بلد الفقهاء، وهاهم الأشقاء في المشرق الحديث يعتبرون أن المغرب بلد النقد والفكر. لكننا حين نتحدث عن مغرب الفكر يقولون ويكتبون ان فكر المغرب مستعار او مسروق!

أقول لنجمي : ولكن ألا تظن ان الصورة أخذت تتغير. فأنت ترى كثيراً من الإنتاج الأدبي المغربي في المنابر المشرقية واحياناً يكون على شكل ملفات ومحاور خاصة؟

فيقول : صحيح ولكن تمعن في الصورة جيداً. فحتى هذه المجلات او المنابر التي فكرت في أن لأدبنا قيمة وخصصت لنا ملفات لم يكتب فيها المشرقي عن المغربي، بل لا بد ان يكتب المغربي عن نفسه، وان يحتفي المغربي بنفسه وان يهاجم فيها المغربي نفسه. وحتى الآن لم يصدر عدد واحد من مجلة عربية مخصص للأدب المغربي وللثقافة المغربية بمساهمات غير مغربية، ولو من باب الإسهام الرمزي.

ولك ان تتساءل عن عدد الرسائل والأطروحات الجامعية، التي انجزها الباحثون المغاربة، عن الأدباء والمفكرين المشارقة القدماء والجدد. ولك ان تطرح السؤال: كم من مشرقي أنجز بحثاً جامعياً عن شاعر او كاتب مغربي؟

فعندنا كتبت أطروحات ماجستير ودكتوراه دولة والآلاف من رسائل الاجازة عن: السياب، نازك، الخال، أدونيس، درويش، ايليا، حاوي، الغيطاني، إلياس خوري، صنع الله ابراهيم، العجيلي، حنا مينه، الخراط، القعيد، هاني الراهب، حيدر حيدر، غسان كنفاني، سحر خليفة، جبرا ابراهيم جبرا، سليم بركات، سعدي يوسف، حليم بركات، نزار، من دون حاجة إلى الإشارة إلى الكثير مما كتب عن طه حسين، العقاد، المازني، تيمور، نجيب محفوظ وغيرهم.

أقول لحسن: عندما نتحدث عن المشرق كأننا نتحدث عن كتلة واحدة متجانسة، أو كأنه كله مركز والحال ان هذا ليس صحيحاً.

يجيب: أعرف ان المشرق غير متجانس، وأعرف أن المشرق فيه مركز ومحيط هو الآخر. وأعتقد ان المشارقة ظلموا ايضا أدب الخليج، أدب الأردن، أو أدب اليمن مثلاً كما ظلموا أدبنا. وربما كان في ذلك بعض العزاء لنا.

لكن في الجهد المبذول من طرف بعض المثقفين والأدباء العرب الجدد برؤية مغايرة وبحرص على الإكتشاف والتواصل مع الآخرين ما يبعث على الدفء والثقة. وهنا أثنّي على ما قلته ان الصورة ليست ثابتة وأنها تتغير نحو تمثيل أفضل لمختلف مكونات الثقافة العربية.

هشام فهمي: اشكالية مصطنعة

فإذا كان كل من بنيس، ونجمي، وهما يمثلان جيلين مختلفين، يقولان وإن بدرجة ما من الإختلاف، بقول الأزمة بين المغرب والمشرق فما عسى كاتب شاب من الجيل التالي عليهما أن يقول؟

كيف ينظر كاتب مغربي لا يقيم في المركز الثقافي المغربي (الدار البيضاء، الرباط) بل في مدينة ـ طرف، حتى وان كانت عاصمة للمغرب من قبل مثل مراكش، إلى هذه المسألة؟

هذا ماسنعرفه من خلال حديث هشام فهمي الكاتب المغربي الشاب الذي قرأت له بضعة نصوص لافتة للنظر، خصوصاً لجهة راديكاليتها ومرارتها حيال الوضع المغربي السائد، سياسة وثقافة.

عرفت هشام فهمي من خلال رسائله ونصوصه ولم نلتق إلاّ في زيارتي الأخيرة للمغرب ولكني كنت قد نشرت له ترجمة لطائفة من شذرات الشاعر الفرنسي المعروف ألن بوسكيه. فاتصل بي أدونيس، وهو صديق لبوسكيه، بعد أيام من نشر الترجمة ليسألني إن كنت اعرف مترجم هذه الشذرات فقلت له إنه حسب، علمي، كاتب مغربي شاب يقيم في مراكش. فقال أدونيس إن الترجمة ممتازة وانه سيعطي بوسكيه، عندما يزوره قريباً، نسخة منها، فسيفرحه أن يعلم بوجود اهتمام عربي بأعماله.

لكن بوسكيه الذي كان بلغ به السرطان مبلغاً متقدماً توفي بعد أيام قليلة من مكالمة أدونبس، ولا أظن أنه علم بأمر ترجمة فهمي لشذراته.

ينتمي فهمي إلى جماعة « الغارة الشعرية »، التي يقيم معظم أعضائها في مراكش، وهي تشبه مجموعات عديدة متمردة عرفتها حركة الأدب العربي الحديث مثل جماعة « الرصيف » وإن كانت الأخيرة أتخذت منحى عربياً بحكم انتماء اعضائها إلى أكثر من بلد عربي وانطلاقها من بيروت المركز الثقافي العربي الطليعي يومذاك.

يسعى أعضاء « الغارة الشعرية » الذين يصدرون نشرة شعرية بالاسم نفسه مسحوبة بالستانسل إلى إطلاق صوت شعري مستقل يسعى إلى تجاوز الإنتماء الوطني بالمعنى الأيديولوجي للكلمة إلى فضاء أوسع. فلمعظمهم ملاحظات جذرية بصدد حالة الثقافة في المغرب خصوصاً خضوعها للمواضعات الحزبية. قد

يؤخذ على بعض أعضائها ضعف مواهبهم واتخاذهم التمرد وسيلة للفت النظر أو تحقيق الذات لكن المؤكد، بالنسبة لي، أن ما يجمع هؤلاء الشباب هو رفض اللحظة المغربية والعربية الراهنة، بما هي لحظة إقصاء وقمع لروح وجسد الإنسان العربي، والتطلع إلى لحظة انسانية عادلة.

ليست الثقافة المغربية عند هؤلاء الشباب، هي نفسها عند بنيس أو حسن نجمي. فهم يصدرون من موقع رفض السائد، وعلى نحو مجاني احياناً. الهامش هو مكانهم الرمزي والمادي معاً. بعضهم، مثل هشام فهمي، لم يجد عملاً بعد سنوات من تخرجه من الجامعة وهو يعيش مع عائلته. فكيف يمكن لشاب في اواخر العشرينات من عمره أن يحقق ذاته وهو يقيم مع عائلته.. وفي مدينة عربية؟

ليست الإعتبارات التي تحكم أشخاصاً متحققين، بل وفي صدارة المشهد المغربي، مثل بنيس ونجمي هي الإعتبارات نفسها التي تحكم أشخاصاً تدفعهم طبقية الحياة والكتابة وتراتبيتهما إلى الهامش.

لا يشاطر هشام فهمي القائلين بإشكالية مشرق ـ مغرب، على النحو الذي تطرح فيه الآن، رأيهم بل هو لا تعنيه هذه الإشكالية إلاّ من زاوية حوار الذات مع نفسها وتمثيل صورها المختلفة.

أسأله: كيف تنظر إلى سؤال، إشكالية، العلاقة بين المشرق والمغرب؟ فيقول: هذا السؤال الإشكالي يتكرر عبر التاريخ وإن بدرجات متفاوتة الحدة. وها إنني أوجهه أنا الذي ينتمي إلى جيل نهاية القرن وفي مرحلة من أصعب مراحل المعرب واكثرها ادعاء. لذلك ينبغي الإحتراس من سؤال كهذا. وأنا لا أتحدث هنا إلاّ عن ذاتي وعن مشرق أحسّه متجذراً بداخلي وليس منفصلاً عني. ثمة علاقة غامضة تربط هذه الذات بنفسها. العلاقة التي تحمل موروثاً تاريخياً وثقافياً واجتماعياً مركبا يجب كشف المسكوت عنه فيه، لأن جهلنا بهذا الموروث هو جهل بذواننا.
فهل استطعنا أن نكوّن صورة واضحة عن ذواتنا، صورة غير مشتتة الرؤية؟

لذلك، بالنسبة لي، فإن سؤال علاقة المشرق بالمغرب هو سؤال العلاقة بالذات

أصلاً، علاقة بذات تتجاهل نفسها وتغض النظر عن ملامحها العميقة بدعوى ريادة المركز وحضوره وغياب المحيط أو الهامش. وهنا، برأيي، يتم تغليف صراع إقليمي بالتركيز على ثنائية مشرق ـ مغرب القاتلة والواهمة، هذه الثنائية، التي تفترض وجود كتلتين متعارضتين الواحدة تنهش الأخرى بمنطق الزعامة والهيمنة.

اسأل هشام فهمي: ولكن لو عدنا إلى تاريخ الثقافة المغربية سنجد إشارات، إلماحات، وأحيانا تصريحات، عن هذه الإشكالية مع المشرق... فالمسألة ليست مختلقة كما أنها ليست ابنة اليوم.

يجيب: لو عدنا إلى الوراء لوجدنا ابن بطوطة والحسن الوزان (ليون الأفريقي) يشدان الرحال باتجاه الذات الشاسعة للاقتراب من أنفاسها الأكثر حرارة. وهذا درس، أظن أننا لم نستفد منه بعد، وبالالتفات إلى الخلف سنجد إشارات طريفة نلاحظها عن ابن خلدون تحاول ملامسة الذات وعضّها ايضاً من خلال صورة الآخر المتمثلة.

أتفق معك بأن تاريخ الثقافة المغربية، الحديث على الأقل، يمدنا ببداية تصور مباشر للتشكيك في الصوت الأحادي للذات الصوت المشرقي أو «صوت المركز» حيث جاء كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي» لعبد الله كنون، والذي منع الإستعمار تداوله لقتل ثقافة بدأت ترى ملامحها في مرآة تعكس تفاعلاً منصتاً للذات كصورة تستحضر المشرقي في الحلم ولا تنفيه. وحتى لو كان كتاب كنون رد فعل على إقصاء «المركز المشرقي» للابداع المغربي فانه رد فعل جاء من داخل الكتابة العربية نفسها. اي من داخل الذات وليس من خارجها.

وعلينا أن نتمعن، هنا، بتقديم المشرقي حنا الفاخوري للكاتب المغربي ومدى رمزية هذا الأمر في صياغة تاريخ للأدب العربي.

ولكن السبعينات، في المغرب، هي التي ستدشن خطاباً مغربياً أكثر طموحاً في الحوار مع الذات مغرباً ومشرقاً، خطاباً مغلفاً هذه المرة بما تبشر به الحداثة. إنه خطاب يحاور «مواسم الشرق» وجهاً لوجه ويبني تاريخاً للذات متعددة الأقطاب

ومؤسسة على الإختلاف.

أقول لهشام: ماذا تقصد بذلك؟

يقول: أقصد أن ثلة من المثقفين المغاربة شرعت، بنضج أكبر، في طرح أسئلة الذات. وبطبيعة الحال تأثرت هذه الثلة بأفكار وقيم ثقافية جديدة وحاولت من داخل الثقافة العربية الحديثة أن تدافع عن الذات المغربية، وبدأت في طرح أسئلتها خصوصاً، في مواجهة خطاب مشرقي أحادي.

أسأل هشام فهمي: كيف ترى الخطاب الذي ينتجه المشرقي عن ذاته؟

فيجيب: أعتقد أن هذا الأمر يحتاج إلى تأمل أطول وأعمق ولكني أظن أنه انتج خطاباً عن الذات يتماهى مع الذات الإلهية التي تكتفي بفلكها. وأظن أنه برز عبر التاريخ خطاب مضاد ومتمرد، ولو كان ضمنياً في الغالب، نعثر على شذرات منه عند المتنبي، خصوصاً على دلالة النبوة، وكذلك نجد إشاراته عند المتصوفة. وفي العصر الحديث هناك «النبي» الجبراني ثم أخيراً أدونيس.

ان هؤلاء، في اعتقادي، يحملون إلماحات الإطاحة بهذه الذات المتألهة التي تحمل رسائل من السماء إلى الأتباع والمريدين على الأرض. ولكن دعني أعود إلى الموضوع الذي بدأناه. فأنا لا أجد نفسي معنياً بهذه الحساسيات المطروحة بين المشرق والمغرب بل وأستغرب طرحها في هذه المرحلة العربية الرمادية. إن الأمر بالنسبة لي لا يعدو أن يكون مظهراً لتنفج ثقافي سائد في الحياة العربية يجعل المرء يقرن، بشكل شمولي، بين الفساد السياسي والثقافي في مجموع الجغرافيا العربية. هذا التكامل في الأدوار تغذيه النخبة السياسية والثقافية الأمر الذي يدفعني إلى رفض التمسح بالتاريخ الرسمي السائد بوهم الإلتزام الجماعي.

وأفترض أن المؤسسة الثقافية العربية ورثت البعد الهيمني والإستبدادي والطاعة والولاء من المؤسسة السياسية لتسحق بذلك البعد الإنساني والكوني لحياة الثقافات وحق إختلافها. ثم لا أحد يستطيع أن ينصّب نفسه، لا في المشرق ولا في المعرب، مدافعا عن نقافة قومبة، ما، لأن في ذلك تعصباً قد يفضي إلى التصفية الرمزية

للثقافات الأخرى التي تعيش في عالمنا العربي.

علينا أن نترك أمر حوار الذات مع نفسها، حوار المشرق والمغرب، للثقافة لأن قوتها تجعلها جديرة بخوض المغامرة بثقة وبلا خوف. ويمكننا أن نستفيد من الدرس الأوروبي في إعادة قراءة الثقافة الأوروبية، وطرح اسئلتها من جديد ومحاولة محو الفوارق الثقافية واللغوية بين أمم مختلفة حقاً. لأن القوة الإقتصادية، قوة «اليورو» لم تستطع الوقوف امام تحدي توّجه العالم الآن نحو وحدانية قطبية تتزعمها أمريكا بدعوى «العولمة»، أو ربما تحاول بناء الذات التي تحمل الآم ثقافات وألسنة مختلفة تعيش حلمها اليوتوبي في التوحد.

مسجد الحسن الثاني: مغازلة الخلود

في أول زيارة لي للدار البيضاء عام ١٩٩١ ذهبت مع صديق مغربي للغداء في مطعم سمك شهير داخل الميناء، وفي الطريق رأيت، عن بعد، واحدة من أكبر ورشات البناء التي شاهدتها في حياتي.

كان ثمة بناء ضخم يرتفع داخل المحط وحوله رافعات عملاقة وأخشاب ومواد بناء وعشرات العمال الذين يبدون، من تلك المسافة، مثل خلية نحل صامتة.

كان ذلك هو مسجد الحسن الثاني الذي سيفتتح في بعد سنتين بحضور حشد كبير من القادة والمسؤولين السياسيين العرب والاجانب ومئات الصحافيين الذين جاءوا لتغطية افتتاح المسجد من قبل الملك الذي أمر ببنائه وربط، كعمل باهظ من أعمال الخلود، اسمه به: الحسن الثاني.

قلت للصديق المنخرط في حركة اليسار المغربي: يبدو أن الجامع سيكون، حسب ما يشيع في الصحافة، الأضخم في العالم.

فقال دون حماسة تذكر: لَمَ لا يكون كذلك وقد اقتطعت الدولة راتب شهر واحد من كل مغربي. وفرضت ضريبة باسمه على المبيعات.

قال انه ليس ضد بناء الجوامع ولكن التقدير البسيط للإحتياجات الملحة للمغرب كان يقتضي ترتيباً مختلفاً للأولويات . فالأولوية هي للعيش لا لمغازلة الخلود . وبمبلغ كالذي أنفق على الجامع من جيوب المغاربة كان يمكن ان تحدث انعطافة في التنمية .

في تلك الزيارة سمعت آراء مماثلة بين المثقفين المغاربة . فمعظمهم اعتبر ان الأموال التي صرفت على بناء الجامع (يقدرها البعض بنحو ثلثي مليار دولار) كان أولى أن تضخ في جسد الإقتصاد المغربي المنهك بدل أن تصرف على إنشاء صرح خالد .

كانت هذه الاراء مقنعة من حيث المبدأ .

ولم يكن المرء يحتاج عناء للتعاطف معها .

وبعد ست سنوات على رؤيتي لذلك البناء الضخم الذي بدا كأنه يقام على الماء سأزور الجامع وسأغير رأيي .

فالصدمات المتتالية التي تسددها إليك جمالياته ابتداء من صحنه الخارجي ، من النظر الى مئذنته العملاقة ، الرقيقة في الوقت نفسه ، كفيلة بجعلك تترنح . أول شيء تذكرته وأنا أترنح ، بكل معنى الكلمة ، تحت القبب وبين الأعمدة الضخمة ، هو كلام الصديق المغربي عن الأولويات . فقلت في نفسي : ان المبلغ الذي انفق على بناء هذه التحفة المعمارية ، نادرة المثال ، ليس أكبر من عمولة حصل عليها رجل أعمال أو أمير خليجي صغير على حواشي العمولات والصفقات الكبيرة لحرب الخليج . وليس أكثر من ثمن صفقة أسلحة ستصدأ في المستودعات العربية . قد يكون المبلغ الذي أُنفق على هذا الجامع كبيراً بالنسبة للمغرب وقد يصنع فرقاً حقاً في التنمية إن قدّر له أن يصرف على الوجه الأسلم ، ولا يسرق نصفه رشاوى وعمولات ، لكن الإعجوبة الجمالية التي اجترحها لا تقدّر بمال . ليس هناك مال في العالم يمكن أن يكافىء صنيع هذه الأيدي التي استّلت الرقة والرهافة من الخشب والجبص والحجر والطين . لست أقابل بين الجمال ورغيف الخبز ، بين شغف الفن إلى الخلود وعيش اللحظة الراهنة . فهذه مقابلات لم أعد قادراً على فهمها أو البت

فيها، عربياً، بعد أن رأينا «التنمية» تتحول خراباً و«الخطط الخمسية» تبتلعها كروش المفسدين والتصنيع الثقيل يصير وبالاً على اقتصاديات البلاد والثروات العامة ينهبها الحاكم وذووه من دون أن يتركوا مأثرة في العمران، ولو على سبيل جنون العظمة، أو «تخليد» الأثر.

لم يخطر على بالي سؤال الأولويات وأنا أمشي على أطراف أصابعي في «قصر الحمراء» بغرناطة ولا وأنا أنضو عني مواضعات الخارج في مسجد السلطان حسن في القاهرة أو وأنا أقف ضئيلا وحائراً أمام الأهرامات ولا عندما تناهبتني جمالات كنيسة سانت بول في لندن.

ولولا أنني سمعت هذا السؤال بين عدد من المثقفين المغاربة لما سألته وأنا أتقدم كالمأخوذ صوب هذا الصرح العاجي المكلل بالأخضر.. وقطعاً لما عنَّ لي وأنا أدلف عالماً منقطع الصلة عن العالم الخارجي، عالماً مسحوراً: ملحمة من المرمر والحجر السماقي والزليج والخشب المحفور والزجاج الملون والمقرنصات تتضافر وتتجاور دون تنافر أو تزاحم أو ثقل على النفس رغم انه ليس هناك سنتيمتر واحد لم تترك عليه أيدي الصناع المغاربة مساً من سحرها أو أثراً مما خبرته وتداولته عبر القرون من مهارات تبلغ مبلغ الإعجاز وترقى مرقاه.

***

ليس بين منطقة «المعارض» وأرض الجامع سوى عرض الشارع ولكنه سفر بين جهتين. جهة تنخرط في معمعان اللحظة الراهنة وتشخص إلى مواضعاتها وجهة تحيا لحظتها الخاصة وتتطلع إلى اعتبارات «تسمو» على اليومي وتغض عنه الطرف. اعتبارات بدت لي كأنها سعي مؤلم وشاق إلى الكمال.

بين تينك الجهنين سافرت مراراً. بالنظر الحسير مرة وبالخطوة المتعثرة مرة أخرى. فكلما ذهبت إلى معرض الكتاب وفعالياته الثقافية وجدتني منجذباً جهة المحيط.

صوب ذلك الصرح العاجي المنفتح على خلاء أزرق. على عزلة تتخذ من المياه منتبذاً لها. كنت أتسلل من «المعرض» وأذهب إلى فضاء الجامع. أقف في صحنه الخارجي أو أستند إلى جداره الإسمنتي العريض الذي يفصله عن البحر. أرى وأسمع الأمواج العريضة وهي تمرُّ من جنبه وتتكسر على صخور كبيرة وضعت خصيصاً لامتصاص اندفاعة الموج. فالمسجد مصمم، على ما يبدو، لكي يجاور الأمواج لا ليواجهها فتضرب أسسه. إنه يتخذ وضعاً موازياً لحركة الموج.

لا يستطيع الزائر أن يدخل إلى المسجد في أي وقت. فهو لا يفتح أبوابه الكبيرة إلاّ في أوقات الصلاة. ومن لا يصلي مثلي سيخطىء في الأوقات التي ينفتح فيها باب ذلك العالم المسحور لمصلين قليلين أدركهم ميقات الصلاة وهم في تلك الجهة أو لآخرين جاءوا، خصيصاً، ليصلوا في مسجد هو حلمٌ من أحلام فتنة العمران وكماله. [أقول حلم، لأن الواقع العربي والإسلامي الركيك لا يمكن له ان ينتج عملاً فذا كهذا] فقد اختار مخططو هذا المسجد (ويقال أن الملك هو الذي فعل ذلك) منطقة بعيدة عن الأحياء السكنية والتجارية ليقام عليها. منطقة لا يذهب إليها المرء إلاّ قصداً. هي جزء من الدار البيضاء ولكنها منفصلة عنها في آن. لذلك لا تجد مصلين كثيرين في هذا الجامع الذي يتسع، مع فنائه الخارجي، لنحو مئة الف مصل سوى يوم الجمعة.

كانت صلاة العصر قد انفضّت عندما دخلت إليه أول مرة فألفيتني نهباً لجدل الهشاشة والقوة، المتانة والرقة، الزائل والراسخ، المعبد والمتحف. فمن المنمنمات والمقرنصات الدقيقة المشغولة بالجبس إلى غابة من أعمدة الحجر السماقي الذي يبلغ طول الواحد منها ١٣ متراً، ومن الخط النسخي المحتفي بالذكر الحكيم الى الزلّيج الذي لا يترك شكلاً من أشكال الزخرفة الإسلامية إلاّ ويستنفدها... ناهيك عن الأشكال الهندسية والزخرفات التي يقترحها الخشب في المحراب والقبب السبعين التي تعلو السقف والشرفتين المخصصتين للنساء.

يخطر للمرء وهو يطوف، ذاهلاً في جنباته، أنه من الصعب أن تجتمع، مرة أحر

ى، هذه الأيدي، هذه الحرف، هذه المهارات، هذه العزيمة على انشاء صرح خالد، هذه المهابة والسكينة كما اجتمعت في هذا المسجد الفريد.

ويبدو أن المسجد أفتتح، حسب المعلومات والمعطيات التي وقفت عليها، في توقيت لا يخلو من دلالة. فقد تم ذلك ليلة المولد النبوي لعام ١٤١٤ هجرية المصادفة ٣٠ آب (اغسطس) لعام ١٩٩٣.

الدلالة القصدية في افتتاحه ليلة المولد النبوي ظاهرة. فهذه مناسبة احتفالية إسلامية يتبارك فيها هذا الحدث ويتماهى مع مقاصده. فالمولد النبوي مناسبة تحتفي بها بعض الشعوب الإسلامية، تواشيح وغناءً وتذاكراً في سيرة النبي العربي، والمغاربة من الذين يحتفون بهذه المناسبة ويتعلقون بها. بل لهم ولع خاص بالطقوس والشعائر لا ينافسهم فيها، اللهم، إلاّ المصريون.

أما الدلالة الأخرى التي وقف عندها أحد الذين كتبوا عن المسجد فهي في الرقم ٧ الذي يتكوّن من تاريخ السنة الهجرية ١٤١٤. فالرقم أربعة عشر هو حاصل جمع السبع سموات والأرضين السبع حسب الآية القرآنية «خالق سبع سموات ومن الأرض مثلهن».

ويمكن أن نضيف إلى تأويل الرقم سبعة أيام الخليقة التي استوى الخالق في سابعها على العرش.

وهذه الكلمة الأخيرة كانت، على ما يبدو، في ذهن مخططي المسجد (الملك نفسه) عندما جعلوه على الماء تحدوهم الآية القرآنية «... وكان عرشه على الماء» والتي تسمعها على ألسن معظم زواره. فلا شيء يذكّر بهذه الآية اكثر من هذا المسجد الذي تحيطه المياه من أكثر من صوب. بل إنك عندما تراه من بعيد تظن أنه مقام، فعلاً، على الماء.

***

أقيم مسجد الحسن الثاني على مساحة تبلغ تسعة هكتارات واستغرق بناؤه

تسع سنوات من العمل الحثيث المتواصل الذي كان يشرف على مراحله، كما أخبرني أحد العاملين في المسجد، الملك شخصياً متدخلاً، أحياناً، في اختيار نوع الزليج أو لون الخشب، أو، وهذا هو تدخله الأصعب، زيادة علو المئذنة التي كانت أقل ارتفاعاً مما هي عليه الآن عندما انطلقت أعمال البناء.

والمسجد مخطط ليسع، كما أسلفت، نحو مئة الف مصل منهم عشرون ألفاً داخله وثمانون الفاً في فنائه الخارجي وهذا عدد لا يجتمع في مسجد في العالم سوى في «الحرم المكي».

ويخطر لي أن الأرقام القياسية كانت في ذهن الحسن الثاني عندما شرع يخطط لبناء منجز عمراني يرتبط، مدى الدهر، بإسمه وينسب إليه متذكراً، ربما، السلطان الموحدي العظيم أبو يعقوب المنصور الذي بنى مسجد «الكتبية» في مراكش ومسجد «حسان» في الرباط و«الخيرالدا» في اشبيلية. فالمسجد ينهض على ٧٨ عموداً من الحجر السماقي والمرمر والغرانيت، طول الواحد منها ١٣ متراً بحيث يبدو أكثر الاشخاص طولا قزماً حياله.

كما ترى وأنت تسرّح نظرك في السقف العالي قبباً استنفد صناعها المغاربة أشكالاً شتى من حفر الخشب وزخرفنه وصقله، بعضها مزين بزخارف على شكل نجوم وبعضها يتخذ أشكالا ترمز الى الشمس، كأن القبب، هنا، هي السماء ذاتها بما فيها من كواكب ونجوم فيما يتخذ بعض المقرنصات هيئة خلية النحل التي، علاوة على تكوينها الهندسي الرائع قد ترمز، ايضاً، إلى السعي الدؤوب إلى العمل والنظام.

والخشب المستخدم في السقف (وفي قاعدة الصلاة عموماً) هو من الأرز والزان المعالج بطريقة خاصة تحفظه من التسوس والفساد وهو مصبوغ باللون الأحمر الرماني. واللون الأحمر يطبع، عموماً، سقف المسجد وما دمنا نتحدث عن سقف قاعة الصلاة بجدر أن نشير هنا ان التكنولوجيا تتداخل فيه على نحو لا يفسد طابعه العريق. فيمكن للسقف أن ينفتح آليا في خمس دقائق لتدخل إليه الشمس

ويصبح ليس امتداداً للساحة الخارجية الفسيحة التي تتسع لنحو ثمانين ألف مصل فحسب، بل وجزءاً من الفضاء الخارجي ايضاً. كأن لا شيء يفصل بين قاعة الصلاة والمصلين وبين السماء من فوقهم. بينهم وبين المطلق. ليس للتكنولوجيا المستخدمة في مسجد الحسن الثاني سوى دور مساعد. فهي لا تتقدم على الزليج ولا على الخط المغربي ولا الشغل الزخرفي الدقيق على الجبص والخشب.

لكن مع ذلك فالتكنولوجيا هي التي انجزت هذه المعلمة فريدة الطراز في الزمن القياسي الذي انجزت فيه. ففي الأزمنة القديمة كان يمكن لمثل هذا العمل المعماري المعقد ان يستغرق عقوداً.

ومن دون التكنولوجيا لم يكن ممكناً، على أي حال، بناء مئذنة (الصومعة كما يسميها المغاربة) المسجد التي تعتبر الأطول في العالم. فارتفاعها يبلغ ٢٠٠ متر وهي مزودة بـ«جامور» يبلغ طوله ١٥ متراً ووزنه ثلاثة أطنان مجهز بأشعة الليزر التي ترسل سهماً ضوئياً يصل مداه ثلاثين كيلومتراً يشير إلى جهة القبلة. جهة الصلاة التي يتوجه إليها، في الوقت نفسه، ملايين المسلمين من اتجاهات شتى. علينا، والحال أن نتصور طول وضخامة الرافعة التي رفعت مواد البناء وحملت العمال المغاربة إلى ارتفاع مئتي مترا! لا بدّ ان تكون صممت، هي الأخرى، خصيصاً للقيام بهذه المهمة العمودية المضنية.

والمئذنة (الصومعة) هي بحد ذاتها آية في ضخامة المعمار وقوته، وجماله في الوقت نفسه، كأنها تود، بذلك، ان تجمع بين قوة العمارة الموحدية ورقة وترف عمارة المرينيين. فهي تجمع أفضل خصائص هذين العصرين المغربيين اللذين انتهى معهما الزمن الإمبراطوري للمغرب، ليدخل بعد ذلك، في حال ضعف وتراجع وذود عن حياض الدولة التي انكفأت وراء الشواطىء الشرقية للمتوسط والاطلسي.

ولعل الحسن الثاني أراد أن يقول، من وراء جمعه أكثر من زمن مغربي، انه وريث هذه الأزمنة، القوية والزاهية خصوصاً، وان المغرب استمرار لا انقطاع. تواصل وتوارث. زمن من رحم زمن.

كانت أشهر «صومعة» في المغرب، على ما أظن، هي صومعة «مسجد حسان» التي بناها الخليفة الموحدي ابو يعقوب المنصور في الرباط عام ١١٩٦م حتى شقت الفضاء صومعة مسجد الحسن الثاني في صيف عام ١٩٩٣. فهي ليست فقط أعلى وأضخم من صومعة «مسجد حسان» بل هي أعلى مئذنة مسجد في العالم، كما أنها لا تقارن بالأولى من حيث الزخرفة والتزيين والتجصيص المعقد الذي يختلف من واجهة الى اخرى من واجهات الصومعة المربعة.

ففي حين تعتمد صومعة مسجد حسان على الحجر المنحوت فإن صومعة مسجد الحسن الثاني تعتمد على حجر الجص الذي استهلكت منه مئة ألف متر مربع.

ويلفت نظرنا، نحن المشارقة، اختلاف شكل مئذنة الجامع المشرقي عن نظيره المغربي. ففي حين هي عندنا دائرية الشكل تكون في المغرب العربي (... والاندلس) مربعة. ويبدو أن النموذج الأول الذي احتذته جوامع الغرب الإسلامي في بناء مآذنها (صوامعها) هو المئذنة الشمالية للمسجد الأموي الكبير الذي بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بين عامي ٧٠٥ و٧١٠م.

فظهر في الشمال الإفريقي مع بناء مسجد القيروان الذي أرسى لبناته عقبة بن نافع، في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، ثم طاله التدمير فأعيد بناؤه أيام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. وبعد مسجد القيروان الواقع في قلب البلاد التونسية (كانت تسمى أفريقية يومذاك) جاء مسجد قرطبة الكبير وهو أحد أقدم إن لم يكن أقدم مسجد يقام في الاندلس على الاطلاق، وقد بناه الخليفة الأموي (الأندلسي) عبد الرحمن الأول (الداخل) بين عامي ٧٨٥ - ٧٨٦ وتوّسع بعد ذلك اكثر من مرة.

وواضح ان الأمويين الذين أسسوا هذه الجوامع - المعالم نقلوا طراز مساجدهم المشرقية (الدمشقية خصوصاً) إلى المغرب الإسلامي الذي حكموه فترة من الوقت طالت في الإندلس أكثر مما طالت في الشمال الإفريقي وتبنى هذا الطراز، لاحقاً، الموحدون الذين تركوا أوابد باسمهم أكثر مما تركت أي مملكة مغربية اخرى.

سعيد الكفراوي الذي ذهب معي الى المسجد مرتين، مرة كان مغلقاً فاكتفينا بالطواف في صحنه الخارجي والتطلع إلى مئذنته العملاقة والجلوس على دكة سوره الحجري العريض الذي يفصله عن المحيط، ومرة كان موعد صلاة العصر فدخلناه تحت قوس سكينة المعبد وسطوة جمال الفن قال لي: أنه يعتقد أن الحسن الثاني سيوصي أن يدفن، عندما يوافيه الأجل، في مسجده هذا.

فقلت له أظن أن هناك مدافن خاصة بالعائلة المالكة في الرباط. فلماذا سيوصي أن يدفن بعيداً عن ذويه وفي غير عاصمته؟

فقال لي (وكنا لا نزال داخل المسجد) أنظر حولك. أتظن أن هذا مجرد مسجد للصلاة؟ لو ان الملك أراد ان يبني مسجداً عادياً يؤمه الناس في الصلوات الخمس لجاء أكثر بساطة، بما لا يقاس، من هذا الصرح المعماري. وأضاف الكفراوي، الذي كان متحمساً لفكرته الى درجة بدت كأنها اقتراح من لدنه وليست مجرد ظن عابر: هذا صنيع معماري وحضاري معقد، مثل «تاج محل» أو الأهرامات، فالصلاة يمكن أن تقوم في أي مكان وتحت اي سقف نظيف. سيأتي الناس أفواجاً إليه وكلّ من يأتي سيقرأ الفاتحة على روح بانيه. فهل هناك مكان افضل ليقف الناس عنده كل يوم؟ بل هل هناك ضمانة ليكون الملك موجودا بين الناس وتحت اعين الزوار اكثر من هذا المكان.؟

صمت الكفراوي للحظة. بدا بعيداً عني وهو يرفع عينيه الصغيرتين، اللتين تبدوان كأنهما مغرورقتان بالدموع وراء نظارتيه الطبيتين، إلى القبب في سقف المسجد العالي. قال كأنما يكلّم نفسه: امكنة قليلة تضاهي جمال هذا المكان. ولكن يا لهذا الجمال الشقي المحبِّر.

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨



زيارة الى «أرض القيقب»:

لهيب الأشجار، صدمة الفرنسية، وبرج بابل شعري


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظللنا نطير فوق المحيط والشمس في سمتها ثابتة.

كان الطائر العملاق ذو القلب المعدني الصخّاب والجناحين الثابتين اللذين لا يخفقان ولا يرفُّ لهما ريش يسابق الشمس على أفق مفتوح. فكلما انطوت صفحة من الأفق - السديم انفتحت صفحة جديدة، والطائر الحديدي الذي يُقلُّ في جوفه نحو ثلاثمئة راكب وأطناناً من الأمتعة لا يعرف التردد ولا الكلل إليه سبيلا. طيران عنيد ومتواصل فوق لُجَّة زرقاء غامضة. طيران في سافانا بيضاء.

غادرت الطائرة حافة الأرض البريطانية ظهراً ووصلت الى مطار «دورفيل» الكندي عصراً.

من آخر يابسة في «العالم القديم» إلى أول يابسة في «العالم الجديد» كان الفارق مجرد ميلان طفيف للشمس صوب الغروب. مجرد قفزة صغيرة لعقرب الساعة. كأن الطائرة الكندية الممتلئة عن بكرة أبيها برجال ونساء كنديين ناطقين بانكليزية ذات لكنة امريكية عائدين من زيارة أرض الأجداد، لم تطر سبع ساعات متواصلة فوق المحيط الأطلسي.

كان فارق الوقت وإثارة الإنتقال إلى «الجهة الأخرى» من العالم قد جعلا نهاري هذا طويلاً إلى حد خيِّل اليَّ انه لن ينتهي. لا ليل بعد هذا الفيض الشمسي المطلق السراح. بعد هذه الشمس التي يبدو انها لن تغيب. شمس تتأبد في السمت. ليست هذه أطول مسافة أمضيها في طائرة، فالرحلة الى اليمن وعُمان من لندن عبر باريس وقبرص كانت أكثر طولاً ولكن هذه الرحلة إلى النصف الآخر من الكرة الارضية هي أطول رحلة تكون فيها وجهتي مع الشمس لا عكسها. وأول مرة يصبح الغرب الذي أقيم فيه شرقاً. ويكفُّ «المتوسط» عن أن يتوسط عالمين، عن ان يكون حدّاً فاصلاً بين جهتين. فالفاصل هنا أعظم بما لا يقاس الى حد يبدو فيه المتوسط بحيرة صغيرة..

لم تكن بريطانيا التي حططت فيها «رحالي» هي الغرب المعياري بالمعنى الحضاري فقط بل هي اقصى غرب جغرافي أصل اليه، الغرب الذي ينفتح بعده تيه

أزرق مديد. صحراء من المياه جرداء من أي ارض أو نتوء. لكن للغرب غربا بعده، وللأفق أفقا آخر وبعد المياه يابسة. عود على بدء، ورجوع الى مطرح الخطوة الأولى على هذه الكرة التي تدور وتدور بنا إلى ان يرثها الله ومن عليها.

من وراء السنين وعلى ارتفاع اكثر من ٣٠ ألف قدم يحضرني درس الجغرافيا الذي شرح لنا الاستاذ خلاله كروية الارض. قال الاستاذ الذي لم يغادر، على الاغلب، الاردن او جواره واثقا من علومه وبراهينه لطلبة يتثاءبون من الضجر: اذا خرج شخص ما من بيته وسار في خط مستقيم سيعود في نهاية المطاف الى بيته. الى النقطة التي انطلق منها.

كان يضع امامه على الطاولة مجسما للكرة الأرضية. زحفت أصبعه من نقطة صغيرة جدا على المجسّم، هي الاردن، فعبرت ارضا بنية خضراء، ثم بحرا إزرق ثم ارضا خضراء فانزلقت الى النصف الآخر من المجسّم الى ان عادت الى مكانها. الى تلك النقطة الصغيرة! ها انني اطير الآن، فعلا، فوق المياه التي مرّت فوقها أصبع استاذ الجغرافيا في مدينة اردنية، في مهبِّ الغبار تدعى «الزرقاء».

ليست المسافة إذن ولا مجرد فارق الوقت هما اللذان جعلاني مستثاراً منذ ان انطلقت طائرة الخطوط الكندية من مطار «هيثرو» في ظهيرة تكتنفها بعض الغيوم بل «الإنزلاق» الى «الجهة الاخرى» من هذه الكرة. جهة ظلت، حتى مجيء حمّى «الإكتشافات» والبحث عن طريق اخرى للهند أو مناجم الذهب، او الفراء، تحيا تاريخها الخاص وتعيش، بانسجام تام، مع عالمها الواسع المتنوع، قبل ان يصل إليها الأوروبيون بالبنادق والأمراض والكحول والكتب.

أهي الإستثارة فعلاً تلك التي جعلتني متيقظاً، مشدوداً طوال ساعات الرحلة فيما الركاب يتابعون فيلماً امريكيا عنوانه «هذا هو أبي» يعرض على شاشات تتدلى من سقف الطائرة أو يغطون في النوم؟

اغلب الظن انها كذلك.

فلا يبدو أن الرحلة هذه هي الأولى لمعظم هؤلاء الركاب اللاهين عن المناهة الزرقاء

العظيمة التي تحلق فوقها الطائرة، المنصرفين، باسترخاء، إلى برنامج الطائرة كاملا: المشروبات، الفيلم، الغداء، المشروبات مرة اخرى، ثم الإلتحاف بالبطانيات التي توفرها الطائرة والاستغراق بالنوم، ثم وجبة سريعة، فتعديل الساعات وفق توقيت مونتريال قبل أن تشرع الطائرة بالهبوط. إيقاع مضبوط ومتواتر. روتيني. معرفة بالوجهة واطمئنان إلى بلوغها. اطمئنان الى «حداثة» (حداثتهم) جعلت عبور هذا اليم وتلك الرحلة المجازية التي قامت بها اصبع الاستاذ على مجسّم الكرة الارضية، ممكنا.. لا بل وعاديا لا يخضع للإستهجان، للشك او المساءلة.

عبّرت عن ذلك خير تعبير جارتي الإنكليزية العجوز التي وضعت، بعد ان عبّت من الويسكي حتى انربط لسانها، سدادتين فلينيتين في أذنيها وعصابة سوداء على عينيها وأدارت رأسها الى الجهة الاخرى ونامت.

وقد ذكّرني منظرها الجانبي هذا بالمقلب الذي شربته عندما دلفتُ الى الطائرة أول مرة. فإلى جانب صف المقاعد الذي يفترض ان اجلس فيه، المكوّن من مقعدين اثنين فقط، كانت شابة نحيلة بقصة شعر قصيرة فرنسية الطابع (كاريه) ترتدي بلوزة قطنية تبرز تكوير خصرها تمط جسمها الى الأعلى لتضع أغراضها في خزانة الطائرة العلوية. استبشرت خيراً وقلت في نفسي لعلها تكون رفقة طيبة! ولكن ما ان انتهت من وضع أغراضها واستدارت لتجلس، وكنت قد صرتُ وراءها تماماً، حتى أُصبتُ بخيبة أمل كبيرة لا بدّ أنها لاحظتها على وجهي الذي انتقل من البشر والرجاء إلى الأسف والإمتقاع. كان وجه المرأة خريطة من التجاعيد والأخاديد الصغيرة. وكان عنقها المطوق بسلسلة ذهبية، وصدرها الذي تكشف البلوزة قسمه الاعلى مجعدين. ابتسمت الشابة - العجوز لجارها الذي لم يتمكن من التعايش مع الهندام والوقفة الفتّية للمرأة ووجهها الطاعن بالغضون إلاّ بعد وقت، فانتزع ابتسامة مفتعلة من وهدة خيبة الأمل.

كانت المرأة في منتصف ستيناتها لكن نحافتها وطراز لبسها (خصوصاً قصة شعرها) تظهرها في الثلاثين.

كانت هذه السيدة التي جلستُ إلى جانبها سبع ساعات في حيِّز ضيق وعلى ارتفاع نحو أربعين الف قدم عن سطح البحر طريفة جداً. تتحدث بسرعة وتتوقف فجأة. ثم تعلق على شيء فتضحك لتعليقها فأضطر الى مجاراتها رغم أنني لم أكن أفهم غالباً مغزى التعليق ولم أجد في ما فهمته منه ما يدعو الى الضحك.

لم تتوقف جارتي عن طلب الويسكي الذي كانت تجلبه إليها المضيفات، زجاجتين صغيرتين اثنتين كل مرة إلاّ عندما جيء بالوجبة الخفيفة التي تسبق الهبوط. وقد فهمت من هذه السيدة التي لا أعرف لها اسماً أنها انكليزية من منطقة « سسيكس » وهي ذاهبة الى مونتريال لزيارة ابنتها المتزوجة هناك، وان هذه هي زيارتها الثالثة.

وعندما عرفت انها زيارتي الاولى إلى كندا سارعت الى امتداح البلاد واناسها الودودين ونبهتني الى أن هناك ويسكي كنديا لا يقل جودة عن الويسكي الأسكتلندي.

لكن ليس الويسكي الكندي هو ما اثار اهتمامي بل حديثها عن شجرة « القيقب » التي تتخذ حكومة كندا من ورقتها شعاراً وعلماً لها وعن عسلها الذي يستخرج من لحائها في الربيع.

ومن سيدة « سسيكس » هذه عرفت ان اسم البلاد (كندا) يعني « البيت »، في احدى لغات السكان الأصليين الذين دعاهم الغزاة البيض بـ« الهنود الحمر » وهم ليسوا هنوداً كما انهم ليسوا حمراً: اللهم إلاّ حُمرة « القيقب » التي سأرى لهبها ينشر انفاسه في المدى الأخضر وعلى صفحة المياه في الطريق الى تروا - ريفير.

فكَّرت بالدلالات الكريمة، الأليفة، الأهلية النى ينطوي عليها هذا الاسم والمصائر العجيبة التي آل اليها.

« كندا » هي اذن « البيت ». ولكنه بيت دخله « الغرباء » من نوافذه وليس من أبوابه. تسللوا اليه كما يتسلل اللصوص، او دخلوه عنوة كما يدخل الغازي.

« بيت » لغير أهله الذين سيجبرون على اخلائه والتلطي في حوشه. الذين سيصبحون « هنودا »، طرائد امام بنادق معبأة بالبارود والشبق الى النفوذ، التوسع، الدم.

لن أعلم أن حديثي مع هذه السيدة التي ظلت أنفاسها تفوح برائحة الويسكي حتى هبطنا في مطار « دورفيل » سيكون، تقريباً، آخر حديث لي مع شخص لغته الأم هي الانكليزية طوال عشرة ايام سأقضيها في مدينة « تروا - ريفير » (الانهار الثلاثة) من أعمال إقليم « كيبيك » الكندي، بل لن أعلم ما إذا كانت دعوتي للمشاركة في مهرجان شعري ناطق بالفرنسية هي نتيجة التباس وقعت فيه اللجنة المنظمة أم انها كانت عملاً مقصوداً.

لكن وقائع الأيام التالية ستجعل الإلتباس والقصد يتبادلان المواقع.

سأدخل « البيت »، اذن بعد قليل.. ولهذا « البيت » رب يحميه. لكنه ليس رب عبد المطلب ولا رب حفيده، ولا رب عيسى، بل أقوى ربّ على الارض: امريكا.

صدمة الفرنسية

كانت الثالثة بعد الظهر، تقريباً، عندما هبطت الطائرة في مطار « دورفيل ».

كانت اجراءات الدخول بسيطة وسهلة على عكس قسيمة الدخول المكتوبة بالانكليزية والفرنسية والمتضمنة خانات وتفاصيل دقيقة عن الشخص الداخل وعدد افراد عائلته، الاموال، السلع، الأمتعة، الحيوانات التي يجلبها معه. ويبدو أن قسيمة الدخول هذه مصممة لتشمل الزائرين والمهاجرين معاً.

فعند حيز أفراد العائلة المرافقة هناك نحو خمس خانات للأسماء، وثمة ملاحظة تقول أنه اذا لم تكف هذه المساحة لتسجيل جميع مرافقي حامل الجواز او القاطنين معه في عنوان واحد فيمكن الاستعانة بورقة خارجية. واغلب الظن ان مثل هذه الملاحظة تخص المهاجرين من العالم الثالث أكثر من غيرهم.

وسأعرف لاحقاً من الشاعر المغربي مصطفى فهمي الذي يعمل استاذاً جامعياً في إحدى جامعات «كيبيك» ان السلطات الكندية تفضل هجرة العائلة على هجرة الفرد. فالعائلة التي تهاجر الى كندا ترمي جذورها هناك وتبقى، بينما يمكن للفرد أن يفيد من المزايا التي توفرها له الحكومة الكندية كمهاجر ثم يقفل عائداً إلى بلاده. لم أقل لصديقي مصطفى إنني أشك في تقدير الحكومة الكندية المتفائل بصدد عودة الأفراد، خصوصاً، إذا كانوا قادمين مما يسمى «العالم الثالث» الخاوي على عروشه الآن، الذي تنقصف فيه الإحلام والمطامح قبل أن تشبَّ. فمعظم العرب الذين هاجروا، عائلات كانوا أم أفراداً، لم يعودوا. من يهاجر لا يعود..

ليس في الطائرة القادمة من لندن أي مهاجرين على ما يبدو، فمعظم الذين كانوا على متنها هم من «إنكليز» الإقليم الفرنسي الذين يزورون، أسوة بالمتحدرين من أصول انكليزية في عموم كندا، بلاد أجدادهم.

هكذا خرجنا بسرعة إلى باحة الإستقبال الخارجية. كانت هناك امرأة في الخمسينات من عمرها تحمل لافتة عليها شعار المهرجان الشعري الذي أحضر للمشاركة فيه. تقدمتُ في اتجاهها فعرّفَتْ انني الشخص الذي تنتظرُ فجاءت مُرحّبةً يسبقها رِشاشٌ من الفرنسية التي لم أعقل منها سوى أمجد ناصر. انتظرت حتى فرغت من كلامها وقلت لها بالانكليزية: للأسف أنا لا اعرف الفرنسية. بدا على المرأة استغراب شديد. فقالت (بإنكليزية مهيضة الجناح): ولكنك تعرف قليلا منها. فقلت: ولا كلمة. فأسقط في يدها تماما. فأخذت تصارع لتفهمني ان هناك شاعرين اثنين وصلا قبلي واننا ننتظر وصول شاعر ثالث بين لحظة واخرى.

بالكاد استطعت ان استجمع اجزاء هذه الجملة، وقد جاء دوري لأستغرب، بل لأدهش، كيف يمكن لكندية حتى وان كانت من «المنطقة الفرنسية» أن لا تعرف الإنكليزية.

كنت أدري قبل زيارتي هذه الى كندا أن هناك حركة انفصالية قوية في إقليم «كيبيك» الكندي الناطق بالفرنسية، وان هذه الحركة، على قوتها، لم تتمكن من

انتزاع الأصوات الكافية للإنفصال عن الإتحاد الفيدرالي في الاستفتاء الذي أجرته الحكومة الكندية قبل ١٩٩٥ .

وليس غائباً عن ذهني، كذلك، الصراع بين الفرنسية والإنكليزية، الآن، خصوصا على المستوى الثقافي سواء في أوروبا نفسها أم في المستعمرات السابقة.

أعرف أن فرنسا تحاول جهدها كيما تقف في وجه «الأمركة»، الطور الاحدث ولكن الاكثر ابتذالاً من الإنكليزية بحسب المنظور الأوروبي، التي تغزو ليس الشارع الاوروبي فقط بل الشارع الفرنسي نفسه عبر الافلام السينمائية والموسيقى والاغاني و«ماكدونالد» رأس حربة «الفاست فود».

أعرف وأتخيل أوجها عدة لـ«تحصن» الفرنسيين والفرنسية في وجه انكليزية الأمريكيين وسياقاتها الثقافية والاجتماعية، لا بل والسياسية أحياناً. وأعرف، بالطبع، الخلفية التاريخية المريرة التي حكمت العلاقة بين الفرنسيين والانكليز. لكني، مع ذلك، لم أكن اتخيل أن أجد صعوبة خارقة في اقامة حوار بسيط بالانكليزية سواء مع المثقفين الكيبيكيين ام مع الناس العاديين في شوارع «تروا ـ ريفير». فكندا، بعد كل شيء، مرتبطة بذهني بالانكليزية.. وتحديدا الانكليزية الامريكية.

ولن تكون صعوبة الحوار التي ابتدأت مع «لويز»، السيدة الكيبيكية التي كانت بانتظاري في المطار، سوى أول الغيث.

***

كان أسهل على «لويز» أن تقودني الى طاولة في مقهى صغير في باحة المطار يجلس علبها احد الشعراء الضيوف من ان تشرح لي كيف أذهب الى هناك. كان الشاعر، ذو الملامح الاسكندنافية، الجالس على الطاولة، منهمكا بالكتابة. كان واضحا من تقطيع الكلمات على الأوراق التي امامه انها قصائد. فهل كانت قريحة

الشاعر ذي الملامح الاسكندنافية سيالة تلك اللحظة أم انه كان « يبيِّض » قصيدة قديمة استعداداً للماراثون الشعري الذي كان ينتظرنا بعد ساعات. لا أدري. لكنه توقف عن الكتابة، ووضع أوراقه في حقيبته. قدمتني اليه « لويز » فبادرني بالحديث بالفرنسية، فقلت له بالانكليزية انني لا أعرف الفرنسية (وسأكرر هذه الجملة في الأيام العشرة القادمة مئات المرات) فانتقل، في الحال، الى الإنكليزية. قال لي انه يدعى فريدريك اوكيلاند وهو من السويد. فأخبرته انني من الأردن. فقال لا بدّ انها كانت رحلة طويلة. فقلت له إنني حضرت من لندن التي أقيم، الآن، فيها وليس من عمان. لم تمض دقائق على وصولي حتى جاء شاعر آخر يبدو أنه خرج بعد أن أودع أمتعته مع لويز الى خارج المطار ليدخن، فالتدخين ممنوع في مرافق المطار، كذلك على متن الطائرات الكندية والاوروبية القادمة الى كندا. وللمدخن فإن سبع ساعات من عدم التدخين هو زمن جحيمي. أنا المدخّن، السابق، أعرف هذا العذاب وأقدّره حقَّ قدره. اخبرنا الشاعر المدخِّن انه تركي ويدعى طغرل تانيول.

كان يتحدث انكليزية طلقة كما هو شأن الشاعر السويدي. قال طغرل، الذي يبدو في مطلع الخمسينات من عمره، انه أمضى طفولته في شمال لندن. سألته ان كان قبرصياً تركياً. فقال لي انه من تركيا نفسها وان كان يعرف ان معظم الاتراك الذين يقيمون في لندن، خصوصاً في شمالها، هم من القبارصة الأتراك الذين نزحوا من الجزيرة اثناء الحرب الاهلية عام ١٩٧٤.

فقلت لطغرل لعلك تعرف ان معظم القبارصة أتراكاً ويونانيين الذين شطرهم الإجتياح التركي للجزيرة إلى شطرين يقيمون معاً في شمال لندن.

فقال: أعرف

كان طغرل، المربوع، الممتلئ، بهمة المطبخ التركي الكريم، مرحاً وساخراً وسهل المعشر. الأمر الذي شجع الشاعر السويدي على الكشف عن خصال مشابهة ستتضح، أكثر، في الايام القادمة.

أخبرنا طغرل ان هذه مشاركته الثانية في هذا المهرجان. فسبق له أن شارك في مهرجان «تروا ـ ريفير» الشعري قبل سبع سنوات.

سألته عن القراءات كيف تتم وهل هناك أشخاص محددون لقراءة الترجمات.

فقال: أي ترجمات؟

فقلت له: ترجمات الشعراء غير الناطقين بالفرنسية.

فقال: على حد علمي إن جميع القراءات تتم بالفرنسية فالشعراء المدعوون كلهم ناطقون بالفرنسية.

هنا انتبه الشاعر السويدي فريدريك اوكيلاند، فقال: تقصد ان علينا نحن الشعراء الاجانب ان نقرأ قصائدنا بالفرنسية وليس بلغاتنا الاصل.

فقال الشاعر التركي: هذا ما أعرفه ولكن قد تكون الأمور تغيرت خلال السنوات السبع الماضية.

استغربنا، فريدريك وأنا الامر. فلم يكن هذا ديدن المهرجانات التي شارك كل منا فيها. تحدث فريدريك عن مهرجان شعري يعقد في مدينته «مالمو» وقال ان القراءات تتم فيه باللغات الاصلية للشعراء تعقبها ترجمات. كذلك تحدثت عن مهرجانات حضرتها أو حضرها أصدقاء لي بينها مشاركتان لي في فرنسا نفسها حيث قرأت باللغة العربية وقرأ فيهما الذين يعرفون الفرنسية بلغاتهم الأصل...

سألت فريدريك وطغرل ان كانا يكتبان بالفرنسية أم بلغتيهما الأم. فقالا، طبعا، بلغتنا الأم. بل ان ترجمات قصائدهما الى الفرنسية التي سيقرآنها في المهرجان لم يقوما بها، بل مترجمون مختصون.

كان برنامج المهرجان الذي يستمر عشرة ايام غائبا عن اذهاننا. فلم ترسل الينا ادارة المهرجان شيئا عنه. وعندما تسلمنا البرنامج مع أدبيات وكراسات سياحية تتعلق بالمدينة، عرفنا لماذا لم يُرسل الينا. فقد كان يقع في نحو ٢٧ صفحة فولسكاب تتضمن ٣٧٤ فعالية شعرية، لكل شاعر ما معدّله ٣٠ قراءة!

ثلاثون قراءة!
ثلاثون
قراءة
لكل
شاعر!

لهيب «القيقب»

عادت «لويز» ومعها شاعران أحدهما من «أكاديا»، وهي منطقة كندية تقطنها أقلية فرنسية وسط كثرة ناطقة بالإنكليزية، يدعى روميو سيلفيو، والثاني من الأرجنتين ويدعى رودلفو ألونسو والإثنان، على ما أظن، في مطلع ستيناتهما.

حملنا حقائبنا وتوجهنا إلى السيارة التي كانت تنتظرنا عند مدخل المطار وتبين لنا أن مُستقبلتنا وسائقتنا هي «لويز» نفسها. وضعنا حقائبنا في الصندوق الخلفي لـ«الكرايسلر» الأمريكية الحديثة طراز «فوياج» التي تحتوي على ثلاثة صفوف من المقاعد.

كل الحقائب سَهل أمرها إلاّ حقيبة الشاعر التركي طغرل تانيول. فهي كانت كبيرة الحجم وثقيلة وغريبة الشأن. حاول ثلاثة منا وضعها في الصندوق الخلفي فلم يتمكنوا ولما أنزلوها انطلقت من تلقائها في اتجاه آخر. وقد ذكرتني حقيبة الشاعر التركي بحقيبة الناقد الأردني الصديق فخري صالح أثناء مهرجان «بواتييه» للشعر عام ١٩٩١ حيث اتخذت لنفسها منذ خروجنا من محطة «غارد دي نور» في باريس وحتى وصولنا إلى محطة «بواتييه» حياة وأطواراً خاصة استقلت بها عن صاحبها فَصَعُب قيادها أو التحكم في اتجاهها. فصارت حقيبة فخري صالح مضرب مثل للمشاركين في المهرجان خصوصاً غسان زقطان والمرحوم جميل حتمل وانا، وحيثما التقينا غسان وفخري وأنا كانت الحقيبة موضع تندر أصبح مع مرور الوقت كلاسيكياً.

أخيراً تمكنا من السيطرة على حقيبة طغرل ووضعناها داخل السيارة لا في

صندوقها الخلفي وجلس هو إلى جانبها.

كانت الساعة نحو الخامسة عندما انطلقنا من مطار « دورفيل » في اتجاه « تروا - ريفير » . الشمس ساطعة تماماً ودرجة الحرارة نحو ثماني عشرة درجة مئوية، الهواء خفيف، صادر من طبيعة لم تفسد روحها تماما ولا صار التلوث وجها آخر لها. في الطريق كنا نمرُّ على بيوت متباعدة ومعزولة بدت لي أقرب إلى الطراز الأمريكي منها إلى الاوروبي. كان المدهش، بل المذهل، إندلاع ألوان من الحمرة والصفرة المتدرجة على خلفية من اللون الأخضر في الأشجار المصطفة على جانبي الطريق. الحمرة خصوصاً، بدت لي من فرط توهجها كأنها مصنوعة. كأنها رسم أو ديكور لخريف إسطوري.

سأعرف أن هذا التوهج، هذا الإحمرار الناري في الأشجار هو لشجرة « القيقب » . شجرة « البيت » . شعاره، رمزه المسافر في الأمم. إحمرار النار، أحمر مضروب بالأصفر، أحمر البرد.

ولكن أي رسام، يمكن له أن يرسم هذه المساحات الشاسعة من الأحمر والأصفر والأخضر.

ورغم طول هذا النّهار والإنتقال من جهة إلى أخرى في العالم محشوراً على مدى سبع ساعات في كرسي ضيّق إلاّ إنني لم أكن متعباً. كنت مختلفاً، أقصد كنت أشعر بالإختلاف. كان كل شيء حولي مختلفاً أيضاً: الأرض، الأشجار، طراز البيوت، الهواء، المياه التي تراها في كل مكان [... والتي بدت لي من نافذة الطائرة عندما وصلت الأرض الكندية، بقعا ومساحات زرقاء كبيرة تنافس أرضاً غير مأهولة. أزرق غالٍ. كلما رأيته تذكرت بلادي التي بالكاد يسيل فيها خيط أزرق. بلادي التي تطلع من قلب الصفرة، والجفاف. من بحر الرمل. بحر العطش، بلادي التي تلوك عشبة صفراء، وتموت على قطرة ماء].

كان رفاق رحلتي منخرطين في حديث بالفرنسية لم أفقه منه شيئاً [وسأعتاد على إيقاع اللغة الفرنسية الى درجة سيخالطني وهم انني أفهمها]. كانوا كلهم:

التركي، السويدي، الأرجنتيني يعرفون الفرنسية جيداً، وهذا في أصل دعوتهم لمهرجان «تروا - ريفير».

أول كلمات أتبادلها مع الشاعر الأرجنتيني رودلفو ألونسو الذي جلس جنبي في السيارة كانت بعد أن توقفت «لويز» عند إحدى المحطات لتملأ السيارة بالوقود.

كان رودلفو، طويل القامة ومعتدلها، أبيض البشرة، يتحدث الإنكليزية جيداً.

قلت له على سبيل فتح الحديث بيننا: نعرف من الأرجنتين ثلاثة بورخيس، كارلوس منعم، مارادونا.

ضحك وقال هذه رموز «فلكلورية».. أرجنتينية. بعضها أصبح مثل الطاعون كبورخيس الذي جلدونا به في الأرجنتين طوال هذا العام لمناسبة مئة سنة على ميلاده والثاني رئيس فاسد غيّر دينه من أجل ان يحكم والثالث انتهت أسطورته لسوء أخلاقه.

استغربت موقف ألونسو من بورخيس: فقلت له ولكنه أهم كاتب أرجنتيني وربما من أهم كتاب العالم هذا القرن.

قال: إنه أشهر كاتب، لكن هناك كتاباً مهمين في الأرجنتين وأمريكا اللاتينية، عموما، وليست لهم الشهرة التي لبورخيس.

فقلت له والى م تعزى هذه الشهرة.

قال: إلى الغرب... الذي اكتشف فيه خلطة أوروبية، اسبانية، لاتينية، عربية. لا أجادل بأهمية بورخيس ولكنني أقول انه ليس معقولاً أن تختصر الأرجنتين، بل وأمريكا اللاتينية به.

على كل حال لا اعرف كيف اعبّر لك عن موضوع بورخيس بالنسبة لي كأرجنتيني. ليس امر مواقفه السياسية اليمينية هو ما يحدد موقفي منه ولكن من لا يعرف الارجنتين سيجد صعوبة في فهم موقف كهذا. لا أماري في اهمية كتابته، لكن الامر لا يتوقف عند الكتابة فقط هناك امور لها علاقة بمواقف بورحيس، برؤينه

للعالم، وحتى على مستوى الكتابة فأنا افضل الناثر فيه على الشاعر.

أما كارلوس منعم فأظن أنكم لا تحبونه.

فقلت له: من تقصد؟

قال: انتم العرب.

قلت: لماذا؟

قال: لأنه غيّر دينه من الإسلام إلى المسيحية الكاثوليكية ليحكم، فالدستور الأرجنتيني ينصُّ على ان المسيحية هي دين الرئيس.

فقلت له: ان ذلك، في الواقع، لا يعنينا. لا نتعامل معه كعربي. فهو أولاً وأخيراً أرجنتيني. ولكننا قد لا نحبُّ أن ينسب إلينا فساده الشخصي والسياسي، فيكفينا ما لدينا من فساد ومفسدين.

فقال ألونسو: لا تقلق. فهذا فساد أرجنتيني أو قل أمريكي لاتيني بحت.

سألته: هل ينظر الأرجنتينيون اليه كعربي؟

فقال: لا. ليس ليس هذا مطروحاً. خصومه أو كارهو سياسته يعارضونه لأسباب سياسية، لا عرقية، الارجنتين ايضا بلد مهاجرين.

فأنا شخصيا انحدر من احدى اقليات اسبانيا. والدي هو الذي هاجر الى الارجنتين. هناك ايطاليون، يهود، عرب، طبعاً بالاضافة الى الاسبان. اما السكان الاصليون فهم قلة في الارجنتين.

قال: هل تعلم أن زوجة منعم، أو مطلقته «سليمى» رفضت ان تصبح مسيحية؟

فقلت له: لا أعلم.

قال لي ألونسو: على كل حال. هناك كاتب أرجنتيني مهم جداً من أصول عربية يقيم في باريس هو خوان خوسيه ساير.

فقلت له: للأسف نحن لا نعرف عنه شيئاً. فالمثقفون العرب الذين يعرفون الإسبانية قليلون جداً. ومعظم ترجمات الروايات والقصائد المكتوبة بالإسبانية نقلت الى العربية من الفرنسية أو الإنكليزية. نسي العرب الإسبانية بعد أن طردوا من إسبانيا ولكنهم لم ينسوا الأندلس.

فقال: ولكنهم لم يكونوا يحتاجون الإسبانية، الإسبانية هي التي كانت تحتاج إلى العربية.

كان رودلفو ألونسو، الذي اكتشفت بالمصادفة ان إحدى مجموعاته الشعرية المترجمة إلى الفرنسية صادرة عن دار «لارماتان» الباريسية التي صدرت عنها مختاراتي الشعرية «معراج العاشق» محباً للغة والحضارة العربيتين رغم انه لا يعرف العربية. وسيظل طوال الايام العشرة التي سنمضيها معاً يذكرني بكلمة أو تعبير باللغة الإسبانية عربي الأصل.

العربية، منذ هذه اللحظة، تحوم في الجوّ. تدوّم. لها جنود من عسل.

لا أمتدح لغتي، لا أرفعها فوق اللغات، بل بالأحرى أرغب بالفرار منها. ما وجودي اليوم بين هؤلاء الذين لا يعرفون العربية سوى محاولة للخروج من قوقعة لغتي. لمعانقة لغات أخرى. لغات الآخرين. اهرب من العربية لكنني اجدها امامي. او تحوم حولي.

لا تحضر العربية، إذن، بحضوري وإنما لأن شظاياها حاضرة، رغم الواقع العربي المزري، في السؤال الحضاري، الشعر، أشواق الأنفس والأرواح، بشكل أو بآخر، وذلك، بالتأكيد، بسبب لحظة سابقة وضعت هذه اللغة في مدار انساني انطلقت فيها العربية من عزلة المحل ومواضعاته الصغيرة إلى رحابة الكون وتعدده.

لم تصبح العربية لغة يقبلها الآخرون ويتحولون اليها الاّ لأنها تجاوزت العنصر والعرق وأنصتت الى المتكلمين السابقين. فأخذت واعطت وحاورت وصهرت في قدرها الكبيرة كثيرا من الكلام السابق عليها أو الماشي إلى جنبها.

لا تحضر العربية بحضوري في هذا الصقع النائي لكنّ حضوري حرَّك جمرها الثاوي تحت الرماد.

شخوص على وشك الطيران

بعد نحو ساعتين وصلنا إلى «تروا - ريفير». أخذتنا «لويز» إلى فندق يدعى «غروفنر». قالت ضعوا حقائبكم في غرفكم وانزلوا لأننا سنذهب إلى حيث تجري وقائع افتتاح المهرجان. فعلاً، وضعت حقيبتي وغسلت وجهي ونزلت ولم أجد سوى «لويز». انتظرنا قليلاً فلم يهبط أحد من رفاق الرحلة. قالت لي: حسناً، سأوصلك واترك لهم العنوان عند موظفة الإستقبال. كانت القاعة التي افتتح فيها المهرجان (وانتهى الأمر) على بعد عشر دقائق من الفندق.

«سلمتني» لويز الى غاستون بلمار مدير المهرجان الذي كان يحمل بيده صحناً بلاستيكياً فيه قَطع سندويش صغيرة. بدأ غاستون الحديث معي بالفرنسية، فقلت له: أنا لا أعرف الفرنسية. فتكلّمَ بالإنكليزية. بدا كأنه يعرف إنني لا أعرف الفرنسية، ولكنه لم يشر إلى ذلك. كان يعرف من الإنكليزية ما يكفي لكي نتفاهم. سألني كيف كانت الرحلة، فقلت له: جيدة. قال لي لا بدَّ أنك متعب قليلاً فقلت له: أبداً.

كان في القاعة عدد من الأشخاص وكانت هناك مائدة مستطيلة عليها نبيذ ومشروبات خفيفة وصحون وسكاكين وشوك بلاستيكية وبضعة أطباق كبيرة فيها سندويتشات صغيرة من الجبنة و«البيكون» و«الباتيه».

كان، على ما يبدو، افتتاحاً متقَشفاً جداً لمهرجان كبير يحتفل بالذكرى الخامسة عشرة لتأسيسه ويشارك فيه اكثر من ستين شاعراً من «كيبيك» وفرنسا ودول مختلفة من العالم.

حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف شيئاً يتعلق بالمهرجان عموماً ولا بأي إجراء

يخصني، شخصياً، باعتبار أنني لا أعرف الفرنسية. وسبق لغاستون بلمار أن طلب من الصديق الكاتب العراقي جبار ياسين الذي اقترح إسمي عليه نسخة من مختاراتي الشعرية بالفرنسية التي ترجمها الشاعر العراقي الصديق عدنان محسن. وقد ظننت، مثلما هو الحال في الملتقيات الشعرية التي حضرتها في اوروبا، ان هناك من سيقرأ الترجمة الى جانب القراءة باللغة الام.

سألت غاستون. هل تدبرت أمر من يقرأ الترجمة؟

فقال: اي ترجمة.

فقلت له: ترجمة قصائدي الى الفرنسية.

وضع صحنه على الطاولة التي كنا نقف بجانبها وحك رأسه وقال: ليست هناك ترجمات في هذا المهرجان. الشاعر يقرأ قصيدته أمام الجمهور بنفسه. فلا مجال للترجمة. من الصعب أن يستمع الجمهور إلى ترجمة. القراءة الواحدة لا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق، لا مجال في تقاليد هذا المهرجان للقراءات المطولة كما إننا لا نقيم أمسيات تقليدية: قاعات وجمهور وشاعر يقرأ على المسرح. لا. لا. ليست هذه طريقتنا.

فلسفة المهرجان في توصيل الشعر إلى المتلقي تتمثل في ذهاب الشعر إلى الجمهور لا إحضار الجمهور إلى الشعر. فالجمهور الذي سيأتي إلى الشعر أصبح قليلا. نحن نستهدف جمهوراً أوسع من مجرد النخبة التي تحب الشعر وتقرأه. لذلك سترى ان فعاليات المهرجان مختلفة عن المهرجانات الأخرى. هناك قراءات كثيرة، في أماكن تواجد الناس، ولكنها قراءات قصيرة مركزة.

قلت له: كل هذا جميل ومثير للإهتمام. ولكنك نسيت شيئاً واحداً.

فقال: ما هو؟

قلت: أنا لا أعرف الفرنسية. فكيف سأقرأ نصوصي بها!

صفن قليلاً ثم تلفت حوله كأنه يبحث عن حلّ لهذه «المعضلة» التي لم أفهم كيف لم يفكر بها من قبل، ثم قال: في كل أمسية تشارك فيها أطلب من أحد زملائك أن يقرأ نصك الفرنسي المترجم أولاً حتى تتكوّن لدى المستمعين فكرة عن

القصيدة ثم اقرأها أنت بالعربية ولكن انتقِ قصائد قصيرة لا تتجاوز قراءتها مع الترجمة أكثر من أربع إلى خمس دقائق.

فكّرت أن أسأله ما إذا كان يعلم، مسبقاً، إنني لا اعرف الفرنسية. لكنني لم أفعل. فقلت في نفسي انه بالتأكيد يعرف ذلك. فالرسائل الأخيرة التي أرسلتها إليه كانت بالانكليزية والرسالة الصوتية التي تركتها له على هاتف إدارة المهرجان لأخبره بتفاصيل قدومي كانت بالإنكليزية أيضاً، كما إنني أقيم في لندن وليس في باريس. أليست هذه مؤشرات كافية على انني لا أعرف الفرنسية. استأذن مني غاستون ربما فراراً من الحديث باللغة الانكليزية ومن شيطانها الذي حضر بحضوري انا وذهب يتحدث مع أشخاص يتحلقون حول طاولة صغيرة عليها صحون أكل وكؤوس شراب. أشخاص من الخفَّة كانوا بحيث أوشكوا على الطيران. لقد بلغ الشراب مبلغه دون شك. فالافتتاح مضى عليه أكثر من ساعتين.

بقيت وحيداً أجول بالنظر على شخوص هذا المسرح. أحسستُ، لوهلة، إنني موجود في المكان الخطأ. لا أعرف أحداً من الموجودين. لا أفهم ما يقال. الكلام على إيقاعه الجميل مغلق عليّ. الفرنسية تتراقصُ، تتمددُ، تسرعُ، تبطيءُ، تتغنجُ، تشتد أنوثة حرف «الراء» المقلوب «غينا». خطر لي، لحظتها، أن الفرنسية تُنطقُ بالفم كلّه، برغابه، بمواطن حواسه، بشهوانيته التي يحلُّ عقدتها النبيذ، بالشفتين مفتوحتين تماماً ومضمومتين، على عكس الإنكليزية الناشفة التي تكاد تنطق بالأنف من فرط الترفّع. هل الفرق بين اللغتين هو فرق بين سياقين اجتماعيين وثقافيين ودينيين. زخرف الكاثوليكية وتقشف الانغليكانية، حسيّة وإفصاح الأولى وطهرانية وتكتم الثانية؟

كنت تحت غمر التفجرات اللغوية الفرنسية المتواصلة للأشخاص القريبين المحمولة على حُميّا النبيذ عندما وصل رفاق رحلتي الثلاثة. فتهللت أساريري. بدا لي انني أعرف هؤلاء الشعراء الثلاثة منذ دهر. انضموا إلي حيث كنت أقف فجاء غاستون يسلم عليهم. بعد قليل جاء شخص من الموجودين له ملامح أمريكية

جنوبية، رأيته يتنقل من مجموعة من الأشخاص إلى مجموعة أخرى لا يستقر على حال. يتابع بعينيه حركة النساء القليلات، متدنيات الجمال، اللواتي كن في القاعة. تقدم مني وقدم لي نفسه: رفائيل باتينو من كولومبيا. قال ذلك بالفرنسية، فقدمت له نفسي بالانكليزية.. وأردفت ذلك باللازمة البائسة التي كان عليّ ان اردّدها دائماً عند الحديث مع أي شخص في هذا المكان: آسف، أنا لا أعرف الفرنسية.

قال باتينو، القصير نسبياً، لكن المتدفق حيوية ومرحاً، بالإنكليزية: لا مشكلة. وراح يستجمع ما يعرفه من مفردات انكليزية لكي يسألني من أين جئت وكيف كانت رحلتي. ثم تعرف على رفاق رحلتي الثلاثة وشرع، على الفور، في ممازحتهم. ومنذ تلك اللحظة سنشكل، نحن الخمسة، حلقة صلبة داخل المهرجان سينضم إليها، لاحقاً، شاعر فنلندي شاب يدعى جيركي كسكسين، وسنقضي معظم «أوقات فراغنا» مع بعضنا البعض.

انفضَّ سامر الإفتتاح وذهبنا الى الفندق حيث تسلمنا برنامج ووثائق المهرجان.

كان البرنامج يحتوي على ٢٩ صفحة فولسكاب مكتظة بالقراءات والفعاليات المشتركة. وقد وضعت إدارة المهرجان بقلم «الهاي لايت» الأخضر أو الأصفر أو البنفسجي خطاً على اسم كل شاعر، في نسخته من البرنامج، لتسهل عليه معرفة الأمسية التي سيشارك فيها.

فأخذت اتابع، بذعر، خطوط «الهاي لايت» الخضر على نسختي من البرنامج فكانت نحو ٢٩ خطاً.

أي تسعاً وعشرين قراءة!

أصبت بالصدمة. فأنا لم أكن أقرأ في أي مهرجان مهما كان طويلا أكثر من مرة أو مرتين. ورغم أن القراءة الشعرية أمام جمهور صارت أقلّ مشقة مما كانت عليه قبل نحو عشر سنوات إلاّ انها ما زالت مُوتِّرة ومقلقة. لم أتمكن من اعتبارها شأنا عاديا.

٢٩ مرة عليَّ أن اقرأ؟!

هذا جنون من دون شك.

فعلى مدار السنوات العشر الأخيرة لم أقرأ تسعاً وعشرين مرة! كانت هناك ثلاث قراءات يومية: واحدة على الغداء، والثانية في العصر أو على العشاء والثالثة في الساعة الحادية عشرة ليلا!

وستكون أول أمسية في الساعة الثامنة تليها ثانية في الحادية عشرة ليلاً هذا اليوم في كافيه وبار يدعى «زينوب» ولكني لحسن الحظ لست مبرمجاً فيهما.

ولكن خطوط «الهايت لايت» الخضراء لم تحدد لي اسمي فقط بل وبلدي ايضاً. وقد اختارت لي ادارة المهرجان بلداً لم أكن، لو خيّرت، لأختار غيره: فلسطين.

خطر لي أن إدارة المهرجان الكندية الفرنسية حدست أعمق انتماءاتي.

وعندما علم بعض المشرفين على المهرجان أنني «أردني الأصل» أرادوا أن يصححوا «الخطأ» الذي ارتكبوه. فرفضت. فقد أرادوا أن يخطئوا الصحيح شبه الوحيد في حياتي.

الصوت والشاعر

بدأت القراءات الشعرية بداية مختلفة تماماً عما عهدت. فـ«الامسيتان» الاولى والثانية انعقدتا في «كافيه وبار زينوب» الذي يبعد عن الفندق خمس دقائق مشياً على الأقدام وسيحتضن الشطر الأكبر من القراءات الشعرية، خصوصاً، الليلية منها، وستعبق رائحته (السكائر، البيرة، الكحول، روائح الفتيات وعطورهن، عرق الشباب ورائحة صخبهم، اللمسات العفوية والمقصودة، السهام التي طاشت وتلك التي أصابت فعلّمت) في ثيابنا حتى نعود الى بيوتنا.

انطلقت الامسية الاولى في الساعة الثامنة وشارك فيها ثلاثة عشر شاعرا وانتهت

قرابة العاشرة والنصف ليلا لتعقبها بعد نصف ساعة الأمسية الثانية التي استمرت حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

كان البار مكتظاً بالرواد. بالكاد تستطيع أن تتحرك وسط الشبيبة الصاخبة المتحمسة التي جاءت باكراً إلى البار واحتلته. ففي مدينة/ بلدة مثل تروا - ريفير مرمية في قلب أكبر الأقاليم الكندية مساحة تحيط بها الغابات ويمرُّ من جنبها أكبر أنهار كندا من دون ان تسمع له صوتا، لا يتكرر حدث - اختراق كهذا كثيرا.

فالمهرجان، على كل حال، كبير حتى بمقاييس العواصم الكبيرة. فليس قليلاً أن تقيم مهرجاناً يشارك فيه أكثر من ستين شاعرة وشاعراً، وتقدم فيه عشرات القراءات الشعرية. حدث سنوي مثل هذا تعرفه المدينة/ البلدة كلّها، شيبها وشبابها وتنتظره. فمن الصعب أن يكون هناك حدث يخترق عزلة المكان المنيعة المتراكمة طبقات منذ سقوط «فرنسا الجديدة» لصالح اعدائهم التقليديين: الإنكليز، ويربطه بأمكنة اخرى مثل هذا المهرجان. صحيح انه مهرجان فرانكفوني يهدف إلى تعزيز اللغة الفرنسية وابقائها حية على الألسن.. والقصائد، خصوصا، هنا، حيث بقاء الفرنسية يعادل الوجود نفسه، إلاّ انه يأتي، مع ذلك بنكهات، روائح، ألوان، مجازات من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية... بل ومن أوروبا نفسها البعيدة، رغم الروابط - الإثنية واللغوية، عن تروا - ربفير.. بل وكندا كلّها بعدا على مختلف المستويات الجغرافية، البيئة، الثقافية (إلى حد ما) ما يجعلهما ينتميان إلى عالمين مختلفين.

وكما أخبرني «فرانسو» وهو مسرحي شاب من المدبنة أدار أمسيات «كافيه وبار زينوب» الليلية المتأخرة، فإن هذا الحدث محل انتظار الجميع. موضع ترقبهم. قال لي: هناك مهرجانات تحدث في الصيف، موسيقية على الأخص، لكن لمهرجان الشعر وقعا مختلفا. إنه أشبه ما يكون بعيد يستمر عشرة أيام. عيد بكسر إيقاع الحياة الرتيب هنا. يكسر الروتين البومي الممل لمدينة لا تحدث فيها أشياء كثيرة وينشر في أوصالها حالة من الفرح.

لذلك فمعظم الذين يحضرون إلى « زينوب » هذه الأيام يحضرون من أجل الشعر. من أجل الفضاءات التي تفتحها كلمات الشعراء وتجاربهم خصوصا أولئك القادمين من عوالم مختلفة عن عالمنا ومن خلفيات ثقافية مختلفة عن خلفيتنا.

كان كلام « فرانسو »، الذي تتدلى من إحدى اذنيه حلقة ذهبية وكان يعتقد ان الأردن بلد افريقي، صحيحاً تماماً. فالصخب الذي كانت عليه الشبيبة تحوّل صمتاً مطبقاً مع بدء القراءات. كان هناك إنصات عميق لما يُقرأ. شغف بما يتوالى على إلقائه الشعراء المختلفون. ابتداء من رفيق رحلتي الأرجنتيني رودلفو ألونسو الذي استهل القراءات بقراءة رصينة، واثقة وانتهاء بشاعر من أيسلند يدعى ثور ستيفنسون مروراً بالقراءة ذات الايقاع السريع، المتلاحقة الأنفاس، التراكمية والتي بدت، لي، الفرنسية، من خلالها، كأنها تغرف غرفاً من الأعماق، التي قدمها شاعر من لوكسمبورغ يدعى پيير جوريس كان يرتدي قبعة عريضة الحافة تحفي نصف وجهه. كنت أصغي، مثل الحاضرين، للقصائد التي تلقى ولكن مع فارق واحد (بسيط!): إنني لا أفهم ما يقال. تصلني اللغة، الإيقاع، النبرة وليس المعنى. الفرق في القصائد، بالنسبة لي، ليس موضوعاتها ولا فحواها بل صوتها وطريقة قراءتها. الفارق. إيقاعي. ونبري. صوتي. كان هؤلاء الشعراء، مثلما سيكون حال البقية، في العشرة ايام الغريبة هذه يحيون في أصواتهم أو يموتون على الفور. صوتهم كان شعرهم بالنسبة لي. وربما، باستثناء پيير جوريس الذي قدّم قراءة فيها عاطفة وإنحياز إلى نصه، فقد كانت قراءات الآخرين بطيئة، باردة، رتيبة، كأنهم يقرأون خبراً أو نصاً نثرياً محايداً.

صحيح أن النص نفسه يفرض قراءته، فالنص التأملي أو الذي يشتغل على المشهدية والتفاصيل اليومية لا يقرأ مثلما يقرأ نص له طبيعة إنشادية أو بوحية. فمثلاً، لا يمكن أن تقرأ نصوص سعدي يوسف القصيرة بالطريقة التي تقرأ فيها نصوص محمود درويش الطويلة. لا أعتبر، هنا، القصر أو الطول معياراً مطلقاً ولكني أتحدث عما يمكن أن أسميه بـ« الصوت ». فصوت الشاعر، موقعه داخل النص، واضح، جلي لا يمكن إنكاره عند درويش، بينما هو متوار أو شبه متوار عند

سعدي. والأمر لا يتعلق بما دأبنا على تسميته بالقصائد ذات الصوت العالي. فتلك مذمة أو نقيصة أخذناها على الشعر. قعقعة لفظية. تصنيج أجوف. ولكنه، يتعلق، ربما، بشخصية الشاعر في شعره وبطبيعة العمل الشعري نفسه، فقصائد درويش ذات الأفق الملحمي تنطوي على مسرح. والصوت، بل الأصوات وتعددها، مهم في المسرح. بينما قصائد سعدي القصيرة هي أقرب إلى الرسم، إلى اللوحة، حيث ينسحب الصوت لصالح الخط، الحركة، التشكيل، فتستمد القصيدة حضورها من تركيبها. من امساكها بسرِّ لحظتها. لا من حضور الصوت والبصمة التي يتركها عليها.

لهذا السبب، ربما، لا تتكشف لنا أرض كثير من القصائد بتضاريسها المختلفة إلاّ عندما تتلى، خصوصا، بصوت شاعرها. فهو وحده يعرف الصعود والهبوط والتعاريج والوقفات فيها. هكذا كان إصغائي للقصائد، سواء في هاتين الأمسيتين اللتين تدشنان قراءات المهرجان أم في باقي الأمسيات منصباً على الصوت. تعقبه في القصائد. فشدني الصوت عند پيير جوريس قبل أن أعرفه شخصياً. أي قبل ان اعرف أن بعض قصائده، الإنكليزية خصوصاً، تشتغل على تصويت الكلمة. على كسرها، على تقطيع الصوت، وقبل ان أعرف اهتمامه بالعالم والثقافة العربيين وخصوصاً بالتراث الصوفي.

فهل الصوت في القصيدة خصيصة شرقية، وله ثقل ومقام ملموسان في القصيدة العربية التي كان عليها أن تولد في الصحراء، على ظهر ناقة أو على سرج حصان، تحت النجم الساطع أو أمام الأفق المفتوح؟ القصيدة التي لها نسب في الحداء المستعان به على المسافة ووحشة الطريق؟

ربما. اللأمر، يا ترى، صلة بذلك؟

فسألحظ قوة الصوت، حضوره عند الشاعر الفرنسي أندريه فيلتير الذي ستضمني معه أمسيات عدة، سيقرأ خلالها، بكل اخلاص، نرجمات فصائدي الى الفرنسية. فهو بين قلة جذبتني فصائده في هذا المهرجان (... تذكروا انني لا

اعرف الفرنسية وانني إنما اتحدث عن الصوت، الايقاع، التوتر اللغوي، طريقة الالقاء فقط) وسأكتشف، تعزيزا لـ«مقولتي» المرتجلة عن علاقة الصوت بالشرق، ان له جذورا شرقية. لا أقصد أصلا او محتدا بل جذرا ثقافيا، روحياً. فهو، أيضا، مهتم بالشرق وثقافته ولكنه ليس الشرق العربي، وان كانت له فيه صداقات ومطارح ألفة، بل الشرق الآسيوي الهندي، الأفغاني.

رائحة سويدية في تروا. ريفير

بعد انفضاض الأمسية الأولى في نحو العاشرة والنصف وصل ثلاثة من أفراد «عصبتنا» هم فريدريك إيكيولند (السويدي) وطغرل تانيول (التركي).. ورافاييل باتنيو (الكولومبي) الذي انضم الينا على الفور منذ لقائنا في حفل الافتتاح.

كانت هناك نصف ساعة استراحة لتبدأ بعدها «الأمسية» الثانية التي سيشارك فيها زملائي هؤلاء وسأكون، لحسن الحظ، متفرجاً فقط.

لم تكن القراءات الشعرية السابقة متصلة بل كان بين كلٍّ قراءة وأخرى فاصل استراحة قصير تعاود خلاله موسيقى «الجاز»، التي يبدو أن «بار زينوب» يمتلك منها مجموعة متنوعة، سيطرتها على المكان. كانت موسيقى وأغاني الجاز الأمريكية التي سنظل نسمعها في هذا البار «الاختراق» الانغلوفوني الوحيد. هذا، بالطبع، إذا اعتبرنا الجاز ذا الجذور الأفريقية واللاتينية انغلوفونيا.

لكن مع توقف القراءات تغيرت الموسيقى فصارت امريكية لاتينية: تانغو مرة وصلصا مرة اخرى، الأمر الذي بعث مزيداً من النشاط في رفاييل باتينو، النشط أصلا، فطفق يحجلُ بحثا عن مراقصة له ولكن من دون اي نجاح يُذكر.

كنا نراقب انطلاقته الذئبية التي لم تسفر عن أي «صيد» من طاولة قصية في البار مكتفين بالضحك إلى أن عاد. وقف معنا ولكن عينيه ظلتا تمسحان البار من

أقصاه الى أقصاه بحثاً عن لحظة « شغور » او « نقطة ضعف » أو تراخٍ على الجبهة النسائية.

ولن يتوقف هذا المسعى الماراثوني المضني طيلة الأيام العشرة التي قضيناها معاً. من دون كلل أو ملل أو شعور باليأس سيواصل باتنيو حملته هذه الى ان ينتهي في احضان سيدة على طرف من الملاحة. وعندما أقول في « احضان » فأنا أقصد ذلك حرفيا. فقبل ليلتين من نهاية المهرجان وفي « بار زينوب » هذا وبعد فاصل من « صلصا » وكان البار مكتظاً على نحو يصعب على المرء التحرك فيه رأيت وأنا ذاهب الى الحمام رافاييل باتينو يجلس في حضن سيدة « عبلاء هركولة » على حد وصف العرب للمرأة الممتلئة.

كان رفاييل باتينو، الضئيل الجرم، يجلس باطمئنان في حضن سيدة ضخمة كانت تمسد شعر رأسه الخفيف كأنه طفل يستعد للذهاب إلى النوم. لكن كيف ينام رفاييل باتينو المختلط الدم والعرق ابن مدينة « ميديين »؟ فبعد قليل قفز من حضن امرأته المتينة وحام بعينين ضاريتين، على حد تعبير الشاعر الفنلندي جيركي كسكسين، باحثا عما يمكن أن يتساقط من شبكة آخر الليل واسعة الخروم.

كانت نحو الثانية بعد منتصف الليل عندما عادت عصبتنا الى الفندق بعد ان انفضّت الأمسية الثانية، وقرأ فيها « الثلاثي المرح »: ايكيولند، تانيول، باتينو.

كان الهواء معبأ برائحة غريبة، أشبه ما تكون برائحة الملفوف المسلوق.

فهتف ايكيولند: إنها رائحة سويدية مألوفة. فقلنا له ماهي؟ فقال: رائحة عجين الورق.

عرفنا، لاحقاً، ان تروا - ريفير كانت عاصمة صناعة الورق الكندية ولم تعد الآن كذلك، لكنها لا تزال تتوافر على مصانع كبيرة للورق.

أمضي إلى غرفتي وفي رأسي أصوات هذا اليوم الطويل.

الآن هي الساعة السابعة صباحاً في لندن.

انقضت أربع وعشرون ساعة وأنا صاحٍ.

بَركة مياه القديس لورنس

أفقت في «اليوم التالي» في الساعة الحادية عشرة. لم أجد أحداً في مطعم الفندق. فالإفطار ينتهي في العاشرة صباحاً. سألت موظفة الإستقبال أن تدلني على مقهى قريب من النَّهر. كان المكان قريباً فعلاً. عشر دقائق مشياً على الأقدام. لم يكن المقهى على النهر بل قربه ولكن يمكن من خلال واجهته الزجاجية رؤية صفحة نهر سانت لورنس العريضة وهي تلمع تحت شمس الظهيرة الخريفية كبطن سمكة.

طلبت كوباً كبيراً من القهوة حتى أصحو تماماً. كانت أصداء اليوم السابق، اليوم الطويل لا تزال تترجّع في رأسي: سفر، سهر، قصائد، أصوات، روائح، أشخاص، الكثير من الاشخاص، كل ذلك في يوم واحد.

رواد قليلون في المقهى ظهيرة هذا السبت. وأناس قليلون في الشارعين، الثلاثة، التي عبرتها للوصول الى المقهى. خرجت من المقهى الى ضفة النهر ذي الصفحة اللامعة الساكنة. بدا «سانت لورنس» الذي لم تكن هناك حافة عالية تفصله عن رصيف المشاة المحاذي له أعرض من أي نهر آخر رأيته. إنه بالتأكيد اعرض من «التيمز» و«السين»، ولعله أعرض أيضا من «النيل» و«الدانوب» (الذي رأيته في بلغراد)، وهو، بالتأكيد، أنظف من هذه الأنّهار كلّها. كانت مياه النهر نظيفة على شيء من الإخضرار. لفت نظري قلة المرافق المبنية على النهر، بل ابتعاد العمران، عموما، عن ضفته. فالمدينة/ البلدة تعطي لهذا النهر العظيم ظهرها لا وجهها. وقد ترسخ لدي هذا الاعتقاد خلال الايام القادمة، فليس بين ٣٦٠ فعالية شعرية يتضمنها المهرجان فعالية واحدة أقيمت على مرفق يطل على النهر او بالقرب منه مع ان الطقس ليس بارداً في هذا الوقت من السنة. فالخريف هو، أجمل فصول السنة في هذا الشطر من كندا. سيظل التمشي على ضفة «سانت لورنس» أحد أجمل أعطيات تروا ـ ريفير.

خطر لي ان مجاورة الماء ليست أمراً مثيراً لأهالي هذه البلدة التي تغمرها الثلوج

في فصل الشتاء وتتوافر على مصادر لا تنضب منه ويتشعب بالقرب منها سانت لورنس إلى ثلاث شعب (كما يقال، فأنا لم أر إلاّ شعبة واحدة) هي التي ظنها مكتشفها الفرنسي ثلاثة أنهار فأسمى المكان كذلك.

لكن مجاورة الماء أمر جليل لمن ليست لديه هذه النعمة. وحتى البلدان التي لديها ثروات مائية معقولة مثل بريطانيا وفرنسا فان أجمل الأماكن وأغلى اسعار البيوت هي تلك التي تجاور النَّهر. النَّهر، هنا، هو مصدر عيش ورزق وليس مصدر لهو وقصف. فهو شريان ملاحي مهم. وقد اخبرني « فرانسو » ان الأشجار التي تقطع لصناعة الورق كانت تلقى في النهر لتصل الى مصانع الورق، الأمر الذي اسهم في تلويثه، ولكن الحكومة منعت هذا التقليد، فصارت الأشجار تُنقل بالعبارات والسفن.

وخلال الساعة التي قضيتها أتمشى على ضفة النّهر لم ألمح سوى زورق واحد يعبر. كان كل شيء هادئا: السماء، النهر، الشوارع، رأسي الذي اخذت تخفت فيه حدّة الأصوات ببَركة مياه القديس لورنس(!)

تركت النهر وعدت في اتجاه الفندق.

في الشوارع التي عبرتها كان الكثير من أوراق شجرة « القيقب » المحمّرة متساقطا على الأرض. ورق له زوايا وشعب، هندسي الشكل كما يبدو عليه في العلم الكندي. لم أربط هذه الأوراق المحمّرة المتساقطة بكثافة على الأرصفة التي بدت لي ثمينة إلاّ بهذه الأرض، إلاّ بالسكان الأصليين. كأن حمّرة هذه الأوراق، فرادتها هي من « الحمرة » المفترضة لوجوه السكان الأصليين. لكن « القيقب » ليس شجرة واحدة، بل هي عائلة أشجار منها « القيقب الأحمر » و« القيقب السكري » و« القيقب الأسود » و« القيقب دائم الخضرة ». عائلة فريدة مس الأشجار. يستخدم بعضها (ذو الورقة المشعبة) لزينة الأرصفة، ويستخرج من بعضها الآخر نوع من « العسل » أو « السيروب » الذي يحمل الأسم نفسه (ميبل سيروب) بالاضافة الى كونها مصدراً مهماً لصناعة الأخشاب التي كانت هذه المدينة / البلدة عاصمة لها في القرن التاسع عشر.

وقد علمت أن لشجرة «القيقب» الكندية نسبا وقربى في آسيا ولكن الأخيرة مختلفة تماماً في شكل الأوراق. وليست «القيقب» وحدها من له نسب في آسيا. بل السكان الأصليون على ما تقول المصادر الكندية الإنكليزية التي ترجعهم الى شمال آسيا. ولا أدري إن كان «الإرجاع» هذا ورصد التشابه بينهم وبين سكان شمال اسيا هما «إرجاع» و«رصد» علميان أم ان لهما ظلاً ايديولوجيا؟ فقد خطر لي أنه باكتشاف جذر لسكان كندا الأصليين في شمال آسيا سيتساوى الأوروبيون الذين غزوا أمريكا الشمالية بالسكان الاصليين الذين جاؤوا هم ايضا من «الخارج» ولم تكن هذه ديارهم الاولى! وعلى كل حال، فالمصادر التاريخية الكندية تقول ان العلماء يعتقدون ان الاسكا وسبيريا كانتا متصلتين بأرض ـ جسر قبل نحو ١٠ الاف الى ٤٥ الف سنة، وان السكان الاصليين استخدموا هذا الجسر المكوّن من مزيج من الأرض والجليد تبلغ مساحته ٨٨ كيلومترا ليعبروا الى «كندا» التي لم تكن مأهولة قبلهم.

اما الأوروبيون فلم يصلوا إلى هذا الجزء من «العالم الجديد» إلاّ قبل ٥٠٠ عام ولم يكن الفرنسيون أو الانكليز هم الذين قاموا بذلك، كما يمكن ان نتصوّر، بل «الفاكينغ» الذين أبحر عدد منهم بقيادة شخص يدعى «بارني» ليصلوا الى شاطىء أمريكا الشمالية في عام ٩٨٦. مسجلاً بذلك سبقاً تاريخياً كأول أوروبي يصل الى النصف الشمالي من الكرة الارضية.

واعقبت رحلة «بارني» رحلة قام بها فاكينغ آخر من «غرين لاند» يدعى «ليف المحظوظ» وهو ابن مجرم عتيد يدعى «إريك الاحمر» عام ١٠٠٠ الذي وصل إلى موقع في الشاطىء الكندي يعتقد انه «نيوفاوند لاند» أو «نيوانغلند».

ويبدو أن هذا الفاكينغ الأخير أسس مستوطنة على الشاطىء الكندي وتعامل مع السكان المحليين الذين اسماهم «سكريلنغ» ولكنه قفل عائداً الى بلاده بعد ١٥ عاماً من وجوده على الأرض الكندية من دون أن يعرف سبب ذلك.

هذه الحقائق عن وجود «الفاكينغ» على الشاطىء الكندي اكتشفت على ما

تقول المصادر التاريخية الكندية عام ١٩٦٠. ولكن «اكتشاف» نصف الكرة الشمالي لن يتم بالمعنى الإستطلاعي، فالإستيطاني إلاّ بعد ٥٠٠ سنة على تينك الزيارتين الغريبتين اللتين قام بهما «الفاكينغ».

وسيغير البحث عن طريق إلى الهند مترافقا مع سقوط «غرناطة» آخر موقع عربي ـ اسلامي في اوروبا، وجه التاريخ البشري الى الأبد.

ستصعد آخر زفرة في جسد الحضارة العربية ـ الاسلامية وتولد حضارة لا يبدو ان شمسها ستغيب.

لاول مرة العربية في ذلك الصقع النائي

كانت القراءة الأولى التي علّي أن أشارك فيها «غداء شعرياً» يقام في مطعم «لا لوبان» الواقع في شارع القديس جورج. وصلت بعد جولتي النهّرية إلى المطعم لأجد الشعراء المشاركين في «الغداء» يتحلقون حول أكبر طاولة في المطعم. طاولة تواجه باقي الطاولات ومتنحية عنها في الوقت نفسه، بحيث يكون الشعراء في متناول أعين المتلقين ـ المتغدين. كان المطعم الصغير الذي يتسع، بالكاد، لثلاثين شخصاً حميماً يمكن لك أن تألفه بسرعة. وفي القراءة الشعرية مهمٌ أن تشعر بالألفة حيال المكان الذي ستقرأ فيه.

جلست بجانب الشاعر الفرنسي أندريه فيلتير الذي سبق لي وعرفته في مهرجان «ربيع القيروان» عام ١٩٩٤ وكان يومها بصحبة عدد من كبار شعراء فرنسا أمثال برنار نويل ودوبوشيه ويوجين غليفك كما كان كبار شعراء العرب امثال نزار قباني، أدونيس، سعدي يوسف يشاركون في المهرجان العجائبي ذاك الذي تحوّل ربيعاً تونسياً خاصاً بنزار قباني. صار قباني هو المهرجان وهو الربيع والبقية أزهار في حديقته.

وقد ذكّرني فيلتير بذلك المهرجان والحمّى القبانية التي سرت في أوصال مدينة

القيروان وما جاورها من أرباض ودساكر.

قال فيلتير وهو يضحك أنه لم ير شيئاً كهذا في حياته. ولا بّد ان يكون ذلك صحيحاً. فليس ممكناً أن يرى المرء في الغرب أمسية شعرية ينقلب إليها نحو سبعة الاف شخص. هذا ما حصل مع نزار قباني في القيروان أمام ذهول الشعراء الفرنسيين الذين لم يصدقوا أن الشعر يمكن له ان يجتلب جمهورا كهذا.

فالشعر الفرنسي (حسب العارفين بأمره) أصبح عملاً مختبرياً مغلقاً على نفسه لا يخاطب الكثرة ولا يتوجه اليها. الشعراء ومن جاورهم وحدهم يعرفون ماذا يجري في مختبر القصيدة والتركيبات والعناصر الداخلة في تكوينها.

قد يكون الشعر الفرنسي هو التطرف المختبري في الشعر الغربي، ولكن حتى في أكثر الشعريات الغربية انفتاحا على القارىء يصعب ان توجد ظاهرة كنزار قباني (السهل) ولا كمحمود درويش (الصعب) ولا، بالتأكيد، كمظفر النواب السبعيني بشرائطه المشوشة الصوت التي كانت تتداولها أيدي الشبيبة كالممنوعات.

سألت فيلتير، الذي ترجم له الشاعر التونسي خالد النجار كتابا شعرياً وصدر في تونس عن زوجته التي كانت بصحبته في المهرجان. فقال لي: توفيت بالسرطان مؤخراً.

تأسفت له.

فقال: لا بأس.

كانت « المنشطة الشعرية » لغداءات وعشاءات هذا المطعم فنانة تشكيلية لطيفة تدعى « جوان » أخبرها غاستون بلمار بعدم معرفتي بالفرنسية فطلبت، قبل أن أحضر، من أندريه فيلتير أن يقرأ نصوصي المترجمة.

كانت مختاراتي الشعرية المترجمة الى الفرنسية والصادرة عن دار « لارماتان » الباريسية أمامي، فأخذ فيلتير يقلّبها.. فوقع على أسم أدونيس في المقدمة.

فأخبرني أنه جاء، للتو، من فعالية شعرية مشتركة مع أدونيس أقيمت في البحرين ساهم فيها معهم عازف العود العراقي نصير شمة.

سألني أن أختار قصيدة لكي يقرأها بالفرنسية فاخترت قصيدة قصيرة تتناسب مع «تعليمات» غاستون بلمار الصارمة.

كان عقد الشعراء مكتملا. فهناك الكولومبي رفائيل باتينو يجلس صامتاً، على غير عادته، على رأس الطاولة (كأن استحقاق الشعر نقله من عالم الحجل والصخب ليلة أمس الى الاستبطان والكمون الداخليين) وإلى جانبه شاعر من بلغاريا يدعى إيفان بوريسيلافوف وزوجته وبيير جوريس الشاعر اللكسمبورغي الذي قرأ الليلة الماضية في «كافيه وبار زينوب» وهو مرتدٍ قبعة سوداء كبيرة تغطي نصف وجهه (لا يلبسها الآن، فبدا بصلعة خفيفة)، ثم قبالة فيلتير كانت هناك شاعرة هادئة تصغي طوال الوقت للحديث الذي كان يدور بيني وبينه بالإنكليزية وكنت اظنها من كيبك ولكن تبين لي بعد أن دخلت على خط الحديث بيننا أنها ايرلندية. كانت مشكلة هذه الشاعرة والرسامة التي تدعى جوسليد أقلَّ حدّة من مشكلتي فهي تعرف الفرنسية قراءة وكتابة، ولكنها تتحدثها بصعوبة. وقد حاولت، على ما يبدو، أن تقنع إدارة المهرجان أن تقرأ بالإنكليزية ويقرأ شخص آخر نصها المترجم بالفرنسية لكن الإدارة ردّتها على عقبيها.

فما دامت تنطق الفرنسية، حتى ولو بصعوبة بالغة، فعليها أن تقرأ بها. هذا هو الأصل في المهرجان، وهذه هي قاعدته.

هكذا كنت الإستثناء الوحيد ليس في دورة هذا العام فحسب (كما قيل لي) وانما في كل تاريخ المهرجان. فهي المرة الأولى التي يدعون فيها شاعراً عربياً ليس فرانكفونيا أو له صلة بالفرانكفونية، ويقرأ بلغة إمرئ القيس جد الشعراء العرب.. حتى اولئك الذين يكتبون «قصيدة النثر»!

كانت النادلة تتحرك بين الطاولات والمطبخ تلبي طلبات الرواد والشعراء سواء بسواء. أحضرت لي قائمة الطعام المكتوبة (طبعاً) بالفرنسية. فاستعنت بأندريه

فيلتير لكي أطلّ على مطبخ « لا لوبان » . كانت هناك عصافير مقلية مع نوع معين من الكريم وأنواع من « الستيك » البقري مصحوبة بالخضر، وعجات مختلفة . وبما أن مرض « جنون البقر » البريطاني حرمنا من تناول اللحم البقري في لندن فقد انتهزت الفرصة وطلبت « ستيكا » مع البطاطا والخضر . كانت أطباق الطعام التي توالت « النادلة » على إحضارها من المطبخ في الطابق السفلي من المطعم منسقة بأشكال فنية تجعل المرء يتردد في أكلها . كأنها للفرجة، لا للأكل . لتمتيع النظر لا للمعدة .

كانت الفكرة كلّها غريبة عليَّ . قراءة شعر في مطعم بينما الرواد يأكلون . ورغم الجو الحميم الذي يطبع المطعم وأمتثال الشعراء الى الفكرة، فإن الأمر لم يكن عادياً ولا بسيطاً بالنسبة لي . صحيح إنني تنازلت منذ زمن عن « رسالة » الشعر ولكنني لم أتنازل عن اعتباره فناً له مواضعات تلق خاصة . ليس المطعم، بأطباقه وطرطقة شوكه وسكاكينه وانصراف الدم والدماغ إلى المعدة، من بينها . فلم أهضم فكرة أن يقرأ المرء شعراً في مطعم والناس يأكلون . لقد كنت أجد الغناء في مطعم نوعاً من ابتذال الفن، فما بالك بالشعر . لكن لم يكن أحد من الشعراء المتحلقين حول الطاولة يكترث للأمر . بل كانوا منساقين، بسلاسة، إلى مشيئة تقاليد المهرجان . ولم يكن أمامي سوى دخول هذه « التجربة » . وليس التوتر الذي أصابني منذ ولجت مطعم « لا لوبان » بسبب فكرة القراءة في مطعم، فقط، بل، أيضاً، بسبب القراءة نفسها .

فلما تزل قراءة الشعر بالنسبة لي، في أي مكان كان، أمام إثنين أم أمام مئة، مهمة عسيرة . كأنني مصاب بـ« رهاب القراءة »، أو بوضوح أكثر . . « رهاب الجمهور » .

وغالباً ما يكون الأمر أبسط مما أظن . ولكن هذا الشعور لا يتحقق إلاّ بعد انتهاء « الإستحقاق » .

كان الأمر، فعلاً، أبسط بل وأفضل، مما ظننت . فما أن وقفت « جوان » على منبر

صغير أُعدَّ خصيصاً من أجل القراءات الشعرية وضع في أحد أركان المطعم وقالت أنني لا أعرف الفرنسية وسيقرأ الشاعر أندريه فيلتير نصي بالفرنسية أولا ثم سأعقبه بالعربية حتى اشرأبت إليَّ أعناق الرواد المتقدمين في السنِّ نسبياً. كأن ذكر اللغة العربية قد جعلني شخصاً آخر مختلفاً عن زملائي الذين لم يكونوا كلهم فرنسيين، بل أن بعضهم «أجنبي» مثلي لكنهم سيقرأون بلغة المكان مما يجعلهم كأنهم من أهله.

لا أدري أية صور أو خيالات بعثتها العربية في أذهان رواد المطعم، لكن الذي أدريه أن إصغاء وتنبهاً مضاعفين أحاطا قراءتي.

وقد خيّل إليّ أن التصفيق الذي أعقب انتهاء قراءتي التي لم يفهموا منها بالتأكيد شيئاً، كان أطول من ذاك الذي أعقب قراءات الشعراء الآخرين. وأظن أن الأمر (لو كان هذا التخيل صحيحاً أصلاً) يتعلق بهذه اللغة التي يسمعونها، على الأرجح، للمرة الأولى.

هل بعثت العربية خيالات، صوراً إكزوتيكية في أذهانهم؟
أم أن للعربية، كلغة بحد ذاتها، حضوراً خاصاً عند سامعها؟
أم أن الأمر، برمته، مجرد تعاطف مع غريب لا يعرف الفرنسية؟
أيضاً، لا أدري.

لكن هذا الإصغاء، هذا الإنتباه، هذا الإفراد سيحيط قراءاتي حتى مجيء الشاعر المغربي صلاح بوسريف الذي وصل في الأيام الأخيرة من المهرجان فشارك في «توسيع» رقعة العربية في مدينة تروا - ريفير التي لم نصادف فيها (لسوء الحظ أم لحسنه) عربياً واحداً خلال أيام المهرجان العشرة.

لكن الذين يعرفون العربية، أو لهم صلة بها كانوا يجيئون إليّ بعد انفضاض القراءات، وهم لم يتجاوزوا طوال أيام المهرجان، ثلاثة: استاذ جامعي تركي يساري فَّر من تركيا في الستينات إلى كيبك وهو يدّرس الفلسفة الاسلامية في جامعة المدينة، عالم آثار شاب عمل في مواقع مختلفة في فلسطين والأردن وبينها مدينتي

المفـرق، وشـابـة (هي الوحـيـدة التي أتذكـر أسـمـهـا!) انتـهـت من دراسـة الفن التـشكـيلي لتـوها، جـاءت إليّ بعـد انتـهـاء إحـدى الأمـسـيـات في «مـقـهى وبار زينوب»، وقالت لي بالعربية وبنطق واضح: إسمي فيرونيك.

ظننتـهـا تعـرف شيـئاً من العربية، ولكن تبين لي ان كل ذخيـرتهـا منهـا هي هذه الجملة التي علّمـهـا إياها شـاب مغربي كـان يدرس مـعـهـا في الجـامعـة. وتبين لي، أيضاً، أنه علّمها أربع أو خمس كلمات أخرى من «العيار الثقيل».

ومع أن صلاح بوسريف يعرف الفرنسية ويقرأ بها نصوصه التي ترجـمهـا إلى لغة مـوليير الشاعـر المغـربي باللغـة الفرنسـيـة مـصـطفى النيـسـابوري إلاّ أنه كـان يصـرّ على قراءة النصوص نفسها بأصلها العربي وكانت تترك قراءاته أثراً طيباً بين الحضور.

لكن حضـور العربية لم يقـتصر على هؤلاء الثـلاثة، بل وجدته في كـتابات بعض الشعراء المشاركين أو في أحاديثي معهم.

هجر.. أم حجر

فمثلاً كان الشاعر بيير جوريس (المترحل Nomadic بين الأمـكنة واللغات والذي أسميته تبعاً لذلك بدوياً ففرح بالتسـمية) يقـرأ من كتاب شـعري له يحـمل غلافه العنوان التـالي: هـ. ج. ر. (هجر). وعندمـا سـألته هل يعـرف أطيـاف المعـاني التي تحيط بهـذه الكلمـة. قـال انـه يعـرف بعضـهـا. فـقـال ان لهـا مـعنى الترك والهـجـران، ومنهـا «هجـرة» الرسـول، المهـاجـرون (اليـوم). ومـا لا يعـرفـه بيـيـر جـوريس، على الأغلب، ان للكلمـة معـاني اخرى غيـر الترك والمبـارحـة. فـقـد لفـت نظري الشـاعـر والباحـث اليـمني عبـد الله العذري المقـيم في لندن أنها قد تعـني التـجمع السكاني: بلدة، مـدينة. ويقـول اليـمنيـون، عنـدمـا يذهـبـون الى المدينة (حـسـب العـذري) ،انهم ذاهبـون الى «الهـجـر». ويظـن العـذري ان مـعنى الـكلمـة، هنا، هو «الحـجـر» الذي تبنى منـه البـيـوت، فانـقـلبت الحـاء هاءً. فـالعـربيـة وشـقـيـقـاتهـا تقـبـل، على ما

يبدو، هذا القلب. وقد وقفت على تسميتين مختلفتين لإله العاصفة عند الكنعانيين (. . ويقال الآرميين) الذي كان معبده الاصل الأول للجامع الأموي بدمشق. فمرة يرد « هدد » ومرة اخرى يرد « حدد »، والأخيرة هي المعتمدة عند الأنباط. كما ان الهجر يعني النخلة التي ذهبت طولا وعظما (بحسب اللسان) كما يطلقها العرب على كل شيء جاوز حدّه بالتمام، ولها ايضا معنى الهذيان. وهناك مثل في العربية يقول « كجالب التمر الى هجر ». وهكذا، يتخذ، « هجر » جوريس لنفسه بعداً لم يخطر، الأرجح، على بال الشاعر الغربي. يهدي جوريس « هجره » (. . . أو حجره) هذا إلى الشاعر والكاتب التونسي باللغة الفرنسية عبد الوهاب المؤدب الذي اكتشف من خلاله، على ما يبدو، السهروردي وصوفيته حيث يرد ذكر هذا المتصوف العظيم في مطلع القصيدة.

ولا تقف العربية وأطيافها عند غلاف الكتاب وقصيدة « هجر » بل ان عدداً من قصائد جوريس يتقاطع أو ينهل من فضاءات عربية، وإلى ذكر السهروردي يرد ذكر امرئ القيس وغيره من أسماء العلم العربية، في هذا الكتاب.

والطريف في الأمر أن حياة جوريس الأدبية، التي استهلها في باريس بدأت، أيضاً، بالتعرف على كاتب وشاعر مغربي شاب والسكن معه في شقة واحدة، ولم يكن هذا سوى محمد خير الدين.

وستقود « مصائر » جوريس « العربية »، لاحقاً، إلى زواج من فتاة جزائرية لم يقيض له الإستمرار. لكن اهتمامه بالحياة العربية لا يزال مستمراً. فقد أرسل إليّ بعد وصولي إلى لندن مباشرة أنطولوجيا شعرية حررها مع الشاعر الأمريكي جيروم روثنبرغ صادرة عن منشورات جامعة كاليفورنيا وتقع في جزأين كبيرين (١٩٠٠ صفحة من القطع الكبير) بعنوان « قصائد إلى الألفية » ضمّنها أسماء عربية، تنم عن معرفة معقولة بالمشهد الشعري العربي. ففي هذه الانطولوجيا الضخمة التي تم اختيار شعرائها على أساس الجديد، الطريف، الغريب الذي جاؤوا به هناك كوكبة من الشعراء العرب بعضهم صنفوا تحت خانة « التموزيين » (بالحرف) وأخطأ في

وضع اسمي محمد الماغوط وأنسي الحاج فيها وبعضهم كشعراء أفراد خارج المدارس والإتجاهات. والشعراء العرب الواردون في هذه الإنطولوجيا هم: أدونيس، يوسف الخال، بدر شاكر السياب، محمد الماغوط، محمود درويش.

ولا تقتصر إنطولوجيا جوريس وروثنبرغ على قصائد للشعراء الذين اختاراهم بل عمدا إلى أخذ نماذج نثرية لهم. فمن محمود درويش أخذوا مقطعاً طويلاً من كتاب «ذاكرة للنسيان» الذي ترجمه إلى الانكليزية ابراهيم مهوي وصدر عن منشورات جامعة كاليفورنيا نفسها، أما الشاعر الآخر المهتم بالعربية وجرى بيننا أكثر من حديث ممتع حول الثقافة العربية، خصوصاً، الشعر العربي الكلاسيكي فهو الشاعر المكسيكي هوغو غويترس فيغا.

ففي أحد الصباحات جمعتني به والشاعر الأرجنتيني رودلفو ألونسو مائدة إفطار واحدة، وعندما عرف انني عربي بادرني بالقول «السلام عليكم».

وحدثني (بالانكليزية) عن تأثير اللغة العربية باللغة الاسبانية. قال لي ان تأثيرات العربية، لغة وثقافة في اللغة والثقافة الإسبانيتين أكبر من أن تحصى. قال: للأسف كان هناك إنكار وتجاهل متعمدان لهذه المؤثرات العميقة الجميلة، التي جعلت الإسبانية لغة مميزة بين اللغات الأوروبية. فهناك الكثير من النظرات والمفاهيم في الثقافة الإسبانية عربية الأصل، فضلاً عن وجود أكثر من ٢٠٠٠ كلمة عربية في اللغة الإسبانية المتداولة الآن.

وبينما كان فيغا الشاعر المسن ذو اللحية الشهباء يتحدث خطر لي إنني رأيت هذا الشخص أو صورته على الأقل من قبل. ولما اقترب حديثه أكثر من الحياة العربية الراهنة بدا على معرفة عميقة وطازجة بالأحوال التي عليها العرب اليوم. لم أستطع أن أقطع أين وكيف رأيت هذا الشاعر.

فسألته: عفواً، ولكن كيف تسنت لك معرفة الحياة العربية الراهنة بهذه الدقة. فقال لي: لقد كنت سفيراً للمكسيك في بيروت، عندها تذكرت إنني رأيت صوره في الصحافة اللبنانية، فقد كان الرجل نشطا إلى حد كبير وبسببه أقيمت

انشطة عربية ـ إسبانية عدة رغم قصر المدة التي قضيناها هناك .

ولا تعود علاقة فيغا بالعربية إلى فترة سفارته في بيروت أواخر الثمانينات بل الى زمن أبعد بكثير. منذ إطلاعه المبكر على كتاب المستعرب الإسباني الكبير (الراحل) إميليو غارسيا غوميز « قصائد عربية أندلسية » الذي قدّم في الإسبانية ، لأول مرة ، ترجمة حديثة لعدد من قصائد الشعراء العرب الأندلسيين أمثال : ابن عبد ربه ، ابن حزم ، إبن خفاجة ، ابن شهيد ، ابن زيدون ، ابن سراج ، أبو القاسم ابن السقاط ، المعتمد بن عباد الخ . . وهي الترجمة التي بعث غوميز من خلالها الإهتمام الحديث بالشعر العربي في إسبانيا وأثرت ، كما يقول فيغا ، ويؤيده ألونسو ، تأثيرا كبيراً على « جيل ٢٧ » الإسباني وخصوصاً لوركا . فقد كان غوميز نفسه واحداً من أبناء هذا الجيل وصديقا شخصياً لهم خصوصاً لرفائيل البرتي ولوركا . ويبدو ، حسب قول فيغا ، أن بعضاً من شعر لوركا كتب تحت التأثير الإنفعالي الملهم لترجمة غوميز . ويتفق ألونسو مع فيغا إن كتاباً مثل « ديوان التماريت » (EL Divan del Tamarit) وغيره من « القصائد » كتبها لوركا بتأثير مباشر من القصائد الأندلسية التي ترجمها غوميز .

ويذهب ألونسو إلى حد القول ان لوركا هو ، بمعنى من المعاني ، شاعر عربي ! والطريف في الامر ان الشاعر المفضل لفيغا ، على الاطلاق ، هو « المتنبي » . فلهذا الشاعر المكسيكي ديوان بعنوان « قصائد الى ديوان المتنبي » . وهو يعتبر أبا الطيب واحداً من أعظم شعراء العالم في كل العصور ، كما انه يكنُّ إعجاباً خاصاً للشريف الرضي . !

أشجتني ، من دون شك ، مدائح هذين الشاعرين للغة والشعر العربيين . إنه الطرب ، الذي يعرفه أبناء الأمم المهزومة ويرفع معنوياتهم (الى حين) عندما يتذكرون ماضيهم التليد . كانت نشوتي بالإرث العربي ـ الاسلامي معادلة ، تماماً ، لقنوطي من اللحظة العربية الراهنة ، ومعادلة ، تماما ، ليقيني الواضح الفادح من استحالة استئنافه من النقطة التي توقف عندها .

ألا يفسر هذا الطرب، هذه النشوة لماذا يعيش العرب، من دون سائر الأمم، في الماضي؟

أجسادهم في الحاضر وعقولهم في الماضي.

الماضي ماثل في حياتهم أكثر من حاضرهم. لكنه ليس حضور النقد والتساؤل والتفكيك، بل حضور التصنيم والعبادة.

لم أحضر إلى تروا - ريفير لأنصب مرايا كبيرة لذاتي، بل لأعرّض هذه الذات إلى شمس وهواء آخرين، لأكون ابعد ما يكون عن ضغوطات، وآلام العربية التي تعيش اغتراباً بين أهلها. فهي تُقرأ وتُكتب ثم تنام في الدفاتر والكتب. لا يتكلمها حتى الكاتب بها إلاّ لماماً.. وان تكلمها فنادراً أن يكون مثلما يكتبها .لغة تقف اليوم عند مفترق مصيري: فإما التجدد وإما الذهاب الى مجلدات التاريخ مثلما ذهبت اللاتينية. اسئلة كهذه لا اظن ان احداً من الشعراء المشاركين في المهرجان طرحها على نفسه. انها اسئلة تبدو كأنها خاصة بالعرب اليوم. العرب الذين يحملون ماضيهم على ظهورهم مثلما حمل قابيل جثة اخيه هابيل ولم يدر ماذا يفعل بها.

فهل من غراب؟

برج بابل شعري

في «لالوبان» سنكون على موعد يتجدد مرات مع عدد محدود من الرواد الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى «التروار ريفيريه» أما في مطعم «أنجلين» الواقع في شارع دي فورغ، وهو الشارع الرئيسي الذي يحتضن معظم المحال التجارية، فسنكون مع رواد اكثر ينتمون الى شرائح اجتماعية مختلفة كونه مطعما للبيتزا والسباغتي والأكلات الإيطالية المشابهة، التي تعرف، هذه الايام، إقبالاً كبيراً أينما كان، في «تروا - ريفير» أم في لندن، في باريس ام في عمان، بينما يحتفظ «لالوبان» بطابعه الفرنسي الراقي مع تنويعات وإضافات «كيبكية». وستكون في «كافيه وبار زينوب»، وإلى حد أقل بكثير في النادي الليلي الواسع الأرجاء المعتم «لا ماكسار» على موعد يتجدد مع الشبيبة في ليل وسهر يطولان، مع موسيقى

حارة قادمة من معازل الأفارقة في أمريكا الشمالية (سابقاً) ومن المزيج الأمريكي اللاتيني المدهش. ستأخذنا قراءات هذا المهرجان إلى كنيسة يؤمها مؤمنون، أو الى مقهى يتناول فيه الموظفون افطارهم قبل الذهاب إلى العمل، إلى رجال اعمال يعقدون مؤتمرهم في فندق، او مطعم تابع لجمعية تهتم بالمعوقين.

مرة بعد اخرى، ويوماً إثر آخر يتكشف لي المدى الذي يمكن أن يذهب إليه الشعر، الأماكن الغريبة التي يلقى فيها، الأشخاص الذين يقرأ لهم، أوقات القراءة نفسها.

وقد بدا لي هذا المدى أوسع، من حيث تعدده وتشعبه، من أي مهرجان آخر قرأت فيه أو حضرته.

كل ذلك انطلاقا من فكرة «إعادة» الشعر الى مواقعه التي خسرها بين جمهرة القارئين وطرح تصوّر يقول بـ«عادية الشعر» و«يوميته» و«أكله» الخبز على موائد الآكلين، أو «مشيه» بين الذاهبين إلى عملهم أو المتطلعين إلى سهر يطول. كأن الشعر بهذا المعنى ليس ابن كهانة يحاط بطقوس تقديس خاصة بل ثمرة حرفة، على هذا القدر او ذاك من الجودة، تعرض على الناس!

«اعادة» الشعر الى مواقعه التي هجرها او أجلته عنها اشكال تعبير فنية اكثر شعوبية، هي الفكرة التي قادت خطانا الى امكنة لم تكن من بين منابر الشعر المعروفة، عندنا، على الاقل.

ليست هذه «الفكرة»، على كل حال، جديدة، فكثيرا ما طرحتها سيسولوجيا الثقافة والقائلون بـ«جماهيرية» الشعر، الداعون الى انزاله من أبراج مجازاته وصروح استعاراته المتعالية إلى لغة الناس وهمومهم، لكن الجديد، ربما، في مهرجان تروا - ريفير انه يستضيف جنبا الى جنب، ومن دون اي ادعاء ايديولوجي او جمالي، الشعر اليومي كخبر الجريدة، الغنائي كالمليوديا، الذهني كقطعة فلسفية، و«الاستعراضي» الذي يشتغل على المفردة اليومية والأداء التمثيلي والغناء كأي «وان مان شو».

كانت منابت الشعر وجهاته، أشكاله ومقاصده تتجاور في تعايش سلمي. فلا حرب أشكال ولا تخندقات فنية او مذهبية. كان لكل هذه الاشكال متلقوها والمعجبون بها. فهناك من كان معجبا بشعراء «صعبين» امثال أندريه فيليتر وبيير جوريس، ومن كان معجبا بالأمريكية نانسي إلن دوبلس التي تقرأ وتغني وتمشي حافية على المسرح، هناك من كان مهتما جدا برودولوف دوغي المغني والشاعر الكيبيكي الساخر الذي كان يفجر الضحكات ويثير عاصفة، من التصفيق أينما قرأ وثمة من كان مُستشاراً بالعربية التي تحضر من خارج تقاليد المهرجان، أو بالشخصية «الشامانية» لرفائيل باتينو، هناك شعراء في الثلاثينات من أعمارهم وهناك شعراء في السبعين، هناك قصائد تلقى موقّعة وقصائد تقرأ كنثر عادي.

وقد بدت لي تروا - ريفير، خلال هذه الايام العشرة مثل برج بابل شعري. ألسنة متشعبة وحّدها، ظاهراً، اللسان الفرنسي، وشعريات مختلفة تنهل من اليومي، الفلسفي، الأسطوري، الخبري، الشخصي.

فإذا خرجتُ بفائدة ما من هذا المهرجان فهي في توكيد قيمة الإختلاف عندي واعتبار تعدد الأشكال الشعرية مصدر غنى. وان حصر الشعر في شكل واحد، مهما ادعى الحداثة وتطلّع إلى المستقبل، هو إفقار له. وقد لاحظت في هذا السياق، أن عدداً من الشعراء ذوي التقاليد الشعرية الغربية، يجمعون في الكتاب الشعري الواحد قصائد من «الشعر الحر» FREE VERSE واخرى من «قصيدة النثر» من دون أن يقيموا سدا بين هذه وتلك ومن دون ان يروا تفوقا لهذه على الاخرى. فالشكل، على أهميته الفنية، ليس غاية القصيدة الوحيد (طبعاً ليس وسيلتها ولا واسطتها ولا حامل معناها) وانما هو يتخلل «موضوع» القصيدة ويخترقه ويصوغه، فالشكل لا وجهة له من دون «الموضوع». قد يخترع الشكل موضوعه ولكنه لا يمكن له وحده ان يستقيم. حتى الشعر الذي بدا انه يركز على الشكل واللعب على بياض الصفحة، على تقطيع أو توزيع معينين للكلمات كان شكله هو «موضوعه». وبرأيي ان الشكل ليس وحده، علامة التجديد الشعري وغايته. فالتجديد بالشكل هو، بالضرورة، تجديد بالقول، بالمعنى، بالموضوع،

سمّه ما شئت.

مرة اخرى سيتأكد لي، من خلال هذا المهرجان، ان الحرب بين «الشعر الحر» (التفعيلة عربياً) وبين «قصيدة النثر» غير موجودة في الشعريات الغربية او المكتوبة بلغة غربية مثل شعريات امريكا اللاتينية.

الأمر محسوم ومنتهٍ، على عكس ما هو عليه في الحياة الأدبية العربية. ولم أسمع خلال نقاشات طويلة، ومسهبة مع عدد من شعراء المهرجان، أن شاعراً يصف نفسه انه «شاعر قصيدة نثر» كما هو الحال عندنا، لم ألحظ وجود شيء كهذا في النقاشات التي دارت بيننا خلال الايام العشرة. كانت هذه الملاحظة موضع حديث طويل بيني وبين الشاعر المغربي صلاح بوسريف على ضفة نهر سانت لورنس. كان الفرق بين حال الشعرية العربية اليوم والشعريات العالمية مدهشا في مفارقاته. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ان اكثر من شاعر من زملائنا المشاركين في المهرجان استغرب عندما علم ان القصائد التي ألقيتها هي «قصائد نثر»، فقد سمعوها موقّعة على نحو ما هو موقّع شعرهم الحرّ ورأوها موزعة على الصفحة بالطريقة الموزع بها «الشعر الحر» ايضا. فـ«قصيدة النثر» عندهم لها شكل لا يمكن اخطاؤه على صفحة الكتاب. فهي قصيدة أفقية لها شكل الكتلة التي تحتل عرض الصفحة بينما قصيدة «الشعر الحر» عمودية: أسطر قصيرة وكلمات تحت بعضها بعضا.

فكيف يمكن أن يكون ما قرأته «قصيدة نثر»؟ حاولت، دون كثير نجاح، ان اشرح لهم «الخطأ الاول» الذي وقع فيه أدونيس وأنسي الحاج عندما ترجما فصلا من كتاب الناقدة الفرنسية سوزان برنار «قصيدة النثر من بودلير الى أيامنا» فصارت الكتابات الشعرية الخالية من الوزن والقافية التي تلت ذلك تتصنف في خانة «قصيدة النثر» فحملت قصائد محمد الماغوط وانسي الحاج وما يماثل كتابتهما الشعرية الخالية من الوزن والقافية اسم «قصيدة نثر». فيما كانت القصيدة العربية التي اعتمدت «التفعيلة» وحدة لها قد استقلت بمصطلح «الشعر الحر» المناظر تماما لـ Free verse الغربي وانتهى الامر.

ورغم بعض المحاولات التي بذلها مثقفون عرب لتصحيح هذا الخطأ، (مثل جبرا إبراهيم جبرا وعبد الواحد لؤلؤة)، إلاّ ان «القصيدة الموزونة» ذات التفعيلة الواحدة ظلت تحتفظ لنفسها بمصطلح «الشعر الحر» (وحملت لمزيد من البلبلة أسماء: الشعر الحديث، الشعر المعاصر، وربما ايضا الشعر المرسل!) فيما كان على «الشعر الحر» فعلا و«قصيدة النثر» أن يلبسا قميصا واحدا (قميص المجانين!) هو المسمّى اليوم «قصيدة النثر». كان الموضوع معقدا والإحالات عربية صرفة مما لم يستطع زملائي الشعراء اولئك الوقوف عنده، كلّ ما فهموه من كلامي أن هناك مشكلة مصطلحات وتسمية في الشعرية العربية.

وما لم يفهمه زملائي اولئك ان مشكلة التسمية والمصطلح في الشعرية العربية جعلتها تعيش وضعا لا مثيل له، على ما اظن، في شعريات العالم المختلفة، فهي الشعرية الوحيدة في العالم التي يكتب فيها «الشعر الحر» بمعناه الانكليزي Free Verse او الفرنسي Vers Libre (او ما يشبههما) تحت لافتة «قصيدة النثر». اما «قصيدة النثر» بالمعيار الاوروبي فلا يكتبها إلاّ قلة من الشعراء العرب أو تجدها مبثوثة في مجموعة هنا أو مجموعة هناك. وبالمعنى المتقدم فان قصائد الماغوط (خصوصا) التي صارت معيارا لـ«قصيدة النثر» العربية هي، بأوضح صورة Free-Verse وليس Prose Poem. قد لا ينطبق الامر على أنسي الحاج الذي يعرف الفرنسية، وهو الوحيد بين الرواد، من يعرف «قصيدة النثر» ومن كتبها، ومن نظّر لها أيضاً انطلاقا من نظرات ومفاهيم غربية. وديوانه الأول «لن» وهو أول خفقة جناح قوية في فضاء هذه القصيدة، ومقدمته الشهيرة خير دليل على ذلك. لكن لا الماغوط ولا ثريا ملحس ولا توفيق صايغ ولا جبرا ابراهيم جبرا ولا اسماعيل عامود ولا حسين مردان هم شعراء «قصيدة نثر» بالمعنى الإصطلاحي الأوروبي. وهذا لا ينقص ولا يزيد من قيمة شعرهم. فنحن انما نتحدث عن الشكل، عن المصطلح لا عن القيمة الابداعية.

وعلّي أن أعترف، هنا، إنني وقفت على هذه المفارقة، لأول مرة، من خلال

الإستفتاء الذي أجراه عبد القادر الجنابي مع عدد من الشعراء العرب في أحد اعداد مجلة « فراديس » . انطلاقاً من ذلك الاستفتاء الذي شاركتُ فيه تبين لي ان « قصيدة النثر » العربية ليست شبيهة بقصيدة النثر الأوروبية، بل هي اقرب ما تكون الى الـ Free Vers، وانني، شخصيا، لم اكتب إلاّ عدداً قليلاً من « قصائد النثر » بالمعنى الأوروبي . بل رأيت قصيدتي، على مستوى البنية الايقاعية ،أقرب ما تكون الى « الشعر الحر » . منذ تلك اللحظة صارت تسمية « قصيدة النثر » (عربياً) تشكل لي قلقا لم يتبدد .

مشكلة التسمية وحروب الأشكال ليستا بعيدتين، على كل حال، عما تعرفه الحياة العربية نفسها من اشكالات ذات طابع بنيوي . وكل من يعرف هذه الحياة او يراقبها من بعد يدرك انها « حياة انتقالية » لم تستقر على حال . ومن طبع اللحظة الانتقالية القلق، اللارسوخ، التساهل، التسميات العابرة، وفوق كل شيء غياب الضوابط والاعتبارات . فلا شيء يعبّر عن « لخبطة » الحياة العربية اليوم واضطراباتها مثل المشهد الشعري العربي . إنه ،على ما اظن، صورتها ومثالها .

كنت أحدس هذا منذ وقت ولكنني الان بتُ متيقناً « داخليا » منه .

ربع الاحتياطي العالمي من المياه العذبة!

ذكرتُ في سياق هذه الكتابة أن « عصبتنا » كانت تلتقي في « أوقات الفراغ » . وما أقصده بذلك أن تشعب القراءات، وكثافتها في آن، لم نسمحا لجميع الشعراء أن يلتقوا بعضهم بعضاً إلاّ في الإفطار وفي فسحات قليلة بين القراءات اليومية الثلاث . غير ذلك سترى الشعراء « متفشين » في شوارع تروا - ريفير كل اتنين او ثلاثة يتوجهون إلى فراءة هنا أو قراءة هناك يتقاطعون في هذا الشارع أو ذاك كلٌ « كتابه » بيمينه . فبرمجة القراءات لا تجمعك بالشاعر الواحد سوى في قراءتين او ثلاث قراءات على الأكثر، عدا ذلك تكون كلّ مرة مع شعراء لم تقرأ معهم من فبل . فإذا اردت أن تحضر قراءة شاعر ما فعليك أن « تزوّغ » من قراءتك . هذا ما كان

أفراد «عصبتنا» يفعلونه بين حين وآخر، خصوصاً في الليالي حيث كان السهر يطيب ويطول في «كافيه وبار زينوب».

كان واضحا من برنامج القراءات المكتظ اننا لن نتمكن من مغادرة محيط تروا - ريفير الاّ الى المطار. كان ذلك مدعاة أسى أو غضب معظم الشعراء القادمين من الخارج. فليس كل يوم يأتي المرء الى كندا لكي يُحشر في تروا - ريفير لا يبرحها إلى مكان آخر. هكذا قرر أفراد «عصبتنا» بمبادرة من «قائدها» الشاعر والكاتب السويدي فريدريك ايكولند استئجار سيارة على حسابنا الشخصي وزيارة عاصمة الاقليم الفرنسي «كيبيك سيتي».

لم تكن في اليوم الذي ذهبنا فيه إلى «كيبيك سيتي» قراءات شعرية إلاّ في المساء، فليس لغاستون بلمار، والحال، اي سلطة علينا. وكسويدي منظم ومنضبط قام فريدريك بحجز السيارة والتأكد من تواجدنا في قاعة الافطار في الساعة الثامنة صباحا ورسم خارطة للطريق. انطلقنا طغرل تانيول، رفائيل باتينو، رودلفو الونسو، جيركي كسكينين وأنا في سيارة كرايسلر امريكية يقودها فريدريك أيكولند بعد الافطار مباشرة متوجهين إلى «كيبيك سيتي». كان الطقس في الأيام القليلة التي أمضيناها في تروا - ريفير خريفياً مثالياً: شمس مشرقة، غيوم بيضاء متفرقة، ريح خفيفة تهبُّ بين حين وآخر ودرجة حرارة تتراوح بين ١٥ - ١٨ درجة مئوية في النهار.

لكن الطقس انقلب تماما في ذلك اليوم فاكفهرّت السماء وأخذت تمطر. وما ان قطعنا ثلاثين او اربعين كيلومترا بعيدا عن تروا - ريفير حتى بدأت الثلوج بالتساقط. ندف ثلجية تضرب شبابيك السيارة من كل جانب، ما أثار صديقنا الكولومبي رفائيل باتنيو الذي لا تعرف بلاده ذات المناخ المداري الثلوج. وبحسه «الشاماني» كان الوحيد بيننا المتجهز لمثل هذا الطقس البارد المفاجئ فقد تسلح بسترة «بوف» ذات لون بنفسجي فاقع وقبعة وقفازين صوفيين ملونين بدا انهما مشغولان يدويا.

كان ذلك، كما أخبرنا اهل كيبيك، ثلجاً في غير اوانه لكنه، لحسن الحظ،

وبالرغم من «تعزيمات» باتينو، لم يستمر طويلا.

بيد ان الامطار ظلت تهطل حتى اذا وصلنا الى «كيبيك سيتي» وجدناها تلمع تحت المطر: شوارعها الصغيرة الضيقة المرصوفة بالحجارة، قصرها المنيف المتربع على تلة تشرف على نهر سانت لورنس، كاتدرائياتها المهيبة. وكما هو الحال عندما قدمنا من المطار لم تصادفنا على الطريق بين تروا - ريفير و«كيبيك سيتي» اية تجمعات سكانية تذكر. كانت هناك بيوت قليلة تظهر على جانبي الطريق بين حين وآخر لكن الخلاء المأهول بالاشجار (القيقب خصوصا) والمياه كان، هو، سيد الموقف. وهذه، كما يبدو، خصيصة كندية. فكما اخبرنا بعض اهالي تروا - ريفير الذين تعرفنا عليهم خلال اقامتنا بينهم انه يمكن للمرء ان يقطع مئات الاميال دون ان يصادف تجمعاً بشرياً واحداً. فكندا هي أقل بلدان العالم كثافة سكانية. ويكفي ان يقف المرء على بضعة أرقام ومعطيات توفرها الكتيبات السياحية ليتأكد من هذه الحقيقة. فمساحة كندا تبلغ ١٥ مليون كيلومتر مربع وهي بذلك ثاني اكبر مساحة بعد روسيا، فيما قصارى ما يبلغه عدد سكانها هو الثلاثون مليون نسمة يتجمعون في نقط محددة من قارة «القيقب» والمياه هذه.

وبهذا المعنى فان كندا هي بلاد ارقام «قياسية». فمثلاً تبلغ مساحة اقليم كيبيك سبعة اضعاف مساحة بريطانيا، بينما لا يتجاوز عدد سكان الاقليم سبعة ملايين يقيم معظمهم في «مونتريال» و«كيبيك سبتي» وبضع مدن صغيرة من طراز تروا - ريفير، عدا ذلك لا شيء سوى الغابات والمياه.. والتلوج في فصل الشتاء الطويل.

والمدهش في أمر معطيات الطبيعة الكندية إن هذه البلاد تتوافر على ربع الإحتياطي العالمي من المياه العذبة.

نعم،

ربع الإحتياطي العالمي من المياه العذبة

في بلد لا يتجاوز عدد سكانه ثلاثين مليون نسمة!!

لي أنا المنحدر من ظمأ الصحراء التاريخي للمياه، ابن البلد الذي ما أن يجيء الصيف حتى يدبُّ « هلع المياه » بين أهليه فإن وجود هذه الكميات المهولة من هذا « الذهب الأبيض »، هذا السائل الثمين بل الأثمن في العالم شيء مثيرٌ إلى حدّ القشعريرة.

لم يكن أي من رفاقي هؤلاء مهتما بأمر المياه إطلاقاً. فلم تعرف طفولة أحدهم ركضاً وراء سراب كلما اقتربت منه ابتعد. لم يحتفنوا بأيديهم من « نقر » وبقايا سواقٍ، لم يروا الحجر والشجر والبهائم باسطة اذرعها تحت سيف الصّهد وضربات الظمأ. فليس لدى بلاد أي منهم مشكلة مياه بما في ذلك أقربهم إلينا التركي طغرل تانيول الذي تستطيع بلاده أن تجفّف حياة أكبر بلدين في « الهلال الخصيب »: العراق وسورية، بلديّ سلاسل متصلة من الحضارات التي نقلت الحياة البشرية من عراء الخلق الأول الى الكتابة والشعر والالهة، عند ادنى خلاف معهما. فبلاد « الباب العالي »، سابقا، تتحكم بأكبر مصدرين مائيين في منطقتنا كلّها. وهي تمارس، اليوم، هذا التحكم فعلاً. حتى طغرل تانيول الشاعر والاكاديمي كان يجد لحكومة بلاده عذرا في تقنينها المياه على سورية والعراق الآن. فهو ايضاً يكاد يقبل ان يكون تعطيش شعبين كبيرين، ناهيك عن كونهما جارين (شقيقين!) سلاحا لمعاقبة حكومتيهما على دعمهما « الإرهابيين الاكراد ». هذا ما فهمته منه عندما تحدثنا عن العلاقات العربية التركية والريبة والمرارة ان لم أقل الكراهية التي تطبعها رغم مضي أكثر من تمانين عاما على « الثورة العربية » ضد الاتراك وانضمام العرب الى بريطانيا وفرنسا في الحرب ضد السلطنة العثمانية.

لكننا الآن بعيدان، تانيول وأنا، عن دجلة والفرات، عن المرارة العربية التركية، عن سوء التقدير والنكاية والتاريخ الذي غالباً ما يتم استخدامه كمدبّج مدائح أو هجّاء في بلاط القوة. نحن الآن بعيدان عن « السماء الأولى ».. تحت سماء مكفهرة، مثلجة حيناً وماطرة حيناً آخر، سماء لم يهبط منها « وحي » ولم « يبعث » تحتها أي من انبياء الكتب الذين بسببهم (او بسبب استدعاءاتهم المغرضة) نقسم، نتصنّف، ونحترب اليوم.

لكن من المؤكد ان لهذه السماء التي ترينا الآن وجهها القاسي انبياءها المختلفين، من المؤكد ان روح الانسان كانت موضع تساؤل عميق من لدن بشر هذه البلاد الأُول، من المؤكد ان العلاقة مع الطبيعة كانت أكثر من نفعية. ومع ان جاك كارتيير اول فرنسي وطئ هذه الأرض قال عن شعبها انه الأفقر في العالم ولا يستطيع أن ينتج ما هو اكثر قيمة من خمسة سنتيمات، الاّ انهم كانوا على وفاق تام مع الشجرة والنهر والجبل والحيوان. كان لهم منظور للحياة والعلاقة مع الطبيعة مغاير لمنظور القادمين من وراء البحار بحثاً عن الذهب والمعادن النفيسة بعد ان اقتتلوا على طول وعرض القارة الأوروبية. لكن أين هم البشر الأُول، « شعب الأمة الأولى »، كما تسميهم المصادر الكندية؟ لم أقابل خلال الايام العشرة التي قضيناها في تروا - ريفير وكيبيك سيتي وتعريجي على مونتريال أياً منهم فهم أقلية تسكن محميات خاصة بهم. فعدد الذين يندرجون تحت مُسمّى « الهنود » يبلغ نحو ٥٥ الفا وينتمون الى عشر « قوميات » مختلفة اضافة الى وجود نحو ٧٠٠٠ الاف من الـInuits وهم، على ما اظن، من « الأسكيمو ».

وحسبما علمت فان العلاقات بين « المواطنين الاصليين » وبين مسؤولي الإقليم الفرنسي ليست في أحسن احوالها. فهم يرفضون التوجه الكيبيكي القوي للانفصال عن الفيدرالية الكندية، بل لقد هددوا بالانفصال هم ايضاً عن كيبيك في حال استقل الاقليم. فالواضح ان المكتسبات التي ينالونها من وجود كيبيك جزءا من الاتحاد الكندي أكبر مما لو وقع الانفصال. والانفصال الكيبكي كاد ان يقع في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٩٥. فقد اجرت الحكومة الكندية تحت ضغط مطالبة الوطنيين الكيبكيين بالانفصال استفتاء عاما بين سكان الاقليم فحصل معسكر « لا » على ٥٠,٦٪ من مجموع الاصوات بينما حصل معسكر « نعم » على ٤٩,٤٪. وبلغت نسبة المشاركة في الاستفتاء نحو ٩٤٪.

فشل الانفصال في هذا الاستفتاء لا يعني انه توارى نهائيا. فهو لا يزال موجوداً في الأحزاب والقوى التي تعمل من اجله.. وكذا في أنفس الكثير من الكيبكيين.

تعطيك « كيبيك سيتي » ما ان تتوغل فيها انطباعاً بالقدم رغم الحداثة التي تخترقها في اكثر من جانب. بل ويتحول هذا الانطباع، بعد ان تقف تحت المنظر الصارم لـ« شاتو فرونتينك » الذي ينتصب في أعلى نقطة من المدينة ويلوح لك بقرميده الاخضر، الى احساس بالقوة والمهابة. ولا يمكن، لمن يعرف طراز المعمار الفرنسي خصوصا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ان يخطئ انه في مكان ذي طابع فرنسي.

ليست معالم « كيبيك سيتي » كلّها كذلك فالانكليز الذين وضعوا ايديهم على المدينة في عام ١٧٧٦ تركوا هم ايضا بصمة عليها من ذلك، مثلا، الكاتدرائية الانغليكانية « هولي ترينتي » المشيدة عام ١٨٠٤، الأولى التي يقيمها البريطانيون خارج جزرهم. لكن التأثير البريطاني لا يقارن بما يمكن ان نسميه « الروح الفرنسية » التي تسري في أوصال المكان: من المعمار الى النصب والتماثيل واسماء الشوارع والساحات، الى المطاعم والندل في البارات والمقاهي، مرورا بالقديسين والابطال الذين يحرسون المدينة من مواقعهم الغامضة في تاريخ مشحون بالصراعات والدم والمطامع الكبيرة.

ولا يبدو ان القرون الثلاثة التي اعقبت سقوط « فرنسا الجديدة » قد غيّرت الكثير في هذه الروح. قد تكون الادارات الانكليزية المتعاقبة والأمركة المخيمة على كندا كلّها والزمن احدثوا اترا هنا وهناك، لكن المدينة، في العمق، لا تزال تتنفس برئة فرنسية. هنا المتحدثون بالانكليزية، كما لاحظت، اكثر بما لا يقاس من تروا - ريفير لكنها انكليزية مطعمة باللكنة الفرنسية. حتى الباعة الذين يتعاملون مع الاف السياح يوميا باللغة الانكليزية لا تخلو انكليزيتهم من لكنة ثقيلة، وتعثر ما يشي أنها ليست لغتهم الأم.

فاذا اردت ان تعرف كيبيك، ان تفهمها، ان تعرف ما الذي جرى فيها وما الذي يجري الآن فالانكليزية، ليست طريقا صالحة لذلك. لا بدَّ من الفرنسية. فاللغة،

هنا، ليست مجرد اداة تواصل، ولا هي وسيلة للتعبير، انها بالأحرى، تعبير خاص عن الهوية، عن الوجود نفسه. انها حياة. لذلك كان اصدقاء رحلتي اكثر حظاً مني في التقرب الى « كيبيك » و« الكيبيكيين »، في معرفة شعرهم وأدبهم مني أنا الذي رفعت الانكليزية بيني وبين معظم الذين التقيتهم، هنا او في تروا - ريفير ستارا ثقيلا. وعندما اقول لابدّ من الفرنسية لمعرفة ابسط الامور، مثل الطريق الذي ستسلك، الوجهة التي تقصد، فأنا اعني ذلك. فلم أر أنّي توجهت اشارة طريق او اسم شارع مكتوب بالانكليزية، وقد علمت ان ذلك تم بقرار من « الحزب الكيبيكي » الذي فاز بالانتخابات المحلية عام ١٩٧٦ وكان من بين ابرز ما فعله هو القرار القاضي ان تكتب جميع اشارات الطرق واسماء المحال التجارية واللافتات العامة بالفرنسية فقط.

طغرل تانيول كان زار كيبيك قبلنا بسبع سنوات وفريدريك ايكولند قرأ، على ما يبدو، الكثير عنها قبل ان يأتي لذلك كانا يعرفان اكثر منا عن تاريخ المدينة وبعض معالمها، بل ان فريدريك كان تزود بعنوان مطعم رخيص وجيد يقع بالقرب من « شاتو فرونتينك » واستطعنا الوصول اليه، وكان حقاً رخيصاً نسبياً وجيد المأكل.

وعلى ذكر معرفة فريديرك ايكولند بقبسات من تاريخ « كيبيك » واشكالاتها مع الادارات الانكليزية الحاكمة، بل والمنحدرين من أصول انكليزية والموقف من اللغة الفرنسية فقد أخبرنا ان العاملين في الادارات أو في المحال التجارية كانوا يطلبون من الكيبيكي الناطق بالفرنسية، ان « يتكلم أبيض » (speak white). كأن فرنسيي كندا هم زنوجها. كأن معيار الإنتماء إلى « العرق الابيض » ان تكون انغلوسكسونيا وبروتستنتيا. « تكلم أبيض » هو، على كل حال، عنوان كتاب وضعه كما اخبرنا فريدريك كاتب كيبيكي يتحدث فيه عن اضطهاد الفرنسية الذي لعله ظل سائداً حتى الستينات عندما أصبحت كندا، رسمياً، دولة ثنائية اللغة واتخذت لنفسها علما خاصا بها هو ورقة شجر « القبقب » بعد ان كان العلم بريطانيا.

هناك بضعة مواقع تاريخية مهمة يزورها زائر المدينة، اهمها، كما يبدو، فندق «فرونتينك» الذي كنت اظن ان سقفه مشيد، مثل جميع القصور والكاتدرائيات الكندية، بالقرميد الاخضر واستغربت ان يكون للكنيسة «لون اسلامي» ولكن تبين لي ان هذا الاخضرار ما هو إلاّ «جنزرة» النحاس.. تحول بفعل عوامل الطبيعة الى الاخضر!

اقيم هذا القصر الشامخ، الصارم الوجه عام ١٨٩٢ في موقع «لشاتو هالديماند» الذي اقيم في عام ١٧٨٤.. اي بعد سنوات قليلة من احتلال المدينة من قبل القوات الانكليزية.

(المصادر الكندية الفرنسية تسمي استيلاء البريطانيين على «كيبيك» «احتلالاً» وتصف الجيش الانكليزي بـ«قوات الغزو» او «المحتلين»).

ولكن أصل الموقع يرجع الى فترة ابعد من ذلك ففي هذا الموقع بالذات اقام صامويل دي شامبلين الذي اسس مدينة «كيبيك» عام ١٦٠٨ نواة القصر الاولى وذلك بين عامي ١٦٢٠ - ١٦٢٤.

القصر الحالي، وهو اليوم فندق فريد الطراز، من البروز والتصدّر بحيث يمكن لك ان تراه من اي جهة في المدينة فهو يشرف عليها كأنه عينها الساهرة.

الى اقرب نقطة من القصر صعدنا والتقطنا بضع صور. كان خلفنا، في الأسفل، يجري نهر سانت لورنس الذي كنت اتمشى على ضفته في تروا - ريفير كل يوم.

والمدبنة تستمد اسمها، كما فهمت، من النهر نفسه. فكلمة «كيبيك» (Kebec) ذات أصل «هندي» وتعني «المكان حيث يلتقي النهر أو يضيق»، لكنها لم تكن تسمى كذلك في لغة السكان الأصليين بل كانت تدعى «ستادا كونيا». لكن المستوطنين الفرنسيين الأوائل ظنوا ان اسم الموقع نفسه «كيبك» فأسموا مدينتهم المقبلة كذلك. وبهذا المعنى فلم يكن الفرنسيون اول من رمى حجر الأساس لهذه المدينة بل سكانها الاصليون وإن لم تكن بطبيعة الحال كما صارت

عليه مع مجيء الاوروبيين. لكن الارض كانت تنحني مع النهر والنهر الذي لا بدَّ انه كان له اسم أصلي آخر كان يلتف حول التلة والأرض التي تنبسط بعدها. والمكان هنا لا يلتقي النهر فحسب بل يشرف عليه. والنهر الكبير الذي كنت أراه في تروا - ريفر أكثر صفاء مما هو عليه في «كيبيك» يجري صامتاً. لا يعلن عن نفسه بصخب، صفحته هادئة ولكن هل تعكس اعماقه؟ أشعر، دائماً، بما هو اكثر من المهابة امام تجليات الطبيعة ومفرداتها، بما يشبه الشعور الديني. لا أعرف متى بدأ يتسرب إليَّ هذا الشعور لكنني لم أقف أمام شجرة أو نهر أو ساقية أو بحر أو جبل إلاّ وشعرت أن له روحا. انه اكثر من مجرد تراب وذرات ماء او خشب. ونهر سانت لورنس في كيبيك ليس نهراً بل هو الى ذلك روح المدينة نفسها. هو نقطة قوتها ونقطة ضعفها.

فبالرغم ان المدينة القديمة تبدو محصنة ومحاطة بأسوار لكن موقعها، من الناحية العسكرية البحت كان كارثياً عليها كما اثبتت الوقائع التاريخية. فأحد عوامل سقوطها بيد الانكليز كان سهولة محاصرتها وقطع طرق الامداد عنها. فنهر سانت لورانس هو المدخل الوحيد للمدينة وبالسيطرة عليه يمكن، ببساطة، عزلها عن العالم الخارجي. وقطع الإمدادات عنها. وهذا ما فعله الخصوم العنيدون للفرنسيين: البريطانيون.

قام البريطانيون الذين كانت لهم اليد الطولى في امريكا الشمالية باكثر من حملة، لاحتلال «كيبيك» وانهاء الوجود الفرنسي الذي استقر فيها باسم «فرنسا الجديدة» كانت الاخيرة، والحاسمة، اثناء اندلاع الحرب، من الناحية التاريخية كان الفرنسيون هم اول اوروبيين «يكتشفون» كندا ويستوطنونها بعد «الفايكنغ»، لكن ذلك لم يرق للبريطانيين الذين هزموا الفرنسيين في اكثر من موقعة منها «وترلو» في اطار منافساتهما على مواقع النفوذ في العالم.

في ٢٦ حزيران (يونيو) عام ١٧٥٩ جهز البريطانيون حملتهم الثانية لاحتلال «كيبيك» بقيادة جيمس ولف وضربوا حولها حصارا وقعت خلاله مناوشات عديدة بين الطرفين.

وقد تمكن ولف الذي اوجع حصاره عاصمة « فرنسا الجديدة » من احتلال المدينة في ايلول (سبتمبر) من العام نفسه لكن الفرنسيين استماتوا في الدفاع عن مدينتهم التي ربما كانوا يعرفون انه بسقوطها سيسقط الوجود الفرنسي في هذه البلاد لذلك تكبد الجانبان خسائر بشرية كبيرة منها اصابة قائدي الطرفين بجراح قاتلة .

لم يستسلم الفرنسيون الى الامر الواقع تماما فقاموا باعادة تنظيم صفوفهم وشنوا هجوما مضادا بقيادة الجنرال ليفي (Levis) في ٢٨ نيسان (ابريل) ١٧٦٠ الامر الذي اضطر الجيش البريطاني بقيادة الجنرال ميري الى التراجع داخل المدينة . وبقي الجيشان متربصين بعضهما بالبعض الاخر بانتظار التعزيزات بعد ان استنفدا قواهما المادية والمعنوية .

كان المتربصون بعضهم بالبعض الاخر في مدينة « كيبيك » ينتظرون ، كما كانت عليه الحال في « وترلو » ، أي علم من البلدين سيلوح في الافق اولا هارعا لنجدة جيشه .

وبعد نحو عشرة ايام فقط ظهرت الفرقاطة البريطانية « لويستوف » حاملة التعزيزات لجيشها في « كيبيك » وبظهورها سقط الوجود الحكومي الفرنسي في « العالم الجديد » وبقي بطبيعة الحال ، الوجود البشري متشبثا ، على نحو عجيب ، بفرنسيته .

اذا أردت ان تصغي لأصداء هذا التاريخ في شوارع « كيبيك سيتي » سواء من خلال علاماته الظاهرة او من خلال ما تستبطنه أنساق المدينة الثقافية الاجتماعية يمكنك ان تفعل ذلك واذا أردت ان تنطلق مع افواج السياح الغفيرة ، « التي لن تخلو من اليابانيين بمجموعاتهم المنظمة ومعدات تصويرهم عالية التقنية » يمكنك ان تفعل ذلك ايضا ولعل نسيان التاريخ بكل حمولاته هو الافضل . والتعامل مع المدينة برأس خفيف ، النظر اليها كما هي عليه . ولم تكن سفرتنا ، على كل حال ، بعيدة عن ذلك فما نحن سوى شعراء فاض بهم « كيل الشعر » في تروا ـ ريفير

فطفقوا يبحثون عن النثر. فهل الحياة اليومية السادرة هي نثر وسفسطتها وتوتيرها هو الشعر؟

ليس هذا أكيدا، الاكيد، على كل حال، هو ان الرحلة كسرت النسق التروا ـ ريفيري الذي تراكم فيه الشعر على الشعر (الذي بقيت عند تخومه الصوتية فقط) واعطتنا فرصة لرؤية المكان الذي اصبح مسرحا لرموز تتجاوز الرقعة نفسها وتشخص الى مدى اوسع. لكن جاذبية المدينة، اختلاط السحنات (السياح طبعا فالمكان نفسه شبه «صاف»)، الحركة التي تنبض في المكان، الفتيان والفتيات الذين يتعانقون تحت المطر اكثر أهمية من الرموز.

ننتصر الى لحظة الحياة الحاضرة وننصرف عن الرموز. نمشي في الشوارع من دون خطة. نمرّ بشارع قيل لنا انه أول شارع يعبد في امريكا الشمالية كلها. الشارع الصغير المسمى «شامبلين الصغير» ينسى بعد ان ينصرف السائحون، رقمه القياسي ويحيا حياته العادية. تعود الهدأة لاحجاره القديمة ويغمر الصمت رحابه. ندخل اكثر من مشرب كيبكي، وهو يشبه الـPUB الانكليزي وليس كما هو عليه الحال في فرنسا حيث يمكن للمقهى أن تقوم بكل شيء: مشرب، مطعم ومقهى، ولعل هذه المشارب إضافة إنكليزية أخرى إلى المدينة التي فشل الإنكليز، على مدار إداراتهم المتعاقبة، في إحداث تغيِّر فعلي في ديموغرافيتها. فنسبة المنحدرين من أصول فرنسية فيها تكاد تبلغ ٩٥٪.

ومن المشارب ندخل أكثر من محلّ لبيع الأشرطة الموسيقية، فقد كان «باتينو» يريد أن يشتري شريطاً من الموسيقى الأمريكية اللاتينية الراقصة ليهديه إلى صديقته العبلاء. وألاحظ أيضاً أنه رغم حضور مغني البوب الفرنسيين أو من يشبههم (إضافة إلى من أصبحوا كلاسيكيين في الغناء الفرنسي مثل جاك برل، شارل أزنافور، جورج موستاكي (أصله يوناني)، داليدا (مصرية المولد)، ميري مانيو، جوني هاليدي، أنريكو ماسياس (جزائري الأصل) وهؤلاء يعرفهم جيلي أكثر ممن تلاهم) فإن حضور الفرق الغنائية الامريكية والانكليزية، طاغٍ، فأشرطة

وإسطوانات مغني ألـ « راب » و« هب هوب » حاضرة بقوة، وهذا يدلل، على ما أشرت إليه أكثر من مرة في مناسبات سابقة، الى نوع من « عولمة » الغناء و« عولمة » الشبيبة، وتحوّل الموسيقى ما يشبه العقيدة، الدين. لا فرق في ذلك بين الياباني والكيبكي والمغربي والأردني والفرنسي. شبيبة عالمية تجتمع على الموسيقى والأغنية لا على الفكرة لكن هذه « العولمة »، كما هو حال سائر « العولمات » القادمة في ركاب النظام العالمي الجديد هي من طرف واحد، طرف مرسل وطرف مستقبل. طرف منتج وطرف مستهلك. تلقين . فاعل ومفعول به بالمعنى الشمولي للكلمة. وللمفاجأة وجدت في واحد من أكبر محلات بيع الأشرطة الموسيقية في « كيبيك »، قسما معقولا للموسيقى العربية يضم أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وفيروز إلى كاظم الساهر وعمرو دياب والشاب خالد (الأكثر حضوراً بينهم في عدد الألبومات والموقع الذي يحتله في الخانة نفسها) وديانا حداد الخ..

سألت إحدى الفتيات العاملات في المحلّ ما اذا كان هناك عرب في « كيبيك » لكي يشتروا الموسيقى العربية قالت، ربما كان هناك عدد قليل ولكن غالبية الذين يبتاعون هذه الأشرطة هم من السياح القادمين من مناطق أخرى من كندا ومن مونتريال خصوصاً، إضافة إلى بعض الأجانب، فالشاب خالد، خصوصاً، لا يبتاع أشرطته العرب فقط، بل أناس من جنسيات أخرى، ومن ضمنهم كيبكيون، « الشاب خالد »، لفظت اسمه بشكل مضبوط معروف هنا. فهو دخل التشارت الفرنسي.

لقد ادهشني ان اجد هذا الكم المعتبر من اشرطة الغناء العربي في مدينة، لا يقطنها عرب، تقريبا، وبعيدة عن العالم العربي الاف الأميال، بينما لا تكاد تجد مثيلا لذلك في محال بيع الأشرطة الموسيقية، الكبرى في لندن رغم وجود مئات الاف من العرب الذين يشكلون قوة شرائية لا يستهان بها. فهل السبب إستخفاف من القائمين على هذه المحال بالموسيقى العربية بقضها وقضيضها، ام لوجود أسواق خاصة بالعرب تبيع مثل هذه الأشرطة في « ادجور رود » و« بيزووتر » وغيرهما؟

لا أدري، ولكن ليس من السهل، كما اظن، ان تشتري محلات مثل «فيرجين» و«اور برايس» أشرطة الغناء العربي، اللهم باستثناء «الشاب خالد» الذي اصبح له حضور في هذا المشهد الغنائي الغربي.

اشترى «باتينو» شريطا موسيقيا وجعلني اشتري، الى جانب ما اشتريته من اشرطة، اخرى C.D «مامبو» لبيريز باردو، قال لي انها من أفضل هذا الضرب من الموسيقى الامريكية اللاتينية الراقصة.

كان رفائيل باتينو الذي اسميته «شامانا» من قبل أن اعرف انه ليس بعيداً تماماً عن ذلك، يتدفق كرماً تجاه النساء اللواتي يقابلهن، يعرض «لمساته السحرية» من دون مقابل.

عندما قلت له أنت «شامانا» في أول لقاء بيننا، واصبح الجميع ينادونه هكذا كنت أمزح، ولم اكن أعرف أنه يعمل كـ«مداو» (هيلر) من خلال الأعشاب والوصفات الشعبية الكولومبية. وقد اشتكى أحد الشعراء المشاركين معنا في المهرجان من ألم في عينه، فوضع باتينو يده على جانب من رأسه، ثم ضغط عليه وكذلك مسد على العين نفسها، فلم يمض ذلك اليوم إلا وزال الألم كما اعترف الشاعر نفسه!

لم يبخل باتينو بـ«علمه» على من كنا نصادفهن من النساء: من العاملات في المشارب التي مررنا بها الى السائحات في الشوارع. لم يكن الصدُّ يعني له شيئا، المهم، دائما، المحاولة.

ولولا وجود رفائيل باتينو لما كانت الرحلة «الى كيبك» خارج المألوف. فهو أعطاها نكهة لا تنسى. سنظلُّ نتذكرها طويلاً بعد عودتنا إلى «ديارنا».

نعود إلى تروا ـ ريفير كأننا نعود إلى ريف منعزل. فالمدينة الصغيرة لا يقصدها إلاّ من له عمل فيها. لذلك لا ترى في شوارعها «وجوها غريبة» فكلُّ من يتحرك في شوارعها القليلة هو منها أو من جوارها.

حول التاريخية الجديدة

قبل يومين من مغادرتي تروا ـ ريفير عائداً إلى لندن وصل الشاعر المغربي المقيم في كندا مصطفى فهمي للقاء صديقه صلاح بوسريف فهما، كما علمت من بوسريف، في السن نفسها، وأبناء حي واحد في « الدار البيضاء ». حي من تلك الأحياء التي يتكوم فيها المهاجرون إلى « العاصمة الاقتصادية » للمغرب من الأرياف القريبة والبعيدة من أجل نقلة حياتية أفضل.

جاء مصطفى سائقاً سيارته الـ « لكزس » اليابانية الراقية من مدينته الصغيرة « شيكوتيمي » التي يدرّس في جامعتها أدب العصر الإليزبيثي وبالخصوص شكسبير، الأمر الذي وجدته ينطوي على مفارقة: عربي، بل ومغربي أيضا « يغزو » قدس أقداس اللغة الانكليزية: شكسبير. فالسائد ان المشارقة هم « المتنكلزون » فيما المغاربة « متفرنسون ».

ولكن يبدو أن مصطفى فهمي أبى إلاّ أن يقلب المعادلة مضيفاً إليها معرفته الجيدة بالفرنسية.. وقبل هذا وذاك عربيته المتينة التي جاء بها شاعراً إلى كندا قصد الدراسة العليا ومثل كثيرين غيره من الأكفاء العرب وجد أن « المهجر »، على صعوباته الحياتية الأولى والآمه الوجودية الدائمة، يظلُّ معقولاً، ممكناً للعيش الكريم أكثر من الوطن. لم يقل لي ذلك مصطفى فهمي، تماما، ولا أحتاج إلى إفصاح كهذا، فأنا خبرتُ هذا الامر. عشته، مع فارق أظنه لصالح تجربة مصطفى، هو أنه يعمل مع الكنديين بينما أعملُ، وكثير من المثقفين العرب الفارين الى الغرب، مع العرب. سواء كانوا العرب الذين فروا منهم، بالضبط، أو امتداداتهم.

لم يعد بمكنتي أن أردد، بنشوة روحية خالصة، بيت محمود درويش الجارح « ليتنيِ كنتُ طليقاً في سجون الناصرة ». فليس، لي، ثمَّ « ناصرةٌ » بعدُ.. أما السجون فلم يعد لها ذلك الاغواء الذي عرفه عملنا في الحقل العام (كدت أقول النضال فتبدو الكلمة، ناشزة، غريبة، كأنها تأتي من زمن آخر).. كان يمكن، من قبل، أن أسعى كيما اكون « طليقاً » في سجون « ناصرتي ». لكنني لم أعد متيقنا،

اليوم، من شيء كهذا. لم أعد أعرف عن ظهر قلب، كما في السابق، هذه «الناصرة». أعترف، من دون دراماتيكية، من دون تفجع ان «ناصرتي» التي أعرفها والتي تلحُّ عليَّ لا تقع خارج حدود ذاكرتي. فهناك أمي وأبي وأخواتي واخواني الثمانية وأصدقائي الأُول أبناء البدو واللاجئين الفلسطينيين، هناك رائحة الهال تفوح من مدخل البيت، يدا أمي وهما تعجنان تلاً من الطحين في الليّل ومع أول الضوء تخبزان خبزنا على «الصاج» والدخان يتغلغل في ثيابها، مسامّها ويدُمعُ عينيها، وهناك نظرة أبي الصارمة التي تفلق الحجر، صمته الذي لم أ عرف، قط، ماذا يخبئ، وهناك «مهباش» جدي ورائحة قهوته وتبغه النافذتين، الطرق الترابية التي تطير عليها أقدامنا الحافية والأصائل التي لا تَعدُ بأي شيء، السماء الجافة، العارية حتى الفضيحة التي كنا نعدُ نجومها نجماً نجماً فينهرنا اهلونا خشية أن تطلع الثآليل في أيدينا.

هذا وكثير غيره حيٌّ في ذاكرتي وماثل، لكن ما قاله راشد حسين لمحمود درويش عندما التقيا في مطار القاهرة (بحسب القصيدة) أو ما يقوله محمود درويش لنفسه من وراء قناع راشد حسين لا ينطبق علي، فالناصرة تلك ليست، بعد كل شيء، رمزاً، ولا ذاكرة، فلا يزال سؤال الناصرة قائماً بحرقته الأولى.

ليس لمصطفى فهمي ولا لي مثل هذه الناصرة. فسؤال «ناصرتنا» من نوع آخر. انه سؤال حرية لا تحرر. سؤال اجتماع أكثر منه كونه سؤال وجود.

نخوض ثلاثتنا صلاح بوسريف، مصطفى فهمي وأنا في سؤال الوطن والمهجر، الذي يخصُّ مصطفى ويخصني اكثر مما يخص صلاح في الليلة التي قضيناها معاً في تروا - ريفير ونستأنفه في طريقنا إلى مونتريال في اليوم التالي. أسأل مصطفى لماذا لا يعود ليفيد الجامعة المغربية بعلومه التي تلقاها في كندا فيقول لي انه حاول ذلك فعلاً ولكن وضع الجامعة المغربية لا يغري باجتذاب ابنائها المهاجرين الى الخارج. فمصادر البحث وادواته تكاد تكون معدومة، بينما توفر لك الجامعة الأجنبية كل ما تحتاجه، انني أتحدث عما هو أولي في عمل الباحث والأستاذ ولا

أطلب ما هو موجود في جامعات غنية مثل الجامعات الأمريكية أو الكندية، يقول مصطفى.

بدأ مصطفى فهمي حياته شاعراً وكان يعرف، عندما كان في المغرب، ما هو الشعر لأنه كان شعرا مثل الشعر الذي يُكتَبُ. ولكنه، على ما يبدو، لم يعد يملك هذا اليقين بعد إقامته في كندا وانفتاحه على تجارب شعرية وأدبية عديدة.

هذا ما لمسته من ديوانه الوحيد الذي أصدره بعيد وصوله الى كندا. ففي القصائد التي كتبها في المغرب ثمة ثقة، تماسك، معرفة القصيدة بعالمها.. بينما تفسح «قصائده الكندية» حيزاً للمساءلة، للتشكك.. للحنين.

لكن مصطفى الذي أصرّ على ان يُقلني بسيارته الى مطار «دورفيل» مارين بمونتريال، لم يبد ملحاً على كونه شاعراً، أشار الى الأمر، عرضا، مرة او مرتين. وكان عليّ ان اقرأ ديوانه بعد عودتي الى لندن.

الأمر الذي كان يقدمه مصطفى على شعره في حديثه معنا هو الدراسات النقدية الجديدة التي تشغل العالم الجامعي الأمريكي اليوم وأبرزها، كما قال لنا «التاريخية الجديدة». كان مصطفى يتحدث بمرارة عن تلكؤ الدراسات النقدية في الجامعة العربية، المغربية خصوصا، عند مناهج واتجاهات نقدية فرنسية لفظت أنفاسها او تكاد في بلادها بينما هي في أوجها في عالمنا العربي، لها منظرون ومتشبعون، تعد بها الاطروحات الجامعية، وتفرد لها الصفحات في المنابر المتخصصة أو السيارة من دون أن تجري اعادة تأمل فيها. يتحدث مصطفى عن الاتجاه النقدي الواسع الذي تشقه اليوم دراسات وابحاث ادوارد سعيد ونشوء ما يسمى بتيار «دراسات ما بعد الاستعمار» الذي يعد المفكر والناقد الفلسطيني الكبير رائدا له. يقول مصطفى بحماسة: ادوارد سعيد علم كبير، معلم فعلي في الجامعات الامريكية له تلامذة يتكاثرون يوما بعد يوم، وبعض تلامذته اصبحوا باحثين معروفين.

يسأل مصطفى فهمي إن كان هناك اليوم من يشتغل في اطار هذا التيار في

العالم العربي. أقول له انه، على حد علمي، تيار ناشيء ولعل تأثيره في النقاد والباحثين من شبه القارة الهندية وافريقيا أكبر مما هو عليه الحال في العالم العربي. ولكنني شخصيا اعرف احد اكثر المتحمسين له، بل ولعله ان يكون من اوائل الذين لفتوا الانتباه اليه عربيا هو الناقد السوري صبحي حديدي الذي يتابع عن كثب المشهد الثقافي والسياسي الامريكي.

(وسيكون من المفيد أن أسجل هنا ان صبحي حديدي هو ايضا من أوائل الذين كتبوا، على ما أعلم، عما أسماها «التاريخانية الجديدة» في الصحافة العربية وذلك في عدد «القدس العربي» ليوم ٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٩، من خلال مقالة له بعنوان «من يكتب التاريخ الحقيقي: الأرشيف ام الحكاية».. وهي المدرسة أو التيار الذي كان، للمصادفة، محور حديثي مع مصطفى فهمي).

أسأل مصطفى عما يشغل اهتمام النقاد والجامعيين في امريكا الشمالية اليوم. يقول: كانت «التفكيكية» ونظرية «التلقي» والدراسات الشعرية تملأ الساحة الامريكية الشمالية في عقدي السبعينات والثمانينات، ولكن مع مجيء التسعينات بدأ تيار نقدي جديد يسيطر على الساحة هو المسمى بـ«التاريخية الجديدة».

وقد جاء هذا التيار، اساسا، كرد فعل على عزل «التفكيكية» للنص الادبي عن المحيط الثقافي والايديولوجي الذي يولد ويترعرع فيه، كما جاءت ايضا لتصحح بعض المغالطات التي ينطوي عليها النقد التاريخي التقليدي الذي ينطلق، حسب تعبير الناقدة الامريكية جين هاورد، من ثلاث فرضيات يمكن ان نلخصها بالتالي:

- ان التاريخ شيء يمكن معرفته.
- ان العمل الأدبي يعكس الفترة التاريخية التي كتب فيها.
- ان بامكان الناقد والمؤرخ التعامل مع الوقائع التاريخية بموضوعية.

غير أن التاريخيين الجدد، وفي مقدمتهم ستيفن غرينبلات مؤسس هذا التيار وأبرز نقاده، يردون على الفرضية الاولى بملاحظة بسيطة مفادها ان التاريخ «نص»

قبل كل شيء، نص كُتِبَ واعيدت كتابته مرات عديدة.

يواصل مصطفى فهمي قوله: ليس للتاريخ هذه القداسة التي يبدو عليها ولا المصداقية المطلقة التي تحاول ان توهمنا بها مصنفاته. فكتب التاريخ، ومصنفاته، لا تعطينا تأشيرة سفر عبر الزمن لكي نعاين الوقائع بانفسنا. انها هي التي تفعل ذلك نيابة عنا. بل نيابة عن القوة التي تحكمت بانتاجها. فهي اذن «مؤلّف»، «نص»، لا وثائق لا يرقى اليها الشك.

يضرب مصطفى مثلا على ذلك بالقول: لو اننا وقفنا امام كتابين عن «حرب الخليج» الاخيرة احدهما مكتوب في امريكا والاخر في العراق لوجدنا ان هناك حربين مختلفتين. فكيف يمكن أن نتحدث عن تاريخ واحد.

هذا بالنسبة لحدث تتبعنا وقائعه جميعنا، فما بالك بوقائع مضت عليها مئات السنين.

اذن التاريخ «نص» كباقي النصوص، أقصد، يضيف مصطفى، ليس للنص التاريخي امتياز عن القصة او القصيدة او المسرحية او اي نوع من الكتابة الادبية. انه، بهذا المعنى، نتاج ثقافي وايديولوجي قابل للقراءة والتأويل.

اقول له: ولكن الا تعكس كثير من الاثار الادبية سمات وملامح عصرها. يعني ألا تعكس روايات نجيب محفوظ او جين اوستين ملامح العصر الذي عاشا فيه؟ ألا يمكن لنا ان نرى التاريخ ماثلا في اعمال هذين الكاتبين؟

يجيب: صحيح ان روايات نجيب محفوظ تعكس جانبا من تاريخ مصر الحديث كما ان روايات جين اوستين تعكس بصفاء مذهل جانبا من حياة الطبقة الانكليزية المترفة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لكن ذلك يغفل الطبيعة التبادلية التي تحكم علاقة الواقع بالفن. صحيح ان الفن يعكس واقعاً تاريخياً معيناً، الا انه يساهم، بدوره، في تزكية أو تكريس أو حتى خلق ذلك الواقع.

خذ على سبيل المثال قصيدة المتنبي الشهيرة في هجاء كافور، فالقصيدة

تكشف، رغم قيمتها الجمالية الكبيرة، عن جانب عنصري محرج من ثقافة المجتمع العباسي، بل انها ليست سوى صياغة فنية لخطاب عنصري كان رائجاً... أو لنقل كان مألوفاً بين الناس في ذلك العصر.

ويرى مصطفى فهمي ان شهرة المتنبي وعبقريته ومكانته في الشعرية العربية أسهمت في دفع عدد من الناس الى تبني تلك النظرة العنصرية تجاه السود. فالمتنبي يعتقد ان العبيد أنجاس مناكيد لأن ثقافة عصره أدخلت في ذهنه ذلك الاعتقاد، في حين ان عدداً من الأشخاص ظنوا ان العبيد انجاس مناكيد لأن شاعراً عظيماً مثل المتنبي عبر عن ذلك بطريقة مغرية. هكذا أسهم الواقع في صياغة نظرة القصيدة واسهمت القصيدة بدورها في صياغة الواقع مجددا.

ويدلل مصطفى على ما يذهب اليه بالشعبية الكبيرة التي احتلتها هذه القصيدة عند جمهور تلك الفترة لا بل وتداولها عبر العصور وسط امة من المفترض ان يكون الناس فيها سواسية كأسنان المشط!

أقول لمصطفى فهمي: لا أدافع عن المتنبي في نظرته العنصرية تجاه الأسود، ولكن هذا «الأسود» هنا هو أسود محدد بحادثة وواقعة معينتين قد لا يكون الأسود باطلاق... ثم انك تستحضر هذه القصيدة، بل هذا البيت بالذات، من دون ان تستحضر معه سياقاً كاملاً. انت هنا، أيضاً، تعزله ليس عن ثقافة كونية كانت العبودية لا تزال موجودة فيها وهي لا تقتصر على الأسود، بل ان المماليك، وهم ضرب من العبيد لم يكونوا سوداً بل بيض البشرة.

يرد مصطفى قائلاً أن قصيدة المتنبي، أو بالأحرى الأبيات التي يتحدث فيها عن كافور الأخشيدي، هي مجرد مثال على كيفية اشتغال «التاريخية الجديدة» ليس إلاّ.

دار معظم هذا الحديث مع مصطفى في الطريق من تروا - ريفير إلى مونتريال التي اقترح علينا، صلاح بوسريف وأنا، ان نقضي فيها بضع ساعات قبل ان يقلني إلى مطار «دورفيل» حيث ستقلع طائرتي مساء. كانت حماسة مصطفى فهمي

لهـذا التيار واضحة. وكان يتمنى ان تهبّ رياحه على حقل الدراسات والجامعات في العالم العربي. توقفنا، في الطريق إلى مونتريال في «سوبرماركت» كبير يخدم قرى وضواح بعيدة عن مونتريال.. كنت ألمحت لمصطفى برغبتي في شراء علبة من عسل القيقب كنت رأيت مثلها في تروا ـ ريفير، لفت نظري في السوبرماركت بندورة (طماطم) ذات حجم غير عادي بالمرة. إضافة الى كوم كبير من القرع المفرغ الخاص بعيد «الهالوين». قلت لمصطفى: هذه بندورة ضخمة جداً.. هل هي كندية يا ترى؟ اقترب وقرأ ما هو مكتب على اللافتة الصغيرة التي تحمل السعر فقال: لا... إنها أمريكية. ولكن إياك أن تظن أنها طبيعية. خطر لي أن تكون معالجة جينياً، فأمريكا هي، الآن، الأعلى صوتاً، في الدفاع عن الأغذية المعالجة جينياً. كما أنه ليست هناك «طماطم» طبيعية بهذا الحجم ولا بهذا اللون الزهري. لم تكن «الطماطم» وحدها الضخمة، بل الفلفل الأخضر والخيار أيضاً. كانت ألوان هذه الخضر فاقعة ولها ملمس بلاستيكي. في السوبر ماركت الضخم وجدنا ضالتنا من «عسل القيقب» الذي كنت أظن أنني سأجلبه كاكتشاف الى ولديّ، لاكتشف انه موجود في بيتنا!

كانت هناك «تفريعات» انسانية وشخصية في حديثي مع مصطفى فهمي الذي لم التقه أثناء زياراتي إلى المغرب لكن متن الحديث ظل منصباً على قضايا الثقافة العربية، وما يدور من مستجدات في الثقافة الكندية ـ الأمريكية. كان حديث مصطفى عميقاً وممتعاً، والحق، جديداً في كثير من جوانبه عليّ. من بين ذلك «التاريخية الجديدة» التي ركزت، هنا، على تسجيلها أكثر من غيرها من الموضوعات التي طاولتها احاديثنا لظني انها ستكون مفيدة بالنسبة للقارئ العربي وللمثقف حصوصاً.

لذلك أعود إلى «التاريخية الجديدة » وأصل ما انقطع.. أقول لمصطفى دعنا مس قصيدة المتنبي ولنتحدث عن أمثلة أكثر راهنية. قال خذ مثلاً ظاهرة المسلسلات التلفزيونية العربية، فأول ما يلاحظه المتتبع لهذه المسلسلات هو التشابه الكبير

بينها. فالأشخاص يحبون ويعبرون عن حبهم ويتزوجون ويبحثون عن شقق للسكن بنفس الطريقة تقريباً مستعملين العبارات نفسها.

أقول لمصطفى: ولكن بعيداً عن فنية هذه المسلسلات، فالتشابه هنا هو تشابه في الواقع نفسه ولا أظن ان التشابه مقصود لذاته. يقول: قد يكون هناك تشابه فعلاً بين واقع بعض المجتمعات العربية، المصري خصوصاً، وبين تلك المسلسلات. لكن السؤال الذي ينبغي طرحه هنا، وهذا ما أردت أن أصل اليه عندما طرحت قصيدة المتنبي كمثال، هو: من يؤثر في من؟ هل أصحاب المسلسلات هم الذين يحاكون الواقع؟ أم ان الواقع العربي هو الذي أصبح يأخذ نماذجه من المسلسلات التلفزيونية؟

يرى مصطفى ان هناك تأثيراً متبادلاً. ويظن ان الوقت قد حان لكي تؤخذ المسلسلات التلفزيونية مأخذ الجد، فتأثيرها يتعدى الأوساط الشعبية الى الكتابات الصحافية والابداعية العربية. وان ترفع النقاد والمثقفين تجاه دراستها والاهتمام بخطابها خطأ كبير. أسأل مصطفى: ولكن كيف سيعالج «التاريخيون الجدد» ما يسمونه بـ «النص التاريخي»، أي كيف يمكن ان يقرأ مثلما تقرأ القصيدة وهذه الأخيرة من عمل الذات، الداخل أكثر مما هي من عمل الخارج؟

يقول: بالامكان معالجة التاريخ معالجة ذاتية لا تختلف، فعلاً، عن معالجة القصيدة أو القصة أو الكتابة الشعبية، أي كنتاج ثقافي محمل بالخطابات الايديولوجية. اذ لا يمكن للكاتب، أياً كان، ان يكتب الا انطلاقاً من ايديولوجيا معينة، كما يستحيل على القارئ كذلك، ان يقرأ الا انطلاقاً من ايديولوجيا معينة. والايديولوجيا التي أقصدها، هنا، هي بالمعنى الواسع الذي أسبغه لوي التوسير على الكلمة.

أقول لمصطفى فهمي: ولكن هل ترتكز «التاريخية» الجديدة على فلسفة، أو نظرية بعينها؟

يجيب: لا... انها، في الواقع، ترتكز على جملة من النظريات المعاصرة أهمها

كتابات كليفورد غيرتز الانثربولوجية، بالاضافة الى أعمال ريموند وليامز وميشال فوكو ولوي التوسير، وتأثير ميشيل فوكو بالاخص واضح في اهتمام اصحاب هذا الاتجاه بالطريقة التي تركَّبُ فيها المفاهيم عبر الزمن. فنحن مثلا، لو شئنا ان نتعرض بالتحليل لشعر المعري خصوصا ذلك الذي يتعرض فيه الى عماه فانه ينبغي علينا من وجهة نظر «التاريخية الجديدة» ان نركز على «العمى» كمفهوم مركب. ما الذي كان يعنيه «العمى» في عصر المعري وثقافة مجتمعه؟ هل كان يعتبر عقابا؟ هل كان يعتبر مصيبة يصيب بها الله الصفوة من عباده ليبين للناس كيف يضع سره في أضعف خلقه!

ويرى مصطفى فهمي ان «عمى» المعري بمفهوم «التاريخية الجديدة» ليس حقيقة راسخة بقدر ما هو ظاهرة نصية محملة بالخطابات الثقافية، والايديولوجية التي ينبغي فك غوامضها وتأويلها. يعني ان على الناقد ان يعيد نص المعري عن عماه الى سياقه الثقافي وان يقارن بينه وبين نصوص اخرى من الفترة نفسها تعرضت بشكل من الاشكال الى مفهوم «العمى» ولا يهم ان كانت هذه النصوص كتبا في الطب او رسائل شخصية او خرافات شعبية او حتى «نكتا» قيلت في العميان.

ويبدو ان اصحاب هذا الاتجاه في النقد لا يجدون حرجا في مقارنة عمل أدبي رائد او رفيع برسالة مجهولة، كتبت في الفترة نفسها، فكل انواع الكتابة ممارسات خطابية!

مونتريال، باريس ونيويورك

أتفق مع «الكليشيه» السياحية التي تقول أن مونتريال هي مزيج من باريس ونيويورك. أحياناً تكون الكليشهات غير قابلة للاستبدال أو التعويض. فمونتريال هي، فعلاً، مزيج غني، ومدهش من انفتاح باريس، مقاهيها، مطاعمها، وضخامة، وسرعة إيقاع نيويورك (.. التي لم أرها إلاّ في الأفلام!).. قد يكون أوضح تأثير

أنغلو فوني في إقليم كيبيك هو في مونتريال نفسها التي يتحكم في اقتصادها المتحدرون من أصول إنكليزية. لكن ما تراه في مونتريال لا تراه في كيبيك ولا، بالتأكيد، في تروا - ريفر: فهنا سحن متنوعة، لغات متعددة، بحيث تشعر انك فعلاً في مدينة كوزموبوليتية بامتياز.

هنا نهر لورنس عريض بصورة لم أرها في «كيبك سيتي» ولا في تروا - ريفير.. وهنا جسور على هذا النهر لم أر مثيلاً لضخامتها في حياتي.. أنّى تجولت في المدينة يلوح لك النصب البارز من الاستاد الاوليمبي الذي أقيم لمناسبة احتضان المدينة للألعاب الصيفية عام ١٩٦٧. وهنا المنشآت المعمارية الجميلة التي اقيمت لمناسبة إقامة معرض «إكسبو» ٦٧ حيث خطب الجنرال ديغول خطبته الشهيرة التي أيقظت أعمق مشاعر الوطنية عند الكيبكيين حيث قال: تحيا كيبيك حرة مستقلة... تحيا فرنسا. الأمر الذي دفع رئيس الوزراء الكندي إلى انتقاد خطاب ديغول الناري ما دعا الزعيم الفرنسي الى قطع زيارته والعودة الى بلاده. لكن لهب خطبته قد أمسك بالهشيم، ولم يكن يحتاج «الكيبيكيون» اكثر من ذلك.

ليس مستغرباً أن تسمع في المحال التجارية الكبيرة أو في الشارع كلاماً عربياً... لبنانياً خصوصاً. فوجبة الغذاء الخفيفة التي تناولناها في مونتربال كانت في مطعم لبناني يبيع الشاورما والفلافل. فالمهاجرون العرب كثر في هذه المدينة. يقول مصطفى ان الجالية العربية الأكبر في إقليم كيبيك هي اللبنانية، تليها المغربية، فالتونسية، فالجزائرية.. فالمصرية. لكن اللبنانيين هم الأكثر تنظيما وفعالية وحضوراً في الإقليم على المستويين الاقتصادي والإجتماعي.

أقول لمصطفى: يبدو ان المهاجرين العرب في هذا الإقليم الكندي هم من البلدان التي تتكلم الفرنسبة. فيصدق على القول ويقول ان مسؤولي إقليم كيبك يشترطون لقبول المهاجر معرفة اللغة الفرنسية!

ومع ان القلق على وجود واستمرار اللغة الفرنسبة يتخذ شكلاً هوسياً في «كيبيك» الا ان أكثر من مثقف ممن التقيناهم في المهرجان الشعري عبّر عن أهمية

أن تتنفس الفرنسية، والشعرية الفرنسية بالخصوص، هواء اللغات والشعريات الأخرى. هذا، على كل حال، ما قاله الشاعر الفرنسي أندريه فيلتير في الكلمة التي القاها في ختام المهرجان نيابة عن الشعراء المشاركين في حضور مسؤولين حكوميين محليين حيث دعا إلى استضافة لغات أخرى في المهرجان غير الفرنسية والإستماع إلى الشعريات العالمية بلغاتها الأم مع قراءة ترجمات لها بالفرنسية. فقد تكون مشاركتي وقراءاتي باللغة العربية، هما اللذان حفّزاه على هذا القول الذي لاقى ترحيباً من الشعراء الحاضرين.

الإنكليزية في مونتريال أساسية، بل هي ضرورية لكل من يريد عملاً. هذا ما قالته لي «ميشيل» التي تعمل مع غاستون بلمار في دار نشره التي يملكها في مونتربال. فقبل أن تنتقل إلى هذه المدينة لم تكن «ميشيل» تحتاج الإنكليزية التي يتعلمونها في المدارس كلغة ثانية، لكنها تضمر وتموت لعدم الإستخدام.

أمضينا نحو أربع ساعات في مونتريال جاب بنا خلالها مصطفى على أهم معالم المدينة التي يعرفها كما يعرف راحة كفه. مررنا بـ« شارع الجامعة » أحد أهم شوارع المدينة الذي يضم بنايات حديثة الطراز، تكاد تكون ناطحات سحاب مصغرة. والشارع يستمد اسمه ،على كل حال ،من « جامعة ماكغيل» التي تعتبر في مصاف الجامعات العريقة في امريكا الشمالية. وتتفرع منها الجامعة التي يدّرس فيها مصطفى. كنت أريد أن أحصل على كتاب من تاريخ كيبيك باللغة الانكليزية، أخذنا مصطفى إلى مكتبة مكونة من عدة طبقات.. في إحدى طبقاتها يوجد مقهى يستطيع من يرغب في شراء كتاب ان يأخذ الكتاب الذي يريده الى المقهى، يحتسي قهوته ويقلّب الكتاب قبل ان يقرر شراءه. حصلت على الكتاب الذي أريد... الكتاب الذي لم أتمكن من الحصول على مثيل له لا في تروا ـ ريفير ولا في « كيبيك سيني ».

يأزف وقت الرحيل.. فكما تقول فيروز « دايما ف الآخِر في آخِر.. في وقت فراق ».

يوصلني مصطفى وصلاح الى مطار «دورفيل».. أودعهما وأشعر، للحظة، انني محظوظ أكثر من مصطفى... فكندا التي أحببت طبيعتها وناسها ورميت نواة أو نواتي تمر في أرضها، بدت لي بعيدة بعيدة.. كأنها عالم ناء ومعزول.. من يذهب اليه ينقطع عن المكان الذي جاء منه... بينما في بريطانيا أشعر أنني في مكان محدق بالعالم العربي.. بأنني قريب من «السماء الأولى».

قد ارغب ان أكون بعيدا عن العالم العربي ... لكنني لا اتصور نفسي بعيداً عنه كل هذا البعد... في كندا.

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٩٩

فهرست

أمجد ناصر

- مواليد الاردن عام ١٩٥٥.

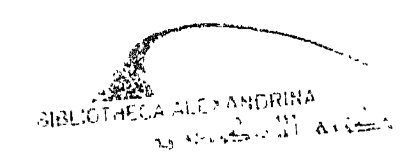
- عمل في الصحافة العربية في كل من بيروت وقبرص ولندن.

- يشرف على القسم الثقافي في صحيفة «القدس العربي» في لندن.

له :

- «مديح لمقهى آخر»، بيروت ١٩٧٩.
- «منذ جلعاد كان يصعد الجبل»، بيروت ١٩٨١.
- «رعاة العزلة»، عمان ١٩٨٦.
- «وصول الغرباء»، لندن ١٩٩٠.
- «سُرَّ من رآكِ»، (لندن) ١٩٩٤.
 باريس (الطبعة الثانية) ١٩٩٦.
- «أثر العابر»، (مختارات شعرية). القاهرة ١٩٩٥.
- «خبط الاجنحة» (رحلات)، لندن، بيروت ١٩٩٦.
- «مرتقى الأنفاس»، بيروت ١٩٩٧.
- صدرت له مختارات شعرية مترجمة الى الفرنسية بعنوان «معراج العاشق» ترجمها عدنان محسن وقدّم لها أدونيس عام ١٩٩٨ كما ترجمت له مجموعة شعرية إلى الايطالية بعنوان «وردة الدانتيلا السوداء» أنجزها فوزي الدليمي وينتظر أن تصدر ترجمة اسبانية لمجموعته الشعرية «مرتقى الانفاس» التي قام لها احمد العبدلاوي وماريا اسونيا ريكاس.

إشارة: ما كان لهذا الكتاب أن يخرج بحلته هذه لولا جهود عدد من الأصدقاء والزملاء الذين أتوجه اليهم جميعا بالشكر ومن بينهم أخص الزميلين محمد الصاروط وعوني البارودي اللذين رافقا هذه الكتابات تنضيدا وتنسيقا أكثر من مرة.













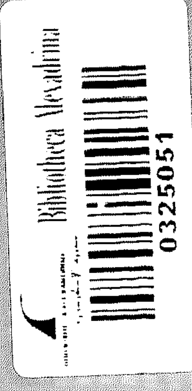
هذا الكتاب

تبدأ هذه الرحلات ـ الكتابات من حيث انتهى كتابي السابق «خبط الأجنحة» ولكنها تذهب، على ما أزعم، الى مدى أبعد سواء في الأمكنة أو في ما تطرحه هذه الأمكنة وشخوصها وسياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية من اسئلة، وذلك انطلاقاً من رؤية ذاتية تنحازُ وتتعاطفُ، بل وتتورطُ، في تبني السؤال وإعادة طرحه.

هاجس هذه الكتابات هو الإحتفاء بالمكان وشخوصه لا مجرد المرور بهما (حتى عندما يكون للرحلة غرض آخر) مرور الكرام.

إنها محاولة للتوقف في المكان وأمامه والإنصات الى أصواته الكبيرة والصغيرة على السواء، ويحلو لي أن أزعم أن نداءات أصواته الصغيرة، التي بالكاد تبلغ السجلات والقيود والمصنفات، هي التي تشدني اكثر من الأصوات التي يمكن سماعها من مبعدة والتي لا تسوغ، دائماً، عناء الرحلة.. ولا أقول «وعثاء السفر».

المؤلف





منشورات المجمع الثقافي
Cultural Foundation Publications
أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة - ص.ب: ٢٣٨٠ - هاتف: ٦٢١٥٣٠٠
Abu Dhabi - U.A.E. - P.O. Box: 2380 - Tel.: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae